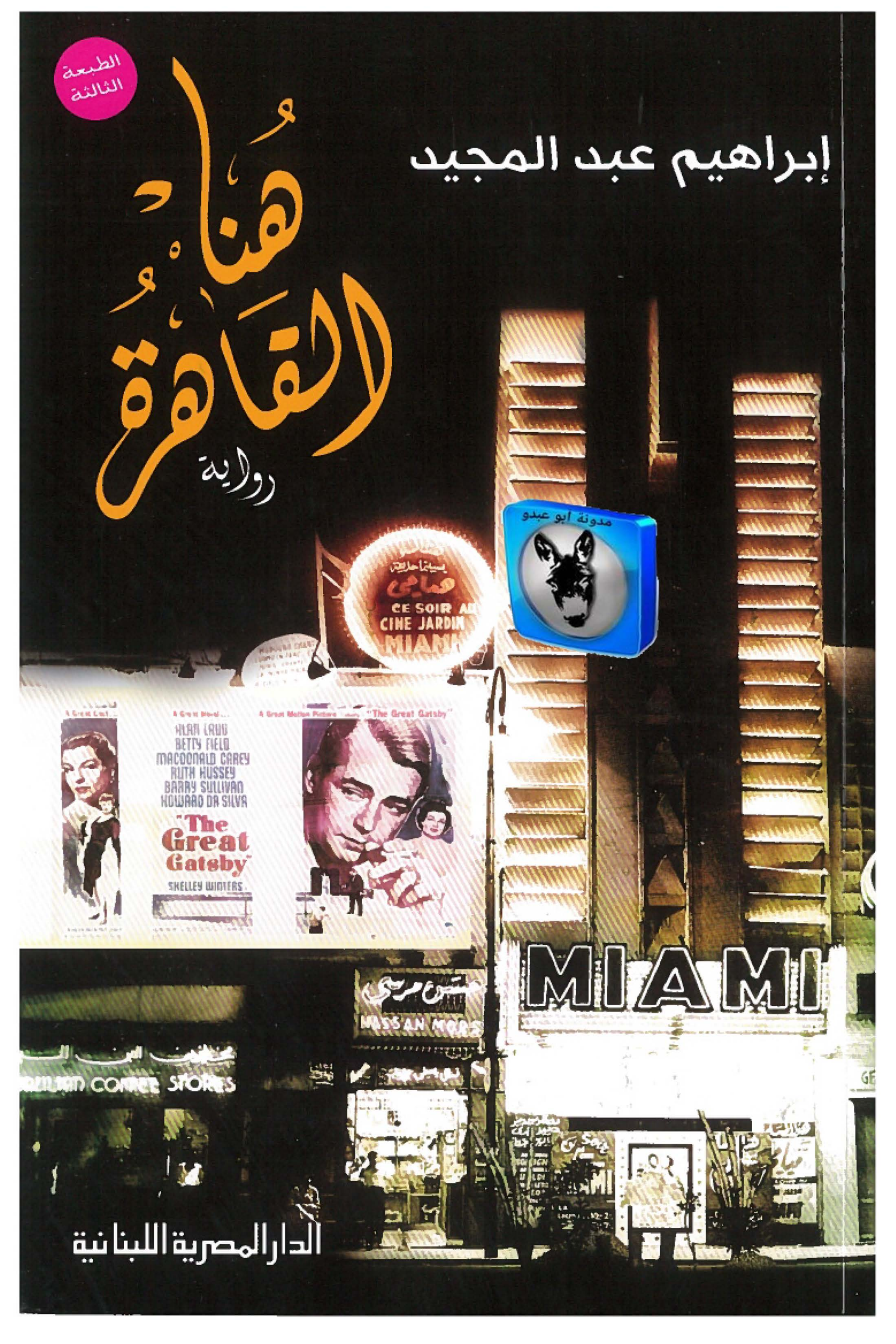

الطبعة الثالثة
إبراهيم عبد المجيد
هنا القاهرة
رواية
مدونة أبو عبدو
CE SOIR AU
CINE JARDIN
"The Great Gatsby"
ALAN LADD
BETTY FIELD
MACDONALD CAREY
RUTH HUSSEY
BARRY SULLIVAN
HOWARD DA SILVA
"The Great Gatsby"
SHELLEY WINTERS
MIAMI
الدار المصرية اللبنانية


هنا القاهرة
رواية

عبد المجيد، إبراهيم.
هنا القاهرة: رواية / إبراهيم عبد المجيد.- ط3.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
504 ص؛ 20 سم.
تدمك: 7 -890 -427 -977 -978
1- القصص العربية.
أ- العنوان 813
رقم الإيداع: 2881 /2014

©
الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 +- ص. ب 2022
E- mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ربيع أول 1435 هـ - يناير 2014م
الطبعة الثانية: ربيع آخر 1435 هـ - فبراير 2014م
الطبعة الثالثة: جماد آخر 1435 هـ - أبريل 2014م

إبراهيم عبد المجيد



الدار المصرية اللبنانية

لأن كلا منهما لم يكتب هذه الرواية،

كتبتها أنا!

1

قلت له سأكتب رواية يوما يا سعيد عن هذه الأيام، ابتسم. ضحك. اتسعت عيناه وقال:

- هل استيقظت في روحك؟

- بدأت فيها فعلا.

قال في حماس:

- كتبت شيئا؟ أطلعني عليه. أرجوك.

ابتسمت:

- لم أكتب. كما ترى، شارد أنا معظم الوقت، أسترجع الذكريات حتى إذا سافرت إلى السعودية بعد أيام لا أنسى شيئا. سأكتبها هناك. لا بد سيتسع الوقت.

ضحك وقال:

- سيتسع جدا. كل من ذهبوا قالوا إن الوقت باتساع الصحراء. لكن هل تكفي الذكريات؟ ما رأيك أن تسجل ما تتذكره هنا قبل سفرك، وهناك تعيد صياغته في قالب روائي. بقدر ما تستطيع. أنت ناقد درست

تاريـخ الأدب ويمكــن أن تغامر بالكتابة الروائية مـرة ولن تخرب البلاد. هي خربانة أصلا!

ضحكت. قلت:

- معك حق. فكرة، أن أسجل ذكرياتي معك حل رائع.

ضحك وخرجنا بعد أن قال:

- لكــن لا بد أن نســهر ليلــة أو اثنتين معا قبل ســفرك، أجل. لا بد أن تــرى القاهرة وهــي تصعد في الصباح من تحت الغبــار والضباب ونحن ننظر إليها من فوق المقطم. سأفعل ذلك حين أسافر إلى فرنسا. رغم كل ما جرى لا بد أن آخذ القاهرة معي!

2

ها أنذا الآن في المملكة العربية السعودية. أجلس وسط الليل أصوغ ما سجلته على شرائط الكاسيت. الليل العميق الذي نزل على الدنيا قبل أن يخلق الله الأرض ومن عليها. ليل الوحدة!

خمسة أعوام تفصلني عن اليوم الأول في القاهرة. في الحقيقة ستة أعوام. ما الذي يجعلني أعتبر عام 1974 هو عام 1975. لماذا يتشابهان عليّ إلى هذا الحد؟ لم أكبر في السن بعد. هل يحدث ذلك مع شخص في الثانية والثلاثين من عمره؟

كانت خمس نساء، غير السكرتيرة، تتوزعن على مكاتب متفرقة في غرفة كبيرة بدت كصالة واسعة. امرأتان وثلاث فتيات. ذلك أدركته من النظرة الأولى لهن بعد أن جلست منتظرا دخولي إلى المدير العام. المرأتان اقتربتا من الأربعين، والفتيات صغيرات تجاوزن العشرين بقليل. السكرتيرة فقط شقراء وعيناها خضراوان. رائحة البارفان تأتي من كل ناحية. لكنها من ناحية المرأتين أجمل. لا بد تستخدمان نوعا أرقى. أطرقت إلى الأرض معظم الوقت الذي كانت فيه السكرتيرة مشغولة بكتابة ورقة على الآلة الكاتبة. في القاهرة أسباب للفشل، وأسباب للنجاح. في دمياط ليس ثمة غير الفشل. لقد جعلتني السنوات

الخمس التي قضيتها في الجيش أنسى دمياط رغم زياراتي لها؛ لأنه كان لنا همٌّ واحد هو تحرير الوطن. سنوات خمس انتظرت إذا خرجت منها حيا أن أعيش في القاهرة. لم أعد أحب المشي بين ورش النجارة أشم رائحة الخشب، ولا محلات الأثاث أشم رائحة «الجملكة». كما أنها تملأ البيت، فأبي «إستورجي» لا تفارقه رائحة العمل. في دمياط صناعات أخرى مثل الحلوى والمشبك والزلابية والجبن لكن رائحة الخشب هي التي تملأ الطرقات! حتى وأنا محاصر مع الجيش الثالث كنت أقرأ. كانت لدينا كتب وصحف قديمة نعيد قراءتها أكثر من مرة. في الحقيقة كان معنا كتابان فقط، كنت أحتفظ بواحد منهما دائما معي، وهو رواية «صحراء التتار » لدينو بوتزاتي مترجمة إلى العربية. كان الكتاب الثاني ديوان شعر «الناس في بلادي » لصلاح عبد الصبور. كان يملكه ضابط الوحدة الذي قال لي إنه وقع في يده مصادفة في القاهرة حيث أهله. أعجبه عنوانه فاشتراه قبل حرب أكتوبر. لأكثر من ثلاث سنوات معه الآن. حتى بعد أن عبرنا القناة اكتشف أنه لم يتركه خلفه في الخنادق. قال إنه أحب الشعر بعد هذا الديوان. ويتذكر دائما كيف كان أبلد تلميذ في اللغة العربية ويضحك. قال لي حين عرف هيامي بالأدب إنه لا بد من العيش في القاهرة. كل الناس تترك بلادها إليها لتشتهر. قلت له أعرف لكن المهم أن نخرج من الحرب القادمة بسلام.كانت أيام حرب الاستنزاف. انتهت حرب أكتوبر ومحادثات الكيلو «101» واتفاقية الفصل بين القوات وعدت، لكن للأسف لم تعد لديَّ أي فرصة لزيارته في القاهرة. ليس لبقائه هناك على الجبهة، لكن لأنه فارقنا إلى حيث الملائكة تنتظر الشهداء!

وقفت السكرتيرة أمامي تحمل الورقة في يدها وقالت:

- آسفة مرة أخرى. ما اسم حضرتك؟

كنـت أخبرتها باسـمي عند دخولي. شـعرت بعيني تمتلآن بفسـتانها الجميـل، وعودها الممشـوق، وذراعيها العاريين حتـى أنها ارتبكت من نظرتي. قلت:

- صابر سعيد.

اندهشـت للحظة، أغمضت عينيها ثم ابتسـمت. دخلت غرفة المدير العام وأغلقت الباب خلفها.

كنت بدأت أشـعر بشـيء من الراحة من أثر الهواء الـذي تدفع به إلى المكان مروحتان في السقف. مسافة قليلة مشيتها من ميدان رمسيس إلى هنـا، لكن حـر القاهرة جعل عرقا كثيرا على جسـدي. حـر القاهرة طارد لأبناء السواحل حقا، لكني سأتحمله.

دقائق قليلة وعادت السكرتيرة تضحك. أشارت إليّ بالدخول قائلة:

- تفضل.

دخلت فرأيت المدير العام مبتسـما. مـا إن رآني حتى انطلق يضحك بصوتٍ عالٍ.

وقفـت متحيـرا ومرتبـكا. مـا هـي حكاية الضحـك اليـوم؟ خرجت السـكرتيرة ضاحكة من عنده بينما كانت الزميلات تتهامسـن مبتسـمات

بعد أن قلت اسمي للسكرتيرة قبل أن تدخل. هل هكذا يستقبلن الموظف الجديد الذي سيكون زميلا لهن؟

جذبني النور الذي يملأ الغرفة الصغيرة قادما من خلف الزجاج الأبيض المغلق الذي يطل على شارع الجلاء العريض. كما أنه وسط السقف «لمبتا» نيون كبيرتان مضيئتان و مروحتان على الجانبين ترسلان هواءً طيبا. خلف المدير الجالس إلى مكتب عريض صورة للرئيس السادات مبتسما ابتسامة واسعة حتى ظننته سيضحك أيضا. يقابل المدير على فوتيل يتسع لثلاثة أشخاص شاب جالس يبتسم وهو يتطلع إليّ ممسكا في يده نظارته يمسحها بمنديل كلينكس.

- تفضل بالجلوس. أهلا بك.

اخترت أحد المقعدين الملاصقين لمكتب المدير العام وأمامه. قال مبتسما:

- اسمك صابر سعيد. وحضرته اسمه سعيد صابر.

ابتسمت وأنا أنظر إلى الشاب الجالس لكن المدير العام استطرد:

- صدفة يمكن أن تتكرر طبعا، لكن ما لايمكن أن يتكرر هو أنك طويل جدا وهو قصير جدا.

ابتسم سعيد صابر الذي ارتدى نظارته وقال:

- تقريبا كل مصر أطول مني.

ضحك المدير العام، ثم طلب لنا كوبين من عصير الليمون. عرفت أن اسـمه عمر إبراهيم من الهرم الخشبي الصغير الذي يوضع على المكتب أمامه. وعاد يقول:

- سـعيد مخرج مسـرحي. أخرج مسـرحية شـعرية بعد حرب أكتوبر اشتهرت جدا.

قاطعته قائلا في فرح:

- أعرفها طبعا. اسمها «تقدم يا وطن» أقصد قرأت عنها وأنا محاصر في الجيش الثالث. كانت الصحف تصل أحيانا إلينا مع الطعام.

بدت السعادة على وجه المدير العام ثم قال ضاحكا:

- ولـم تسمع عنه مرة أخرى. هو هكذا كسلان. لـم يخرج غيرها رغم النجـاح الهائـل. على أي حـال انتقل اليوم من العمـل بالجامعة إلينا «في الثقافة الجماهيرية »

- هنا؟

- لا. في قصر ثقافة الريحاني بحدائق القبة.

ثم وجه حديثه لسعيد:

- صابـر سـعيد ناقـد أدبـي. فاز مقالـه عن يوسـف إدريـس بالجائزة الأولى في المسـابقة السـنوية التي تقيمها إدارة الثقافـة العامة. عرفت أنه قـدّم طلبـا ليعمـل بالهيئة فطلبت مـن الإدارة أن يعمل معنـا. قرأت مقاله وأعجبني جدا. واضح أنه يساري الفكر.

ارتبكت لحظة لكنه فاجأني بالقول:

- يساري ومقاتل من حرب أكتوبر خذله السادات كما خذلنا جميعا يستحق أن يكون معنا.

ابتسمت. قال سعيد:

- لا أحد يعرف إلى أين سيذهب السادات بالبلاد.

اندفع عمر يقول:

- اتفاق الفصل الذي تم بين مصر وإسرائيل يجعل القوات الإسرائيلية كما هي في سيناء وكل يوم يجعل الإخوان المسلمين في مقدمة المشهد. الحرب تزداد على اليسار.

كدت أقول إن هذا الاتفاق الذي تم في مارس الماضي هو الذي أتاح لي الخروج من الخدمة العسكرية. لكني قلت :

- سيجعل من حرب أكتوبر ملاذا له باعتباره قائدها ويهدم كل شيء لكن أنا متفائل رغم أي شيء.

قال عمر مبتهجا:

- الله عليك. هذا هو الكلام. هكذا يكون اليسار!

قلت في نفسي من جديد وماذا لو عرف أني قادم أيضا إلى القاهرة لممارسة النشاط السياسي في حزب شيوعي سري. لكنه قال:

- هل وجدت سكنا في القاهرة؟

- سأبحث اليوم بعد أن أتسلم العمل عن سكن في وسط البلد.

- لن تجد سكنا مناسبا في وسط البلد. ستضع مرتبك كله في غرفة على السطح، إذا وجدتها!

قال سعيد فجأة ضاحكا:

- يمكن أن تكتمل القصة ويسكن صابر معي.

اتسعت عينا المدير العام عمر إبراهيم وقال مبتهجا:

- حكاية جديدة إذن ستبدأ في القاهرة.

3

ركبـت المتـرو لأول مـرة فـي حياتي مع سـعيد متجهين إلى مسـكنه في روكسـي. لـم تكن هناك مقاعـد لنجلس. طولي وقصـره ونحن نقف متقابليـن كان يلفت انتباه الكثيرين إلينا ومن ثم كان بعضهم يبتسـم. قال سعيد:

- جميل عمر إبراهيم. أليس كذلك؟

- بسيط ومتواضع.

- الأهـم أنـه مثقـف كبير. لايفوتـه كتـاب. وأيضـا لا تفوتـه غـرزة حشيش.

ارتبكت ثم ابتسمت فقال:

- أليس معك غير هذه الحقيبة الصغيرة؟

- سأسـافر الخميس بعد غد إلـى دمياط وأعود الجمعة ومعي كل ما سـأحتاجه من ملابـس. أجّلت ذلك حتى أجد مكانا وأطمئن لاسـتلامي العمل.

لـم يكن المترو مزدحما بشـدة. ومن ثـم كان متاحا أن أرى من يصعد ومـن يهبط. أثارني صعود بعض الباعة يلقون على الجالسـين مطبوعات

صغيـرة بها آيات قرآنية، ثـم يعودون لجمعها ممن لم يشـتروا، ويتركون العربة في المحطة التالية. قلت:

- هذا المترو رغم نظافته وجماله بهؤلاء الباعة يذكرني بقطار الدرجة الثالثة.

هز رأسه مبتسما وقال:

- هـذا لـم يكن يحدث من قبل. صار ظاهرة هذه الأيام. رئيسـنا الآن اسمه الرئيس المؤمن!

كان سعيد يرفع وجهه إليّ وهو يتكلم. لقد ازداد الزحام قليلا واقترب مني جدا فصار رأسه أسفل صدري تقريبا، ومن ثم كنت أبتسم. لم أتعود علـى ذلك من قبل. في اللحظة التي فكرت فيها أن أسـأله كيف عرف أن عمر إبراهيم حشاش قال لي:

- هيا ننزل. لقد وصلنا روكسي. سنمشي قليلا حتى قصر الطاهرة.

ما إن نزلنا حتى سألته:

- هل نحن في منطقة السيدة زينب الآن؟

ضحك مندهشا وقال:

- لماذا فكرت في ذلك؟

- تقـول قصـر الطاهـرة. أليسـت هـي السـت الطاهـرة فـي التـراث الشعبي؟

ضحك أكثر حتى أحسست بالخجل يصعد إلى وجهي، ثم قال هامسا:

- واضح أنك لا تعرف شيئا عن القاهرة. اترك ذلك لي. سأكون دليلك في هذه المدينة التي بلا قلب!

مشينا لا أستطيع أن أمنع نفسي من التلفت إلى العمارات القديمة أوربية الطراز. وكيف نبتعد عنها لندخل بين العمارات العصرية التي لا تتميز إلا بالارتفاع. ليس فيها زخارف العمارة الأوربية. أمام باب قصر الطاهرة الكبير المغلق الذي يتوسط سوره العالي الذي يحيط به والذي ترتفع الأشجار الرائعة أعلى منه قلت:

- مشينا كثيرا وسط الحر. المسافة ليست قليلة من روكسي إلى هنا.

- هناك أوتوبيس رقم 44 سيكون هو طريقك أكثر من المترو. يمر في شارع طومان باي. محطته ليست بعيدة عن البنسيون.

قلت لنفسي إذن هو يسكن في بنسيون، ومن ثم لا بد من آخرين معه. لا بأس. ستكون أيضا تجربة.

كان عدد قليل من المارة يمرون جوار سور القصر حيث يتمدد الظل قليلا وقال سعيد:

- قصر الطاهرة ليس كبيرا مثل قصر القبة مثلا ولا قصر عابدين. بنته الأميرة عزيزة بنت الخديو إسماعيل.

قلت:

- لا أرى القصر من خلف السور.

- هو ليس عاليا. ثلاثة أدوار فقط. يمكن أن تراه حين نبتعد عنه أكثر. حديقته كبيرة تفصل بين السور والقصر. لقد بناه المهندس الإيطالي أنطونيو لا شياك. هل سمعت عنه؟

- لا.

- هو الذي بنى الفيلَّا التي تقع فيها وزارة الخارجية عند كوبري قصر النيل. وهو الذي بنى قصر الأمير سعيد حليم في شارع شامبليون الذي هو المدرسة الناصرية الآن. كذلك يا جميل هو الذي وضع تصميم محطة الرمل في الإسكندرية. هل تعرفها؟

- لقد حصلت على ليسانس الآداب من جامعة الإسكندرية. أمضيت فيها أربع سنوات هي الأجمل في عمري. الحمد لله أنه ليست لدينا جامعة في دمياط وإلا لم أكن رأيت الإسكندرية. لكن هل يأتي السادات إلى هذا القصر؟

- طبعا لا. ليس قصرا ملكيا. وبعدين السادات مش عبيط يسيب قصر عابدين وقصر القبة وييجي هنا! - وضحك - إنه قصر مخصص لبعض الضيوف المهمين. يعني مثلا نزلت فيه السيدة فتحية زوجة نكروما بعض الوقت. هل تذكر نكروما؟

- طبعا.

- ونزل فيه الملك سعود مرتين، تصور. مرة أيام الملك فاروق ومرة أيام عبد الناصر قبل أن يختلف معه.

- يعني في العهد الملكي والعهد الجمهوري.

- بالضبط. هيا نسـرع لأن الحر شـديد رغم الظل. سـترى القصر كل يوم في ذهابك وإيابك.

ما إن ابتعدنا حتى أشار إلى مقهى قريب وقال:

- تذكر هذا المقهى جيدا. ستحتاجه كثيرا.

وضحـك. لـم أفهم معنى أن يحتاج الإنسـان إلـى المقهى كثيرا، لكنه قال أيضا:

- خاصة بعد أن ينتصف الليل!

ابتسـمت. لـم أعلق. لم أشـأ أن أشـعره بحيرتي من كلامـه. دخل بي إلى شـارع صغير هادئ عماراته علـى الجانبين لا ترتفع عن أربعة أدوار، كل منها محاط بسـور يفصله عنها مسـافة لا تقل عـن ثلاثة أمتار. واضح أنهـا «جنينـة» تحيط بالبيوت لكن لا أشـجار. فقط نخلة فـي أعلاها بلح صغيـر يبـدو أنه لا ينمـو ولا يهتم به أحد. لسـور كل عمارة باب خشـبي قديم غير مغلق و«ضلفتاه» مركونتان على جانبي السـور. وقف أمام باب سور إحدى العمارات وقال:

- هذا بيتنا.

دخلنا من الباب المفتوح لسـور العمارة. ثم دخلنا من الباب المفتوح للعمارة، وصعدنا بعض درجات قليلة لنقف في ردهة الدور الأرضي بين الشـقق. كان واضحـا أنهما شـقتان فقط في كل دور. علـى باب إحداهما قفل كبير. وقف سعيد أمام باب الشقة الأخرى ليفتحه.

وقفت وقد شعرت بنعمة الظل المشبع بالرطوبة الصاعدة من البلاط الرخامي العريض وأفكر كيف حقا لم أقابل أحدا في الشارع الصغير، ولا رأيت أحدا يقف في البلكونات. لا بد أنه الحر والجو المشبع بالرطوبة. الساعة الآن حوالي الثالثة بعد الظهر. ونحن في أغسطس. فقط ملابس قليلة رأيتها معلقة على الحبال أمام بعض البلكونات قبل أن ندخل، لكنها لم تكن تتحرك. ما إن دخلنا إلى الشقة ورأيت الصالة الكبيرة حتى شعرت بنعمة الظل أكثر.

- لا أحد هنا الآن.

قال سعيد وأنا أنظر إلى أثاث الصالة الكلاسيكي الجميل. مثلي لا يثيره أي أثاث، فأهل دمياط هم أثاث يتحرك في الطرقات! لكني شعرت بروعة الاختيار للأنتريه والصالون والسفرة وتوزيع المقاعد والدواليب و«الترابيزات». قال بعد أن جلس:

- كما ترى صاحبة البنسيون مسيحية.

كنت أتطلع إلى الأيقونات القبطية المعلقة على الجدران. كان قد أضاء الصالة فوجدت نورها ضعيفا يعطي مع الأيقونات إحساسا بالراحة والقداسة. واستطرد:

- اسمها فيولا. سيدة طيبة تجاوزت الخمسين. وحيدة مات زوجها وهي الآن ترعى دكانا تركه لها تبيع فيه قطع غيار السيارات. هذه حجرتها.

أشـار إلى باب مغلق وقال إنه باب غرفة يسـكنها ضابط جيش اسـمه مجـدي زاخر يأتي مرة واحدة في الشـهر ويمكـن أن يتأخر عن ذلك. أما الباب المفتوح فقال إنه باب غرفتنا ثم ضحك وقال:

- طبعا أنا لا أغلق غرفتي لأنه لا يوجد بها شيء يمكن سرقته.

ابتسـمت. دخلنا غرفتنا فوجدت بها سريرين صغيرين على الجانبين، ودولابـا صغيرا بضلفتيـن فقط. جوار كل سـرير كوميدينو صغير، وليس بالغرفة غير مقعد واحد من الخيزران.

كان يشرح كل شيء في الغرفة ونسي أنه حدثني عن ذلك في الطريق. عن سـعرها وكيف سأتقاسـمه معه فيكون نصيبي سبعة جنيهات ونصف الجنيه في الشـهر. وكيف أنه يشغل ضلفة واحدة من الدولاب وسأشغل أنا الأخرى، بينما أنا أتطلع إلى الأيقونات الثلاث المعلقة على الجدران. واحـدة منهـا لوجه السـيدة العـذراء، وأخرى للسـيد المسـيح مصلوبا، والثالثة للسيدة العذراء تحمل المسيح رضيعا. لاحظت أيضا أن الإضاءة ضعيفة فسألته:

- لماذا الأضواء خافتة هنا. كيف سنقرأ أو نكتب؟

قلت ذلك وأنا أشير إلى النجفة المعلقة في منتصف السقف والتي بها ثلاث لمبات صغيرة.

فوجئت به ينحني تحت السرير يخرج علبة من الكرتون يرفع غطاءها فتظهر فيها لمبة كبيرة وقال:

- هي لا تحب استهلاك الكهرباء لكنها تنام مبكرا. أنا أضع هذه اللمبة بدلا من لمبة صغيرة وأقرأ براحتي. هذه مئتا واط. قبل أن أنام أعيد كل شيء إلى مكانه، أما بالنهار فالنور الداخل من النافذة يكفي.

ابتسمت. كانت هناك أيضا بلكونة لغرفتنا تطل على أرض الحديقة الجافة ولا ترتفع لمترين عن الأرض. الشقة في الدور الأرضي حقا لكنه يرتفع قليلا عن الأرض.

كنت قد جلست على طرف السرير. جلس هو على المقعد بعد أن أعاد الصندوق الصغير الذي به اللمبة تحت السرير وقال:

- شيء آخر لم أقله لك. ستشترك في الطعام. هي تعتبر الشقة «بنسيون» رغم أنه لا يوجد نزلاء غيرنا كما ترى. ستدفع عشرة جنيهات للطعام كل شهر.

اندهشت. عشرة جنيهات مبلغ كبير حقا. سألته:

- هل هذا إجباري؟

- لا طبعا لكن بصراحة أراحتني من هم الطهو أو الأكل في الخارج. طعامها رائع. كما ستدفع جنيها ونصف الجنيه نظير تنظيف ثيابك وكيّها.

- هذا جيد لكن هل ستقوم هي أيضا بالتنظيف والكيّ؟

- لا طبعا. يا صابر يا صديقي هذه سيدة أعمال. هناك خادمة تأتي كل يوم جمعة تفعل ذلك.

هززت رأسـي مبتسـما وموافقا على كل شـيء، أنا الـذي فكرت أني سـأجد بنسـيونا حقيقيـا ونزلاء لا بـد بينهم نسـاء. وجدته قد شـرد فجأة فسألته هل هناك شيء آخر؟ هز رأسه وقال:

- سـيدة طيبة ومسـكينة انتحر زوجها - وضحك- ألقى بنفسـه من فوق إحدى العمارات.

نمنـا بعـض الوقـت قيلولة ذلك اليـوم. نهضنـا لنجد مـدام فيولا في الشـقة. سـمعت صوت المفتاح يتحرك في الباب. كان سعيد في الحمام يستحم. فوجئت بها تطل برأسها من باب الغرفة المفتوح. رأتني فقالت: مساء الخير. رددت التحية. كانت الساعة حوالي الخامسة. سألتني:

- قريب لسعيد أم صديقه؟

- سأسكن معه في الغرفة.

كادت تبتسم لكنها أخفت ابتسامتها وقالت:

- إذن تعالَ.

خرجت خلفها إلى الصالة وجلسنا. رأيتها سيدة سمينة بعض الشيء. فسـتانها الضيق يكاد يتفجر تحته اللحم في أكثر من موضع. عروق زرقاء قليلة في سـاقيها اللتين ينحسر عنهما الفسـتان عند الركبة. شعرها أصفر ولا بـد أنهـا صبغته فلا أي شـعر أبيض بينـه. بيضاء يكاد وجهها يشـتعل احمـرارا مـن الحـر فـي الخـارج. بـدت لـي تقترب مـن السـتين وليس الخمسين كما قال لي سعيد. قالت:

- هل أخبرك سعيد بالشروط؟

ابتسمت وقلت:

- أخبرني ووافقت.

- حلـو. لا بـد أيضا أن تعرف أن هذا «بنسـيون» محترم. يعني ممنوع البنات أو الستات.

ارتبكـت. ليس لأني أنوي ذلك.لكن لأن سـعيد كان قـد أخبرني في الطريـق أيضا أنه أصلا من شـبرا ويعيش بعيدا عن أهلـه من زمان ليكون حرا في علاقاته النسائية. هززت رأسي مبتسما وقلت:

- طبعا يا مدام لا تقلقي.

خرج سـعيد من الحمام يمشـي أمامنا ملفوفا في بشـكير كبير، واتجه إلى الغرفة بسـرعة. ارتبكت أنا لكن بـدا أنها لا تهتم. قامت تعد لنا طعام الغداء. سـألتني هـل تغذيت في الخـارج فأخبرتها أننا لم نتنـاول غداءنا بعد.

وضعت لنا أطباق الطعام على السفرة بعد أن أمضت في المطبخ عدة دقائق، ثم دخلت غرفتها وأغلقت الباب. طبق سـلاطة كبير لنا معا وطبق شوربة ساخنة لكل منا. طبق ملوخية ساخنة أيضا وطبق أرز لكن لا لحم ولا دجاج. كنت جائعا فأكلت بلا تفكير ثم سألت سعيد:

- هل السيدة فيولا نباتية؟

- لماذا؟

أجاب في حيرة، فقلت:

- هذه أول مرة في حياتي آكل ملوخية دون دجاج أو لحم، ولن أقول لك أرانب.

قال:

- معلش. حظك اليوم. أمس كان هناك دجاج. اليوم بقايا أمس. يمكن أن تدخل المطبخ تزيد من الكميات إذا أردت. وبعدين يا أخي جرّب مرة الملوخية حاف.

سكت. انتهينا بسرعة من الأكل ثم حملنا الأطباق إلى المطبخ وتركناها لتغسلها هي. قال:

- هيا خذ حماما بسرعة لنذهب إلى المسرح القومي في العتبة. سترى الليلة مسرحية «النسر الأحمر» لعبد الرحمن الشرقاوي. المخرج كرم مطاوع يا حبيبي، يعني مسرحية رائعة. معي أكثر من دعوة مجانية. سنجد عمر إبراهيم هناك فنسهر معا بعد العرض المسرحي في غرزة. هل هناك أجمل من ذلك؟

4

علـى باب المسـرح القومي وقفنا بالليل نضحـك. كان ضحكه أعلى من ضحكي وأناأنظر إليه وأمط شـفتي غير مصدق. قال وهو يضرب كفا بكف:

- أتينـا مـن طومان باي إلى العتبة على الفاضي. كيف حقا نسـيت أن اليوم الثلاثاء إجازة المسرح؟

رحت أتطلع إلى أفيش المسرحية أعلى الجدار. أقرأ أسماء الممثلين بإمعـان. سـهير المرشـدي. عبد الرحمن أبـو زهرة. أمينـة رزق. حمدي أحمد. محمد الدفراوي. أنور إسـماعيل. رجاء حسـين. نبيل بدر. كلهم أحبهـم. رأيتهـم في السـينما ولـم أرَ مسـرحية كبيرة من قبـل. فقط بعض مسـرحيات فـي قصر ثقافة دميـاط أو قصر ثقافة الحرية في الإسـكندرية حيث كنت أدرس، أبطالها عادة ممثلون ناشـئون. هؤلاء الممثلون كلهم كبار ولم أرهم من قبل على المسرح.

كنت تمنيت فعلا أن أقضي الليلة في مسرح كبير لأول مرة في حياتي. قلت :

- الأمر لله. نعود إلى البيت.

قال في حسرة:

- لقد أدرك عمر إبراهيم ذلك ولم يأتِ.

وقفنا صامتين لحظات. الحيرة لا بد على وجهي. قال:

- لن تخسر كثيرا. سنمضي بعض الوقت في الميدان، أو نجلس في مقهى. بعد ذلك نمضي الوقت في بار. هنا بارات كثيرة.

تركت نفسي له. كانت الساعة العاشرة. بعض المحلات أراها تغلق أبوابها لكن زحاما شديدا أيضا على الأرصفة وفي الشوارع ذاتها. الباعة خلف عربات اليد لبضائع صينية رخيصة بدأت تدخل البلاد وبضائع محلية الصنع ورخيصة أيضا. كثير منهم يضعون على العربات أجهزة كاسيت تملأ الفضاء بأغاني أحمد عدوية. قال ضاحكا:

- إياك تقول كلمني عن تاريخ العتبة. سنقضي الليلة كلها نتحدث عنها.

ضحكت. قلت:

- أعرف الكثير عنها. عن القاهرة القديمة. لكن هل مقهى متاتيا لا يزال موجودا؟

ضحك. قال:

- طبعا والعمارة. عارف إن المهندس الإيطالي الذي بناه كان اسمه متاتيا. المقهى صار مقهى وبارا معا. تعالَ نمشِ قدامه.

مشينا حول العمارة القديمة الضخمة. رحنا نتفرج على مبنى المطافئ بلونه المائل للاحمرار ومبنى البوستة وعمارات الميدان التي بنيت على طريقة العمارة الإيطالية في عصر النهضة. درنا في المكان فرأيت فراغ الأرض مكان الأوبرا التي احترقت منذ ثلاثة أعوام. رأيت تمثال إبراهيم باشا فوقفت أمامه قليلا. شعرت بزهو انتقل من التمثال إليّ. مشينا قليلا أمام باعة الكتب على سور الأزبكية وطالعت القليل الذي بقي من الحدائق. قال سعيد:

- سور الأزبكية وحده يحتاج على الأقل إلى نصف يوم. اليوم تعرف الأماكن فقط وستأتي وحدك كثيرا بعد ذلك. أنا شبعان فرجة. آن الأوان أن نسكر. نشرب الشاي بعد السكر وليس قبله.

ابتسمت. لا يعرف أني لم أشرب الخمور أبدا من قبل. قررت أن أكون يقظا فلا أندفع أبدا في الشرب، فما أكثر ما سمعت عن حكايات الكتاب الذين لا يفيقون من الخمر، أو لا ينقطعون عنها ولا يكتبون.

كان هناك أكثر من بار صغير. ذلك أدهشني جدا. دخلنا تقريبا أكبرها. بار ومقهى متاتيا. يطل الجالسون فيه من النوافذ الكثيرة المفتوحة. جالسون كثيرون وجرسونات يمرون عليهم بالمشروبات الكحولية مختلفة ألوانها أمامي. حمراء وبيضاء وصفراء. أنا لا أعرف إلا البيرة التي كانوا يمرون بها أيضا أكثر من غيرها. جلسنا على منضدة صغيرة وطلب سعيد زجاجتي بيرة. رائحة المكان مثل أنفاس قديمة لا تتحرك، ورائحة الفول النابت الساخن الذي يأتون به للجميع مع الترمس

والسوداني والسلاطة الخضراء. أطباق كثيرة بالمزة تملأ المناضد. أصوات الناس تعلو هنا وتنخفض هناك ويتغير الإيقاع كل حين. ضحكات تنطلق لكنها قليلة وبائع يمر بالعصافير المشوية. رأيت بارات كثيرة في الأفلام ودائما هناك امرأة تغني. لا أحد ينسى هدى سلطان في فيلم «رصيف نمرة خمسة » ولا نعيمة عاكف في «خلخال حبيبي» ولا سامية جمال في «قطار الليل» ولا هند رستم ولا تحية كاريوكا. طبعا لن أجد محمود المليجي ولا فريد شوقي ولا رشدي أباظة فأنتظر مشاجرة. ولا عبد الحليم حافظ فيغني حزنا على فراق حبيبته. لا نساء ترقص هنا. تقريبا لا نساء تجلس. فقط فتاتان صغيرتان أجنبيتان تجلسان مع شابين مصريين وامرأة تدخل تبيع مناديل الكلينيكس. المناضد عليها مفارش بنية ربما لتتحمل ما قد يسقط عليها من طعام. والمقاعد خشبية وقوية. ربما نقابل هنا فنانين ما دام سعيد يأتي هنا. بالفعل أشار بالتحية لأكثر من شاب ورجل. صافح اثنين منهم قبل أن نجلس وقال إنهما ممثلان في أول الطريق.

ما كدنا نبدأ في الشرب حتى هلّ علينا رجل في حوالي الأربعين من العمر. طويل ولكن ليس مثلي. أسمر وشعره مجعد. وقف سعيد يصافحه بحرارة وطلب منه أن يجلس معنا فجلس. قدمني سعيد له وقدمه لي قائلا إنه الأستاذ يحيى علام يحب أن يناديه الناس بالأقصري لأنه مرشد سياحي في الأقصر. طلب يحيى علام زجاجة «براندي 84 » وبدأ يسخر من البيرة. طلب منا أن نتوقف عنها ونشرب البراندي، لكن سعيد قال له ضاحكا:

- خلينا نحن في البيرة لأن صابر أول مرة يشرب.

دخل الأقصري فجأة في الصمت. بدا كأنه كان يشرب من قبل كثيرا. راح سعيد يحدثني عنه وكيف أنه كاتب قصة لكن بعده عن القاهرة لا يجعل أحدا ينتبه لما يكتبه. وبالإضافة لكونه مرشدا سياحيا فهو أيضا صاحب فندق صغير في الأقصر، فندق نجمتين فقط لكنه تحفة فنية لأنه من الأخشاب والبوص كله. يحبه الأجانب ليس لفقرهم ولكن لهذه اللمسة. ولما عرف الأقصري أني أعمل في الثقافة الجماهيرية ابتسم وقال: «لا بد ستأتي يوما عندنا في ندوة أو مؤتمر. سنراك وسأحجزك بعد المهمة عندي يومين أو ثلاثة أو كما تشاء وبالمجان»، شكرته وأحسست بالفرح. ستكون تجربة جميلة حقا أن أذهب إلى الأقصر يوما. ثم قال الأقصري لسعيد:

- أنا تركت الإرشاد السياحي.

- نهائيا؟

- إلى الأبد.

- لماذا؟

بدا سعيد مهتما بحق. فقال الأقصري:

- كنت مع أحد الوفود في مقبرة توت عنخ آمون. ورغم أن المقبرة كما تعرف خالية من جثمانه الموجود الآن في المتحف المصري سمعته يكلمني وأنا وسط الوفد أكلمهم بالإنجليزية.

بدأت أنتبه أكثر. ضحك سعيد وقال في دهشة كبيرة:

- بالهيروغليفية؟!

- بالعربية.

- معقول؟ وماذا قال؟

- قال لي بهدوء شديد وتصميم. يا يحيى لا تأتِ هنا مرة أخرى. نحن أعظم من أن يتفرج علينا الناس. يا يحيى مقابرنا لا يراها إلا الآلهة.

نظرنا إليه في صمت ودهشة. هو بدوره كان يتكلم بهدوء وبتصميم كأنه توت عنخ آمون! لحظات من الصمت ثم ضحك سعيد وقال:

- هذا أفضل. انتبه للكتابة والفندق.

طالت جلستنا في الشرب ثم قال سعيد فجأة ضاحكا:

- تصور نسيت أن ندخل مسرح الطليعة. كنا عوضنا بذلك المسرح القومي.

- ألا يغلق الثلاثاء أيضا؟

- الأربعاء. ويعرض مسرحية «سلك مقطوع» تأليف مصطفى عمر وإخراج فهمي الخولي. مسرح الطليعة يقدم مواهب شابة جميلة. والممثلين قشطة تكفي نجوى سالم.

- سنأتي كثيرا فيما بعد. أعجبتني العتبة.

قلـت ذلك في هدوء. نظر الأقصري إليّ مندهشـا ومبتسـما. قبل أن نترك البار وقف ليتركنا وقال:

- قررت أن أدعو الناس في الأقصر إلى ديانة جديدة سأحدثكم عنها فيما بعد.

صافحنـا قبل أن نعلّق. تركنا في دهشـة وعجب. ما إن خرج من البار حتى انطلق سـعيد يضحك. بدوري ضحكت لكن بدرجة أقل من سـعيد الذي قال:

- إنه بالفعل شخص كريم جدا. ستجرب ذلك بنفسك. لكنه مسكين. منـذ مـا جرى لزوجته وهو كل يوم في حال - ثم ابتسـم وهز رأسـه - أنا لا أصـدق هـذه الحكاية أبدا لكـن كل الناس في الأقصـر تتحدث عنها. تزوج منذ خمس عشـرة سنة فتاة صعيدية من هناك قضى معها شهرعسل جميل في فندق وينتر بالاس، فندق الملوك، وصحا يوما من النوم ليجدها صارت قطة صغيرة تقف جوار باب الغرفة تموء وتنظر إليه كأنها تتوسـل أن يفتح لها الباب لتخرج ولم تظهر بعد ذلك.

ألجمتني الدهشة عن أي رد فعل للحظة ثم انطلقت أضحك فقال:

- لن تصدق لكن كل سكان الأقصر يعرفون ذلك.

مشينا. صمت يملأ الميدان. الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل. لا أحـد في الطرقـات. عربات اليـد الكثيرة التـي رأيتها مـن قبل وحدها بلا أصحابها مغطاة بالمشمع فوق ما تبقى عليها من بضائع هي في أغلبها

ملابـس أو أحذيـة كما رأيتها، وملفوفـة بالحبال. كيـف يتركها أصحابها بـلا خوف من سـرقتها؟ لا أعـرف. على الأرض بقايـا متفرقة من أكياس صغيرة وورق وعلب سجائر فارغة. رحنا نمشي مسرعين علّنا نلحق بآخر مترو أو أوتوبيس كما قال من محطة رمسيس يكون سائقه مجنونا فيعمل بعد الساعة الواحدة! دخلنا شارع الجمهورية الذي جئنا منه من قبل. كل محلاتـه أيضا مغلقـة الآن والبضائـع التي كانت تحـت البواكي اختفت. لا بد أدخلت إلى المحلات. ولا أضواء إلا أضواء أعمدة الشارع. ظهرت لـي العمارات الإيطالية الجميلة كما لم أرهـا وقت الزحام. وكأنما أدرك سعيد ما أفكر فيه قال:

- القاهرة بالليل سـحر. أحب أن أقف بالليل على كوبري قصر النيل لكن في الشـتاء أكثر من الصيف، فأكـون وحدي بين الضباب عند الفجر وأشعر أنه لا يوجد في الكون غيري أنزلني الله من السماء.

أعجبني تعبيره وقررت أن أفعل مثله يوما. قال:

- لا بأس أن تقف معي يوما وتشعر أن الله أنزلنا من عنده معا!

وأسرع فأسرعت خلفه أنا الأطول منه وقال:

- القاهـرة بالنهار تظهر لك الاعتداءات علـى جمالها. محلات قطع الغيـار وغيـره تملأ الطرقـات هنا مثلا. هذا الرجل السـادات بدأ سياسـة الحرية للجهل ليربك الشـعب نفسـه. لقد بدأ الاعتداء على كل الشوارع القديمة. في شـارع الفجالة الآن ظهر محلان لبيع السـيراميك المستورد

والأدوات الصحية وشيئا فشيئا ستنتهي محلات الكتب، أما شارع كلوت بك فتقريبا سيتم هدمه! هل تعرف شارع محمد علي؟

- طبعا. من لا يعرفه؟ شارع الفن. والذي أنشئ على طريقة شارع الريفولي في باريس.

- كل هذه الشوارع بنيت تقريبا على غرار الريفولي. على الأخص نظام البواكي التي أمامها. شارع محمد علي بدأت تظهر فيه ورش نجارة ومحلات بيع الأثاث الرخيص. سيختفي منه أهل الفن والعوالم طبعا.

قلت:

- سعيد. الجو حولي جميل. لا تسد نفسي أرجوك.

ضحك وقال لي:

- إذن شم هذه الرائحة. هي حلوة على أي حال.

كانت رائحة سجق وكبدة مقلية تملأ الفضاء. رأيت رجلا يقف على الرصيف يطهو السجق والكبدة خلف فاترينة زجاجية لعربة صغيرة يتوسطها موقد عليه طاسة كبيرة حولها أطباق وأرغفة الفينو. جواره على الأرض صفيحة يغسل فيها صبي صغير الأطباق ويقدمها له. عدد ليس قليلا من الرجال يقفون حوله يأكلون الساندوتشات أو في الأطباق على منضدة صغيرة. من أين جاءوا وأين يذهبون الآن؟ لم يكن أحد يتحدث مع أحد. بدوا لي متعبين. صمت لا يقطعه إلا صوت المغرفة الألمونيوم

الطويلـة وهـو يقلّب بهـا الكبدة أو السـجق في الزيـت المغلي وتصطدم بجوانب الطاسة الكبيرة.

- أنصحك أن تأكل إذا كنت جائعا. هو رجل مشهور.

- أنا شبعان يا سعيد. لقد أكلت مزة كثيرة وأكلت أيضا عصافير لأول مرة في حياتي. طعمها لذيذ.

- فـي القاهـرة سـتجد كل الأطعمـة. لكـن أنصحـك أن تبتعـد عـن الحواوشي.

- ما الحواوشي هذا؟

- خبز محشـو باللحم المفروم ومطهو في الفرن ظهر الآن في بعض المطاعم. أقل ما يصيبك منه هو التسمم.

ضحكت. قال:

- ليس لحما مفروما للأسـف. جلد ودهن وأمعاء وفشـة مفرومة مع مـواد كيماويـة تعطيها اللون الأحمر وكمية بهـارات مذهلة تمنع رائحتها وطعمها القاتل. رغيف محشـو لحم بخمسة قروش. ماذا تنتظر أن يكون فيه؟

كان حوارنا مستمرا ونحن نسرع في الطريق. قلت:

- أنت تبالغ يا سعيد!

- أنت حر. لكنني متأكد مما أقول. أكثر من يبيعونه محلات في ميدان رمسـيس ومطاعم كلوت بك. هنا عادة يأتي الغرباء المسـافرون. يأكلون

ويسـافرون إلى بلادهم يموتون هناك ويأتي غيرهم في اليوم التالي. هل سيفطن لذلك أحد؟

ضحكت بصوت عالٍ هذه المرة. قال:

- في القاهرة فقط خمسـة ملايين مواطن. ميدان رمسـيس وحده يمر عليـه يوميا مليـون وأكثر يموت نصفهم في بلادهم بعد العودة بسـبب ما يأكلونه في هذا الميدان.

تذكرت بالفعل أكوام الطعام وأنا في طريقي لاستلام العمل وعودتي معه لنركب المترو من هناك. فلافل وباذنجان مقلي ومخللات وبطاطس مهروسـة ومقليـة وكبدة وسـجق وكسكسـي وغيـره مكشـوفة كلها على عربـات اليد أو أمام المحلات. لكني رأيت على يميني فندق الجمهورية يقطع الشارع. رآني سعيد أنظر إليه فقال:

- فنـدق صغير لكنه جميل يأتيه الأجانب الفقراء أو متوسـطو الدخل الذين لم يجدوا مكانا في الفنادق الكبرى.

قلـت لنفسـي سـأدخله يوما. ثـم ضحكت وسـألت نفسـي كيف أن أحلامي بسـيطة إلى هذا الحد. الأفضل أن أدخل الهيلتون أو الشـيراتون أو سـميراميس أو شـبرد. أما إذا دخلت مينا هاوس فسـأبحث عن الغرفة التي نام فيها عبد الحليم حافظ مفلسا في فيلم حكاية حب.

***

مـا إن دخلنـا البنسـيون فـي روكسـي حتـى انفجرنا نضحـك. خلعنا ملابسـنا وارتدى كل بيجامته. انحنى هو ليخرج اللمبة الكبيرة من تحت

السرير ليقرأ بعد أن شغل الراديو على البرنامج الموسيقي. رأيته يمسك في يده رواية «تورتيلا فلات» ويقول:

- هل قرأت هذه الرواية؟

- للأسف لا. قرأت لشتاينبك عناقيد الغضب ورأيت الفيلم أيضا.

- اقرأها فلن تندم. لن تكف عن قراءتها بعد ذلك كلما أردت أن تضحك وتبتهج.

- سوف أقرأها بعدك. أما الآن فسأقرأ رواية «الغريب» لألبير كامي للمرة الثانية.

كنت لمحتها بالنهار بين كتبه. تناولتها وتمددت فوق السرير كما فعل هو أيضا. لفنا الصمت ونحن نقرأ. هو فقط كانت بسمته لا تنقطع.

كنا وجدنا بالصالة العشاء تركته لنا مدام فيولا على السفرة. طبق لكل منا به قطعتان صغيرتان من الجبن الأبيض، جوارها شريحتان من الجبن الرومي وبيضة واحدة وعلبة من الزبادي. كنت هززت رأسي ساخرا من كميات الأكل الذي دفعت فيه عشرة جنيهات مقدما. لكن لأني كنت بالفعل شبعان من المزّات الكثيرة التي أكلناها لم أهتم وتركت الطعام وتركه هو مثلي.

حلّ الآن صمت عميق في الغرفة. الموسيقى تتهادى حولنا وفوقنا؟ البوليرو لرافاييل توسع في المكان. صدفة جميلة أن يجتمع صديقان على حب الموسيقى العالمية. هكذا فكرت.

تذكرت أيام الجبهة والراديو الصغير الذي كان معي، وكيف كنت أسمع الموسيقى بالليل أثناء الحصار والظلام الدامس يمتد حولي في سيناء ومن معي يندهشون من جنوني.

البرنامج الموسيقي تقريبا يعيد بين ليلة وأخرى نفس المقطوعات التي يذيعها بعد الساعة الثانية صباحا.كانت البوليرو تأخذني إلى الأمام متقدما مع طابور من الجنود يسرعون متعبين إلى وطنهم وكلما تقدمت الموسيقى تقدمت مع الجنود عائدا في فرح. على عكس موسيقى فيلم «جسر على نهر كواي» التي كانت تتقدم بي بسرعة إلى الانفجارات والموت. كنت أنام ساعات قليلة آخر الليل ولا أنتبه إلى أني تركت الراديو مفتوحا إلا في الصباح.

فجأة سمعت صوتا يهمس باسم سعيد خلف نافذة البلكونة. انتبه سعيد وفتح عينيه ونظر إليّ مرتبكا. تكرر الصوت. صوت نسائي رفيع هادئ. ازدادت حيرته ثم وقف يكلم نفسه متحيرا: «إيه اللي جابك دلوقت».

فتح النافذة بهدوء.أمسك بالمقعد الوحيد ودخل به البلكونة وسمعته يهمس:

- الله يخرب بيتك. لماذا لم تخبريني؟

رأيته ينزل المقعد من خلف سور البلكونة. لا بد أنها تناولته منه وصعدت عليه لأنها ظهرت بوجهها ترتفع أعلى السور ثم ظهر صدرها، ثم تخطت السور يساعدها سعيد تاركة المقعد في مكانه.

وقفت الفتاة الصغيرة التي كانت جميلة بحق أمامي وسط الغرفة، ترتدي «بنطلون جينز» على قلة الجينز بين الفتيات. لا بد أنها استعدت لما فعلته. فوق البنطلون بلوزة جميلة وشعرها خلفها رائع. كل شيء فيها جميل فلماذا تفعل ذلك حقا؟

نظرت إليَّ وقالت مبتسمة:

- هو أنا فين دلوقت؟

ابتسم سعيد الذي احمر وجهه من الخجل وقال:

- أنتِ عندي يا أشجان لكن هذه المرّة معنا ضيف.

ثم قال لي:

- فاكر المقهى الذي أشرت لك عليه وقلت لك ألا تنساه. أرجوك انزل إليه الآن. ستفعل ذلك معي يوما وسأطيعك فورا.

أردت أن أضحك لكني تماسكت وقلت:

- حاضر. لكن سأغير هدومي.

اقترب مني وقال:

- ليس هناك وقت. قد تشعر مدام فيولا بالحركة. ستجد من يجلس بالبيجامة هناك أيضا. أرجوك بسرعة.

كل ذلك والبنت أدارت وجهها للحائط وراحت تبتسم، وسعيد يقول لي هامسا:

- تجربة جميلة صدقني.

سمعنا صوت باب غرفة مدام فيولا ينفتح فقال هامسا بهلع:

- انزل بسرعة فلا تكون مسئولا عن أي شيء.

- مجنون.

قلت هامسا ومبتسما. تقدمت إلى البلكونة ونزلت على المقعد خارجها ومنه إلى الأرض فاكتشفت أني نزلت دون شبشب في قدمي ولا حذاء، لكنه كان يقف بالبلكونة في نفس اللحظة ويلقي لي بالشبشب على الأرض. كان شبشبه هو لذلك دخل فيه الجزء الأمامي من قدمي فقط وظل كعباي على الأرض. كدت أطلب منه تغييره لكنه أغلق البلكونة بسرعة. مشيت إلى المقهى القريب غير مصدق ما جرى. ما إن اقتربت منه حتى كدت أنفجر من الضحك، ليس لأني اكتشفت أنه لا نقود معي لأشرب أي شيء فقط، ولكن لأنني رأيت شخصا يجلس خارج المقهى على الرصيف مرتديا بيجامته أيضا. كان الفارق بيننا في العمر كبيرا. هو فيما يبدو تجاوز الستين. وطبعا لون البيجامة ونوعها. كانت بيجامته من قماش أفخم. ربما حرير.

كان شخص آخر يجلس مرتديا بدلة صيفية زرقاء أنيقة. بابيون أحمر حول عنقه ومنديلا أحمر يظهر من جيب البدلة العلوي. رائحة بارفان جميلة تملأ المكان من ناحيته.

جلست قريبا منهما فأسرع الجرسون الشاب من الداخل إليّ. قبل أن يسألني ماذا أشرب قال في دهشة :

- حضرتك لامؤاخذة كمان مراتك قالت لك اخرج بالبيجامة شوية شم هوا؟

اندهشت للحظة ثم ضحكت. رفعت يديّ الخاليتين من الدبلة أمامه قائلا: «لا متزوج ولا خاطب». وابتسمت فقال مشيرا للرجل الكبير:

- كل ليلة يقول هذا الرجل الكبيرذلك لي. هو الآن لا يصعب عليّ. لكن في الشتاء يصعب عليّ جدا.

ثم انحنى يهمس:

- هو أيضا غلطان. حد في هذا السن يتجوز بنت عندها 18 سنة؟!

ترددت لحظة ثم ابتسمت وقلت:

- لوقلت لك نسيت النقود هل تصدقني؟

ارتفع صوته وقال:

- طبعا يا أستاذ. ما دام بالبيجامة.

وضحك:

- هو أيضا ينسى النقود. لا توجد مشكلة. اشرب وادفع بكرة. أو أقول لك، ادفع مثله بكرة عشرة جنيهات تكفيك طول الشهر.

أضحكني بالفعل. سألته هامسا:

- والمحترم هذا الذي يرتدي بدلة فخمة هل يأتي كل ليلة أيضا؟

قال هامسا في إعجاب:

- هذا هو الأستاذ. هذا من يوصل الحظوظ إلى البيوت. يأتي مرتين أو ثلاثة في الأسبوع ومعه امرأتان جميلتان. حوريتان من الجنة، لكن غاليتان جدا. يأتي التاكسي في الميعاد بعد أذان الفجر فيمضي بهما بعد أن تكونا انتهيتا من عملهما.

ثم انحنى أكثر ليهمس بصوت أقل:

- شفت فيلم السقا مات؟

- طبعا.

- هو مثل الرجل الذي كان على جبينه من الجانب وشم عصفورة. هل تذكره؟

وتركني إلى داخل المقهى يأتي بالشاي وأنا في ذهول من الليلة كلها.

5

جلسـت بيـن زميلاتـي الموظفات صامتا. كـن ينظرن إليّ ويبتسـمن فأبادلهـن البسـمات. في الحقيقة كنـت أعاني من قلة النـوم بعد ما جرى أمس. لكن كان عليّ أن أبدو نشـطا متحمسـا فـي أول يوم عمل حقيقي. طبيعي جدا أن ينفتح الحديث بيني وبينهن عن دمياط وعن أسعار الموبيليا الآن. كانت الفتاتان نجوى ودعاء والسكرتيرة لبنى تتحدثن في ذلك أكثر بينما كان حديث المرأتين وديعة وسامية كله تقريبا عن أسعار الموديلات الجديدة من الأحذية والشـنط والسـيارات الجديدة التي بدأت تظهر في مصـر وبصفة خاصة البيجو الفرنسـية. تحقق لي اختـلاف حديث المرأة المتزوجـة عن العـذراء. كانت الفتاتان نجوى ودعاء ومعهما السـكرتيرة لبنى تجلسن متقاربات تتهامسن أحيانا وتضحكن بينما تطالعن الصحف وتقمن بقطع بعض القصاصات منها وحفظها في دوسـيه، وأحيانا تكتب لبنى شـيئا. هلّ من الباب المدير العام عمر إبراهيم الذي جاء في الحادية عشـرة داخلا في جدية ظاهرة وحماس. ألقى علينا تحية الصباح مبتسـما ثـم دخل غرفته. جاء خلفه مباشـرة عامل البوفيـه «نجاتي» حاملا فنجان القهـوة ودخـل بـه إليه. سـمعت صوت عمـر إبراهيـم يناديني فانتبهت ودخلت إليه. وقفت أمامه.

- اجلس.

قال ذلك ثم أضاف:

- لا أحب أن يقف الموظفون أمامي. نحن في مكان ثقافي.

جلست مبتسما وتوقعت خيرا في العمل. إنها إدارة العلاقات العامة التي تعنى بتنظيم سفر الكتاب والفنانين إلى قصور الثقافة في الأقاليم للمشاركة في الندوات، أوإقامة المؤتمرات. كما أنها معنية بجمع ما يكتب عن الثقافة الجماهيرية وأنشطتها من مقالات وأخبار وهذا ما تفعله السكرتيرة لبنى ومعها نجوى ودعاء. وديعة وسامية هما الأكثر خبرة والأقدم وهما اللتان تنظمان المهرجانات والمؤتمرات. وأيضا نشر الأخبار التي تخص النشاط للهيئة كلها. وديعة ستقوم بإطلاعي على كل شيء وسيكون عليّ دور كبير، باعتباري ناقدا، في الاتصال بالكتاب والفنانين الكبار الذين سيسعدون أن يتصل بهم مثقف أكثر مما يتصل بهم موظف عادي حتى لو امرأة! هكذا قال لي عمر. إذن عملنا بسيط كما قال ومن ثم يمكن لي الحضور والانصراف براحتي، باستثناء أيام المهرجانات والمؤتمرات الكبيرة، وهذه لا تحدث غير مرة أو مرتين في العام على عكس الندوات والمحاضرات المستمرة طول العام. ثم ضحك عمر إبراهيم وقال:

- سأختصر عليك الطريق. في المؤتمرات ستقابل أديبات وصحفيات أكثر مما تتوقع. افعل معهن ما تشاء لكن إياك من بنات إدارتنا أو نسائها.

اندهشــت جدا مما قال لكني ابتســمت وهززت رأسي موافقا على ما يقول كأن ذلك يحدث بالأمر حقا. ثم سألني:

- هل ستنشر مقالاتك في الصحف؟

- سأحاول.

- انتبه. كثير من الصفحات الأدبية الآن بدأ يسيطر عليها كتاب اليمين. طبعا لو استطعت أن تنشر في مجلة «الطليعة» أو «الكاتب» سيكون فخرا لك. هذا ما تبقى من اليسار الثقافي في مصر.

وسكت قليلا:

- نحن هنا في الثقافة الجماهيرية التي هي مســتهدفة الآن لتكون في خدمة أمن الدولة وأفكار السادات.

كيف حقـا يتحدث بهذه الصراحة! تذكرت أنـي منذ أتيت أمس أريد الاتصال بالرفيق الأكبر «عامر فضل عامر» رجل الحزب الشـيوعي الذي تعرفـت عليـه فـي رأس البر بعد أن تـم تجنيدي في الحـزب هناك. كيف أعجـب بي عامر فضل ونصحنـي بالحياة أيضا في القاهـرة. رقم تليفونه لا ينسـى 736752. من اليســار حرب أكتوبر ثم هزيمة 67 ثم ثورة يوليو! أعطـاه لي وطلب إن جئت القاهرة يوما لأعيش فيها أتصل به. سـيضمني بلا شك لخلايا الحزب هنا. قلت لعمر:

- إن شاء الله سأحاول النشر فيهما.

نظر إليّ مستنكرا، ورفع نظارته عن وجهه الأبيض الجميل وقال:

- يساري وإن شاء الله معا!

اندهشت للحظة. قلت مبتسما:

- ربما العادة يا أستاذ عمر وليس أكثر.

- معك حق. لكن انتبه لأنها صارت مفتاح الأحاديث عند الكثيرين الآن - وضحك - بعضهم إذا سألته عن اسمه يقول لك إن شاء الله علي.

كنت لا حظت ذلك في دمياط حقا بين البوابين والعمال البسطاء. لكن يبدو أنه في القاهرة أيضا. هكذا يفعل المشايخ بالناس الآن. هكذا صار تقديم المشيئة حتى في النطق بالاسم!

نادى على لبنى. قال لها أن تكتب خطابا منه لرئيس مجلس الإدارة لإعفائي من التوقيع بالحضور والانصراف كل يوم. ثم قال لي:

- كما أخبرتك أمس لن أعتبرك موظفا. بل مثقفا. تأتي وتذهب في الوقت الذي تراه مناسبا لك. المهم ألا يتعطل عملنا. أنا أفعل ذلك مع الجميع.

***

خرجت من المكتب غير مصدق جمال عمر إبراهيم شكلا وعملا. بانت زميلاتي في عيني مثل حسناوات هوليوود. ظللت ساعتين جالسا أستمع لوديعة ولا تغيب السعادة عن وجهي. ثم أشرت إليهن بالتحية مبتسما ونزلت من الدور السابع لأركب المترو إلى حيث نهاية الخط

عنـد الكورنيش كما قالـت لي زميلاتي. من هناك سأمشـي خمس دقائق إلى ميدان التحرير.

محطة الإسـعاف هي الأقرب لعملي. رأيت فـي طريقي مبنى جريدة الأهـرام الجديـد. ركبت المترو إلـى النهاية. محطة واحـدة فقط ونزلت لأرى اتسـاعا رائعـا في الفضاء. أمامـي يمتد النيل إلى الجانبين. شـباب وبنات يمشـون على الكورنيش رغم الحر لكن الشـمس توسـع بضوئها في الكون. ينزلون إلى القوارب الصغيرة للفسحة. محطة المترو جميلة. خطـان مـن القضبـان بينهمـا رصيف واسـع في منتصفـه مقاعد خشـبية وأشـجار قليلة لكنها ذات ظل جميل. علـى الناحية الأخرى من كل خط حديـدي رصيف واسـع أيضـا عليـه مقاعد وبه ثـلاث أشـجار متباعدة، وكشـكان صغيران من الخشـب فيهما موظفو المترو. كيف سـأصل إلى ميـدان التحرير حقا؟ لم توضح لي زميلاتي الطريق من هنا. سـألت أحد موظفـي المتـرو فنظر إليّ لحظـة كأنه لايصدق أن يسـأله أحد عن ميدان التحريـر. قـال أن أمشـي علـى الكورنيش حتـى أصل إلى فنـدق هيلتون القريـب وأمر من جواره إلى الميدان. أو أمشـي في الاتجاه الآخر وأدور حول المتحف المصري وأدخل الميدان من شارع رمسيس.

كنت بعد أن تركت العمل وفي طريقي لمحطة الإسـعاف اتصلت من تليفون أحد المحلات بالرفيق الأكبر عامر فضل عامر. بدا مبسوطا وقال لي إنه بالصدفة سـيكون بعد نصف سـاعة في مقهى أسـترا بالتحرير. لما سـألته عنـه قال إنه شـهير جدا، بعد مقهـى علي بابا، وعلى ناصية شـارع

محمد محمود. رحت أمشي على مهل حتى تنقضي نصف الساعة بعد أن اخترت الطريق من خلف المتحف المصري. انتهى الرصيف الذي يدور مع جدار المتحف وظهر شارع رمسيس فعبرته ومشيت على الرصيف المقابل في طريقي إلى الميدان. على يساري محلات عاديات كثيرة بها تماثيل متفاوتة أحجامها من الجرانيت أو الجبس للفراعنة المشاهير آلهة وحكاما. وصوان نحاسية كبيرة واضحة وصغيرة معلقة وعليها نقوش فرعونية وخطوط عربية أحيانا وورق بردي. جلابيب شرقية وسجاد صغير وكثير مما يجذب السياح الذين لم يكونوا بعيدا. كانوا على الناحية الأخرى أمام المتحف ينزلون ويصعدون أوتوبيسات الشركات السياحية. نساء تلمع أجسادهن الظاهرة تحت الشمس من بعيد، ورجال يرتدون أيضا شورتات قصيرة. بعيدا قليلا فندق هيلتون واضح أمامي وأمامه موقف أوتوبيسات كبير. عدد قليل من الرجال والنساء ينتظرون على المحطة أو يجلسون في أوتوبيسات تنتظر التحرك. مشيت لا أسال أحدا عن مقهى أسترا. سأدور مع الرصيف حتى لو درت الميدان كله ولا بد سأجده. رأيت الكوبري الحديدي العلوي الذي يدور مع الميدان. تماما مثل كوبري ميدان رمسيس. لعنت الحمقى وفاقدي الإحساس بالجمال الذين أقاموا هذا وذاك بين عمارات فرنسية وإيطالية الطابع. البحر المتوسط يحولونه إلى صحراء. لاحظت على يساري أكثر من مقهى ومنها مقهى نوبي كما يبدو من أغلب الجالسين فيه. بعده مقهى إيزافيتش الذي قرأت كثيرا أن بعض الكتاب يجلسون فيه. وجدت نفسي أعبر شارع طلعت حرب ثم شارع التحرير وأدور لا زلت مع الميدان.

وقفت أمام محل عصير قصب مواجه لي. اشتقت إلى أن أشرب منه العصير. ترددت. تذكرت قصة قصيرة لأحد الكتاب عن القروي الغريب الذي وقف يشرب العصير في القاهرة ونظر إلى الميدان أمامه فعاد مسرعا إلى بلده في الريف. أظن كاتبها هو أحمد هاشم الشريف الذي لم يعد يكتب كثيرا الآن. أو لا أقرأ له كثيرا الآن إلا مقالات في مجلة صباح الخير. تذكرت ديوان «مدينة بلا قلب» لأحمد عبد المعطي حجازي وقصة «النداهة» ليوسف إدريس والأفلام القديمة عن ضياع القروي في القاهرة. «ابن النيل» ليوسف شاهين و«شباب امرأة» لصلاح أبو سيف. لا. لقد جئت لأبقى.

مشيت خطوات ووجدت على يساري مقهى علي بابا. ابتسمت. إذن مقهى أسترا قريب. لكن مرت على يميني فتاة مسرعة اصطدمت بذراعي ثم التفتت إليّ مبتسمة. اندهشت من فعلتها. لم تتوقف وظلت في طريقها وشعرها الأصفر غزير خلفها وفي يدها «بوك» صغير. في الإسكندرية أيام الدراسة كنا نمشي على البحر ونعتبر دائما حاملة «البوك »من بنات الليل أو سهل اصطيادها. كنا ننجح في اصطياد الكثيرات منهن. هذه التي اصطدمت بي تؤكد أن ذلك في القاهرة أيضا وربما في كل الدنيا. العاهرات في الأفلام يحملن حقائب فاخرة. وأول ما تفعله حين تجلس مع من اصطادها أن تخرج سيجارة من الحقيبة وتدخن في وجهه. نادية لطفي تقفز صورتها أمام وجهي الآن في فيلم السمان والخريف. هذه فتاة ممشوقة القوام مثل نادية لطفي وجميلة حقا، لكنها تبدو في العشرين من عمرها. ماذا أفعل ولديّ موعد مع الرفيق الأكبر. انتبهت

إلى ماسحي الأحذية الثلاثة الجالسين أمام سلم الكوبري المعدني على صف واحد بعيدا قليلا عن السلم. أمام اثنين منهما يقف رجلان يلمّعان حذائيهما بينما يضرب ماسح الأحذية الثالث كرسي الورنيش الخشبي بجانب الفرشة داعيا المارة للتلميع. مشيت خطوات قليلة ووصلت إلى مقهى أسترا. رأيت نوافذه مفتوحة ومساحته كبيرة وعلى مقاعده كثير من الرجال والنساء حول زجاجات البيرة والمشروبات الباردة. دخلت من بابه الذي يطل على شارع محمد محمود. الأصوات عالية غير مفهومة تتزاحم في فضاء المقهى. المراوح في السقف وعلى الجوانب ترسل هواء قويا. بعيدا في أحد الأركان يجلس الرفيق عامر فضل عامر يقرأ في مجلة المصور. هو نفسه لا يمكن أن أخطئه. النوبي القصير سمح الوجه أبيض الشعر لا يفكر في صبغه. وقف يصافحني في مودة بالغة. بدا سعيدا بي حقا. جلست فطلب لي ليمونا باردا. لكني انصرفت بعيني عنه لحظات أتابع الجالسين. كل الشباب مثلي أطلقوا شعرهم على طريقة الهيبيز ويرتدون البنطلونات الشارلستون. قليل منهم يرتدون الجينز الذي ظهر حديثا في مصر. تحدث إليّ الرفيق عامر عن خلية الأدباء التي سأنضم إليها. سأكون المسئول الأول. أي مقررها. في الوقت الذي لن تنقطع صلتي به هو شخصيا. سألته:

- كم أعضاؤها؟

- ثلاثة غيرك. شاعر وقصاص وموسيقي. الموسيقي معروف هو زكريا فخري. الموسيقي والمطرب الثوري الذي يغني أغاني ضد النظام السياسي السائد. ليس في شهرة الشيخ إمام لكنه رائع.

كنت ألاحظ أيضا بالمقهى عددا كبيرا من الشباب الأجنبي من الجنسين. سألته لماذا يتواجدون كثيرا هنا فقال بسبب الجامعة الأمريكية التي تطل على شارع محمد محمود من هنا وشارع الشيخ ريحان من الناحية الأخرى. أغلبهم طلاب دراسات عربية.

في اللحظة التي قررت فيها الانصراف، دخل المقهى رجل أربعيني العمر، أبيض الوجه مشرب بالحمرة، أشقر الشعر عيناه خضراوان، لم يحلق ذقنه منذ أيام وتركها غير مهذبة، يرتدي بنطلون جينز وقميصا نصف كم أصفر فتح أزراره العليا فبان شعر صدره غزيرا، ويمسك في يده طفلا جميلا يحمل كل ملامحه، يرتدي شورتا أزرق وقميصا أبيض. واضح أن الطفل ابنه. التفتت إليه كثير من عيون الجالسين. خاصة الجرسونات الذين كانوا ثلاثة وسمعت أحدهم يقول: «ربنا يستر».

أجلس الرجل الطفل على أحد المقاعد ووقف جواره يدور بعينيه حتى توقف عندي لحظة. تخيلت فيها أنه يقول لي من أنت وماذا تريد من القاهرة. لكنه دار بعينيه على الجميع ثم ارتفع صوته مناديا:

- من يحب أن يشتري طفلا؟

كررها أكثر من مرة والناس لا تبدي أي رد فعل غير النظر إليه في شفقة وصمت ثم قال:

- كلكم ستبيعون أولادكم. اليوم أو غدا. السادات لن يسكت إلا بعد أن نبيع أولادنا كلنا. حد عايز يشتري عيل يا جبناء ياللي ساكتين على السادات واللي بيعمله فينا!

دخلت امرأة صغيرة مسرعة إلى المقهى وخلفها شرطي أمن مركزي وجندي عادي. كانت ترتدي تاييرا بسيطا وبلوزة بسيطة أيضا يوضح لمن

يراها فقرها، على رأسها إيشارب مربوط حول عنقها وعلى وجهها فزع كبير. جرت إلى الطفل ورفعته عن المقعد تحتضنه وتبكي وهي تقبله. أمسك الشرطيان بالأب والمرأة تصرخ باكية لأمين الشرطة:

- هذه المرة لا تتركه يا حضرة الأمين؟ خلاص. لن أتنازل عن المحضر مرة أخرى. دا مجنون رسمي وبيكتب شعر كله شتيمة في الحكام ويفرض عليَّ أسمعه طول الليل.

انهارت جالسة على المقعد تبكي وتحتضن الطفل الذي صار يقف أمامها على الأرض ورأسه على صدرها تقبله وتقبل وجهه ثم خرج الجميع صامتين. فقط كان الرجل يضرب كفا بكف مندهشا من تصرفات زوجته ورجلي الشرطة اللذين أمسكا بذراعيه ومشى بينهما، وأنا أفكر متى سمعت عن هذا الشاعر حقا؟ متى قرأت عنه أو حدثني عنه أحد؟

هكذا لم يكن ما رأيته في مقهى أسترا مشجعا لي على الاتصال بالرفيق علي الكبير. خرجت من المقهى تمشي أمامي صورة الرجل الذي يريد أن يبيع ابنه حتى وصلت إلى محطة المترو. لم أتشجع للذهاب إلى مقهى ريش وليس مهما أن تكون هناك فرصة لي اليوم للتعرف على بعض الكتاب. مشيت إلى موقف الأوتوبيس الذي بدأ يزدحم. هذا موعد خروج الموظفين من أعمالهم. ميدان التحرير يتوسط القاهرة وهو قريب من كل الوزارات تقريبا. يكفي مجمع التحرير وحده الذي سمعت عنه من قبل كثيرا ليشغل موظفوه كل مواقف الأوتوبيسات. لكن لم يطل الوقت. أسبوع واتصلت بعلي الكبير. 736773 رقم لا ينسى.

6

لم أركب المترو هذه المرة إلى ميدان التحرير. مشيت متجاوزا محطة الإسعاف. من النقاش مع سعيد ومع زميلاتي في العمل عرفت بشكل طبيعي أنني من محطة الإسعاف يمكن لي أن أدخل شارع 26 يوليو في اتجاه بولاق وأمشي فيه حتى أصل إلى الزمالك. والعكس يصل بي إلى نهاية شارع طلعت حرب الذي إذا مشيت فيه قابلت كثيرا من السينمات والكافتيريات ووصلت إلى بدايته في ميدان التحرير. فكرت أن أقوم بهذه الجولة اليوم. الرفيق علي الكبير يسكن في شارع يوسف الجندي والوصول إليه سهل عبر شارع محمد محمود.

الحر والشمس هما ما كانا يضايقاني. اتضح لي أنها مسافة ليست بالقليلة. لقد عبرت شارع الجلاء ثم شارع رمسيس. رأيت أمامي دار القضاء العالي ذات البناء الجميل. عرفت فيما بعد أنه رغم تصميمها الإيطالي الطراز فمصممها مهندس مصري اسمه محمد كمال إسماعيل. مشيت في شارع 26 يوليو فرأيت على يساري سينما ريفولي تعرض فيلم «غابة من السيقان»، أكيد وجبة دسمة. هنا مرفت أمين ونيللي ومحمود ياسين ومحمود عبد العزيز والمخرج حسام الدين مصطفى. هذه هي دار السينما التي كانت أم كلثوم تقيم فيها حفلاتها الشهرية. توقفت

أم كلثوم عن الغناء الآن. قيل إن السبب هو خلافها مع جيهان السادات لأن سيدة الغناء حدثت السادات مرة بعد أن صار رئيسا بلا تكليف كما كانت تتحدث معه أيام عبد الناصر. على أي حال لقد كبرت أم كلثوم وشاخت وكان عليها أن تعتزل الغناء في وقت مبكر. لا بد أن دورها بعد هزيمة 1967 في جمع التبرعات من العالم العربي والأوربي في حفلاتها جعلها تستمر في الغناء أكثر.

الناس تقريبا تجري في الشارع العريض الواسع. باعة جائلون جوار الأرصفة يبيعون ملابس مستوردة. ليسوا كثيرين لكن لا بد أنهم سيزيدون في الأيام القادمة ما دامت المحافظة سمحت لهم بذلك. رأيت دورة مياه عامة فدخلتها لأفرغ مثانتي. خرجت ومشيت خطوات لأدخل في شارع طلعت حرب. رأيت كافتيريا الأمريكين على يميني. خلف زجاجها رجال ونساء في ملابس أنيقة. بعضهم يشرب البيرة أيضا. أنا الآن جائع. لا أعرف أسعار الأمريكين. ربما أشرب فيه كابتشينو يوما مع كرواسون أو باتيه، أو آكل فيه الآيس كريم الجميل. كل ذلك سمعته في أحاديث العمل. لن يكلفني ذلك كثيرا. موعدي مع علي الكبير الساعة الثالثة والنصف. ليس أمامي إلا أن أستمر في الطريق الطويل الذي اخترته لنفسي متصورا أنه غير ذلك. مررت على سينما مترو التي كانت تعرض فيلم «جاتسبي العظيم» لروبرت ريد فورت وميا فارو المأخوذ عن الرواية الشهيرة لسكوت فيتزجيرالد. كم مرة تم تحويل هذه الرواية العظيمة إلى فيلم حتى الآن؟ ثلاث أو أربع. وسينما ميامي

تعرض فيلم «أين عقلي» لسعاد حسني، وسينما راديو تعرض فيلم «بذور التمر هندي «tamarind seed» وهو فيلم لعمر الشريف الذي أوحشني جدا بحق. ستتيح لي القاهرة عالما من الثقافة لا ينتهي المهم هو أن أقدر عليه. مشيت أنظر إلى الكافتيريات والمحلات. كافتيريا «روي» التي تبدو متسعة من الداخل على يميني وكافتيريا «إكسلسيور» بعد سينما مترو على يساري نوافذها تطل على شارعي طلعت حرب وعدلي يكن أحد زملاء سعد زغلول في ثورة 1919 الذي انشق عنه وأسس حزب الدستوريين الأحرار الأكثر تفاهما مع الإنجليز. محلات الملابس حولي رائعة. رائحة البارفان لا تنقطع. الفتيات مرتديات الميكروجيب أو الجونلات والفساتين القصيرة أو الفساتين الشانيل ويعلقن على أكتافهن حقائب جميلة ويسرعن. شعر النساء هنا يحتاج بحرا يهب منه الهواء ليطيره لأراه يرفرف! وجدت نفسي في ميدان طلعت حرب. أمامي تمثال طلعت حرب. كان مكانه يوما تمثال سليمان باشا الفرنساوي. لذلك يقول الناس شارع سليمان، حديث زميلاتي كلهن كان يذكر شارع سليمان، كذلك سعيد وعمر إبراهيم وأنا أقول طلعت حرب. هذه الرواية قد لا تنشر إلا متأخرا جدا. سيكون جيل سليمان قد اختفى من الوجود. على يميني وجدت ما سمعت عنه، فرشة كتب المعلم مدبولي، والذي تأتي سيرته كثيرا في أحاديث عمر إبراهيم، فكل الكتب الجديدة هنا والممنوعة أيضا. الآن أستطيع أن أمر عليه. لا بد أنه هو الرجل الذي يرتدي الجلباب القطني البيج، هذا الذي ينثني على الكتب ينقل بعضها من مكانه ويعود ليقف. أنا هنا في القاهرة فلن أتعجل. كل شيء في يدي

الآن. الأماكن والناس. وما لن يقوله سعيد لي أعرفه من قراءاتي السابقة، أو سأقرأ عنه وأعرفه.

مشيت عابرا الميدان. طبيعي جدا أن أنظر إلى جروبي ومن يجلسون خلفه يشربون البيرة من خلف نوافذه التي تطل على شارعي محمود بسيوني وقصر النيل. لماذا حددت الثالثة والنصف موعدا. كنت أستطيع تأخير الموعد للسابعة حتى أظل أمشي ثم أجلس في أي مكان أريده. لا تتعجل يا صابر. ليكن لك من اسمك نصيب!

درت حول الميدان عابرا جروبي إلى الناحية الأخرى. عبرت شركة إير فرانس التي على يميني. هذا فأل حسن. هذه أول شركة طيران أرى مكتبها في القاهرة. من يدري ربما أركب طائرتها يوما. فرنسا. ياللحلم. ضحكت أنا الذاهب إلى لقاء رفيق في حزب سري قد يكون سببا في قضاء عمرنا كله في السجن. استر يا رب.

عبرت الشارع ومشيت يمينا فوجدت مقهى ريش على يساري. هنا يجلس كل كتاب اليسار. هنا مقهى ريش ذو الشهرة الكبيرة في تاريخ السياسة والثقافة الذي أعرف عنه الكثير رغم أني لم أجلس به بعد، كان صاحبه الأول ألماني وافتتحه عام 1908 ثم اشتراه منه فرنسي اسمه هنري بيير وسماه «ريش» وصممه على غرار مقهى ريش في باريس ثم اشتراه يوناني يهودي اسمه ميشيل بوليدس ثم اشترته عائلة عبد الملك وحافظوا حتى الآن على روحه العالمي في الأطعمة الأوربية وروحه الشرقي أيضا والذي يجلس به نجيب محفوظ مساء كل يوم جمعة والذي لا بد سيكون ملاذي وطريقي بين الكتاب.

رأيـت الرجل الأربعيني الذي كان يعرض طفله للبيع جالسـا يشـرب البيرة في صمت. هو نفسه لا أخطئه. فقط صار قميصه أنظف.أمامه علبة سجائر كليوباترا فوقها ولاعة رونسون. لا أحد يجلس معه. إذن هو أديب كمـا قيل عنـه. يجلس خلفه في الممر الطويل الذي يشـغل المقهى جزءا منـه، عـدد كبير من الأجانـب والمصرييـن أمامهم البيـرة والطعام. على يسـار الناظر للمقهى وفي أول الممر كشـك خشبي صاحبه يطل منه على الزبائن. يبيع السـجائر والبسـكويت والشـيكولاتة. لن أدخل ريش اليوم رغـم ما يصعد في صـدري من رغبة أن أجلس قريبا من الرجل الأربعيني وأتعرف به وأعرف اسمه. مشيت إلى الميدان. وجدت على يميني محل فلفلـة. لافتة فقـط. هل يمكن أن أدخل من الباب أطلب سـاندوتش فول وآخر فلافل آكلهم في الطريق. لكن بابه ليس على شـارع طلعت حرب. عدت إلى الخلف قليلا فرأيت بابه في الشـارع الواسـع الذي بين العمارة التي بها ريش وعمارة فلفلة. نظرت إلى اللافتة التي تحمل اسـم الشارع. شارع هدى شعراوي. طلعت حرب وهدى شعراوي. عدلي يكن وعبد الخالـق ثـروت اللذين عبرتهما في طريقي ومحمـد محمود الذي أذهب إليه شيء رائع. ثورة 1919.

مشـيت مبتسـما حتـى وصلت إلـى شـارع التحرير فعبرتـه إلى محل عصيـر القصـب. لا بـد أن أشـرب كوبا مـن العصير الآن أرد به شـيئا من الجـوع. كان هناك خمسـة وربما سـتة أمام البائع. بسـرعة أعطاني كوب العصير بقرش صاغ. وقفت أشـرب منتشـيا أنظر إلى امتداد الشارع الذي لا أعرف إلى أين ينتهي. اتسـعت عيناي على آخرهما. هي وليس أي فتاة

أخرى تأتي مسرعة. هي التي احتكت بي الأسبوع الماضي وإن صار على كتفها حقيبة معلقة، وإن ارتدت فستانا طويلا ينزل تحت ركبتيها. شعرها لا أنساه، واتساع عينيها. المدهش أنها ابتسمت لي. إذًا ربما تذكرني أو تعرف ما أفكر فيه. عبرت أمامي واستدارت إلى اليسار وأنا الذي انتهيت من العصير بسرعة لألحق بها. لم أرها أمامي. اختفت. رفعت عينيّ إلى أعلى الكوبري الدائري فوجدتها قطعت مسافة كبيرة منه. إلى هذا الحد هي مسرعة. يالفتيات القاهرة. قلبي يحدثني أن هذه الفتاة ستكون لي يوما. في الحقيقة تاقت نفسي إليها. مشيت على مهل حتى مقهى أسترا. تطلعت إلى العمق فيه من خلف الزجاج. لم أجد الرفيق الأكبر عامر فضل عامر. ابتسمت ودخلت شارع محمد محمود. على يساري في أول زقاق رأيت على ناصيته فرش كتب كبير. على يميني رأيت لافتة الجامعة الأمريكية. بعدها رأيت على يميني أيضا سور المدرسة السعيدية. بعد سور المدرسة رأيت شارع يوسف الجندي يمتد على الناحيتين. يوسف الجندي الذي أعلن مدينة زفتى دولة مستقلة عن مصر المحتلة، وأسماها إمبراطورية زفتى تفاؤلا وعنادا في الإنجليز إبان ثورة 1919 ورمزا على إمكانية الاستقلال. يبدو فعلا أن هذه المنطقة كلها لزعماء مصر في الفترة الليبرالية بعد ثورة 1919. ما قرأته من كتب التاريخ يستيقظ في روحي الآن.

عرّجت يمينا في شارع يوسف الجندي. تماما كما شرح لي الرفيق علي الكبير. قال لي ضاحكا في التليفون: لا تمشِ كثيرا وإلا وجدت نفسك في شارع الشيخ ريحان أمام وزارة الداخلية وأمن الدولة.

هـي العمـارة الثانية على اليسـار أيضـا. عمارات الشـارع ليسـت عالية. أربعـة أدوار أو ثلاثـة فقط. قليل منها خمسـة أدوار. كلهـا ذات بلكونات واسـعة عريضة الواجهة تكشـف عن الذوق الأوربي في العمارة. لم تمر في الشـارع غير سـيارة واحـدة. لم يكن مركونـا على جانبيه أي سـيارة. لا محـل واحـد في العمـارات. نوافذ الدور الأرضي مفتوحـة في أكثرها تلمح خلفها من يتحرك.

هدوء الشـارع وطراوة الجو والظل فـي مدخل العمارة كانت بواعث راحـة لي بعد هذا المشـوار. صعدت إلى الـدور الثاني ووقفت أمام باب الشقة لحظة. لا أرقام. كان علي الكبير قد قال لي الشقة اليمنى فليس في الدورغير شقتين. ضغطت على زر الجرس وسمعت صوته عاليا يدق في الداخـل. نحن ككتاب لا يمكن أن نلتقي بالأسـماء الحركية رغم أني لم أنشـر شيئا بعد وهو نشـر عددا قليلا من القصص القصيرة. من هنا سأبدأ رحلـة كبيرة في عالم السياسـة فهل سـيحدث؟ فلأجرب. قـد يكون هذا طريقي إلى الشهرة أيضا.

انفتحـت شـرّاعة البـاب. رأيـت خلفهـا شـخصا يتحـدث هامسـا وبسرعة:

- اسـمع يا صابر هناك مشـكلة. صديق لي حضر فجأة قبلك بدقائق. نلتقي مرة أخرى أفضل. ما رأيك؟

كان يقول ذلك وأنا أتأمله. شـاب في حوالي الخامسة والعشرين. في عمري تقريبا. لا. أنا في السـابعة والعشـرين. أقصر مني قليلا لكن شعره

أكثـر غزارة ويميل إلى التجعيـد.كان يرتدي بنطلون جينز وقميصا نصف كـم. ما كاد ينتهي من كلامه، وقبل أن أخرج من تأملي له وحيرتي بعد أن استمعت إليه، حتى ظهر خلفه شـا ب آخر يبدو أكبر سنا لكن أكثر نحافة والصلـع بادٍ في رأسـه، يرتدي بدلة في هذا الجو الحار ويبتسـم ابتسـامة مريحة تتوسط وجهه النحيل ويقول:

- ماذا يا علي. كل هذا الوقت لتفتح الباب؟ خوفتني يا جدع.

ثم نظر إليّ وقال:

- الحمد لله لا مشكلة. ظننت زوجتي هي التي جاءت خلفي؟

وعاد قاطعا الصالة الواسعة التي ليس بها إلا أربع مقاعد من الخشب عليهـا شـلت عريضة، وثلاجة فـي ركن واضحـة لي وتلفزيـون. ودخل الغرفـة المفتوحـة على الصالة والتـي أرى منها جانبا مـن الأثاث. أريكة كبيرة مركونة على الجدار ولا بد أن هناك مثلها يقابلها. قال علي مبتسـما ومتحيرا:

- لا مفر من أن تدخل.

فتـح البـاب. عبرنا الصالة التي كان في وسـطها بيـن المقاعد «كليم» كبيرقديـم وفـي منتصفه منضـدة منخفضة طويلـة عليها كوبـان فارغان. هـذا بيـت أعـزب. لا بـد؟ كان هناك بـاب آخر واضـح أنه لغرفـة مغلقة لا بـد أنها غرفة النوم. دخلنا الغرفة التي بها الأرائك العربية والتي سـبقنا إليها صديقه الذي لم يقف يصافحني. كان جالسا مبتسما ويمسك بشيء

مستطيل في يده ملفوف بالقماش ولا يزيد طوله على عشرين سنتيمترا وعرضه عشرة سنتيمترات وارتفاعه ربما خمسة، ويشمه ويبتهج وأمامه على المنضدة المنخفضة التي تشبه زميلتها في الصالة قطع مستطيلة أخرى كثيرة جوارها سكين صغير. على الجدران صور لجيفارا وكاسترو وياسر عرفات. قال علي يقدمنا لبعضنا:

- صابر سعيد، ناقد. الفاروق أبو أحمد، مترجم.

كيف عرف أني ناقد حقا. لا بد أن الرفيق عامر أخبره بكل شيء. ابتسمت. كانت ابتسامة الفاروق لا تنقطع وهو يقطع بالسكين قطعة من المستطيل الذي كان يشمه، ووضعه الآن على المنضدة. في الحقيقة كان ما يشمه تملأ رائحته الغرفة. كان لون القماش الكاكي الملفوفة به اللفائف قد سبق لي رؤيته من قبل في برامج تلفزيونية عن المتهمين ومن بينهم مهربو الحشيش، الذين كانوا دائما يقفون للتصوير خلف قطع أكبر من هذه، أو ما يسمونه «ترب الحشيش» التي لم أقابلها من قبل أبدا. إذن ما أراه وما أشمه هو حشيش، فهل دخلت بيت مثقف شيوعي حقا أم مركز تهريب وتجارة في المخدرات؟

أمسك الفاروق أبو أحمد القطعة التي قطعها بالسكين وقال: «الله. حشيش مغربي أصلي»، ثم نظر لي وقال:

- لا تؤاخذني إذ ظننتك زوجتي. علي سيحكي لك كل شيء. المهم خد شم وقل لي رأيك.

ضحك علي الذي كان قد خرج وعاد بسرعة يحمل أنواعا مختلفة من الجبن، وبيضا مسلوقا واضحا أنه كان أعده قبل حضوري، وشرائح من البولبيف والبسطرمة، وضعها كلها على المنضدة بعد أن أزاح قطع الحشيش الكبيرة إلى الجانب وقال:

- لماذا فعلت ذلك يا فاروق؟ زوجتك يا أخي تحبك ومتحملة سفرك الكثير إلى الواحات وكل أعمالك المهببة.

قال الفاروق:

- حضرت في الليل فوجدت ورقة على ترابيزة السفرة تخبرني أنها سافرت إلى المصيف مع أهلها. كنت أخفي عشرين جنيها بين الكتب لا أعرف كيف توصلت إليها فلم أجدها. لم أحضر معي هذه المرة حشيشا من الواحات معتمدا على العشرين جنيه التي هنا. صرفت كل ما معي من نقود هذه المرة على مصادري للفنون الشعبية هناك. أنا أصرف على الكتاب الذي أعده لذلك من جيبي. الجريدة لا تدفع لي مليما. فقط لا تعتبرني غائبا عن العمل.

لكن علي الكبير الذي سمع هذا كله قال في حسم:

- ليس هذا مبررا أبدا لما فعلت.

حتى الآن أنا لا أعرف ماذا فعل الفاروق. لا بد أنه شيء كبير. قال :

- خلاص يا علي. أثاث بيتي أنا حر فيه. بعته واشتريت به حشيشا. المهم قل لي رأيك في الحشيش. بخمسمئة جنيه يا محترم. غرفة نوم

وغرفة صالون وغرفة سفرة عملناهم بألفين جنيه بعتها بخمسمئة وتركت لزوجتي كل الهدوم على الأرض. يكفي أني لم أبع المطبخ ولا الهدوم.

ثم ضحك بقوة واستمر يضحك ويسعل ويحمر وجهه حتى توقفت الكحة وقال:

- شكلها افتكرتني. روح يا علي هات الجوزة والنار خلينا ننبسط ونبسط صديقك الناقد.

في الحقيقة كنت قد تباعدت عنهم بذهني لأتذكر اسم هذا الشخص العجيب. قرأت له بالفعل أكثر من مقال مترجم في بعض المجلات الأدبية.

خرج علي الكبير مبتسما من الغرفة ففوجئت بالفاروق يسألني:

- أنت ناقد بحق؟

- أحاول.

- الحشيش للمبدعين فقط. لكن لا بأس ما دمت ضيفا.

ابتسمنا. عاد علي يحمل الجوزة والمعسل ووضعها على الأرض ثم خرج ليعود بالفحم المشتعل وثلاثة «حجارة» للجوزة لا بد سنغيرها كثيرا ونملأها كثيرا بالمعسل والحشيش مما يبدو من احتشاد الفاروق الذي عاد يضحك ويسألني:

- عمرك شفت خراب بيت بالطريقة الحلوة دي؟

ويبتسم وعلي يبتسم وأنا صرت أبتسم ولا أستطيع أن أخفي دهشتي.

قال علي بعد أن سحب أكثر من نفس من الجوزة:

- لا أستطيع أن أحتفظ بأي حشيش هنا. أنا لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث من زوجتك يا فاروق.

قال الفاروق:

- هل تتصور أني سأتركه عندك وأنت يأتي إليك كل حشاشي مصر. سأبيت الليلة فقط عندك وغدا أسافر به إلى الواحات بلد الحشيش الرباني يا جدع. منها لله مراتي مدوخاني بالحشيش في البلاد.

7

بعد شهر تقريبا من لقائنا كان اللقاء الثاني مع علي الكبير ومعه أعضاء الخليـة. كنا في الأيام الأخيرة من سـبتمبر. هكذا حددنـا الموعد متأخرا مضطرين لأن المطرب الثوري زكريا فخري كان في رحلة إلى بيروت.

لم أشـغل نفسـي بمـا أراه في طريقي هـذه المرة. لم يمـضِ عليّ غير شـهرين هنا لكني فجأة أحسسـت أن لا شيء يشـد انتباهي. كيف حدث ذلـك؟ لا أعـرف. حتى الآن لم أكتب شـيئا في البنسـيون. اشـتريت عدة كتب من سور الأزبكية. قلت لنفسي سأترك الكتب التي تأتي من بيروت أشـتريها بعد أن أنشر وأحصل على مكافآت تساعدني. مرتبي هو مرتب خريج الجامعة. ثمانية عشر جنيها. يضيف إليه عمر إبراهيم حوافز تصل إلـى خمسـة جنيهـات. أدفع لفيولا كل شـهر تسـعة عشـر جنيهـا. بدأت أشـعر بالقلق من الفقـر، ومن ثم لم أعد أتحدث كثيـرا في أوقات العمل مع زميلاتي. شـرحت المسألة لعمر حين سـألني لماذا أنا صامت معظم الوقت. زميلاتي أخبرنه بهذا الصمت. انشغلن عليّ كما قال لي.

قال إنه سـيجد طريقة يساعدني بها. سيرسـلني دائما مع أي كاتب أو صحفي يدعى لندوة في الأقاليم. سـأنزل معه فـي نفس الفندق، وأركب

معه نفس القطار المكيف، وأتقاضى بدل سفر ممتازا. المهم أستطيع البقاء الآن في القاهرة. وسأستطيع أكثر إذا نشرت مقالاتي في الصحف.

ذهبت إلى علي الكبير لأقابل أعضاء الخلية وفي ذهني أن أعرف منهم طريق النشر، ومن من مسئولي المجلات والصحف يمكن أن أتعامل معه بسهولة دون أي حسابات من طرفه على الأقل.

وقفت أمام الباب أنتظر أن يفتحه. تساءلت مندهشا فجأة لماذا حقا لم تظهر الفتاة التي رأيتها في طريقي مرتين قبل ذلك قادمة من شارع التحرير.

فتح علي الكبير الباب مرحبا. دخلت معه لأجد في الغرفة الداخلية أعضاء الخلية الآخرين. كانت الساعة الخامسة بعد الظهر. اخترنا موعدا لا يتصور أحد أنه يصلح لشيء. لم يكن أمامهم في الغرفة أي طعام أو شراب. عدد من الكتب اشتراها أحدهم. عرّفنا علي الكبير ببعضنا. المطرب الثوري زكريا فخري والشاعر سراج منير الذي تذكرت على الفور أنه هو الذي كتب مسرحية «تقدم يا وطن» التي اشتهرت وأخرجها سعيد صابر بعد حرب أكتوبر. كان بطلها المطرب الجالس معنا الآن. إذن هي مجموعة عظيمة. جعلنا جدول أعمالنا هو وضع خطة قراءة ومناقشة كتاب كل شهر حتى الصيف القادم. لم تكن كلها كتبا ماركسية. كان من بينها كتب أدبية. الروايات والدواوين العربية التي تصل من الخارج. مناقشة ما يحدث في الحياة الثقافية. متى نصدر بيانا مضادا لسياسة السادات، أو نشترك في بيان يضعه الآخرون. استغرقنا ساعة نضع هذه الخطوات. ما كدنا ننتهي حتى قال الشاعر سراج منير:

- أكيد عندك بيرة يا علي.

- بيرة وحشيش. لقد ترك لي الفاروق منذ شهر قطعة كبيرة سننهي ما تبقى منها اليوم.

تركنا وأحضر البيرة وقطعة الحشيش التي أمسكها الشاعر وشمها وقال:

- طبعا. هذا هو الفاروق بجد.

ضحكنا لكن المطرب الثوري وقف وقال إنه لا يستطيع البقاء أكثر فهو مرتبط بموعد مهم وسيتركنا رغم إغراء الحشيش. صافحنا وتمنى لي إقامة طيبة في القاهرة.

راح علي يلف السجائر بالتبغ المملوء بقطع الحشيش ويوزعها علينا. لم نتوقف عن مناقشة أحوال البلاد. أحببت الحشيش من المرة السابقة التي قابلت فيها الفاروق هنا، لكن لم يكن ممكنا لي شراؤه. أقصد الجرأة على شرائه من الباطنية. يقول علي الكبير إنهم يقفون في طابور طويل. جوار بائع الحشيش يجلس دائما ضابط بوليس شاب يحمل رتبة ملازم أول أو ثانٍ. ذلك يحدث في الغرز أيضا. قلت:

- أسمع قصصا غريبة هنا. لم أكن أتخيل ذلك.

قال سراج منير:

- أنت لم ترَ شيئا من القاهرة بعد. دمياط بلدكم بلد خشب وقشرة.

ضحكنا. استطرد:

- دمياط كانت زمان. أيام أنور وجدي في العصور الوسطى لما عمل فيلم «أمير الانتقام»!

ضحك علي الكبير وأنا ابتسمت مندهشا. هذا الفيلم مصنوع في الخمسينيات ومأخوذ عن قصة «سر المونت كريستو». لا يعني أن أحداثه قديمة في العصور الوسطى أنه مصنوع وقتها. إذن بدأ سراج منير ينسطل. قال علي الكبير:

- طبعا أنت لا تنسى هذا الفيلم لأن الشرير كان الممثل سراج منير.

هنا أخذ سراج منير نفسا عميقا من السيجارة وقال:

- شكلي الليلة ح ألف قصيدة موزونة!

ضحك بينما راح يتأمل السيجارة التي صار يرفعها بيده أمام وجهه، لكن دق الباب. تبادلنا النظر في دهشة:

- من هذا؟ لم أعطِ موعدا لأحد!

قال علي الكبير ذلك فقال سراج منير ضاحكا:

- قم يا علي. هل يأتي أحد هنا بميعاد غيرنا يا رجل؟ لا تقلق. أمن الدولة يأتون في الفجر.

قال علي:

- حتى لو الآن. فرصة يحششوا معانا.

ضحكنـا واتجه علي إلى الباب وسـمعناه يقول «أهـلا » بصوت عالٍ ويمد فيها كثيرا ليعود وخلفه شاب قوي البنيان يبدو أكبر منا جميعا أطلق لحيتـه قليلا ووجهه يكاد ينفجر من الحمـرة. على كتفه تتدلى مخلاة من القمـاش منبعجة قليلا بالقليل الذي فيهـا وعليها صورة لوحيد القرن. ما إن رآه سراج منير حتى قال وهو يعود بجسمه إلى الوراء ويضحك:

- الآن كملت بأحمد عبد السلام الجوّال الأفريقي. اجلس.

لـم يقـف ليصافحـه. مـد له يـده فصافحـه أحمد مبتسـما ثم مـد يده يصافحني فقدمني علي إليه. جلس ومد يده مباشرة إلى سيجارة ملفوفة. كان يرتـدي بنطلـون شارلسـتون وفتـح أزرار قميصه العلوية فبدا شـعر صدره غزيرا. قال بعد أن أشعل السيجارة:

- رائحة الحشيش تملأ السلم. الله يخرب بيوتكم.

وقدمـه علي لـي باعتباره موظفا في الأرصاد الجويـة، لكنه في إجازة دائمة لأنه يحب التجوال على الأقدام في بلاد أفريقيا. لماذا؟ لأنه يبحث عن البلاد البكر التي لم تتلوث بالتكنولوجيا بعد.

بدا لي أنني لن أرى هنا إلا الغرائب. أو كما قال سراج منير لم أرَ شيئا بعد. ونظر أحمد عبد السلام إليَّ وقال:

- طبعا أنت تسـتغرب مما سمعت، وشكلك من خارج القاهرة. مثلنا أتيـت لتجد لك مكانا في الحياة الأدبية. شـوف. مـن أولها لن تجد أحدا محترما على وفاق مع النظام السياسـي. يعني سـتعمل بالسياسة شئت أم أبيت. هل تعرف معنى ذلك؟

ابتسمت. قلت وأنا أشد نفسا من السيجارة:

- تقريبا لا.

ضحك سراج منير وعلي الكبير وتبادلا النظر. لا بد أنهما يقولان عني سطلت أو أتباله على أحمد عبد السلام حتى لا يفكر أني مهتم بالسياسة. لكن أحمد عاد إلى الحديث جادا:

- طبعا ذهبت إلى مقهى ريش. أو ستذهب. ستجد كل من حولك يحاول أن يقنعك بوجهة نظره. وإذا فكرت أن تكون مثلهم ستفعل ذلك مع الآخرين. أما إذا اشتركت في حزب سري يا جميل...

انتبهت لما يقول. وضع كل من علي الكبير وسراج منير رأسه على المنضدة كأنه لم يسمع، وظل أحمد عبد السلام يتكلم:

- فستجد نفسك كذابا لأنك تحاول أن تستقطب أعضاءً للحزب فتزين لهم سهولة الثورة وهي صعبة. ومع زملائك في الحزب لا تستطيع أن تعبر عن يأسك ولو مرّة. يعني باختصار تكذب على الناس وعلى نفسك.

فكرت خلاصا من الموقف كله أن أنهض لأنصرف. لكني فكرت أن ذلك قد يلفت انتباهه. سألته:

- يعني كل الكتاب في ريش ثوريين؟

- حتى الذي ليس ثوريا يصبح ثوريا. أكثرهم أعضاء في أحزاب يسارية سرية. المشاهير منهم قبض عليهم كثيرا. غير المشاهير في الطريق إلى السجن أو يسعون ليدخلوه!

ارتبكت بالفعل لكنه قال:

- الحشيش دا حلو أوي جايبينه منين؟

طالت جلستنا حتى وصلنا إلى الساعة العاشرة. أعلن أحمد عبد السلام أنه سيبيت هنا. وجدت رغبة أن أستقبل الهواء وأنا في حالتي بعد الحشيش. نزلت مع سراج منير. خرجنا إلى شارع محمد محمود فلم أجده جواري. لا بد أنه أخذ اتجاها آخر دون أن يدري أي منا بالآخر. تذكرت ما ودعني به أحمد عبد السلام قائلا: «ربما لا تراني مرة أخرى، لكن لا تنسَ ما قلته لك. سأسافر بعد أيام إلى شرق أفريقيا ليس معي غير هذه المخلاة بها غيار داخلي وقميص وبنطلون».

***

رغم أننا كنا في نهاية سبتمبر، كان الحر لا يزال شديدا في القاهرة. لا سحب سوداء كالتي أراها فوق البحر والبر في دمياط ورأس البر. وصلت إلى ميدان التحرير في وقت طويل جدا من أثر الحشيش! الحشيش يجعل الزمن لا ينتهي. ربما. المؤكد لي الآن أنه يخرجني من الزمن.

في اللحظة التي رأيت فيها الميدان أمامي واسعا بلا نهاية رأيت الكوبري العلوي أيضا. لا سيارات تقريبا تعبر الميدان. لا أحد من ماسحي الأحذية يجلس في مكانه. فقط مقهى أسترا به عدد من الجالسين بدوا لي أقل كثيرا ممن رأيتهم من قبل. لا أحد فوق الكوبري ولا تحته يعبر الميدان كما يحدث بالنهار. لا أحد ينزل أو يصعد السلم. هل يمكن؟ لا بد أن هناك بشرا وسيارات وأنا الذي لا أراها. فلأصعد

الكوبـري المعدنـي خلاصا من أي كارثة ممكــن أن تحدث. كان الهواء، وهنـاك قليل منـه الآن، يزيـد من أثر الحشـيش عليّ. صعـدت الكوبري أمسـك جانب السـلم بيدي بقوة وعلى مهل. لـم أحـاول أن أنظر خلفي. مشـيت على الكوبري جوار جداره الذي كنـت أحتك به أحيانا. ما الذي جـرى لي وكيف لا ينتهي الكوبري. وقفت عليه أنظر إلى الميدان تحتي. رأيت عددا من السيارات حقا. انحنيت أكثر حتى انتبهت إلى أني قد أفقد توازني وأسـقط. طولي قد يكون السـبب. حسدت سعيد. ضحكت. هل أحسـده حقا على قصره؟ الذي بنى هـذا الكوبري هو الأحمق. كان عليه أن يضع عليه لافتة: مخصص لقصار القامة فقط!

ما كدت ألتفت لأسـتمر فـي طريقي حتى وجدتها قادمـة. الفتاة التي رأيتهـا مـن قبـل. لا بد أنها عائـدة الآن إلى حيث خرجت مـن قبل. لا بد أنهـا تسـكن في حـي عابدين أو السـيدة زينب. هذه الأحيـاء التي عرفت أنهـا قريبة بعـد ميدان باب اللوق ولـم أدخلها بعد. وقفت أتأملها وسـط الكوبـري فوجدتها تبتسـم وهي تقتـرب مني. صرنا أمـام بعضنا فتوقفنا. كان وعيي يزداد الآن بحيث أعرف ماذا أفعل وإن كنت أغيب عن الوعي بعد ذلك. في اللحظة التي غبت فيها بوعيي عنها قالت:

- ما لك؟

- لا شيء. أنا بخير. هل تأتين معي؟

- أين؟

لابـد أني غبت عن الوعي مـن جديد. إذ وجدتهـا تضحك وأنا أعود أتكلم:

- روكسي.

أمسكت بذراعي وانتحت بي جانبا حتى سور الكوبري وقالت:

- بعيد جدا. لكن..

أمسـكت بذراعهـا وأخذتها في اتجاهـي ومشـينا. كان هناك رجلان يأتيان من خلفنا ما كادا يعبرانا حتى التفتا يبتسمان لنا ثم واصلا طريقهما أسرع منا.

نزلنـا من الكوبـري المعدني إلى موقف الأوتوبيسـات. رأيت أضواء فنـدق هيلتـون أمامـي وعلـى يمينـي ظـلام أمـام المتحـف المصـري. المنتظـرون كثيـرون وليـس كما توقعت. مـا إن حضـر الأوتوبيس رقم 44 وركبناه حتى وجدناه يتسـع للراكبين. بل ظلت بعض المقاعد خالية. طبعا يا صابر هناك من ينتظرون أوتوبيسـات أخرى. المحطة ليست لرقم 44 فقط. ابتسـمت. أحسسـت برغبة في النوم فانحنيت ووضعت رأسـي علـى الحافـة المعدنية للمقعد الـذي أمامي. نمت. اسـتيقظت ذاهلا عن مكانـي ومـن معي. رأيت سـور قصر القبـة عاليا والحديقـة أمامه مظلمة إلا مـن مصابيـح قليلة شـحيحة الضوء. نظـرت حولي فأدركـت أني في الأوتوبيس. نظرت إليها ثم أشحت بنظري عنها. قالت هامسة:

- صح النوم. أخفتني. كنت سأوقظك لأني لا أعرف أين سننزل.

أدركت أنها معي. شعرت بوجهي يتجمد لحظة. قالت:

- دفعت ثمن التذكرتين.

لـم أرد. كنـت أفكر فيما جرى وفيما سـأفعل حقا. هـل أدخل بها من البـاب؟ لا بـد أن فيولا سـتكون نائمـة. لكن مـاذا يمكـن أن يحدث إذا اسـتيقظت فجأة في نفـس اللحظة ورأتنـا. الأفضل أن أعطي هـذه الفتاة جنيهـا أو اثنين الآن أو بعد أن ننزل وأتركها تعود. لكنها جميلة بحق. في المرتين اللتين رأيتها فيهما تمنيت أن أفوز بها. سأخبرها بالأمر وليكن ما يكون. إذا عادت فلن أكون السـبب. إذا وافقت فليجرب سـعيد القفز من البلكونة والبقاء في المقهى حتى الفجر.

ما كدنا ننزل في شارع طومان باي حتى قالت:

- لن أجد أوتوبيسات عند العودة. سنكون تأخرنا.

أدركت ماذا تقصد. أن أنتبه إلى ما أدفعه ليشـمل أجرة التاكسي الذي لا بد ستعود به. أدركت لماذا أخبرتني بأنها دفعت ثمن التذكرتين.

وقفت بها على ناصية شارعنا مع شارع طومان باي وقلت لها:

- هل أنت شجاعة؟

ارتبكت لحظة وقالت:

- لماذا؟

سكت لحظة ثم ضحكت وقلت:

- لن أستطيع أن أدخل بك من الباب. أنا أسكن في بنسيون وصاحبته تمنع دخول النساء. سأدخل من الباب وأفتح البلكونة تصعدين منها.

- يا خرابي. بنسيون وبلكونة. كم واحدا في البنسيون، والبلكونة في أي طابق؟

ضحكت. قلت:

- هي تسميه بنسيونا لكنه شقة لا يسكن بها غيري وصديق لي في نفس الغرفة وشخص ثالث لا يأتي كثيرا في غرفة أخرى، وهي في الغرفة الثالثة. يمكن أن ندخل من الباب لكن يمكن أن تستيقظ في نفس اللحظة لتذهب إلى الحمام مثلا وترانا.

قالت في دهشة:

- وكيف أصعد البلكونة؟ أنت مجنون.

ضحكت وأمسكت بذراعها وقلت:

- سأضع لك مقعدا تصعدين عليه وتدخلين. نحن في الطابق الأرضي. لا يرتفع كثيرا عن الأرض. سلاملك.

- وصاحبك؟

- سينزل على نفس المقعد ويمضي الوقت في المقهى.

وأشرت إلى المقهى القريب ثم قلت:

- هو يفعل ذلك أيضا وأنزل أنا للمقهى.

نظرت إليّ تضحك وتضرب كفيها. ضحكت بدوري وقلت:

- تجربة حلوة.

- إيـه الليلـة السـودا دي يـا رب. واحـد مجنـون وعايزنـي أنـط من البلكونـة. بس بصراحة أنت شـكلك حلو. ودا اللـي خلاني أضحك في وشك كل ما اشوفك.

تقدمت فمشـيت جوارها مندهشـا من موافقتها، وسـعيدا بصراحتها وأنهـا تذكرني كمـا أذكرها. دخلت بها مـن باب السـور المفتوح فرأيت غرفتنا مظلمة. سـعيد لا يزال في الخـارج. إذن لن يقفز من البلكونة هذه الليلة كما فعلت أنا من قبل. يا له من محظوظ.

قلـت لها أن تقف أمـام البلكونة دقيقـة على الأكثـر. تركتها ودخلت العمارة بسـرعة وفتحت الباب. صمت أشـبه بصمـت القبور في الصالة. بـاب غرفتنا المظلمة مفتـوح كالعادة. دخلت وأضـأت النور العادي. لم أغير المصباح. لن أقرأ الآن. سـأكتب! قلت لنفسـي ذلك وأنا أفتح باب البلكونـة. دخلتها وأدليت لها المقعد الذي صعدت عليه بسـرعة، ودون مساعدتي صارت تقف في البلكونة وتقول وهي تهز رأسها:

- يخرب بيتك.

دخلنـا الغرفة وأنا أضحك. قبل أن أغلق النافذة من جديد أخذتها في حضني.

- أطفئ النور.

همسـت فأطفات النور ونمنا على سـريري. ضحكـت فجأة بصوت عالٍ فكتمت فمها بيدي وهمست لها أن تنتبه. قالت هامسة من جديد:

- خد بالك. أنا بنت.

كان طعم شفتيها لذيذا مثل العنب. حقا مثل العنب. فلم أهتم بما تقوله. قلت لها ذلك هامسا فضحكت. كانت تهر هريرا غريبا وتضحك خلال ذلك ونسيت أن أحذرها مرة ثانية من رفع صوتها لأنها كانت لذيذة بحق. من جسدها تسري اللذة إلى يديّ، ثم إلى جسدي وروحي، وتزداد إذا اقتربت يداي من ثدييها أو بين فخذيها. مع الهرير الذي لم ينقطع صارت تعضني في ذراعي وصدري وتضحك. تعض عضا حقيقيا آلمني ورحت أخلص نفسي من فمها كثيرا. في لحظة وضعت شفتي السفلى بين أسنانها فكادت تقطعها فقرصتها أنا من خدها لتترك شفتي وقلت لها في الظلام متألما بحق:

- مش ممكن.

- أنا كده.

قالت وهي تهر وتضحك. تحملت وفي النهاية استسلمت هي وراحت عن الوعي أو تخيلت ذلك أنا فما انتهيت من المضاجعة إلا وكانت أسنانها قد قطعت قطعة صغيرة من لحم كتفي.

ارتميت ممددا جوارها. أظلنا صمت لذيذ لكن في كتفي ألم يغيظ. كلانا كان ينظر إلى السقف وأنا أقول في نفسي متعجبا يابنت الكلب!

بعد دقائق صمت طويلة قالت هامسة:

- انت قبطي؟

- لماذا؟

- لأنـي رأيت على الحائط قبل أن تطفئ النور صور العذراء وسـيدنا عيسى.

سكت لحظة وقلت:

- هل يهمك؟

- لا طبعا لكن لأطمئن فقط.

لم أفهم ماذا تعني بالاطمئنان. هل هي قبطية مثلا لا تعاشر المسلمين، أم العكس؟ مثلها يطمئن ما إذا كان الشـخص نصابا أو شرطيا مثلا. بدت لي مسـكينة. تعمدت أن لا أرد. فجأة رأيت أمامي رأس سـعيد تظهر من خلف سور البلكونة. هي أيضا رأته معي. اضطربت وفزعت:

- إيه ده. مين ده؟

سـحبت بسرعة ملاءة السـرير فوقنا. انتبهت إلى أنني لم أرفع المقعد عن الأرض ولم أغلق نافذة البلكونة.

- لا تخافي. إنه صديقي الذي حدثتك عنه.

كان سـعيد قد دخـل الغرفة ووقف يضحك دون صوت ويهز رأسـه. قال وهو يغلق الباب من الداخل بالمفتاح.

- لم تغلق النافذة ولا باب الغرفة. يعني يمكن أن يدخل عليكما لص من الشباك أو مدام فيولا من الباب.

كنا ننظر إليه في دهشة ولا نرد؟ قال:

- أبقى أم أنصرف؟

نظرت إليها فقالت هامسة:

- مرة واحدة كفاية الليلة. لقد تأخرت كثيرا في العودة.

ثم ضحكت ولكزتني في صدري قائلة:

- والأيام القادمة كثيرة.

قلت لسعيد «انتهينا وستنصرف». طلبت منه أن يخرج إلى الصالة لترتدي ثيابها فخرج مبتسما ومندهشا. أغلقت أنا باب الغرفة خلفه هذه المرة. ارتديت ثيابي وقلت لها:

- لن أتركك إلا في تاكسي.

أشارت إلى باب الغرفة وسألتني:

- هل سنخرج من هنا؟

- الأفضل من النافذة طبعا وسأخرج معك أيضا حتى تركبين التاكسي.

نزلنا ورفعت المقعد لأعيده إلى البلكونة وأنا على الأرض. ضايقني أني لم أستحم بعد. شعرت بالبول ينحسر في مثانتي. قلت لنفسي سأودعها بسرعة.

مشينا في الشارع القصير الخالي الذي لا يبدو أن أحدا من ساكنيه يسهر في بلكونة. قلت لها فجأة:

- غريب أنني لم أعرف اسمك.

كنا نقف في شارع طومان باي ننتظر «تاكسي». قالت:

- هل يهمك؟ أنا أيضا لم أسألك عن اسمك.

رأينا تاكسـي قادما من بعيد. أشـرت إليه فهدأ من سـرعته. لا أحد في الشارع غيرنا والمقهى القريب. أخرجت من جيبي أربعة جنيهات وقلت لها قبل أن يتوقف التاكسي:

- كان بودي أن أعطيكِ خمسـة، لكن سأحتفظ بجنيه أشتري به دهانا أداوي ما أصابني من أسنانك.

ضحكت هي فقلت هامسا:

- هل تصورتِ أني سأصدق أنكِ عذراء؟

نظرت لي بدهشة وحيرة ثم ابتسمت وقالت:

- عجيـب، أول مـرة أعرف أني لسـت عـذراء، كويس إنـك قلت لي علشان آخد بالي بعد كده!

ضحكت أنا فأشـارت لي بيدها تودعني بعد أن توقف التاكسي أمامنا وركبته وتحرك بها. كيف حقا انصرفت دون أن نأخذ موعدا آخر. الطريق موعدنا وموعدها مع الرجال!

8

عرفت من زملائي في الخلية أنهم مقاطعون للنشر في صحف الدولة ومجلاتها. المجلات الثقافية الشهرية إذا نشرت فيها سيكون مرة أو مرتين في العـام، لكن هناك مكاتب صحفية لمراسـلة الصحـف العربية. بصفة خاصـة اللبنانية والكويتية والعراقيـة و يمكن أن أعطيها ما أكتبه أو أجري لهـا الحوارات مع الكتاب المعروفين أو عـروض الكتب. اقترحت على مدير إحداها أن أبدأ بعرض لكتاب باللغة الإنجليزية عنوانه «duality of vision- genious and versitality in arts» ازدواجية الرؤية. العبقرية والتنقل بين الفنون، مؤلفه اسمه والتر سوريل «walter sorell» عن كتّاب العالم الذين أبدعوا في جنسين أو ثلاثة من الفن معا، مثل إيزادورا دنكان التـي كتبت مذكرات مبهرة وكانت أعظم راقصة، أو سـتريندبرج الذي له لوحات تشكيلية جوار مسرحياته، أو فيكتور هوجو الذي له أيضا لوحات تشـكيلية جوار مسـرحياته وروايا‌ته، وغيرهم كثير جدا. أعجب بالكتاب وطلب مني أن أعرضه في أربع مقالات. سـأتقاضى عن كل مقال خمسة عشـر جنيها. شـعرت بالسعادة وشـكرته جدا. سـيكون معي آخر الشهر سـتون جنيها غير ما أتقاضاه من العمل. مبلغ رائع جدا جدا جدا. فرحت بجد وشعرت بالراحة وبدأت العمل.

كان المكتب بالصدفة في شـارع الجمهورية، ومن ثم هناك ما يغريني إذا ذهبـت إليـه أن أذهب إلى «نص البلد» حيث مقهى ريش أو بار سـتيلا الذي عرفته على أول شارع هدى شعراوي حيث يجلس الكتاب الشباب أيضا.

كل شـيء يمضي جميلا إذن. نزولي إلى «نـص البلد» جعلني أعرف مطاعم جربتها مطمئنا أن معي ما أدفعه. صرت آكل ربع كيلو من الكباب بربـع جنيـه في شـارع شـامبليون من عربة بائـع كباب معروف اسـمه أبو خالد. وآكل ربع كيلو كبدة من مطاعم باب اللوق بخمسـة عشـر قرشـا. ولا مانـع يـوم اسـتلام المكافـأة أن أدخـل آكل ربع كيلو كباب وأشـرب زجاجة بيرة عند فلفلة بجنيهين. أما الإسكالوب فأحببته في ريش. مقهى ريـش الذي لم أحضر فيه إلا لقاءً واحدا لنجيب محفوظ الذي كان حوله صخـب كبير مـن الكتاب بينما كان هـو معظم الوقت ضاحـكا أو متأملا فيما يسـمع ثم يهز رأسـه. كان الضجيج أكبر من تحملي وكذلك صراحة الكتـاب فـي الـكلام. أخافوني بضجتهـم. فعلا دمياط مدينة من خشـب وقشـرة كما قال لي سـراج منير! قررت أن أبتعد عن الندوة وأتعرف على الكتاب فيما بعد واحدا بعد واحد حتى أتعود على صخبهم.

بدأت أضيق من طعام مدام فيولا الذي لا يقيم الأود ويكلفني أكثر.

لخمسـة أيام لم أذهب إلى العمل بسبب المطر ولانشغالي بشيء من الكتابة. طال النهار عليّ اليوم في البنسـيون. تناولت غدائي وحدي. كان كالعادة طبقا صغيرا من الأرز وطبقا من البطاطس المطهوة في الفرن مع

اللحم وطبقا من السلاطة. كان هو طعام الأمس نفسه. واليوم ما بقي منه ليكفينا أنا وسعيد ومدام فيولا.

لـم تكـن مدام فيـولا قد عـادت بعد إلـى البنسـيون والسـاعة كانت الرابعـة. غرفـت لنفسـي مراعيـا أن يبقى لها ولسـعيد. كان هنـاك برتقال أخـذت واحـدة كما عودتنا. في الصيف كان إصبـع موز أو حبة جوافة أو عنقـود عنب صغير. حين دخلنا في الشـتاء صـارت برتقالة. المهم قطعة واحدة. حين ظهر البلح صارت لكل منا بلحتان زغلول أو رطب.

كنت أعرف أن سـعيد مشغول جدا بعمل بروفات مسرحية «هاملت» لشيكسـبير في قصـر ثقافة الريحاني الـذي يعمل فيه. ذهبت إليه أشـاهد لأول مرة مخرجا يجري بروفات لعرضه المسرحي.

قابلني مدير القصر الذي عرفت أنه شاعر واسمه أحمد الهوني. كنت رأيته من قبل في حفل توزيع الجوائز الذي حضرته لأتسلم جائزتي. كان هو فائزا بالجائزة الأولى في الشـعر. لم نتكلم كثيرا تلك الليلة لانشغالنا بالحفـل وفقراتـه. عرف مني أنه تـم تعييني في الثقافـة الجماهيرية مثله. كيـف صار هو مديرا وأنـا موظفا؟ عرفت أنه دخل الدورة الثقافية لإعداد القـادة التـي أقامتهـا الهيئة منذ شـهرين وأبلغنـي بها عمـر إبراهيـم لكني لـم أهتـم أن أشـترك فيها. لقد كان هـو أيضا، أحمد الهونـي، الأول على الدارسـين. عرف أنني كنت مجندا ومحاصرا مع الجيش الثالث. عرفت أنـه كان كذلـك أيضا. رحنـا نتذكر أيام الحصـار وقادتنا. ثـم أخذني في جولـة بقصر الثقافة الذي أعده نجيب الريحاني لنفسـه لكنه مات قبل أن

يدخله. هو الذي طلب تصميمه ليضم مسرحا للبروفات صار للعروض المجانية الآن، ولا شيء فيه من تراث الريحاني إلا بعض قصاصات صغيرة من الصحف وضعت في برواز زجاجي كبير. كان واضحا أنها وضعت منذ وقت ليس ببعيد. ربما حين صار القصر ملكا لوزاة الثقافة التي قررت استخدامه. تعرفت على موظفي القصر. لم يكن هناك رجال غيره وسعيد. كل الأنشطة مسئولية إخصائيات. المكتبة وأنشطة الأطفال الفنية والموسيقى والفن التشكيلي والسينما. عرض عليّ أن أنتقل لأدير نادي الأدب الذي يحتاج موهبة وفكرا. قال إن به عددا كبيرا من الشعراء الموهوبين. قال لي أيضا إني أستطيع أن أعمل ليلا فقط، من السادسة إلى التاسعة، فيكون اليوم كله تقريبا لي. في الحقيقة كان عرضا مغريا، لكني تريثت. عمر إبراهيم يعطيني ما أريد من الوقت. المهم أن أستفيد أنا منه.

تلك الليلة لم أشاهد بروفة مسرحية هاملت إلا في الدقائق الأخيرة. نزل سعيد من على المسرح ونزل الممثلون ورأيت من بينهم أشجان. كانت بينهم أيضا فتاة جميلة بحق اختفت بسرعة بعد أن أشارت بيدها تحيي الجميع وأسرعت خارجة.

في الحقيقة ذهبت إليه لأراه وهو يدير إخراج المسرحية. فكرت لحظة أن أتحدث معه في أمر ضيقي من طعام مدام فيولا. لكني قلت لنفسي لماذا لا أحدثها أنا مباشرة أن تزيد من الكميات. أن توفر اللحم والدجاج أكثر حتى لو استدعى الأمر أن ترفع الاشتراك الشهري إلى

خمسة عشر جنيها. الآن يمكن أن أدفع هذا المبلغ مستريحا. في هذه الحالة سيكون الأكل في البيت أفضل من المطاعم حقا.

كنت أتوقع أن نسهر معا، لكنه قال إننا يجب أن نعود بسرعة. سألته لماذا. قال إن اليوم هو الخميس الأول من الشهر. لم أعرف ما معنى ذلك، وخاصة أنه مضى لي معه أكثر من ثلاثة أشهر. قال لي إني سأعرف كل شيء حين نصل. وأخذني من ذراعي وأسرع.

***

عند باب البنسيون ضحك سعيد وقال:

- أشجان كانت مصممة على الحضور الليلة بعد أن ينتصف الليل، لكني خفت عليك من البرد فأمرتها ألا تأتي.

دخلنا الشقة فوجدنا مدام فيولا في الصالة تضحك مع الضابط مجدي زاخر. ترتدي روبها الجميل الثقيل الذي بدأت ترتديه منذ بداية هذا الشهر، ديسمبر، وكان هو يرتدي بيجامة فوقها روب أيضا. قالت:

- تأخرتم كثيرا. هيا غيروا ثيابكم بسرعة.

حتى الآن لم أعرف ماذا سيحدث. رأيت سعيد يغير ثيابه بسرعة ففعلت مثله. خرجنا إلى الصالة كل يرتدي بيجامته. جلسنا حول السفرة حيث انتقلت مدام فيولا والضابط مجدي ليجلسا. رأيت في طرف من السفرة أربعة أطباق على كل منها قطعتا جاتوه وبينهما صينية عليها براد شاي كبير وأربعة أكواب وراحت تصب الشاي وتقول:

- كلوا الجاتوه واشربوا الشاي قبل اللعب للدفء.

كانت في يدها «كوتشينة» راحت «تفنط» أوراقها بيديها كمحترفة حقيقية. قالت بعد أن انتهينا:

- نلعب؟

قال سعيد ضاحكا ومتحمسا:

- نلعب.

ثم قال لي:

- عرفت لماذا عدنا مبكرا؟ الليلة ليلة اللعب. مجدي يحضر الخميس الأول من كل شهر ونحتفل بذلك باللعب. منذ أربعة أشهر لم يأتِ. سنلعب الليلة كثيرا ونعوض ما مضى. صح مدام فيولا؟

- صح ياحبيب فيولا. يا روح قلبي انت يا فنان.

ضحكنا جميعا. كانت دهشتي كبيرة من هذه المحبة المفاجئة لسعيد. بدأت هي توزّع علينا الورق. نلعب «الكومي». قال سعيد لي إن «العشرة» بربع جنيه لكل لاعب. الذي يكسب يحصل على الجنيه كله. ووضع على جانب ترابيزة السفرة ربع جنيه وكذلك فعل الضابط مجدي ومدام فيولا. دخلت الغرفة وعدت بثلاثة أرباع جنيه. وضعت أحدها جوار ما وضعوه والباقي في جيب البيجامة. لعبت بحماس. لا يعرفون أن كثيرا من وقتي ضيعته وأنا طالب في المدرسة الثانوية وقبلها الإعدادية في لعب الكوتشينة على مقاهي دمياط. كان هناك كراس وقلم جاف يكتب

فيه سـعيد مـا يحصّله كل منـا من أرقام. كنـت أتقدم عليهم فـي كل دور وألاحـظ أن وجه مدام فيـولا يضيق ويظهرعليه غيـظ خفيف. همس لي سـعيد أن أهـدأ. لـم أفهم ماذا يقصد. زاد حماسـي وكسـبت «العشـرة » فرأيـت الغيظ يـزداد على وجه مدام فيولا التي أمسـكت بالكوتشـينة في يدها ووضعتها على المنضدة بقوة كأنها تضربها فيها وقالت مبتسمة:

- عشرة تانية.

نظر سـعيد إليَّ يهز رأسـه كأنه ينهاني عن شـيء. وضع كل منهم ربع الجنيـه مرة أخرى. فعلـت مثلهم بعد أن وضعت في جيب بيجامتي ثلاثة أرباع الجنيه التي كسبتها. لعبنا عشرة أخرى كسبتها أيضا.

- ثانية واحدة.

قال سـعيد ذلك ووجه مدام فيولا يكاد ينفجر من الغيظ. أشـار لي أن أدخـل الغرفـة معه. فـي الغرفة همس لي أن أخسـر. بأي طريقـة لا بد أن أخسر فهذه المناسبة مخصصة لتكسب مدام فيولا من كل شخص جنيها بعد أربع «عشرات » تكسبها كلها. وقال كأنه يتوسلني:

- جنيه زيادة في الشـهر ليس مشكلة. كما أن مجدي لا يأتي كل شهر الآن. المهم أن تستريح هي.

كـدت أضحك. أنا الذي أريـد أن أقطع علاقتي بطعامهـا أدفع جنيها أيضا دون مناسبة. ما الذي أكتشفه هنا كلما طال الوقت؟ قلت:

- حاضر.

عدنـا إلى الصالة نكمل اللعـب. لعبت بتراخٍ. لعبـت بإهمال حقيقي لأعطيهـا الفرصـة لتكسـب. تعمدت الخطأ فـي اللعب. رغـم ذلك كان الحظ معي إلى درجة مذهلة وكسـبت العشرة الثالثة أيضا. هنا لم تستطع مدام فيولا السكوت. قالت:

– طبعا. دمياطي. هل فيه دمياطي يخسر؟

ضحكـت وضحك سـعيد الـذي رأيت وجهـه يشـتعل بالحرج. من أجلها وليس من أجلي، بعد أن ذكرتنا بما يضرب به المثل عن أهل دمياط في البخل، بينما ظل الجمود على وجه مجدي زاخر الذي قال فجأة:

– يكفي هذا الليلة .

تركنـا إلى حجرته في صمت، بينما وقفت مدام فيولا وحملت كل ما على ترابيزة السـفرة إلى المطبخ وهي تهرف بكلام غير واضح ووجهها مربد ثم قالت:

– الذي يريد أن يتعشـى يدخل المطبخ يسـلق البيض ولديكم الجبن مرمي في التلاجة.

لماذا تفعل هذه السيدة ذلك؟ إذا كان لا بد أن تكسب فقد رأتني ألعب بتـراخ ولم يقف معها الحظ. لكـن في غرفتي ضحكت واضعا يدي على شـفتي حتى لا يرتفع صوتي بينما كان وجه سـعيد ممتقعا ثم ألقى بنفسـه فوق السرير وتمدد على ظهره وقال:

– ربنا يستر.

وجدت أنني لن أفهم أي شـيء يمكن أن يقال فتمددت على سـريري أيضا وأخذت أقرأ رواية الكرنك الصادرة حديثا لنجيب محفوظ.

كنـا قد تجاوزنا منتصف الليل. ظللت أقـرأ حتى الثانية صباحا. كثيرا ما شردت في القراءة وتذكرت ما جرى فأشعر بالدهشة ثم أعود للقراءة. اكتشـفت أننا لم نغيـر اللمبة، وأنني أقرأ على ضوء اللمبة الشـحيحة. في اللحظة التي فكرت أقول ذلك لسـعيد وجدته قد سـقط في النوم. تركت السرير ورفعت فوقه البطانية. الغرفة باردة. لا بد أنه مرهق. لقد خرج في السـابعة صباحا ولم يعد إلا معي. شعرت بالجوع لكن لا رغبة في تناول العشـاء كراهية للبيض والجبن. لن يفتح نفسـي الليلـة إلا كباب أبوخالد أو كبدة باب اللوق. لا بد أن مطعما للكباب قريبا منا هنا. لكن أي مطعم أجـده مفتوحا الآن في هذا البرد والمطـر المنهمر بين حين وحين. ليس إلا المقهـى العجيـب. إننا نقترب من الثالثة صباحا. فجأة وجدت سـعيد يسـتيقظ مرعوبا ويترك السرير ويقف ينظر حوله وهو يمسح أثر النوم من عينيه ويقول:

- هيا بنا من هنا.

نظرت إليه مندهشا فقال بتصميم:

- هيا. اسمع الكلام.

بدا مرعوبا بحق ومتعجلا. قلت:

- ماذا جرى؟

- ألا تسمع؟

لم أكن سمعت شيئا لكني الآن أسمع بحق صوت أقدام تجري في الصالة. كيف سمعها هو النائم ولم أسمعها أنا. رأيته ينحني يلتقط شبشبه ويقول:

- هيا نقفز. لا وقت لنرتدي ثيابا أخرى.

جمدني صوت مدام فيولا وهي تصرخ في الصالة «إلحقوني. إلحقوني. سرقوا الحلق. سرقوا العقد. وسرقوا الكردان. يا لهوتي سرقوا الصيغة وحيقتلوني».

كان هو قد فتح نافذة البلكونة وقفز منها دون أن يضع الكرسي لينزل عليه بعد أن ألقى بالشبشب ليضع فيه قدميه بعد ذلك. لم أجد أمامي إلا أن أفعل مثله. لم نتكلم وهو يمد الخطى إلى المقهى وتزداد دهشتي. أريد أن أسأله لكني أعرف أنه لن يتحدث إلا بعد أن يجلس. كان المطر قد توقف كأنه يشفق بنا لكن البرد يشتد. ما إن جلسنا في المقهى ودون أن أرى أحدا من الجالسين حتى صرخت فيه:

- من هي هذه المرأة التي تعيش معها؟

لم يرد وبدا شاخصا إلى بعيد فقلت:

- لا بد أن نتركها إلى مكان آخر.

كان صوتي عاليا لفت انتباه الجالسين ولم يكونوا غير الشخص القوّاد الذي رأيته من قبل، والذي تحدث إليّ بلغة أهل الشام لا أعرف لماذا:

- إيش بيك يا زلمة. وإيه اللي جابرك على هالمرة؟

لم أهتم لكن سعيد قال له بهدوء:

- خليك في حالك وحياة أبوك مش ناقصاك!

وظهر الجرسون أمامنا يقول:

- سعيد بيك؟ يا أهلا. من زمان يا رجل لم نرك.

سكت وأدركت أنها لا بد تفعل ذلك كثيرا. لكني أسكن منذ أكثر من ثلاثة أشهر الآن ولم تفعل ذلك فكيف عادت إليه؟

جلست أنتظر الفجر. أبتسم بين حين وآخر وأكاد أدخل في بعضي من البرد. سعيد يهز رأسه بين لحظة وأخرى مندهشا ويهز كتفيه أيضا من البرد ويضم ذراعيه إلى صدره. تذكرت الرجل العجوز الذي رأيته من قبل مرتديا البيجامة فقلت مبتسما وساخرا لنفسي من يدري قد يأتي هو أيضا فتكتمل القصة قبل طلوع النهار.

***

كنت مسافرا إلى مدينة المنيا بعد يومين فقط خلالهما حاول سعيد أن يثنيني عن الرحيل من السكن. قال لي إن ما لا أعرفه هو أنها تعتبر من يسكن عندها ابنا أو أخا لها. إنه سبقني في الغرفة شاب لم يتحملها وغادر البنسيون فلزمت الفراش شهرا في حزن لم ينتهِ إلا بعد أن سكن الضابط مجدي زاخر مكانه. شهر كامل لا تخرج إلى دكانها فسرق العامل الذي يساعدها فيه أموالا كثيرة. ظلت تصرخ وتلطم خديها حتى قبض عليه البوليس وسجن لكن لا شيء مما سرقه عاد. بعد أن سكن الغرفة

الضابط مجدي زاخرعادت إلى حياتها الطبيعية. الضابط مجدي استطاع أن يعـرف منهـا بعض أسـرارها. لقـد انتحر زوجهـا كما قلـت لك، ولـم يعرف أحد سـر انتحاره منذ عشر سنوات. صعد إحدى العمارات وألقى بنفسه من فوقها. هي في النهاية سيدة طيبة ومسكينة. لقد فعلت ذلك مرة واحدة من قبل حين خسـرت في اللعب وكسـب سعيد. من يومها لـم يعد سـعيد يكسـب. لا يعرف معنى ارتباط ذلك بالصراخ لكن هذا ما حدث. كلما كسبت لا تصرخ. ولما سألته عن سر صبره قال شاردا إنه لا يعرف. ربما في لا شعوره خوف من أن يصبح سببا في انتحارها، وأنه رغـم ذلك سيرحل يوما. لـم أقتنع بشيء مما قال وقررت الرحيل.

فـي طريقي إلـى محطة رمسـيس قلت ربما تغسـل مدينـة المنيا هذه التي يسـمونها عروس الصعيد قلقي وتوترى. كنت مسـافرا وحدي أتابع أعمـال مؤتمرثقافـي لأدبـاء المنيا. بينما أنـا جالس فـي كافتيريا المحطة أنتظـر القطار رأيت امرأة أجنبية في حوالي الثلاثين تجلس تقرأ في رواية «أبناء وعشـاق» لـ «د. هـ. لورانس». كنت قرأت الرواية من قبل مترجمة إلـى العربية. لاحت منـي لفتة أكثر من مرة إلى غـلاف الرواية. لا بد أنها رأتنـي فابتسـمت. جـاء الجرسـون فقالت لـه COFEE. سـألها بالعربية مظبوط ولا زيادة ولا سـادة! ارتبكت. لـم تفهم ونظرت لي فترجمت لها سـؤاله. ابتسـمت وطلبت قهوة سـادة. قالت لي بالإنجليزية ضاحكة إن هـذه أنواع كثيرة للقهـوة. ضحكت واقتربت منها قائـلا إني أحب د.هـ. لورانـس. وحدثتها عن رواية «عشـيق الليدي تشـاترلي» التـي قرأتها من قبل بالإنجليزية. بدا أنها تود الاستمرار في الحديث. تحدثنا عن الجنس

عنـد لورانـس. قلت لها كيـف هو أقرب إلـى الطقس الصوفـي. الجنس عنـد لورانس أشـبه بالفناء في الملكـوت. غايته حالة روحية أشـبه بمقام الفناء عند الصوفية. صارت تسـتمع لي بدهشـة واهتمام كبيرين. حدثتها عـن معنـى ذلك وكيـف يصل الفنـاء بالصوفي إلـى الفناء فـي الذات في الكـون. وما لحظـات الأورجازم إلا دخول في مقام الفنـاء. الفناء يمكن الوصـول إليـه بالزهـد أو بالرقـص أو الجنـس أيضا! حدثتهـا عن بعض أبيات شـعر الحـلاج وغيره من أهل العشـق من الصوفية. بدت متشـوقة تماما لحديثي.

كانـت في الطريق إلى الأقصر. سـألتني هل يمكـن أن تجد مكانا في أوتيل بسـهولة هذه الأيام من ديسـمبر. قلت لها لا خبرة لي في ذلك. لم أذهـب إلى الأقصر من قبـل. تذكرت فجأة يحيى عـلام الأقصري الذي قابلته مع سـامي في بار متاتيا فابتسـمت. بدت مندهشـة من ابتسـامتي. حدثتها عنه وعما قاله لنا. قلت لها لا بد أنه مشهور لأنه من البلدة نفسها. ربما لو سألتِ عنه أحد المكاتب السياحية هناك أوصلوكِ به. حدثتها عن الموتيـل الصغير الـذي يملكه لكني أو ضحت لها أن هـذا هو ما قاله لي صديقي فإذا وجدت غير ذلك لا تعتبرني كذابا.

بدت سـعيدة جـدا. كتبت اسـمه في نوتـة صغيرة معهـا. عرفت منها أنها لم تأتِ مع شـركة سـياحية. إنها تفعل ذلك دائما حين تسـافر. تغامر وحدها و للمغامرة لذتها.

اتفقنا أن نلتقي في القاهرة بعد عشرة أيام. اختارت أن نلتقي في فندق هيلتون. وافقت. الآن أستطيع أن أدخل هيلتون.

ركبت قطاري الذي كان موعده قبل قطارها. أمضيت في المنيا ثلاثة أيـام بهرتني فيهـا المدينة التي لا تزال تحتفظ في كثير من مبانيها بالعمارة الأوربية. بهرني كورنيش النيل. لكني أحسسـت بنفسي أستعجل لقاءها. هايدا أرسكين كما عرفت اسمها. عدت فوجدت مدام فيولا قد غيرت من كميات الطعام فزادتها. ابتسمت. قات في نفسي سأرجئ الرحيل يا فيولا حتـى أمضي وقتا طيبا مع هايدا وليكـن ما يكون. قررت أن أحضرها إلى البنسيون ولا أتوقف عند تحذيرات مدام فيولا السابقة.

بعد عشـرة أيـام التقيت مع هايدا في كافتيريـا «أبيس» بفندق هيلتون. جـاءت وحدهـا. وجدت «المينيمـام تشـارج» أو الحد الأدنـى هو جنيه وربع. لم يكن ذلك صعبا. شرب كلانا زجاجتي بيرة فتضاعف المبلغ إذ تناولنا مزات كثيرة لكن لا مشـكلة. الجالسـون جميعا في ملابس رائعة. وجوههـم تنطق بالنعمـة الإلهية. لا أصـوات إلا نادرا. كثيـر من الرجال والشـباب يحيطـون النسـاء بأذرعهـم أحيانـا، وأحيانا يقبلونهـن قبلات خفيفـة. مـن بينهـن أيضا سـيدات عربيـات كما بـدا من ثيابهن السـوداء الطويلـة، لكنهن كشـفن وجوههن ويدخن السـجائر باسـتمتاع. أدركت أنهـن يتمتعـن بالحرية المفتقـدة في بلادهـن. معهن دائمـا رجال عرب أيضـا ممـا يبدو من وجوههـم أو حديثهم مع الجرسـونات ويدخن كثير منهم الشيشة.

تحدثنـا كثيـرا عن الفـن والأدب. لقـد زارت كثيـرا جدا مـن البلاد. بـلاد عربية مثل المغرب وتونس، بلاد أوربيـة وأيضا في أميركا اللاتينية.

حدثتني عن يحيى الأقصري. ارتبكت خوفا من أن يكون الأمر سيئا. لكنها كانت سعيدة بالوصول إليه فهو معروف جدا هناك. سعيدة بنزولها في الموتيل الذي يملكه والذي اسمه حتحور. بالغرف المبنية بالأخشاب والقش. بأكله الشرقي. لقد جعلها تدفع نصف السعر المحدد. قال لها إنه يكفي أنها قادمة من طرفي، وحدثها كيف نحن أصدقاء. أذهلني ذلك بحق. قلت لنفسي لا بد أنه شخص طيب جدا. قدم لها كل أسباب الراحة إلا أن يصحبها إلى البر الغربي. لم يعد يغضب آلهته من الفراعنة! فعلت ذلك وحدها.

تركنا الفندق في الساعة الثانية عشر ليلا. الجو بارد فنحن في ديسمبر. ميدان التحرير بالفعل خالٍ من السيارات والناس. عبرناه إلى شارع سليمان - طلعت حرب - ومشينا. عرفت أنها تنزل في فندق الجمهورية بشارع الجمهورية! ضحكت من المصادفة. هذا الشارع أمشي فيه كثيرا الآن بسبب الوكالة الصحفية التي أعمل بها. لقد تمنيت أن أدخل الهيلتون وها أنذا دخلته فهل يمكن أن أدخل معها غرفتها أمضي معها الليلة. فكرت أسألها لكني تراجعت. كنت سألتها أن نذهب إلى الفندق مشيا ووافقت ضاحكة وشعرها يطير خلفها من أثر الهواء. كانت ترتدي بنطلون جينز فوقه بلوزة فوقها جاكت تضمه إلى صدرها بينما أنا أرتدى بنطلون صوف شارلستون فوقه قميص فوقه بلوفر فقط. أشعر بالبرد اللاسع للقاهرة رغم البيرة التي شربتها. كيف حقا لا أحب ارتداء البدل؟ وهل هذا يثنيني عن شراء جاكت من الجلد أو الشمواه في هذا البرد الذي لم أعرفه من قبل؟ برد القاهرة لعين ليس مثل برد المدن الساحلية التي

يتشبع فيها البحر بالنهار بالحرارة فينفثها بالليل على البر فيشيع الدفء. مناخ القاهرة قاري شديد الحرارة نهارا شديد البرودة ليلا. لا أنسى ذلك من دروس الجغرافيا!! الآن أنا في قلب التجربة وسيقتلني هذا البرد دون جاكت. وجدنا أننا في شارع طلعت حرب وحدنا. لا أعرف لماذا دخلت من ميدان طلعت حرب إلى شارع قصر النيل. لا بد أنني أردت الذهاب لفندق الجمهورية من العتبة رغم أني أعرف أنه يمكن الوصول إليه من ميدان عرابي وكذلك من شارع رمسيس. قبل نهاية شارع قصر النيل، وجدتها تقف جوار البنك المركزي وتمسك بيدي. لم يكن غيرنا في الشارع وجندي حراسة يتمشى أمام البنك. التفت فوجدتها تنظر إليّ بعمق ورغبة. توقفت وقبلتها قبلة خفيفة على خدها فدخلت في صدري. تراجعت بها خطوتين وأسندتها إلى حائط البنك ورحت أقبلها بقوة. صار كل منا يحتضن الآخر بوله رهيب. دقائق وانفصلنا ورأيت الجندي كما هو يمشي أمام البنك غير مبالٍ بنا. ابتسمت ومشينا وكل بضع لحظات أعود أحتضنها وأقبلها في الطريق الذي تقريبا لم يمر به أحد حتى وصلنا إلى شارع الجمهورية. ظهر أكثر من شخص يمشي وظهر بائع الكبدة وحوله عدد قليل من البردانين يدعكون أيديهم في بعضها التماسا للدفء حتى يناولهم الطعام الساخن. أمام الفندق وقفت أقبلها أيضا. قلت لها:

- سأمر عليكِ غدا في الثانية عشرة ظهرا ونذهب معا إلى بيتي.

وافقت مبتسمة. جئتها في الموعد بعد أن ذهبت إلى العمل مبكرا على غير العادة. قضيت في العمل ساعتين من الكلام مع زميلاتي. قابلت هايدا وصحبتها إلى البنسيون. دخلت من الباب وهي معي.

لـم يكن بالبنسـيون أحـد. أمضينـا ثلاث سـاعات رائعـة. كانت هي لا تريد أن تغادر السرير. الحقيقة أنا أيضا. لكنها كلما انتهيت نظرت إليَّ برضا وفرح عميقين وأمسـكت يدي تقبلها فنعيد الكرة، وهكذا حتى بدا أنهـا لـم تعد في حاجة إلى شـيء في الدنيا حتى أننا سـكتنا نصف سـاعة تقريبـا ثم سـألتني عن مـكان الحمّـام. انتهينا جالسـين فـي حجرتي. أنا علـى طرف السـرير وهايدا على المقعـد الوحيد بعـد أن أكلنا من الموز الـذي وجدته في المطبخ نصفه! سـمعت صوت المفتـاح يدور في باب الشـقة. ارتبكت لحظة. لكني قلت لنفسـي ربما يكون سعيد فلا مشكلة، وإذا كانـت مدام فيولا فلتكن النهاية. لـم أكن قد أغلقت باب غرفتي بعد الاسـتحمام. رأتنا فيولا وهي تدخل إلـى الصالة. في الحقيقة رأت هايدا الظاهرة لها والتي قالت لي:

- A Woman

ارتبكـت أكثـر. دخلت مـدام فيولا من بـاب الغرفة المفتوح بسـرعة لكنها ابتسمت و قالت:

- أجنبية؟

قلت مرتبكا:

- أمريكية.

قالت:

- طيب. اتفضلوا في الصالة أعمل لكم شاي.

اندهشــت غير مصدق. أعدت لنا الشــاي وجلسـنا معا نشـربه. قالت لـي ألا أندهش فـلا ضرر من الأجانـب. المصريات فقـط وراءهن دائما المصائب. ثم سـألت هايـدا بالعربية وأنا أترجم ما تقـول. عرفت عملها الـذي لـم أسـألها عنه، إخصائية تحاليل طبية وتسـكن فـي نيويورك وغير متزوجة.

خرجت من البنسـيون مع هايدا أشـعر بنشـاط كبير يدب في روحي. قـررت أن أوصلهـا إلى فندق الجمهوريـة وأقبلها أمامه قبـل أن أفارقها. أن يكـون لقاؤنا في الأيـام الثلاثة الباقية لها في القاهرة كل يوم لكن ليس في الثانية عشـرة، في الثامنة بعد أن تنتهي من زياراتها للمتحف المصري والهرم وتعود وتسـتريح قليلا. لن تعارضني مدام فيولا والضابط مجدي زاخر لن يعود الآن، وسعيد أخبرته ألا يعود إلا بعد الثانية عشرة ليلا حتى تسـافر هايدا. إذا جاء مبكرا فلينتظر فـي المقهى! لم يبدِ أي اعتراض، بل بدا سعيدا جدا وقال:

– عرفـت الآن أن مدام فيولا لن تسـتغني عنك؟ أنا أيضا فرحان لأننا لن نفترق. لكن اسـتعد بعد رحيل الأمريكية. هناك أكثر من فتاة ستحضر إليّ ليلا من النافذة. سآخذ حقي منك فاستعد للبرد.

9

جنون تملكني بعد سـفر هايدا. صارت نظراتي موجهة للنساء في كل مـكان. حتى في العمـل راحت عيناي على أجسـاد زميلاتي كثيرا وكنت أنتبه لكن متأخرا، فأجد إحداهن تبتسـم وأحيانا تهز رأسـها في اسـتنكار خفيف بعد أن تكون لمحت نظرتي إلى جسد زميلتها. صرت أمضي أكثر الوقت مع عمر إبراهيم نتحدث في الفن والثقافة وأحوال البلاد لأروض نفسي على التوقف عن النظرات الجائعة.

في اللقاء الشـهري لخليتنا حدثني علي الكبيـر برغبة الرفيق عامر في مقابلتـي. قال إنه قابله صدفة في مقهى بشـارع المبتديـان وأخبره بذلك. حدثـت الرفيـق عامر فـي التليفون من محـل في الشـارع و ليس من بيت علـي. أخبرنـي الرفيق عامـرأن أقابله السـاعة الرابعة. هذه المـرة في بار ومقهـى بعيد عـن «نص البلد». هناك في آخر شـارع 26 يوليـو من ناحية بولاق قبل كوبري الزمالك سـأجد البار على ناصية الشـارع مع كورنيش النيـل. عرفـت أنه يمكن الوصـول من طريق الكورنيش أو من شـارع 26 يوليـو. أحببت أن أمشـي في شـارع 26 يوليو، أو فؤاد قديمـا كما لا يزال البعـض يقـول عنه. أتعرف على أماكـن جديدة في القاهـرة. دخلت إليه من محطة الإسعاف. الشارع القديم لا ترتفع فيه عمارات كثيرة. عماراته

قديمة جميلة تتفاوت أدوارها بين ثلاثة وأربعة أدوار. المحلات على الجانبين كثيرة ويصعب التمييز بينها. أغلبها محلات ملابس. وبين محلات الملابس محلات أحذية رخيصة أيضا ومقاهٍ شعبية. لمحت أكثر من محل لبيع الفاكهة والحلوى وبعض محلات البقالة. رأيت على يميني عند منتصف الشارع تقريبا سينما «علي بابا» الذي ظهر من واجهتها وأفيشاتها أنها سينما شعبية تعرض فيلمين. فيلم كاراتيه أجنبي وفيلم عربي قديم هو «امرأة في الطريق» لهدى سلطان التي ظهرت في الأفيش نائمة على ظهرها وساقاها نصف عاريتين. أعرف هذا الفيلم جيدا ولم يحدث أن رأيت له أفيشا كذلك. بدا لي الأفيش قد رسمه فنان تجاري غير موهوب. أفيش للإغراء على دخول السينما. بعد السينما وقبل النهاية بقليل لمحت لافتة غريبة على أحد المحلات تحمل كلمة «الخول ». حاولت أقرأها الخولي لكن تحققت من أنها الخول! مشيت مبتسما حتى وصلت إلى نهاية الشارع عند الكورنيش فرأيت المقهى والبار على يساري. دخلت لأجد مكانا متسعا وعددا قليلا من الناس يجلسون على مسافات متسعة وأمامهم زجاجات البيرة والمزات. الآن الساعة الرابعة عصرا وليس هو الموعد المناسب للحضور إلى البار. كما أن البرد شديد. لكن في البار كانت أغنية أسمهان تنطلق من خلف النصبة التي يقف وراءها أحد العاملين، بينما آخر يتحرك بين الجالسين ويجلس معظم الوقت منتظرا نداءً.

ساعة هنا لو تصفى لك يصفى معاها الكون كله.

خيال جاري مع الأوهام وطيف جاني مع الأحلام.

وليه تصبر على الأيام تفوت من غير ما تتهنى

دي ليلة الأنس في فيينا نسيمها من هوا الجنة

نغم في الجو له رنة سمعها الطير بكى وغنى

افرح واطرب ابعت قلبك يسبح ويطير

في الدنيا دي يلقى له سبيل

جلست مع الرفيق الأكبر وروحي مع كلمات الأغنية الجميلة لأسمهان التي لم أسمعها منذ سنين طويلة، والتي لا أنساها في فيلم غرام وانتقام الذي شاهدته صغيرا وعرفت أن أسمهان غرقت قبل أن تكمله. اكتشفت أنني غير منتبه تماما لما يقوله الرفيق عامر. يبدو أنه أدرك ذلك فسألني:

- هل تحب أسمهان؟

- من لا يحب أسمهان يا أستاذ؟!

قلت ذلك وأنا أكاد أبكي بالفعل من صوت أسمهان. اندهشت من نفسي جدا. قال الرفيق عامر:

- هل أنت عاطفي إلى هذا الحد؟

هززت رأسي وابتسمت قائلا:

- لا أعرف ماذا جرى لي فجأة!

فيما بعد قلت ربما حدث ذلك من حيرتي بعد رحيل هايدا التي فتحت لي باب الروح في جسدها وباب الامتزاج مع الملكوت في ساعات لن أنساها. لكني مع الرفيق عامر قلت:

- متأسف. تريدني أن أقابل زميلة على كوبري الجامعة. لماذا؟

ابتسم وقال:

- ستقابلها بعد غد الساعة السابعة صباحا. ستدخل أنت الكوبري من ناحية المنيل وهي ستأتي من ناحية الجامعة. ستكون أنت على الرصيف الأيسر وهي على نفس الرصيف لكنه طبعا الأيمن بالنسبة لها. ستقدم لها نفسك باسم هاني وهي باسم ماجدة. ستعطيك ست نسخ من العدد الجديد من مجلة الحزب. إنها مجلة سرية لا تصدر بانتظام. ستعطي نسخة لكل عضو من أعضاء الخلية. تحتفظ بنسختين لتتركهما في أي مكان عام لا تجلس فيه غير مرة واحدة. مقهى أثناء مباراة كرة قدم مثلا أو سينما. يعني نعمل شوية قلق للداخلية!

تفاءلت خيرا. سألتقي مع زميلة إذن في الحزب الشيوعي. انتهيت من اللقاء ولم أنسَ أن أخبره بدهشتي من اسم المحل فقال إنه أحسن محل لبيع الفسيخ في القاهرة. ثم قال ضاحكا:

- لا تندهش لدينا الجحش أيضا في السيدة زينب أحسن محل فول في القاهرة ولابد أن تذهب إليه مرة. ستجد كل المشاهير هناك!

لم أعد من طريق 26 يوليو. قررت أن أمشي قليلا عابرا الكوبري لأمضي بعض الوقت في الزمالك لأرى هذا الحي الذي لم أره حتى الآن

وتسبقه شـهرته كحي للأرسـتقراطية المصرية. عبرت كوبري أبو العلا. تأملـت قليلا بنيته المعدنية. كل شـيء من قبل ثورة يوليـو كانت له نكهة أوربية. مشيت قليلا فوجدت مقهى اسمه عمر الخيام على يساري جواره محـل حلويات اسـمه سـيموندس وبعـد قليل مطعـم الزمالـك تأتي منه رائحة الفـول والطعمية الجميلة. لم آت إلى هنا لأتفرج على المحلات. قلت لنفسي. سأترك نفسـي للمشي على الأرصفة وتحت الأشجار رغم أننا دخلنا في المسـاء. سأتشـبع بالهدوء والراحة التي صرت أشعر بهما. دخلـت فـي شـوارع جانبية لـم أهتم أن أعـرف أسـماءها. صمت جميل والليـل بدأ ينزل على المدينـة وأضواء المصابيح العاليـة الهادئة تعطيني إحساسـا بالراحة. لا أعرف كيف وجدت نفسي في شارع خالٍ مصابيحه مطفـأة تقريبا ولا سـيارات تمر منـه الآن على الأقل. علـى جانبيه مقاعد خشـبية كثيرة وبنات وشباب يجلسـون متقاربين يتبادلون الحب في حياء وباعة البيبسـي كولا والشـاي يتحركون بينهم على مهل. بدا لي الشـارع مخصصا للحب. عرفت من سعيد فيما بعد أنه شارع الجبلاية على ناحية منـه نـادي الجزيرة وعلى الناحية الأخرى النيل والسـفن السـاهرة. كنت رأيت الأشـجار تحيط بنادي الجزيرة ورأيت السفن المضيئة. قال لي إنه بالفعل شارع الحب في القاهرة.

أوصلني الشـارع إلـى كوبري قصر النيل فعبرته إلـى ميدان التحرير. عـدت إلـى البيت وعرفت من سـعيد ما لم أكن أعرفـه. أعني كيف أصل إلـى كوبـري الجامعة من المنيل. سـألته عن المنيـل وأهميته كحي قديم وغرابة اسـمه فراح يحدثني حديثا تاريخيا طويلا فسألته عن معالمه حتى وصلت لما أريد.

لم يعد باقيا لي من كوبري الجامعة غير لقائي مع ماجدة في السابعة صباحا وكيف قابلتها وحدنا فوق الكوبري والضباب يلف القاهرة ويلفنا وسط البرد. كنت أرى الضباب يسبح حولنا في الفضاء وينزل شيئا فشيئا إلى الأرض. ما أجمل أن ترى وجه امرأة جميلة وسط الضباب.

أعطتني ماجدة مظروفا كبيرا به نسخ المجلة السرية وابتسمت. طلبت مني أن أستمر في طريقي حتى أصل إلى نهاية الكوبري عند حديقة الحيوان ومن هناك أنتظر قليلا حتى أركب تاكسي إلى ميدان التحرير، أما هي فستستمر في طريقها إلى المنيل. كان الغرض أن لا أعود فيبدو الأمر كأني قابلتها لأحصل على المظروف فيبدو مثيرا لمن يكون يتابعنا رغم أنني لا أرى أحدا. قلت لها الأفضل أن نمشي معا فيبدو الأمر طبيعيا أكثر. اتسعت ابتسامتها وسكتت فعدت ماشيا معها إلى المنيل. مشينا في صمت والنهار يصعد حولنا أكثر والناس بدأت تظهر في الشوارع والسيارات حتى وصلنا إلى الفرع الثاني للنيل. كنت قد عرفت أن المنيل جزيرة وسط النيل. اعتذرت ماجدة عن عدم الاستمرار معي أكثر من ذلك. صافحتها وأسرعت تاركها تقف وحدها. شعرت بالدهشة من اللقاء حقا. بدت لي كحلم يقظة سرعان ما اختفى. أجابتني عن سؤالي الوحيد لها لأني تحرّجت أن أسألها أي أسئلة أخرى. تعاملت معها كزميل في الحزب في مهمة رسمية. قالت إنها لا تعمل ولا زالت طالبة. توقفت ولم أسألها في أي كلية أو جامعة. هل يمكن أن أقابلها مرة أخرى. لا أعرف.

رأيت مجلة الحزب السرية لأول مرة. لم يكن ما فيها مختلفا عما نقوله في اجتماعاتنا أو في الحياة الثقافية بشكل عام على مقاهي «نص البلد». كان الرفض طبيعيا لسياسة السادات واعتباره أن أميركا تملك الحل كله لقضية الشرق الأوسط وعداءه لليسار وتشجيعه للتيارت اليمينية التي تسمي نفسها إسلامية وبداية سياسة الانفتاح الاقتصادي التي جعلت البلاد سوقا واسعة للبضاعة الفاسدة وارتفعت الأسعار كل يوم وأخبار مطاردات الطلاب والعمال من الشيوعيين والقبض عليهم لا تنقطع. أوجزت ذلك كله المجلة وأضافت إليه ضررورة إسقاط الاتحاد الاشتراكي تنظيم الدولة السياسي الوحيد، وإطلاق حرية تكوين الأحزاب، وحرية إصدار الصحف وحرية النشر والتعبير، ووضع حدين أدنى وأقصى للأجور بنسبة واحد إلى عشرة، ورفض الاعتراف والصلح مع العدو الصهيوني واتفاقية الفصل بين القوات التي انتهت بالجيش المصري في مكانه قبل الممرات، متلا والجدي، بينما الجيش الإسرائيلي كما هو شرق الممرات في سيناء. وكذلك الدعوة لحرب تحرير شعبية لاستعادة سيناء كاملة.

بدا لي في الجو حالة من الصمت والاتساع، وألقي في قلبي يقين بأن شئيا سيحدث يغير هذا الصمت. شيء سيأتي من الفضاء، أو سيخرج من الأرض. وكنا نقترب من نهاية العام.

***

في الليلة الأخيرة من ديسمبر قال لي سعيد إنه مرتبط بدعوة لقضاء ليلة رأس السنة مع بعض الفنانين. سيستقبل عام 1975 كما ينبغي. ذكر

بعض الأسماء المشهورة، فوجدت حرجا أن أذهب معه رغم أنه وجه لي الدعوة. ثم إنني قضيت السنوات الخمس السابقة في الجيش ولم أحتفل أبدا برأس السنة الميلادية. فلتكن هذه السادسة.

ذهبت إلى العمل في موعد الحضور الرسمي. التاسعة صباحا رغم الحرية التي أعطاها لنا عمر إبراهيم. وجدت جميع زميلاتي! حضر عمر إبراهيم نفسه مبكرا. أجمع الجميع أنهم قضوا ليلة رأس السنة في «سريراميس» ضحكت من المصطلح اللطيف الذي جعل من سرير البيت فندقا مثل سميراميس. قلت لهم إني فعلت ذلك أيضا.

في الساعة العاشرة وبينما أنا مع عمر إبراهيم في مكتبه، سمعنا ضجة في شارع الجلاء. عمارة بنك التنمية الزراعية التي تشغل الثقافة الجماهيرية منها الأدوار الثلاثة الأخيرة تطل عليه. مكتبنا في الدور السابع ومثل بقية المكاتب يطل على الشارع. كان هناك تلفزيون صغير في مكتب عمر إبراهيم يذيع برنامجا للأطفال. لاحظت أن عمر إبراهيم يرهف الأذن لما يأتي من الشارع ثم يقف ليدخل البلكونة يطل منها ويقول بصوت عالٍ.

- مظاهرات. تعالَ يا صابر.

لحقت به. رأينا مسيرة صغيرة من الشباب ترفع لافتات تدل على أنهم طلاب جامعة عين شمس، بينهم عدد كبير من الفتيات، والهتافات ترتفع وتصل إلينا.

«إحنا الطلبة مع العمال

ضد تحالف رأس المال»

«يا عمال أنا وانتم واحد

اللي سارقني وسارقك واحد»

«مش حنخاف مش حنخاف

لا من قلعة ولا استئناف»

«سيد مرعي يا سيد بيه

كيلو اللحمة بقى بجنيه»

«حكم النازي ولا حجازي»

سيد مرعي هو أقدم وزير زراعة بعد ثورة يوليو ورئيس مجلس الشعب، وحجازي هو عبد العزيز حجازي رئيس مجلس الوزراء.

جاءت الموظفات الأربع والسكرتيرة من الصالة الكبيرة. وقفن معنا يتابعن المشهد الرائع، وأصوات الهتافات عالية ولا بوليس يعترض المسيرة. سألت عمر عن ذلك، فقال إن المسيرة متجهة للتحرير وهناك سيفرقونهم بعد أن يجتمعوا. لا بد أن طلا ب جامعة القاهرة قادمون أيضا إلى هناك. وسألني:

- هل تحب أن تنزل؟

- أجل.

قلت ذلك بحماس كبير فضحك وسمح لي بالانصراف. كنت أريد أن أسبق الأسانسير إلى الشارع.

لحقت بالمظاهرة الصغيرة. مشيت في آخرها. قريبة مني أكثر من فتاة نظـر بعضهن إلـيّ. لا بد أدركوا أني لسـت طالبا. لكن أحدا لم يسـألني. رحت أردد الشـعارات خلـف طالب يهتف بصوت قـوي محمولا على كتفي زميل له. لم أفعل ذلك من قبل وكنت سـعيدا أردد الشـعارات بقوة وحماس. وصلنا إلى نهاية الشـارع فدخلت المظاهرة إلى شارع رمسيس فـي طريقها إلـى ميـدان التحريـر القريب. لاحظت عدم وجـود مترو في الطريق.

بين الحشـود كنت أسـمع حـوارات جانبيـة بين الطـلاب والطالبات تتحـدث عن عمال حلوان المحتشـدين في مظاهـرة ضخمة بباب اللوق أمـام محطة القطـار. كيف يزدادون وينضـم إليهم كثير من الشـباب. لما اقتربنـا من ميـدان التحرير جاءت الأخبـار أن المتظاهرين في باب اللوق أحرقـوا بعض الأوتوبيسـات والمحلات بعـد أن هاجمتهم قوات الأمن المركزي.

توقعـت معركة كبيـرة في ميدان التحرير. لكن وصلنـا إلى هناك دون مواجهـة مـع قوات الأمـن المركزي. رأيت مسـيرة ضخمة تأتـي في قوة مـن ميدان باب اللوق. إنهـم عمال المصانع الحربيـة كما هو واضح من شـعاراتهم المرفوعـة ينادون بحريـة النقابات ورفع الأجـور. هم الذين سـمعت بمعركتهم مع الأمن منذ قليل أو من بقي منهم بعد هجوم قوات الأمـن المركـزي عليهم. اقتربـت مظاهرة طـلاب جامعة القاهـرة قادمة مـن كوبري قصـر النيل. صعدت علـى الكوبري المعدنـي ووقفت. كان

جـواري عـدد ليس بالقليـل من المارة سـرعان مـا زادوا يتفرجون معي. أتت سـيارات الأمن المركزي من شـارع القصر العينـي ونزل منها جنود كثيرون أطلقوا القنابل المسـيلة للدموع فتفرقت المظاهرة وأكثرها اندفع إلـى شـارع طلعت حـرب. نزلنا نحـن الذين فـوق الكوبري مسـرعين. أخـذت طريقـي إلى ميـدان باب اللوق لأتفـرج على بقايـا المعركة بعد أن رأيـت بعض الجنود يصعدون فوق الكوبـري ويطلقون على الطلاب والعمـال القنابل مـن أعلى. كانت هذه أول مرة أشـم رائحـة قنابل الغاز وأرى الدخـان الأبيض يصعد في الفضاء. رائحتها لا تحتمل رغم بعدي عنهـا وتحرق عينـي وتـكاد تخنقني. غيـرت طريقي وعدت إلى شـارع طلعت حر ب من شارع البستان فوجدت مطاردة كبيرة في طلعت حرب والشباب الذي يجري أمام قنابل الغاز سرعان ما يعود إلى ميدان التحرير مـرة أخرى يهتف مـن جديد. بدا لي أنهم يرهقون جنود الأمن المركزي، لكن بدا لي أيضا أن الطلاب والعمال لن يستطيعوا البقاء في الميدان كما حـدث عام 1972 وأنا على الجبهة. وجدت مقهى ريش مغلقا والكشـك الـذي جـواره. لا بـد بسـبب المظاهرات. مشـيت في الممر حتـى نهايته وجلست في مقهى البستان. كان عدد قليل من الجالسين ليس بينهم أدباء أعرفهم ولا يتحدثون في شـيء. يشـربون الشـاي ويدخنون الشيشة كأن شـيئا لا يحدث حولهم. لماذا حقا لم يعرف الحزب شـيئا مسبقا عن هذه الظاهرات ولماذا لم يخبرنا بها أحد؟ سؤال قفز إلى عقلي وأنا أقف أمام مقهى البستان. لم أجلس. مشيت في اتجاه شارع صبري أبو علم ووقفت أنظر في الاتجاهين. كانت الساعة قد وصلت إلى الواحدة تقريبا. مشيت

إلى ميدان طلعت حرب. رأيت على يساري أعدادا كبيرة من المتظاهرين تعـود إلـى ناحيتنا جاريـة. قررت أن أبتعـد وأراقب الموقف. لـم أشـارك فـي مظاهـرات مـن قبـل، وكل من أقابلهـم لا أعرفهـم. عبـرت الميدان إلى شـارع محمود بسـيوني حتى وصلت إلى شـارع شـامبليون. مشيت قليـلا إلى اليمين لأقتـرب من أحد المقاهي وأجلس لعـلّ أخبارا تأتيني. شـممت رائحة كباب أبوخالـد ورأيته يقف أمام عربتـه بجلبابه. أعجبني كالعـادة كلمـا أتيت إلى هنا، هدوء الشـارع والقصـر الجميل الذي يقف أبـو خالـد بعربتـه أمام سـوره. قصـر الأمير سـعيد حليم بنـاه المهندس الإيطالي لاشـياك الذي بنى قصر الطاهرة ومحطة الرمل في الإسكندرية كما قال لي سعيد. أصبح الآن المدرسة الناصرية. القصر خلف الجدران يظهر بطـرازه المعماري الإيطالي والتماثيل المعلقـة أعلى الجدران تثير الخيـال. لكنـه يعاني رغم ذلك من إهمال واضـح. يمكن أن أتغدى عند أبي خالد اليوم رغم أني أتوقع زحاما عنده وفي الشارع، ثم أذهب بعد أن تهـدأ الأمور إلى بيت علي الكبيـر أتابع الموقف معه من التلفزيون. لا بد سأجد أصدقاءً من الأدباء والسياسيين.

جلسـت وطلبـت ربع كيلـو كباب وأنا في دهشـة من عملـه وثقته أن المظاهـرات لن تصل إلى هنـا. تذكرت من جديد رغبتي في الخروج من نظـام مـدام فيولا للأكل وابتسـمت. وبينمـا أنا آكل رأيت سـعيد يمر من أمامي. ناديته مندهشا وما إن رآني حتى ضحك وقال:

- ماذا تفعل هنا؟

- كما ترى. أتغدى. هيا كل معي.

- سآكل معك لأننا فيما يبدو لن نعود بسهولة إلى البيت.

جلس جواري وطلب ربع كباب أيضا. بدا مندهشا من معرفتي بأبي خالد وقال المهم ألا يغير ذلك رأيك في أكل فيولا. ضحكنا وقال بعد أن انتهينا إن المظاهرات توزعت بين باب اللوق والتحرير من جديد. بعضها ذهب إلى العتبة. هو بالمصادفة كان على موعد في مقهى أسترا مع دارسة أجنبية للمسرح المصري. قابلها ثم أغلق المقهى وخرج الجميع منه. ضحك وقال:

- لا أعرف أين ذهبت الأمريكية. كانت جواري ساعة ضرب قنابل الغاز واختفت. ربما أنا الذي اختفيت من جوارها.

ثم هز كتفه وقال:

- على أي حال هي أمريكية ولو قبضوا عليها سيفرجون عنها فورا.

سألته لماذا سيتعذر علينا العودة. قال:

- لا مترو سيتحرك ولا أوتوبيسات من التحرير. ولن نجد أي تاكسي. ليس أمامنا إلا أن نمشي إلى روكسي. هل تستطيع؟

- طبعا لا.

- إذن هيا نجلس في مقاهي العتبة. أو نجلس في البار حتى المساء. من يدري ربما تتعدل الأحوال.

***

توقعت أن يكون عدد الجالسين في البار قليلا. خاصة أنني رأيت في الطريق كيف أغلقت أكثر المحلات، وكيف كادت الشوارع تخلو من المارة. سمعت أحاديث عن المظاهرة التي وصل بعض أفرادها إلى العتبة وتم تفريقهم بالعصي والغازات المسيلة للدموع وقبض على بعضهم مما أثار الرعب في نفوس أصحاب المحلات. قلت لسعيد:

- هذا أنسب يوم لدخول المسرح القومي.

ضحكنا. لقد ذهبنا إليه مرة واحدة بعد المرة الأولى التي وجدناه فيها مغلقا. شاهدت مسرحية «النسر الأحمر» مع سعيد وبعدها مسرحية «عودة الشباب» لتوفيق الحكيم وإخراج عبد الرحمن أبو زهرة وتمثيل ممثلين كنت أعرف بعضهم من قبل مثل أشرف عبد الغفور وأمينة رزق وعايدة عبد العزيز، وبعضهم كنت أراه لأول مرة مثل عفاف شعيب ويسري مصطفى وعهدي صادق. لقد أخذني سعيد أيضا في ليلة شديدة الإمتاع شاهدنا فيها بالمسرح الحديث مسرحية «نرجس» التي أعدها سيد خميس عن نص مسرحية «المتوحشة» لجان أنوي وأخرجها عبد الرحيم الزرقاني وممثلوها الرائعون كانوا سهير البابلي وحسن عابدين و رشوان توفيق وزوزو ماضي. كانت هذه أول مرة أشاهد فيها حسن عابدين في حياتي. لقد خطف إعجاب الحاضرين بشكل مذهل. فعلا إذا أردت المسرح فعليك بالقاهرة. وكل ليلة نشاهد فيها مسرحية نظل عدة أيام نستنشق البهجة.

وجدت في البار العدد كبيرا والزحام شديدا. كثير من الرواد اليوم من الشباب والفتيات أيضا. ربما فيهم من شارك في المظاهرات ووجد

لـه مخبئا هنا بعـد الهجوم عليهم. ربمـا أيضا كثيرون مثلنا لم يسـتطيعوا العودة إلى بيوتهم.

جلسـنا وطلبنا براندي. قال سـعيد إن البيرة بعد الأكل غير مسـتحبة. قلت في نفسـي ها أنذا أعرف آداب الخمور! وابتسمت. بعد قليل وجدنا الشـاعر سـراج منير يدخل إلى البار. وقف عند الباب ينظر يمينا ويسـارا كأنه على موعد مع أحد. رآنا فأقبل علينا. صافحه سعيد بمحبة كبيرة. إنه المخرج لمسـرحيتة الشعرية التي اشـتهرت بعد حرب أكتوبر. صافحني ضاحكا وهو يقول:

- ما دام عرفت سعيد ستسعد.

ثم ضرب جبهته بيده ضاحكا وقال:

- يـا للصدفـة العجيبة. سـعيد صابـر يقابل صابر سـعيد! هـذه قصة فيلم.

جلس ثم طلب بيرة. مرّ بائع العصافير المشـوية فطلب تسعة عصافير وقال:

- نقرقش أي حاجة قبل ما نتقرقش بكرة.

ضحك سعيد ونظرت أنا إليه متعجبا فقال:

- طبعـا. أنـت أصلا جديد فـي المهنة. غدا سـيتم القبـض على كثير من الشـيوعيين كالعادة بعد أي مظاهرة أو اعتصام. انتبه لنفسـك وياريت لا تنام في البنسيون الليلة.

أغمضت عيني. لا بد أن سـعيد أدرك الآن علاقتي بالحركة الشيوعية وهذا سر أخفيته عنه. بالفعل قال له سعيد:

- أنت تعرفت على صابر وعرفت أيضا أنه شيوعي بسرعة هكذا؟

نظرت إلى سراج منير معاتبا فقال:

- هل سـأعلمك من جديد يا سـعيد؟ أي ناقد يأتـي للقاهرة ويجلس على ريش يعتبر شيوعي. أنا قابلت صابر في مقهى ريش. صعبة هذه؟

تنهدت مرتاحا لكن سعيد هز رأسه وقال:

- ممكن برضه!

أخذنا نشرب ونأكل على مهل. كان سراج منير جائعا بحق مما بدا لنا من إقباله على المـزات والعصافير. راح يحدثنا عن أحداث اليوم وكيف كانـت متوقعـة منذ أمس حيـث اعتصم عمـال المصانع الحربيـة وقرروا ذلك. سأله سعيد:

- هل لأنك تتوقع القبض على الشيوعيين أتيت هنا اليوم؟

- عليك نور. سـوف أكون آخر شـخص يخرج من هنا حين ينتصف الليل. لا بد أن أمن الدولة يتابع اليوم المستهدفين من الشيوعيين. إن لم يعرفوا أني كنت في البار سيجدونني سكرانا في البيت.

ضحكنـا بقـوة. راح يحدثنا عـن المرات التي قبض عليـه فيها وكيف كانت كلها تقريبا بتهم غير حقيقية. قبض عليه من قبل خمس مرات. منها

مرتـان في عهد عبد الناصر نفسـه الذي يدافعون عمـا حققه في الاقتصاد أمام خراب السادات للبلاد.

طـال بنـا الوقـت وبدأت أشـعر بالملـل، والسـاعة لم تصـل بعد إلى السادسـة. فكرت أن أنصرف. وجدت أن ذلك سـيكون سـخيفا فسـعيد سـينهض معي وسـنترك سـراج منير وحده وربما يضايقه هذا. لكن ظهر يحيى علام الأقصري فجأة داخلا من الباب. ما إن رآه سـعيد حتى هتف يناديه. ثم قال:

- هكذا يمكن أن نبقى جميعا حتى منتصف الليل.

أنـا أيضا وجـدت فيه إنقاذا روحيـا من الحديث الطويل في السياسـة التـي أعرفها. لم يكن سـراج منيـر يعرف الأقصري. عرّفهما سـعيد على بعضهما وراح الأقصري يحدث سراج منير عن بعض قصائده التي يحبها مما أسعده كثيرا. قال ضاحكا:

- أين أمن الدولة لترى كيف أن لي جمهورا في الأقصر؟

قال الأقصري:

- أنـا لسـت مـن الجمهـور يا سـراج. أنا شـاعر أيضا وأكتـب القصة وسعيد وصابر يعرفان.

ضحك سراج منير وقال:

- طيب يا سيدي جمهور وشاعر أيضا.

ابتسمنا ثم دخلنا في الصمت بعض الوقت. قطعته بشكري للأقصري على احتفائه بهايدا. قال إنها سيدة لطيفة جدا. ولأنها تعرفني لم يحاول ممارسة الجنس معها. اندهشت. قال سعيد ضاحكا:

- غلطان طبعا. هي أمريكية ولن يقابلها صابر مرة أخرى.

وقال سراج منير:

- يا رجل تضيع على نفسك فرصة مثل هذه! ما علينا. هي الآداب الشرقية سر بلوتنا.

عدنا إلى الصمت من جديد حتى بدأ الأقصري يحكي عن الأدباء في الأقصر وكيف ظهروا أنذالا وتخلوا عنه بعد أن انضموا إلى العبادة الجديدة التي قرر أن ينشرها. نظرنا إليه منتبهين فاستطرد قائلا:

- آه والله. عملت عبادة تجمع بين آمون رع وآتون. في الصباح أؤمهم في الصلاة ونحن جالسين نتجه إلى الشرق حيث تشرق الشمس. في المساء نصلي في اتجاه الغرب حيث تغرب الشمس أيضا. حفظوا كثيرا من الترانيم الفرعونية التي أخذتها من العبادتين ومزجت بينها. طوال الشهر يتناولون في الصبح الإفطار عندي في الموتيل قبل الصلاة. وفي المغرب يتناولون العشاء بعد الصلاة. لكنهم الانتهازيون توقفوا بعد شهر.

سأله سعيد مندهشا:

- كانوا كثيرين؟

- كانوا عشرين. قلت أبدأ بهم العبادة الجديدة ثم ينشرونها في البلاد. لكنهم الأنذال توقفوا.

تبادلنا النظر في صمت أنا وسعيد وسراج منير ثم قال الأقصري كأنه يكلم نفسه:

- صرفت عليهم كثيرا ثمنا للطعام والشراب. شربوا أنبذة كثيرة جدا وبيرة. هذان الصنفان هما اللذان عرفهما الفراعنة. في الصباح كنت أقدم لهم الجبن الحلوم المستورد وعسل النحل والبيض والسجق والفول طبعا، وفي المساء لحوم وأسماك ودواجن وحمام والله.

قال سراج منير ضاحكا:

- كان عليك أن تعلمهم الزهد في البداية لتتأكد من صدقهم.

اكتفى الأقصري بالابتسام. سأله سعيد:

- لم يعد يأتي أحد؟

- لا أحد.

قال سراج منير:

- مؤكد أن أمن الدولة عرف بالأمر. ربما طلبوا منهم أن ينصرفوا عنك.

- هذا ما قالوه لي!

قال الأقصري ذلك فسكتنا لحظة ثم قال سعيد:

- يا رجل. لماذا إذن تتهمهم بالنذالة؟

قال الأقصري:

- كان عليهم أن يكونوا أقوى من ذلك. اخترتهم أدباء وأصدقاء حتى لا يتخلوا عني.

كان يتحدث بألم حقيقي. تبادلنا النظر في شفقة عليه. قال سراج منير:

- اشرب أحسن. حد يعتمد على أدباء ومن الأقاليم أيضا! يعني لا يعرفهم أحد. أكيد فقراء وقالوا فرصة نأكل.

ضحكنا وارتفعت أصواتنا. ضحك الأقصري لكن دون أن يصدر صوتا. استطرد سراج منير:

- ثم إن ديانة جديدة يعني إعدام لأنك ستكون مرتدا عن الإسلام يا جميل. احمد ربنا. أول مرة أمن الدولة ينقذ بني آدم.

ورفع كأسه وقال:

- في صحة أمن الدولة.

ضحكنا ورفعنا الكؤوس لكن سرعان ما عاد الأقصري إلى شروده لحظات، ثم فاجأنا قائلا:

- اشتريت الأعمال الكاملة لديستويفسكي.

انتبهنا فقال:

- سأنشغل بها عن كل شيء. هل ترشحون لي روايات أخرى؟ شرط أن تكون صغيرة الحجم. يكفي روايات دستويفسكي.

كدنا نضحك لكن سعيد قال:

- اقرأ «تورتيلا فلات» ستنعشك وتبهجك. أجمل رواية صغيرة الحجم قرأتها في السنوات الأخيرة.

قلت أنا:

- اقرأ أيضا «صحراء التتار» لكاتب إيطالي اسمه دينو بوتزاتي.

ضحك سعيد وقال:

- مع تورتيلا فلات وصحراء التتار سترى العالم على وجهيه. البهجة واليأس.

نظر الأقصري لسراج منير وقال:

- وأنت ألا ترشح لي شيئا أقرأه؟

ضحك سراج منير وقال:

- إذا خرجت من هاتين الروايتين سليما سأرشح لك أعمالا أخرى.

انطلقنا في الضحك.

في الثانية عشرة تركنا البار الذي بدأ يغلق أبوابه. كان الأقصري سببا في مرور الوقت بسرعة. وربما الخمر. لم يكن الباقون معنا كثيرين. عند الباب أخذ الأقصري طريقه إلى شارع 26 يوليو حيث ينزل في أوتيل

«جراند» قريبا من ميدان عرابي. أخذنا نحن طريقنا إلى شارع الجمهورية القريب. قلنا نمشـي قليلا حتى نسـعد بالهواء بعد الشرب. لن نشعر بأي بـرد حولنا. سـراج منير يسـكن في حـي جزيرة بدران ومن ثـم يمكن أن يمشـي معنا مسـافة طويلة حتى ننفصل عند ميدان رمسيس ولا بد سنجد تاكسـي هناك. ما كدنا نصل إلى أول شـارع الجمهوريـة وندخل فيه عدة أمتار حتى جاءت من خلفنا عربة بوكس سـبقتنا بسـرعة واستدارت تغلق الطريق أمامنا ويقفز منها خمسـة جنود حاصرونا بالرشاشـات. من جوار سائقها خرج ضابط في زي مدني يرفع مسدسه في وجوهنا ويقول:

- ولا حركة.

أشار إلى سعيد وسراج منير، وقال للجنود:

- حطوا الكلبشات في أيديهم وطلعوهم البوكس.

في الحقيقة توقفنا متجمدين. زادت دهشـتي لأنه اسـتثناني. قلت في حماس:

- نحـن قضينـا اليوم كله معا فـي البار فلماذا تقبـض عليهما؟ ولماذا تتركني؟ وهل معك إذن نيابة بالقبض عليهما؟

قال ساخرا:

- ما دام قلت كده تبقى شيوعي زيهم. هاتوا ده كمان.

10

هل صرت الآن حقا في قلب السياسة؟ سؤال سألته لنفسي. صرت متحمسا أكثر من كل وقت للعمل السري. لكنا توقفنا ثلاثة أشهر كاملة عن اللقاء. ليس لأنهم قبضوا على سراج منير فقط. لكن لأنهم قبضوا على مئة شخص بتهمة الانتماء إلى تنظيمات شيوعية سرية والتحريض على قلب نظام الحكم وتكدير السلم العام. كان من خليتنا سراج منير فقط. لكن أيضا تم القبض على الرفيق الأكبر عامر فضل عامر وغيره من أعضاء اللجنة المركزية كما عرفت. لم يتم القبض على «علي الكبير» ولا المطرب زكريا فخري. ولا أنا أيضا!

تلك الليلة أسرعوا بنا في البوكس مزنوقين بين الجنود إلى أمن الدولة بوزارة الداخلية بلاظوغلي. بينما نحن داخلين بين الجنود وسط الليل قال لنا سراج منير أن نرفض أي تحقيق إلا في حضور محامٍ. وأن نرفض أي تحقيق يتم في مبنى أمن الدولة.

فصلونا عن بعضنا بعد أن عصبوا عيوننا حتى لا نرى مع من نتحدث. ظلت أيادينا في القيود لكن من الخلف. أحسست أني في غرفة وحدي ولا صوت حولي، بعد أن دفعني إليها شخص لا أراه وأغلق الباب. لم أكن قادرا على نزع العصابة عن عيني. مشيت خطوتين أو ثلاثا واصطدمت

بالحائط. فعلت ذلك في كل اتجاه. هي حجرة لا تزيد على مترين في مترين. جلست على الأرض مرتكنا بظهري للحائط واستسلمت للأمر الواقع. فليفعل الله ما يشاء.

لا أعرف كيف مرّ الوقت لكني سمعت الباب يفتح، وشخصا يأمرني بالوقوف. فك قيدي وأمسك بذراعي وصرت أمشي جواره مسرعا أكاد أتعثر فيه هو. دخل بي غرفة أخرى بعد أن مشينا مسافة طويلة لعلها صالة بين غرف عديدة. شعرت بالضوء حولي وسمعت من يقول: «ارفع العصابة عن عينيه» شعرت بأصابع خلف رأسي تفك رباط العصابة. فتحت عيني لأجد أمامي شخصا أنيقا قوي البنيان يرتدي بلوفر فوق قميص فوق البنطلون جالسا خلف مكتب كبير ويقول لي اجلس، فجلست غير مصدق. رأيت الغرفة واسعة دافئة من أثر المكيفات، بها عدد من المقاعد الجلدية الثمينة وعلى الحائط صور الرئيس السادات ضاحكا وصورة وزير الداخلية ممدوح سالم وأكثر من دولاب زجاجي به كتب ودوسيهات كثيرة. كذلك كان المكتب عليه كتب ودوسيهات وتليفونان. كان الجالس أمامي ينظر لي ساخرا وسألني:

- هل أكلت شيئا؟

لم أرد. هو يعرف أني لم آكل أو أشرب شيئا. سألني:

- كم شهرا مضى وأنت في القاهرة؟

- أنا هنا منذ أغسطس الماضي. كنت محاصرا في الجيش الثالث وخدمت الجيش منذ عام 1969. حضرت حرب الاستنزاف وحرب

أكتوبر ووجدت عملا في الثقافة الجماهيرية في إدارة العلاقات العامة.

- كيف عرفت سعيد صابر وسراج منير؟

تذكرت ما قاله لي سراج منير فقلت:

- سأتوقف هنا عن أي إجابة حتى يتم تحويلي للنيابة.

سكت ونظر إليّ في دهشة وسخرية معا وقال:

- هذا ما قاله لك سراج منير. هذا كلام يقوله كل من يدخل هنا وفي النهاية يجيب عن أسئلتنا. أنت غلبان لا تعرف شيئا عنا. لا تعرف حتى أن هذا ليس بتحقيق لأن أحدا لا يكتب إجاباتك.

اقترب برأسه فوق المكتب وقال:

- أنت جئت بالخطأ. عرفت لماذا أخذك الضابط مع سعيد صابر وسراج منير.

ثم بدا أنه انتبه لشيء وضحك:

- سعيد صابر وصابر سعيد صدفة رائعة ولولا أنك من دمياط كما عرفنا من بطاقتك الشخصية وأنك أيضا أطول منه كثيرا لقلنا أنكما توأمين.

قلت ساخرا:

- توأمان يختلف بينهما اسم الأب؟ كل شيء جائز في مصر الآن.

ضرب المكتب بقبضة يده وقال غاضبا:

- أنت حيوان وستجبرني على اعتقالك. قل لي كيف عرفتهما وسأفرج عنك لأنك لا تلزمنا في شيء.

الحقيقة ارتبكت للحظة. سكت ناظرا إلى أسفل فوقف يقول منذرا:

- يعني لن تتكلم؟

- حضرتك ضابط كبير في أمن الدولة ولا بد أنك تعرف أني عرفت سعيد لأني أعمل معه في الثقافة الجماهيرية. بس خلاص!

ابتسم وقال بهدوء:

- طيب وسراج منير؟

- أول مرة أقابله في البار. هو صديق قديم لسعيد وقدما معا مسرحية «تقدم يا وطن» الشهيرة بعد حرب أكتوبر. يا أفندم نحن كنا نسكر والبلد في ثورة. فيه مثقفين كده يبقى ليهم علاقة بالسياسة؟

- المثقفون كلهم حشاشون وسكرية وقارفينا آخر قرف. شوف. سأتركك اليوم لكن تأكد أننا سنكون وراءك في كل خطوة وكل وقت. إذا جئت هنا مرة ثانية لن تخرج إلى الأبد.

***

خرجت وسط الضباب فوق القاهرة أمشي إلى ميدان التحرير ولا أحد يقابلني. عبرت الميدان وحدي بين الضباب أرى العمارات أشباحا تظهر معالمها شيئا فشيئا. على محطة الأوتوبيس وقفت وحدي أكاد أدخل في بعضي من البرد ولم يعد في جيبي أي نقود. أخذوها ولم يعيدوها. أخذوا

ساعتي أيضا. أعادوا لي فقط بطاقتي الشخصية. أخذوني لموظف عجوز كتب بعض البيانات التي لا توجد في البطاقة مثل اسم أمي وعدد إخوتي وماذا يعملون. لم يستغرق الأمر نصف ساعة مع الموظف وسمعت أذان الفجر وأنا أجلس معه. كيف سأركب الأوتوبيس الآن ولا قرش معي؟ من البداية قررت ألا أذهب إلى علي الكبير ربما أكون مراقبا فعلا كما قال لي ضابط أمن الدولة. وأنا أفكر في ذلك كله تحرك أول أوتوبيس إلى منطقة الزيتون. أوتوبيس رقم 44 الذي تعودت أن أركبه. لا بد أن الساعة السادسة الآن. الضباب لا يزال يملأ الدنيا حولي. لم يكن بالأوتوبيس إلا أنا والكمساري الذي جلس على مقعده في الخلف ولم يفكر أن يأتي إليّ أنا الذي جلست في المنتصف ليتقاضى مني الأجرة ولم يسألني عنها. في المحطات التالية كان الركاب قليلين لكن يركبون من الباب الخلفي ويعطونه ثمن التذكرة ويدخلون. قلت سأظل صامتا أطول مسافة ممكنة حتى إذا جاء إليّ وضعت يدي في جيوبي وأبديت بعض الارتباك ثم اعتذرت وطلبت النزول. ستكون الأوتوبيسات قد ازدحمت ومن ثم يمكن أن أركب الأوتوبيس الذي بعده وأقف على السلم مع غيري وأنزل في كل محطة أنتظر الأوتوبيس التالي حتى أصل. فكرت في ذلك وأنا متعب يكاد النوم يخطفني. جلست أقاوم النوم فنسيت أن الكمساري لم يسألني ولم يأتِ إليَّ. في محطتي تركت مقعدي لأنزل من الباب الأمامي. كان الكمساري قد ترك مكانه الخلفي ووقف يشرب سيجارة مع السائق. كان العدد قد صار قليلا من جديد بعد أن قطع الأوتوبيس مسافة طويلة

ولـم يعد أمامه إلا ثـلاث أو أربع محطات للنهاية. لكن الكمسـاري نظر إليّ في اللحظة التي انفتح فيها الباب بعد توقف الأوتوبيس وقال :

- أنت لم تقطع تذكرة. صح؟

ارتبكت فقال:

- أنا تركتك لأني شعرت أنك غريب. مع السلامة ولا تنسني.

مشـيت فـي ذهـول فرحـا وغير مصـدق ما فعلـه الكمسـاري. كانت المشكلة وأنا أدخل الشقة هل أخبر مدام فيولا بما حدث لسعيد؟ وما هو رد فعلها؟ في لحظة فكرت سـتكون فرصة أن ترفض وجودنا معها خوفا من أمن الدولة. لكني تريثت وتركت الأمر للوقت.

دخلت من الباب فوجدتها قد استيقظت وتجلس تتناول إفطارها.

- صباح الخير.

- صباح النور.

ردت بصوت نائم ثم قالت:

- تأخرت كثيرا. أين سعيد؟

- سيأتي بعدي.

- ألن تفطر؟

- سأنام الآن.

دخلت غرفتي وأغلقت بابها وارتميت فوق السـرير بملابسي.غرقت في نوم عميق.

في اليوم التالي قال لي عمر إبراهيم إن أفضل شيء في مثل هذه الحالة ألا أغير نمط حياتي. وإن ما قالوه عن مراقبتهم لي كلام فارغ ولا يجب أن أتوقف عنده. هم يفعلون ذلك مع المناضلين الكبار لكني مجرد ناقد أدبي حتى لوكانت ميولي يسارية. سألني: هل لك علاقة بالأحزاب السرية مثلا؟ قلت: لا. قال: إذن انسَ كل ما قالوه لك. ثم قال ضاحكا: هم يعرفون أنك لست عضوا في أي حزب. الأحزاب السرية كلها مخترقة!

كان همي الأكبر هو ماذا سيحدث في مسرحية هاملت التي كانت على وشك الظهور. قال عمر إبراهيم أيضا أن أترك له الأمر. قام بالاتصال أمامي بمدير قصر الريحاني أحمد الهوني. عرف منه أن البروفات كانت انتهت وكان مقررا لها العرض بعد أسبوع لمدة عشرة أيام في القصر، ثم ينتقلون بها إلى قصر ثقافة بورسعيد لمدة ثلاثة أيام وسوف يفعلون ذلك. ليس مهما وجود سعيد. لكن اسمه سيكون ظاهرا على الأفيش وفي كل الأخبار. قال لي عمر إبراهيم إن ذلك لا بد يؤثر إيجابيا على موقف سعيد. شعرت بالفخر لوجود رجل مثل عمر إبراهيم.

ظللت وحدي في البنسيون دون سعيد ولم أخبر فيولا. قلت لها إنه في بورسعيد لعمل مسرحية سيطوف بها مصر كلها. طمأنتها أنها ستحصل على حقوقها كاملة مني، وفعلت ذلك. أدهشني أنها لم تعرف من الصحف التي نشرت أسماء المتهمين.

***

في اليوم العاشر من فبراير. لا أنسى ذلك. ليس لأن أم كلثوم قد فارقت الحياة منذ أسبوع، ولا لأني حزين عليها أشعر أني ودعت عصرا

من الجمال، ولا لانشغالي بكتابة مقالين عنها. في النهاية تنتهي الأعمار. لكنها أيضا يمكن أن تبدأ. أجمل الأعمار هي التي تبدأ بقصة حب.

كنـت أركـب المتـرو. بعد محطة رمسـيس بـدأ يفرغ مـن ركابه. بعد محطة الإسـعاف لـم يعد موجودا في العربـة التي أجلس فيها غيري وفتاة جميلـة تجلـس أمامـي. لقد ركبت من روكسـي أيضـا. كان عطرا جميلا ينتشـر منهـا لفت حواس الجالسـين من قبل فرأيت عيونهـم تتحركُ إليها كثيـرا. صعـد إلـى العربة بائع كتب. كانـت هذه أول مـرة أرى ذلك. كان يحمـل عددا مـن الكتب تصل إلى عشـرة تقريبا فوق يديـه وإلى صدره. لمـاذا ركب عربة قبل محطتها الأخيرة؟ القدر. لا إجابة أملكها غير ذلك. قال له الكمساري الجالس في مكانه جوار الباب:

- لا أحد. أنت مجنون؟

قال الشاب:

- هناك شخص جالس. سامحني.

اندفع ناحيتي أنا الظاهر له فرأى الفتاة أمامي. كان كلانا جوار النافذة صامتـا. ربمـا كانت تفكر مثلـي كيف خلت العربة إلا منا. وضع الشـاب الكتب على المقعد جواري وقال باسما:

- يا ريت أستفتح منكما. كتب جميلة والله.

كانت الساعة الحادية عشرة. كنت نويت أن أذهب إلى مكتبة مدبولي. صرت قادرا الآن على شـراء الكتب القادمة من بيروت. كنت عرفت من

علـي الكبير الذي لـم تنقطع علاقتي به إذ كنا نتقابـل على مقهى ريش في الظهيـرة حيـث يقل الأدبـاء، أن كتابـا عن تعذيـب المعتقلين في سـجن الواحـات كتبه طارق عبد الحكيم أحد الشـيوعيين الذين مروا بالتجربة، عنوانـه «الأقدام العارية » قد وصل إلى الحاج مدبولي ويبيعه سـرا تقريبا لمن يثق فيه.

ابتسـمت للبائع لكن الفتاة لم تهتم. ظلت جالسة في صمت وشرود. قلبـت في الكتب بسـرعة فوجـدت بينها كتاب ابن حزم «طـوق الحمامة فـي الألفة والألاف». كتاب سـمعت عنه كثيرا كأحـد عيون كتب الحب العربي. كان مجلدا بغلاف قوي. سـألته عن ثمنه فقال خمسـة جنيهات. كنـت رأيـت الكتاب بالمعـرض في ينايـر الماضـي وفكرت أن أشـتريه لكـن كانـت نقودي قد نفدت في شـراء كتب عدة فذهبت إلـى الكافتيريا أجلس مع الأدباء. وجدت أكثر الجالسـين من الشـباب يسرقون الكتب. عـرف أحدهم أني لم أشـترِ الكتاب فقال لي: لماذا لا تسـرقه؟ ضحكت وقلـت: سأشـتريه غدا. في اليـوم التالي لم أذهب. ولـم أذهب بعد ذلك حتى انتهى المعرض ونسيت الكتاب. في أحد أيام المعرض دخل سعيد وفي يـده رواية «لعبة الكريـات الزجاجية» لهيرمان هيسّـة ورفعها أمامي قائلا: بساندوتشـين وكوب شاي. الرواية ضخمة فدهشت. قال: «عباس الروبي الشـاعر من المحلة سـرقها لي نظير ذلك» وقال ضاحكا: «سـرقة الكتـب حلال لكني لا أفعلها. وبصراحة أنا وافقت أنه يسـرقها لي لأجل أن أعطيـه ثمـن الغداء والشـاي. هي روايـة عظيمة على أي حـال اقرأها مجانا» وضحك من جديد.

أعطيت البائع الجنيهات الخمسة. في الحقيقة كنت قد رأيت عيني الفتاة العسليتين تختلسان نظرة لغلاف الكتاب وعنوانه. تمنيت أن أهديه لها ولم أعرف كيف.

وصلنا إلى المحطة الأخيرة. نزلنا والكتاب في يدي وعطرها أمامي وحولي. النهار واسع بالضوء رغم البرد. أرتدي كعادتي «بلوفر» ولم أشترِ «جاكت» بعد. كانت ترتدي «بنطلون» فوقه جاكت وحول عنقها شال جميل أخضر. شقراء لكنها قصت شعرها «ألا جارسون» فبدا وجهها الخمري يجذب كل الانتباه. لم يكن واقفا بالمحطة أحد. مترو الألف مسكن يتحرك خارجا من المحطة الواسعة، ومترو المرغني الذي جئنا فيه قد توقف. رأيتها تقف حائرة قليلا ثم تتجه إلى شارع رمسيس فمشيت وراءها من بعيد. خطفتني عيناها ورقتها البادية على وجهها. في الحقيقة وجدت نفسي أفعل ذلك منقادا إليها. ما الذي يعنيه ألا ترى حولك أي شيء إلا فتاة أمامك رغم أن النساء والمركبات في الشوارع؟ تلكأت كثيرا حتى صارت هي في آخر شارع محمود بسيوني وأنا في منتصفه لكن لا أخطئها. مع نهاية الشارع انعطفت إلى مكتبة مدبولي. أسرعت حتى لا تنتهي مما تريد قبل وصولي. دخلت المكتبة فكدت أصطدم بها وهي خارجة.

- متأسف جدا.

قلت فابتسمت نصف ابتسامة وهزت رأسها. أفسحت لها الطريق ودخلت المكتبة. في الحقيقة كدت أن أتراجع عن الدخول وأمشي

خلفها ربما أستطيع أن أحادثها. لكني رأيت الحاج مدبولي يقف أمامي وسط المكتبة فكان ضروريا أن أسأله عن شيء، أي شيء. سألته عن الكتاب الذي جئت من أجله فأشار إلى أحد العاملين ليأخذني إلى المخزن خلف المكتبة واشتريت الكتاب. في الطريق من المخزن إلى المكتبة لأدفع ثمنه قال لي العامل:

- البنت التي سبقتك أيضا جاءت تسال عن هذا الكتاب لكن الحاج مدبولي طبعا لا يبيعه لأي أحد. أنت معروف عندنا. الكتاب منعت الرقابة دخوله في مصر. آه والله. رغم أن السادات شغال مسح في عبد الناصر!

خرجت من المكتبة ولدي إحساس أني سأراها في أي شارع. نظرت في شارع محمود بسيوني فلم تلُح لي. عبرت الشارع فوجدت نفسي أمام جروبي. وقفت أمامه لعلي أراها في امتداد شارع قصر النيل، لكني رأيتها خلف زجاج جروبي جالسة وحدها. هي أيضا رأتني فأخفضت رأسها. ما الذي يحدث إذا دخلت وجلست معها؟ فعلت. وقفت أمامها مبتسما وقلت:

- لن أتطفل عليكِ. لكن مؤكد ليست صدفة أن نكون في المترو وحدنا وعند الحاج مدبولي.

ووضعت الكتاب أمامها وقلت:

- هذا هو الكتاب الذي سألتِ عنه. اقرئيه وقد نلتقي صدفة مرة أخرى فتعيديه لي.

نظـرت لي نظـرة طويلة ثم هزت رأسـها كأنها تتأكد ممـا ترى أمامها وقالت باسمة تدعوني للجلوس:

- تفضل.

لـو قلـت إن كل ما حولي طـار في الفضاء وطرت خلفـه لن يصدقني أحد. جلسـت أشـعر بالنار ترتفـع إلى وجهي حتى صـرت غير قادرعلى الـكلام أنا الذي قلـت كل ما قلته من قبل. ثم اندفعـت أتكلم بلا توقف. حضرتـك بصراحة حلـوة أوي. عينيكي العسـلية دي ما شـفتهاش كتير. ابتسـامتك زي الأطفال. شـفتي بياع الكتب طلع يبيـع لي كتاب ابن حزم «طوق الحمامة» عن الحب وجيت مكتبة مدبولي ألاقيكي كنتي بتشترى نفـس الكتـاب اللي أنا جاي أشـتريه. أنا مش عارف حنعمـل إيه بعد كده بس يا ريت أشوفك تاني.

كلام كثير جدا صرت أقوله مندفعا ولا أسـتطيع التوقف وهي تبتسـم وتضحـك وتخفـض عينيها ثم تنظـر إليَّ نظـرة تدوخنـي وتجعلني أكاد أتبعثر على الأرض.

كـم مضى من الوقـت؟ لا أعرف. صارت السـاعة الواحدة ظهرا بعد خمـس دقائق! كنا في الأصل في الحادية عشـرة والنصف تقريبا. شـربنا الكابتشـينو الـذي وجدتها طلبت لنفسـها منه قبلي أيضـا. أضفت أنا إليه قطعتـي باتيـه ووافقت هي أن تحصل على قطعة مـا دمت ألححت عليها فـي ذلك. عرفت أن اسـمها صفاء ومن بني سـويف وأرادت أن تشـتري الكتـاب لقريـب لها هناك. قلت لهـا الكتاب منعته الرقابـة في مصر لكن

للحـاج مدبولـي طريقـة فـي إدخـال الكتـب الممنوعـة. الكتـاب تقريبا لا يشـتريه إلا الشيوعيون الذين يعرفهم الحاج مدبولي لذلك قال لك إنه غير موجود. قالت ضاحكة:

- أفهم من هذا أنك شيوعي!

ابتسـمت وقلـت أنـا قـارئ نهم فقـط، وكاتب أيضـا أكتب فـي النقد الأدبي. قالت إن قريبها لم يقل لها إنه ممنوع. هي لا تعرف أنه شـيوعي. هـو فقـط مثقـف. يعمل مدرسـا للغـة العربية. اندهشـت بحـق كيف لم يخبرهـا بخطورة الكتاب. بدا عليها شـيء من الضيـق فلم أكرر الحديث فـي الموضـوع. قلـت لنفسـي ربما يكـون في أحـد الأحزاب الشـيوعية السرية ولم يخبرها. في هذه الحالة يكون تصرفه أسوأ.

عرفت أنها في السـنة الثالثة بكلية التربية جامعة عين شـمس وتسكن في بيت الطالبات بروكسي. قلت لها حين قررت تنهض وتتركني:

- أردت فعـلا أن أعطيكِ الكتـاب لتقرئيه أنت لا لكي تعطيه لقريبك حتـى أقابلك مرة أخـرى. والآن الأفضل أن أعطيكِ كتـاب ابن حزم عن الحب. إن لم تقابليني مرة أخرى فتذكريني. هل هذا صعب عليكِ؟

سـكتت ولم ترد. ابتسـمت ابتسامتها الساحرة فشـردت لحظة وقلت لها:

- لقـد جئـت القاهرة أتمنى شـيئا واحـدا من الله. هـو أن ألتقي بفتاة تعيش في روكسي وأقابلها في شارع السباق.

ضحكت هذه المرة وقالت بحماس:

- مثل عبد الحليم حافظ ولبني عبد العزيز في فيلم الوسادة الخالية!

- أنا شفت الفيلم أمس في التلفزيون.

وبدت مندهشة بحق فقلت لها:

- هـل هناك قدر أجمل من ذلك. لا بد أن أراكِ مرة أخرى. وما دمتِ لم تذهبي إلى الكلية اليوم إذن تستطيعين أن تمضي اليوم كله معي.

هزت رأسها أكثر من مرة مبتسمة في استغراب ثم قالت:

- بصراحـة لا أعـرف كيـف دعوتك إلـى أن تجلس معـي ولا كيف أجبتِ عن أسئلتك ولا كيف استمعت إليك كل هذا الوقت.الآن أنا قادرة أن أقول لك لا. سوف أنهض عائدة إلى بيت الطالبات.

وحركت إصبعها السبابة رافضة أمام وجهي وهي تبتسم فبدت أناملها كالشمع الرقيق.لا أعرف ماذا حدث. وجدت يدي تمسك يدها وأقول:

- أنامل من أثير.

سحبت يدها بسرعة وقالت:

- لازم أمشي أرجوك.

أطعتها. دفعت الحساب وخرجنا.

مشـينا صامتين في شـارع طلعت حرب الذي اتسع بنا وصار كله نورا تتحرك بينه الملائكة من النسـاء والرجال، قلت لنفسي لا يمكن أن تكون

نسيت طريق العودة إلى المترو. إذن هي تكمل معي ولو بالخطأ. وقفت فجأة وقالت:

- أين نحن؟ هذا ليس طريق المترو؟

قلت باسما:

- ألم أقل لكِ إنه القدر. هذه سينما راديو بها فيلم «أميرة حبي أنا». هل يرفض أحد فيلما لسعاد حسني وحسين فهمي؟

قالت:

- المرة القادمة.

قلت:

- أعطني هذه الفرصة.

لم أتردد في الإمساك بيدها وتحركت بها إلى السينما. تركت يدها الصغيرة الرقيقة في يدي حتى وقفت أمام شباك التذاكر. قطعت تذكرتين لحفلة الثالثة والنصف وعدت أمسك يدها من جديد. كان أمامنا ساعة من الوقت فذهبنا إلى الأمريكين وجلسنا حتى موعد السينما ورأينا الفيلم، فأوسعت سعاد حسني في الدنيا حولنا ونثرت علينا من ورودها السماوية.

لم يهمني أن ينظر إلينا كل الجالسين والواقفين في المترو ونحن نجلس متجاورين عند عودتنا في المساء وحول عنق كل منا عقد من القرنفل. في كل مساء بعد ذلك لم تهمني نظرات أحد. تاقت نفسي في

السينما أن أحيطها بذراعي وأن أقبلها لكني اكتفيت أن أمسك يدها. تترك يدها قليلا وتسحبها وأعود إليها بعد لحظات. عرفت طريقي معها إلى شارع الجبلاية فيما بعد. فزت فيه بأول قبلة منها. لن أقول أسكرتني كما يقول المؤلفون. الحقيقة أفقدتني الوعي. كل يوم كانت تقول لي أن أرجئ الموعد إلى اليوم التالي وكنت لا أرجئه وتوافق. عرفنا الطريق إلى ميدان الحسين وجلسنا في مقهى الفيشاوي ويدي حول كتفيها. أضمها إلى جانبي. مشينا في شارع السباق. لم يكن خاليا كما ظهر في فيلم الوسادة الخالية. وسواء كان التصوير يستدعي إبعاد المارة ليبدو الشارع خاليا أم كان ذلك في الصباح الباكر، فلا بد كانت المنطقة ذلك الوقت قليلة السكان يسكنها الضوء بالنهار وبالليل تسكنها الراحة. قلت لها لا بد أن نجد طريقة لإخلاء الشارع. ضحكت وقالت ليس أمامنا إلا أن نلتقي في السابعة صباحا. قبلتها قبلة خاطفة ونحن نجلس في حديقة الميريلاند. وفعلناها. التقينا في السابعة. كان الشارع بالفعل خاليا. اتفقنا حين أراها أن أستدير وأمشي على مهل حتى تلحق بي فأمد يدي لتضع فيها يدها. ضحكنا حين أمسكت بيدها ثم قالت متأثرة: «خايفة تكون حكايتنا تمثيل في تمثيل» أحطتها بذراعي وأخذتها إلى حضني. وحدنا في الدنيا الآن لا أرى غيرها. قلت لها مكانك هنا يا صفاء في قلبي. صرت أحلم بيوم يضمني معها فيه بيت وسكن.

كانت دراستها للأدب الإنجليزي تعطينا ما نتحدث فيه عن القصص العالمية والشعر العالمي. في كل مرة كنت أوصلها إلى بيت الطالبات أقف بعيدا قبل الساعة العاشرة، الموعد المحدد الأخير للساكنات المغتربات. أشعر بروحي تدخل معها. كل يوم كان كأنه اليوم الأول!

كنت أقابل علي الكبير نتحدث في أمر اجتماعاتنا بدون سراج منير فأجده لا يزال يرى أن نتأخر وبدوري أكتشف أن هذه رغبتي أيضا. صرت في العمل شاردا حتى سألني عمر إبراهيم فقلت له هامسا: أعيش قصة حب.

***

خرج سعيد من السجن بعد ثلاثة أشهر في اليوم الأول من أبريل. جاء إلى البنسيون ضاحكا يقول «أبريل» لم يبدأ بالكذب هذا العام. أخبرته أن فيولا لا تعرف شيئا فبدا مسرورا. ثم ضحك فجأة وسألني:

- هل مات الملك فيصل فعلا؟

- أجل قتله ابن أخيه. تظاهر بأنه يصافحه ثم قتله. لكن لماذا تضحك؟

- انقطعت عنا الصحف في الأيام الأخيرة وفوجئت بمسجون جنائي وأنا أقف أمام العنبر يسألني في ارتباك هل مقتل الملك فيصل سيجعل السعودية تطرد المصريين العاملين هناك؟ سألته لماذا هو مرعوب هكذا، فقال إن أخاه يعمل هناك وهارب من مصر بسبب حكم بالسجن ثلاث سنوات. ويخشى أن يعود أخوه فينفذ الحكم.

قلت ضاحكا:

- وماذا قلت له؟

- بصراحة بعد أن عرفت حكاية أخيه قلت له إنهم فعلا سيطردون المصريين.

ضحكنا طويلا فقال:

- مشـي يا عينـي في الطرقة أمـام العنابر يلطم ويحكي لـكل من يراه فيضحكـون ويقولـون له ربنا معـاك. الحمد لله أنه تم الإفـراج عني وإلا كان من الممكن حين يعرف الحقيقة أن يضربني بموس أو مطواة.

ثم هز رأسه ضاحكا وقال:

- كانت أيام سوداء لكن ضحكنا كثيرا. الحمد لله غارت وسأنساها. مش ناسيين أني أخرجت في يوم من الأيام مسرحية لشاعر شيوعي.

كان هزيلا شـاحبا. أفرجت عنه المحكمة ومعه أكثر من شـخص لكن لا يزال سراج منير مسـجونا. خرج الرفيق الأكبر عامر فضل عامر والتقينا في مقهى أسترا. قال لي أن نعود إلى اجتماعاتنا. تحدثنا في الحياة السياسية التـي تضطـرب وتغلي. توالي إضرابات العمال، فـي مصانع غزل المحلة الكبـرى وعمال النقل البـري في مصر كلها، وإضراب عمـال كفر الدوار للغزل والنسيج، وصدامات الأهالي وقوات الأمن في المنزلة وبيلا.

ذهبـت أقابل ماجـدة مرة أخرى. أخذت منها نسـخا قليلـة من العدد الجديـد مـن مجلـة الحزب. لـم أرها بمشـاعري السـابقة. رأيتهـا زميلة مناضلة رغم ما أخذني من جمالها من قبل.

كان الربيع يتقدم وأنا وصفاء بين شـارع الجبلاية والرحلات النهرية فـي النيل وأعلى المقطم نطل على القاهرة بين الضباب وحدنا والسـينما فرأينا فيلم «الحي الصيني» لجاك نيكلسـون وفاي دوناواي الذي بعد أن

خرجنا وجدتها شـاردة ولما سألتها قالت: حائرة، إنه فيلم يفوق الخيال. ورأينا فيلم «زائر الفجر». خرجنا من السينما ووجدتها واجمة. قلت لها: «شـفتي مصـر» قالت: «ماكنتش أعرف أنها وحشـة كـده» قلت لها: «ولا يـزال النـاس يدفعـون ثمـن الديكتاتورية» وجدت فـي الفيلـم فرصة أن نتحدث عن أحوالنا لكن صمتها جعلني لا أسـتمر في الحديث. شـاهدنا فيلم «أميرة حبي أنا» مرة ثانية في حفلة التاسعة والنصف ليلا هذه المرة. ودّعت صفاء تلك الليلة في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أمام بيت الطالبات ودخلته لا أعرف كيف! قالت من أجل سـعاد حسني يهون كل شـيء. بينما كنت أعود فرحا فأجد سـعيد دائما في صمت طال لأسابيع. قال لي إن هناك خلافا مع أسرته التي تريده أن يعود ليعيش معها. سألني كيف حقا لـم أستغل ما جرى له وأترك البنسيون. لـم أجد ما أجيبه غير أنه ربما أنستني قصة الحب كل ما حولي.

في أسـبوع واحـد، والحر يدخل على القاهرة، حضـرت كل ليلة بعد منتصـف الليـل فتـاة واعدها سـعيد وتقفز مـن النافذة. كانـت أجمل من أشـجان التـي عرفت منه أنها وجـدت فرصتها في مسلسـل إذاعي جديد سـتظهر فيه ثـلاث دقائق. قال ضاحكا وسـاخرا: غدا يزيدون لعشـرة ثـم عشرين فتصبح نجمة. ثم قال إنها للأسف غير موهوبة ولا تريد الاقتناع بذلك. وهز رأسـه وقال: «هذا عام بدأ بالسـجن وسـأجعله عام النسـاء. سأضيعه معهن».

في كل ليلة لا يخبرني إلا بعد أن تصل الفتاة وتنادي من أسفل فأنزل. لـم أعد متسـرعا فصـرت أخلع البيجامـة وأرتدي بنطلـون وقميصا فوقه

بلوفر خفيف وأنزل لأجد الرجل القوّاد. لم أعد أجد العجوز. عرفت أنه قد مات.

***

انتهت الدراسة فسافرت صفاء مع إجازة نهاية العام الدراسي إلى بني سويف فكتبت لها خطابا طويلا ولم ترد عليه. كتبت لها خطابا آخر ولم ترد عليه. كتبت لها خطابا ثالثا ورابعا ولم ترد. أصابني اليأس الشديد. حدثت سعيد في الأمر. سكت لحظات متحيرا ثم قال:

- هل أنت متأكد أنها أحبتك؟

- كيف لا وكانت تخرج معي كل يوم.

ضحك وقال:

- هل أتيت بها إلى هنا؟

- لا طبعا لأنها كانت ستغضب لو عرضت عليها ذلك.

سكت فقلت:

- إنها رقيقة جدا يا سعيد.

ضحك ساخرا وقال:

- أنت الرقيق جدا. يا عزيزي لا حب دون جنس. كيف لا تعرف ذلك؟

نظرت إليه مندهشا. سكت حائرا. لا يمكن أن تكون صفاء كذلك. صفاء قطر الندى ونفحة السماء. صفاء هي أوفيليا التي خلقتها السماء

وحدهـا ثم ختمـت عليها بختمها. صفاء لن تخذلني أبـدا. ربما لم تصل الخطابات ووقعت في يد أحد من أسرتها وصارت مشكلة. لا بد أن أنتظر بداية العام. سأصبر.

شـغلت نفسـي بعمل كثير. قراءة وعروض كتب في الصحافة العربية تنشر دون أن يوضع اسمي عليها. لا يهمني إلا أن أحصل على مكافأتي. خرج سـراج منير بعد ستة أشـهر. التقينا عند علي الكبير. لخص حكاياته عن السجن قائلا وهو يضحك ساخرا: «أهو زي كل مرة».

مـع نهايـة الصيـف قال لـي الرفيـق الأكبر عامـر فضل عامـر إنه جاء الوقت لأترك البنسـيون وأسكن وحدي. سـيكون عليّ نقل عدد كبير من المجلات السـرية بعد صدورها إلى خارج القاهـرة، وعليَّ أن أختار بين دمياط والإسكندرية. سألته لماذا اخترت لي هاتين المحافظتين؟ قال:

- الأولـى بلـدك الأصلـي والثانية درسـت فيها في الجامعـة، تكرار زيارتـك لأي منهمـا لـن يريـب أمـن الدولـة. فـي دميـاط أهلـك وفـي الإسكندرية أصدقاؤك.

أعجبني التفكير فقلت له الإسـكندرية. فكرت بسـرعة أنه يمكن لأي سبب أن يتم القبض عليّ هناك. فلأكن بعيدا عن أهلي أفضل.

وافـق وقال إن ذلك لن يتم الآن. ربمـا قبل نهاية العام ومن ثم يجب أن أسكن وحدي فيما بعد حتى تكون الأوراق عندي في أمان. ولما رآني مرتبكا قال:

- لا تفكر في شيء. سندفع لك ثمن الغرفة، وربما نختارها لك أيضا. المهم أن ذلك سيكون قبل نهاية العام وهكذا يمكن لك البقاء مع صديقك حتى ذلك الوقت.

كنا في شهر سبتمبر. مرّ الصيف الرذيل الذي عشته للمرة الثانية في القاهرة. لم يجعلني أتحمله إلا سهراتي مع سعيد في بار متاتيا بعد خروجه، وحضورنا الكثير من العروض المسرحية، فشاهدنا مسرحية «الشيطان يسكن في بيتنا» من تأليف مصطفى محمود وإخراج حسن عبد السلام بالمسرح الحديث، وكنت سعيدا وأنا أرى الجميلة ليلى طاهر أمامي على المسرح، ومسرحية «الحب بعد المداولة» على مسرح الطليعة الصغير الذي أعجبني جدا باعتباره مسرحا للتجارب الجديدة، فرأيت عليه أيضا مسرحية «دون كيشوت» للإسباني بايرو باييخو من ترجمة صلاح فضل الذي قرأت له بعض المقالات النقدية وأخرجها مخرج شاب أيضا اسمه سناء شافع، وأدهشني أن يكون ممثلا فيها مخرج مثل جلال الشرقاوي، وسعدت برؤية عبد السلام محمد الذي أحبه جدا منذ رأيت له مسرحية «الفرافير» ليوسف إدريس في التلفزيون. الممثلون تقريبا كعادة مسرح الطليعة كلهم جدد مثل محمود الجندي وإبراهيم عبد الرازق. الشاعر الذي رأيته يبيع ابنه أيضا اختفى وقيل إنه سافر إلى الإسكندرية، وإن البعض رآه هناك يمشي في شارع الكورنيش عاريا ويلصق على مؤخرته جريدة «وطني» التي يصدرها الأقباط، بحيث يكون عنوانها واضحا لمن يراه. ثم قيل إنه اختفى ولا أحد يعرف مكانه. كنت على ثقة أن جهاز أمن الدولة أدخله مستشفى الأمراض العقلية.

***

انفتحت الدنيا مرة أخرى بالنور العظيم. جاءت صفاء إليّ في العمل بعد أن بدأ العام الدراسي. أجل. إلى عملي. كنت اتصلت ببيت الطالبات أكثر من مرة قبل يومين من بداية الدراسة فقيل لي لم يأتِ أحد بعد وأن أسأل بعد أسبوع من الدراسة إذ تكون جميع الفتيات قد استقرت في الحضور. لم يمر الأسبوع ورأيتها تدخل من الباب ومعها أحد السعاة يشيرلها عليّ. أن تنظر جميع زميلاتي إليها أمرعادي. فتاة جميلة تزورني أنا الغريب في القاهرة. أما أن ينظرن إليّ أنا أيضا في دهشة كبيرة فأنا السبب. لقد هتفت «صفاء» وقفزت من مكاني أجري إليها. أجل، حدث هذا ولم أشعر بمن هم حولي. كدت أحتضنها لولا أنها نظرت إليّ محذرة. أمسكت يديها وقلت لهن:

- آسف يا جماعة مضطر أمشي.

نزلت بها إلى شارع الجلاء فاتسع. إلى شارع رمسيس فاشتعل بالبهجة رغم الزحام. عدنا إلى ما كنا فيه وصار كل شيء أجمل.

عرفت من صفاء أنه لم يصل إليها أي خطاب. قلت لها ضاحكا قصة البوسطجي ليحيى حقي لا تزال قائمة! لعنت مصلحة البريد والعاملين فيها. قالت لي إنها كانت حزينة جدا أمضت صيفا مؤلما. خافت أن أكون قد زهدت فيها. فكرت كثيرا أن تأتي إلى القاهرة لكنها خشيت أن أتهرب منها بعد أن كنت وعدتها بالرسائل ولم أفعل. قلت لها لقد أعطيتك رقم تليفون البنسيون. ليس في بيتكم تليفون كنت كلمتك. قالت آسفة، وفي حسرة حقيقية إنها فقدت النوتة الصغيرة التي بها كل شيء. لكنها هذه

المـرة وقـد عـادت إلى الدراسـة قالـت فلأفعلها مـرة واحدة، قـد يكون الأمـر غير مقصود. قلـت لها وأنا أطيل النظر إلى وجههـا الجميل: لماذا أنـتِ شـاحبة يا صفـاء؟ قالت: أنت السـبب. وابتسـمت فتألقـت عيناها وتألـق الكون. قالت إنها قرأت كتـاب ابن حزم وكنت أطل عليها من كل صفحاته، وتسـربت من عينها دمعة وهي تقول: «لم أصدق أني سـألقاك مرة أخرى». شعرت أن الله ينتظر معها أن أجفف دمعها!

- لـن أتركـكِ أبدا يا صفاء. لا أسـتطيع. القدر لـم يجمع بيننا بل مزج بيننـا فصرنا قلبا واحدا وروحا واحدة. سـتنتهين من دراسـتك في صيف العام القادم ونتزوج في صيف العام الذي يليه. سيكون عام 1977 هو عام زواجنا. هذا رقم لن ننساه بعد ذلك أبدا. لقد ادخرت مئة وخمسين جنيها في هذا الصيف، لكني بددتها من اليأس. كنت أستطيع أن أدخر أكثر لكن أرسلت لأهلي بعض المال. أمامنا أكثر من عام ونصف سأدخر فيها ألف جنيه ونجد سكنا في أي مكان بالقاهرة. سأجد طريقة لتعملي معي إن لم يتم تعيينك في سلك التدريس.

في إحدى الليالي قلت لسعيد:

- عليّ أن أتركك يا سعيد. هذه المرة أنا جاد.

- لقد عادت حبيبتك. أليس كذلك؟

- هل يبدو على وجهي؟

- يـا رجـل علـى كل جسـمك. أنت طـول الوقت سـرحان. تبتسـم بلا سبب ولا تستطيع الجلوس خمس دقائق.

- سأكمل قصة الحب وحدي.

- حب وجنس. لا تنسَ ذلك وإلا ضاعت منك إلى الأبد.

لم أستطع أن أفعل ما قاله لي. ظللت في المنطقة الروحية أنا الذي حدثت هايدا أرسكين عن الفناء في الكون بالجنس. كل ليلة أتذكر دمعة صفاء التي تسربت من عينها غير مصدقة أني أمامها، وأتذكر شعوري نحوها فأكرر لنفسي حقا عندما تتسرب دمعة من امرأة تحبك، فاعلم أن الله ينتظر معها أن تجففها!

ثلاثة أيام قبل رحيلي عن السكن. رحيلي الذي اتفقنا ألا نخبر فيولا به إلا بعد أن يتم. رأيت سعيد ممددا على السرير يقرأ في مسرحية «أوديب». بدا لي يشرد عن القراءة كثيرا. سألته أنا الذي كنت أقرأ في كتاب «العائلة وأصل الملكية» لفريدريك إنجلز:

- ماذا جرى يا سعيد. هل يضايقك رحيلي إلى هذا الحد. لن أبعد كثيرا، سأسكن في دير الملاك وسنتقابل في العمل.

لم يرد فاستطردت:

- هناك سأنفذ نصيحتك. حب وجنس. صفاء لا يمكن أن تقفز من البلكونة.

كنت أكذب طبعا. كان السبب سياسيا. ستكون لديّ المجلات التي سأسافر بها بعد ذلك. وسعيد الذي سجن بلا سبب لن يوافق لو عرف، أن يسجن بسبب!

رأيته يرفع النظارة عن عينيه ويعتدل جالسا فوق السرير. يمسح دمعة بكف يده. نظرت إليه واجما رغم أني أعرف أن هذه الدموع ليست دائما تأثرا أو حزنا لكنها من أثر النظارة أو عادة مزمنة للعين كما يقول ضاحكا! نزل من السرير ووقف يقول:

- فعلا الحب صعب تحمله. أنا أيضا أحب.

11

- هل سنمضي كل وقتنا في الشوارع يا صفاء؟

قلت لها ذلك فجأة ونحن في حديقة الميريلاند. نظرت إليّ باسمة وقالت:

- ألا تعجبك الحديقة؟

- يعجبني أي مكان في الدنيا حتى لو صحراء ما دمتِ معي. لكن..

لم أكمل ودخلت هي أيضا في الصمت. كانت إجازة العيد الصغير قد انتهت. لقد مر رمضان هذا العام مختلفا. كنا في الساعة الثانية ظهرا. قالت لي إنها لن تستطيع البقاء معي طويلا اليوم. هناك بحث دراسي تكتبه وموعد تسليمه لمدرس المادة بعد غد. ستمضي معي ساعتين فقط. قابلتني منذ ساعة. أمامي إذن ساعة أخرى. لكني وقفت فوقفت معي.مشيت فمشت. خرجنا من الحديقة وأخذنا طريقا يبتعد بنا عن المترو فلم تعترض. هي هكذا صفاء الجميلة تقول ما تشاء ثم تنصاع إلى ما أريد. كنت صامتا معظم الوقت. فقط أمام قصر الطاهرة سألتني:

- ألن نعود؟

- سنعود لكن بعد أن تشاهدي المكان الذي أعيش فيه.

وقفت مبتسمة وقالت :

- مشيت بي إلى هنا لأجل ذلك. لا يا حبيبي. لن تطول مني شيئا إلا بعد الزواج.

- من قال إنني أريد منك أي شيء غير ما أخذته من قبلات وأحضان - وضحكت - أنت مجنونة وعقلك يذهب إلى بعيد. أنا لا آخذ منك إلا ما تسمحين به. لا تخافي.

ضحكت وقالت:

- طيب احلف.

- والله العظيم.

- احلف بجد.

- والله العظيم لا آخذ منك أي شيء بالقوة أبدا.

ومشيت فمشت صامتة. رحت أفكر فيما أفعل حقا. يومان أو يوم وأترك البنسيون. كان يمكن أن أتحمل رغبتي فيها حتى أعيش في السكن الآخر. أصحبها إليه دون توتر من حضور مدام فيولا. قلت لنفسي لتأتي مدام فيولا فلن تفعل أي شيء. قالت لا نساء ووافقت على الأجنبية هايدا وزادت رعايتها لنا. ستوافق على المصرية لأنها قالت مسموح للأجانب فقط! مسكينة مدام فيولا، ولولا السياسة ما فكرت أترك البنسيون حقا. الساعة تقترب من الثالثة ولا أظن أنها عادت. سأدخل بصفاء من الباب مثل هايدا. الباب هو الذي يليق بها. لا خوف منه الآن أيضا.

فتحت باب الغرفة وصفاء تنظر في خجل إلى الأرض. لاحظت أنها تتمتم بكلمات غير واضحة. دخلنا واتجهت إلى الغرفة المفتوحة دائما. قلت لها:

- تفضلي.

- سأبقى في الصالة. دقائق وأخرج.

كانت قد جلست تنظر حولها. جلست جوارها واقتربت منها فابتعدت. قلت:

- أنا لا أعيش في الصالة. أعيش مع سعيد في هذه الغرفة.

فاجأتني بالسؤال:

- قلت لي من قبل إن صاحبة البنسيون مسيحية.أليس كذلك؟

- صحيح. وترين الأيقونات على الجدران.

قالت وهي تهز رأسها كأنها وصلت بتفكيرها إلى نتيجة أو قرار:

- أكيد تسمح لكم بدخول النساء.

لم أرد. وقفت ممسكا بيدها ودخلنا إلى الغرفة وأنا أقول: «ليس لدينا وقت يا حبيبتي».

جلست هي على المقعد الوحيد وجلست أمامها على طرف السرير. بدا لي أني لن آخذ منها شيئا اليوم حقا. في اللحظة التي فكرت فيها في ذلك وقفت هي واتجهت إلى البلكونة تفتح نافذتها فوقفت وراءها وأحطتها بذراعي. قلت لها هامسا ووجهي جوار عنقها:

- لا داعي لفتح البلكونة. يكفي نورك.

وقبلتهـا فـي جانـب عنقها فلم تقـاوم فرحـت أقبلها بهـدوء أكثر من مـرة على عنقها وأذنها وسـمعتها تتـأوه بصوت خفيـض فأدرتها ناحيتي وأخذتهـا في حضني وصار فمي على فمها. طالـت قبلتنا.... وما انتهت حتى همست:

- اقفل الباب.

اشـتعل جسـدي بالفرحـة أكثر مما يشـتعل بالنشـوة. أغلقـت الباب وأخذتها في حضني وملت بها على السرير فقالت:

- استنى شوية.

اندهشت فقالت:

- أخلع الجاكت حيتكسر!

خلعـت الجاكـت فخلعـت عنهـا البلـوزة ولـم توافـق أن أخلـع عنها السـوتيان. قلـت الحمد للـه على كده! ملـت بها على السـرير. لحظات وخلعت عنها كل شيء وعني.

لصفاء طعم مختلف. أجمل من هايدا رغم أننا لم نتحدث عن الجنس والتصوف. وأجمل من التي لم أعرف اسمها وقفزت من البلكونة بالليل. للجنس بين المحبين طعم آخر. لا تكون الأورجازم فيه عند النهاية قادمة من عضو واحد لكن من كل مسام الجسد رغم أن الحبيبة عذراء!

- الله!

قلت متنهدا بعد أن انتهينا واستلقينا جوار بعضنا فوق السرير. سحبت فوقنا ملاءة السرير ولفنا الصمت حتى لكزتني في كتفي وقالت:

- حلفانك وقع على الأرض. لازم تكفر عن ذنبك.

ضحكت وقلت:

- سأكفر عن ذنبي مرة أخرى.

واحتضنتها فلكزتني من جديد، وقالت:

- يا سلام! يعني أتحمل أنا الذنب.

ضحكت وقلت:

- ربنا سيغفر لك لأجلي.

نظرت لي في استغراب ثم راحت تضربني ضربات جميلة بكلتي يديها على صدري وأنا أضحك وصوت شادية وفاتن حمامة يملأ الغرفة بعد أن مددت يدي أدير الراديو. «آلو آلو إحنا هنا ونجحنا أهه في المدرسة»، فضحكنا بصوت عالٍ فرحين غير مصدقين لكن سمعنا صوت وقع أقدام في الخارج.

اضطربت. همست لها أن لا تخاف. فقط لا تصدر صوتا. سنرتدي ملابسنا في هدوء وسأخرج إلى الصالة أتاكد من دخولها غرفتها. إنها لا تأتي مبكرا هكذا إلا إذا كانت متعبة وتريد أن تنام. لكن فيولا فتحت الباب علينا ووقفت أمامنا في دهشة كبيرة وقالت:

- كنت عارفة أنك ستفعل ذلك. تركت لك الأجنبية ومن ساعتها أراقبك. تشجعت وأتيت بالمصرية.

قلت غاضبا ونحن تحت الغطاء:

- أرجوكِ تخرجي. هذه خطيبتي. أعطنا الفرصة أن نرتدي ثيابنا. لن أسمح لكِ بخدش حيائها أكثر من ذلك. هل تحبين أن أقف أمامك عاريا؟

نظرت إليَّ بغيظ شديد وخرجت في قرف. جلست حزينا واضعا رأسي بين يدي. الآن عرفت صفاء أن هناك من سبقتها حتى ولو أجنبية.

وقفت صفاء ترتدي ملابسها في سرعة وتوتر وأنا جالس عاريا. لم تنتظر أن أرتدي ثيابي. خرجت جارية من الغرفة والشقة كلها. من الغرفة صرخت أنا في غضب:

- ربنا ينتقم منك يا فيولا. أضعتي مني حبيبتي. أنت قاتلة.

***

اشتكت فيولا لسعيد مني بالليل. عند الفجر صرخت ودارت في الصالة تردد صرخاتها فقفزنا مسرعين إلى المقهى. لم نجد القواد هذه الليلة كما لم نجد العجوز من قبل، هل يمكن أن يكون قد مات أيضا. قال لي سعيد:

- ما جرى من فيولا الليلة من صراخ ليس لما فعلته أنت ولكن لأنني أخبرتها برغبتك في الرحيل.

ابتسـمت سـاخرا. في الصباح خرجت فيولا إلى دكانتها في السـابعة كعادتها رغم الصراخ طول الليل. اتصلت بالسمسار الذي أعطاني الرفيق عامر رقم تليفونه من قبل. من تليفون البنسيون الذي تمنعنا من استعماله! قـال لي إن الغرفـة التي كان ينتظر رحيل من فيها صـارت خالية منذ أول أمـس ويمكـن أن أقابله اليوم في الظهيرة في محل ألبان أبو حشـيش بدير الملاك.

إذن سأركب أوتوبيس «44» الذي أركبه دائما لكن أنزل في محطة دير الملاك. قال لي سعيد إن محل الألبان مشهور وإنهم أحيانا بعد البروفات يذهبون إليه لتناول الأرز باللبن بعد أن يخرجوا من قصر ثقافة الريحاني. المسافة بينهما محطة واحدة. وضحك سعيد مسرورا أنني لن أبتعد كثيرا ثم قال:

- ما رأيك أن تأخذ ملابسـي وكتبي معك في حقيبة أخرى وسـألحق بك غدا.

لا بد رآني قد تغير وجهي فقال:

- أعرف أنك تريد أن تسـكن وحدك. لكن ستبقى أشيائي في الحقيبة عندك فقط حتى أجد سكنا وأختفي دون أن أخبرها.

قلت:

- لمـاذا لا تخرج معـي وتنتهي القصة. يمكن أن تظـل معي عدة أيام حتى تجد سكنا.

شرد قليلا وقال باسما:

- سأبقى معها الليلة حتى لا نكون سببا في انتحارها. سأهون عليها حتى لا تصرخ من جديد. سأرحل غدا أو بعد غد لأنه سيكون يوم وصول الضابط مجدي.

لم أجد ما أقوله. دخلت الغرفة أرتب أشيائي القليلة في حقيبتي. فعل هو مثلي. أخذنا الحقيبتين وحقيبتي الصغيرة التي رآني بها أول مرة. مشينا حتى ركبت تاكسي من أمام المقهى.

في هذه اللحظة فقط شعرت بالرحيل، رغم أي شيء كانت ليالينا مبهجة. تحرك التاكسي وأنا أهز رأسي مندهشا وباسما حتى أن السائق نظر إليّ متحيرا.

***

ها أنذا أتوقف عن الكتابة هنا لبعض الوقت. سأقرأ ما كتبته حتى أصدق نفسي. ستة أشهر الآن مضت عليّ في الرياض. وأنا بعيد عن سعيد. أرسل لي أبي يطلب مني نقودا بعد أول شهر. لم يطلب ذلك مباشرة. طلب مني أن لا أنسى شراء أشياء تصلح لأختيّ الاثنتين في الجهاز رغم أن الأصغر ليست مخطوبة. حلة بريستول مثلا لكل منهن. فهذه الحلل لم تكن معروفة في مصر قبل الرئيس السادات وهي غالية. وطقم أركوبال فرنسي مثلا. إنهم يسمعون عنه في دمياط وفكروا في شرائه لكنهم وجدوه غاليا جدا. قماش فستان الفرح لأختي الكبيرة

والأصغر التي تمت خطبتها وأنا هنا، وقماش صوف هيلد لكل من الخطيبين وسوف يحاسباني عليه عند حضوري! وأنا أضحك وأرسل لهم أكثر مما يتوقعون وأقول لا تنتظروني. اشتروا ما تشاءون من دمياط.

هكذا مضت ستة أشهر الآن ولم أستطع ادخار أكثر من ألفي ريال. على أي حال هي تساوي أربعمئة جنيه، وهذا ليس بالقليل. الجنيه المصري الآن يساوي خمسة ريالات سعودية. سأدخر أكثر في الأشهر القادمة. لم يضايقني ما يطلبون. ضايقني أنهم يتصورون أني سأبقى وقتا طويلا، رغم أنه قد صار لي هنا أصدقاء وحياة. فكل يوم في آخر النهار يأتي زملائي المصريون يأخذونني إلى مقهى واسع يدخنون الشيشة وأدخن معهم أطيب أنواع التبغ بالتفاح. طبعا لا توجد امرأة حتى الآن لا في الطريق ولا في المجلة. فقط في التلفزيون. والحمد لله على نعمة التلفزيون.

12

جلست في بلكونة غرفتي في الشقة الجديدة التي تطل من الدور الثالث على منور واسع من الخلف تجاوره مناور العمارات الأخرى في نظام جعل بينها منطقة فسيحة أشبه بالشارع المغلق ولا يشعر من يجلس أنه في ضيق. تنهدت في ارتياح. لقد غادرت مدام فيولا إلى الأبد، ولا يجب أن أتذكرها أبدا رغم أي مغامرة فعلتها أو غرائب حدثت لي.

في الشقة ثلاث غرف، غرفتان أخريان يسكن بهما أربعة طلاب في كلية طب عين شمس. اثنان في كل غرفة. تعرفت على اثنين منهم حين دخلت مع السمسار. خرج أحدهما يفتح الباب وخرج الثاني خلفه ووقف يصافح السمسار ويتعرف على الساكن الجديد.

لقد عرف سائق التاكسي محل ألبان أبو حشيش بسهولة. كان الدخول إليه سهلا من شارع الملك. ولمسافة قصيرة في شارع واسع وممتد اسمه شارع قدسي. أمام المحل شارع عريض على جانبيه عمارات لا ترتفع عن خمسة أدوار. واضح لمن يراها أنها مبانٍ عصرية من الخمسينيات أو الستينيات ليس فيها الأثر الأوربي. لكن بلكوناتها على الشارع واسعة. تنتهي إلى شارع آخر موازٍ لشارع القدسي اسمه شارع شبين يمكن الدخول والخروج منه أيضا إلى شارع الملك لكنه أضيق من شارع

قدسي، كما أن علامتي للوصول أول مرة على الأقل هو محل ألبان أبو حشيش. من شارع شبين تخرج شوارع قصيرة ينتهي أحدها بسور يسده به فتحة صغيرة تكفي مرور شخص لا أعرف لماذا وهو الذي سأسكن فيه. لا أعرف ماذا يحجز هذا السورعن الشارع ولم أهتم أن أعرف.

جلست في البلكونة أفكر هل سأقابل صفاء مرة أخرى. قال لي سعيد أمس إن أفضل شيء في مثل حالتي أن لا أثقل عليها. هي الآن غاضبة ليس من دخول فيو لا عليكما ولكن من قولها إنك أتيت بأجنبية من قبل. هي الآن تشك فيك وتظن أنك تعبث معها وغير صادق في حبها. بعد قليل ستصل إلى قرار. إذا كانت تحبك فعلا ستعود إليك وتغفر. إذا لم تعد إليك إذن هي الأخرى كانت تلهو معك.

كلام سعيد يقتنع به أي أحد، لكن أين هو المحب القادرعلى الانتظار؟ ربما لو تأخرت عليها كثيرا ساهمت أكثر في برود عاطفتها. تركت الشقة زهقانا ومشيت أتفقد المكان. خرجت إلى الشارع الرئيسي فقابلني محل الألبان. الساعة الآن الرابعة عصرا وأريد غداءً حقيقيا أبتلع معه ضيقي. خرجت يمينا إلى شارع الملك. على الناحيتين في المسافة القصيرة إلى شارع الملك محلات صغيرة. مكتبة وخردوات وبقالة. رأيت أمامي عند نهاية الشارع وعلى الناحية الأخرى من شارع الملك حديقة صغيرة لا يجلس بها أحد، بها أربعة مقاعد خشبية يتسع المقعد لشخصين أو ثلاثة على الأكثر. الحديقة صغيرة ممتدة قليلا بعد الرصيف وليست عميقة. على يسارها بعد عدة أمتار مكتب بريد صغير من دور واحد مغلق الآن

وعليه لافتة مكتب بريد دير الملاك. وبعده بخطوات نفق تعبره السيارات كنت مررت تحته كثيرا بأوتوبيس 44 في ذهابي إلى العمل أو «نص البلد» وعودتي إلى البنسيون. النفق ينتهي بالوصول إلى شارع رمسيس. مشيت في اتجاه محطة التعاون. وجدت مطعما صغيرا على يميني. محل كبدة صغير جدا لكن رائحتها كانت تسبقه وتملأ الفراغ أمامه. كان يضع على الرصيف منضدة صغيرة وحولها كرسيان. بالداخل منضدة واحدة أخرى أيضا. الجو بارد لكن ليس كثيرا. لا مطر. الجلوس في الخارج لا يعيبه إلا ضوضاء السيارات والأوتوبيسات هذا الوقت بالذات الذي هو وقت الخروج من الأعمال. رغم ذلك لم تكن الضوضاء كبيرة.

جلست وأكلت نصف كيلو كبدة. انتقاما من طعام فيولا الذي رغم أنها زادت كمياته ظلت في نفسي غصة منه. كرهت بسببها «الكشك» ومن يصنعه. أعرف أن هذا سيظل معي إلى نهاية حياتي. كدت أيضا أكره الملوخية التي لم يحب مثلها المصريون طوال تاريخهم، والتي فيما يبدو كانت تعينهم على تحمل الملوك والحكام الذين فعلوا بهم كل فحشاء ممكنة. أكلت مع الكبدة التي شواها الرجل قطعا كبيرة، بابا غنوج وطحينة وسلاطة وفلفل مقلي وباذنجان مخلل. كنت أنتقم من فيولا حقا لكن كنت أيضا أبتلع مع الطعام أحزاني. أمضغ الطعام وأؤجل غيظي من نفسي وما جنيت عليها بعملي الأخرق. بدا الرجل صاحب المطعم الذي يفعل كل شيء بنفسه طيبا. كان يرتدي بنطلون جينز نظيفا وبلوفر وكابا فوق رأسه وفي وسطه حزام عريض. بدا لي بحّارا وليس صاحب مطعم.

رغم أنه لم يكن يضع على صدره مريلة بيضاء حتى لا تتسـخ ثيابه من أي شـيء إلا أنـه بدا نظيفا جدا. تمنيت في لحظـة أن يغالي في الثمن خاصة أن الكبدة «ضاني» حتى أدخل معه في أي نزاع أزيح به عن نفسي كدرها، لكني فوجئت به يطلب أربعين قرشا! دفعتها باسما وعدت إلى الحجرة. في الطريق اتصلت بالرفيق الأكبر عامر فضل عامر كما كان قد طلب مني أن أفعل بعد أن أتسـلم السـكن الجديد، فطلب أن أقابله الأسـبوع القادم في مثل هذا اليوم في السابعة مساءً في مقهى أسترا.

عدت إلى غرفتي. أحسسـت للحظة بالبـراح الكبير. ها أنذا وحدي. سـعيد لم يكن يشـكل لي مشكلة. بل كان أحد أسباب البهجة. لكن مهما كانـت فيولا طيبة فقـد كانت الحياة معها مربكة. يكفي أني سـكنت معها أكثر من عام الآن. ليساعدها الله في وحدتها بعد ذلك.

تمـددت على سـرير من السـريرين اللذين بالغرفة، بعـد أن أخرجت ملابسـي القليلة من الحقيبـة ووضعتها في الـدولاب الإيديال الحديدي الصغيـر ذي الضلفتين. في عودتي فكرت أشـترى بعض الجبن والشـاي والسـكر. نسيت فقررت أن أترك الشـقة في المساء لأشترى ذلك وأعود لأقـرأ أو أكتب وأسـتمع بالليل إلى الموسـيقى من البرنامج الموسـيقي. انتبهـت أنـي كنـت أسـمعها مـن راديو سـعيد فقـررت أن أشـتري راديو صغيرا أيضا. أخذني النوم لنصف ساعة تقريبا. صحوت وأخذت حماما وتركت الشقة. في الشارع قررت أن أزور سعيد في قصر ثقافة الريحاني. لقد شعرت بفقده حقا.

مشيت حتى المحطة التالية، محطة التعاون، مرتديا بلوفر خفيفا توقيا لبرد محتمل بالليل.

***

في قصر الثقافة قابلني سعيد هاشا وضاحكا. أخذني بالحضن كأن أعواما فرقت بيننا. كان في المسرح يدير بروفة لمسرحية جديدة هي «ثورة الموتى». كان سعيدا جدا وهو يعانقني بشكل أدهشني. تساءلت في نفسي هل هو سعيد بلقائي حقا بعد فراق لساعات أم لشيء آخر. كان على المسرح ممثلون شباب بعضهم رأيته في مسرحية هاملت. ليس بينهم أشجان التي قال من قبل إنها وجدت فرصتها في الإذاعة. كانوا ينظرون إلينا من فوق خشبة المسرح مبتسمين من سعادة سعيد الكبيرة. وربما من تعلقه بي وأنا أنحني أحتضنه. قال إني جئت في الوقت المناسب لأنه في ساعة واحدة اليوم وجد سكنا في شارع الشيخ الأجهوري الممتد أمام قصر الثقافة، تفرج عليه ودفع شهرا من الإيجار مقدما وكان ينتظر تليفونا مني على القصر أو سيكلمني غدا في عملي ليأتي ويأخذ حقيبته.

قلت:

- إذن ستأخذ حقيبتك اليوم؟

قال:

- أجل. لكن بعد أن نعود من رحلة هامة وخطيرة احتفالا بالحرية.

وقفت مندهشا من تعبيراته هو الذي كان مشفقا على السيدة فيولا.

قال:

- اجلس. تفرج على بروفة مسرحية إروين شو الجميلة. ساعة واحدة وسنخرج نقابل عمر إبراهيم ونسهر سهرة كبيرة.

ثم ضحك وقال:

- كنـا اتفقنا على ذلك منذ يومين؟ كنت جالسـا معه في الإدارة أمس وكنـت أنت غيـر موجود كالعادة. سـألني عنك فوجدت نفسـي أقول إن حالتك النفسية سيئة جدا.

وضحك من جديد وقال:

- قال لي أن أبلغك بسـرعة عن رغبته ليعزمنا في غرزة. الحشيش هو الـذي يخرج الناس من حزنهم وليس الخمر كما تفعل الأفلام المصرية. هـو من زمـان يريد أن يعزمنا معا. لم أقل لك ذلـك أمس لأننا ارتبكنا بما جرى لك.

لا بـد ظهـر عليّ الألـم فجلسـت صامتا. نظر لي ثم هز رأسـه والتفت إلى خشبة المسرح. راح يعطي الممثلين أوامره ويشرح لهم ما يريد بينما شردت أنا أفكر هل يمكن أن تعود صفاء حقا؟

انتهت البروفة دون أن أشـعر. رأيت سـعيد أمامي يقول لي باسما هيا بنـا. وقفت ومشـيت معه بعد أن تفـرق الممثلون الشـباب خارجين. قال لـي أن نخرج بسـرعة قبل أن يرانـا المدير أحمد الهونـي فيعطلنا ويطلب جلوسـنا معه. خرجنا ومشـيت معه صامتا حتى وصلنا إلى شارع الملك فركبنـا «تاكسـي» حتى ميدان الحسـين. قـال إن عمر إبراهيـم ينتظرنا في مقهى الفيشاوي.

كل شيء هنا مرتبط بالثقافة والمثقفين وعطر التاريخ. ليس هناك مثقف إلا ومرّ من هنا تماما كالأحبة. بدأ سعيد يحكي لي عن شارع خان الخليلي وشارع المعز، قلت له ضاحكا أعرف الكثير عن الشارعين ولا تنسَ أني أمضيت رمضان العام الماضي والذي قبله تقريبا هنا. ثم قلت له إن نجيب محفوظ الذي لم أواظب على لقائه بالأدباء هو السبب الحقيقي لمجيئي إلى القاهرة بما قرأته له من أعمال. الثلاثية وخان الخليلي وبداية ونهاية وزقاق المدق. ثم حدثته كيف أنني تجولت هنا كثيرا بعد أن ينتهي عملنا كل رمضان في السرادق الذي تقيمه الثقافة الجماهيرية بحديقة الخالدين تقدم فيه فنونها وكنت أتذكر كل ما كتبه نجيب محفوظ وأدقق في وجوه الناس علني أرى السيد أحمد عبد الجواد أو كمال أو ياسين أو رشدي في خان الخليلي أو عباس الحلو أوحميدة في زقاق المدق. وسكت قليلا وقلت في أسف: تجولت هنا كثيرا مع صفاء. قال:

- صح. كيف نسيت أن الثقافة الجماهيرية تقيم سرادق أغانٍ وموسيقى في حديقة الخالدين كل رمضان. وأن إدارتكم هي التي تشرف عليه.

أدركت أنه يبعدني عن الهم فطاوعته وقلت:

- لقد مررت على المساجد والقصور والأسبلة التاريخية التي هنا كلها.

وسألته:

- أليس غريبا أن تكون حارة الباطنية حيث يباع الحشيش جوار الأزهر.

قال ضاحكا:

- تاريخ الحشيش لا أعرفه. لكن احتمال أنه دخل مصر مع الفاطميين من المغرب والله أعلم!

ضحكنا.

أخذنا عمر الذي بدا سعيدا اتسعت ابتسامته ومشينا قليلا. عبرنا شارع الأزهر ودخلنا في شارع الباطنية. طلب عمر أن نقف بعيدا بعض الشيء. كان هناك طابور طويل أفراده لا يقلون عن عشرين شخصا. قبل أن أسأل قال سعيد:

- هل ترى الجالس خلف المنضدة وجواره شابان يقفان على جانبيه؟ إنه مصطفى معتوق أكبر تجارالحشيش في الباطنية.

كان هناك رجل في حوالي الخمسين يرتدي بدلة كاملة زرقاء وكرافتة زرقاء أيضا، يمسك في يده سكينا صغيرا وأمامه لفافات هي قطع كبيرة من الحشيش. من يصل إليه من الواقفين في الطابورالطويل يضع النقود على المنضدة أمامه دون كلام فيضعها هو في درج بالمنضدة ويقطع قطعا من الحشيش، يزيحها مرة للواقف عن يمينه ومرة للواقف عن يساره، فيلف كل منهما الحشيش في ورق سيلوفان يعطيه للمشتري فيمشي في طريقه أو يعود ناحيتنا دون كلام.

على بعد حوالي مترين منه يجلس ضابط شاب على مقعد يهز ساقه اليمنى التي وضعها فوق اليسرى ويدخن سيجارة باستمتاع. قال سعيد:

- الحشـيش في رعاية الرئيـس المؤمن. ترى ماذا سـيحدث لو مات الرئيس؟

ضحكت بصوت خفيض. وصل عمر إلى التاجر. قدّ م له النقود وعاد إلينا مبتسـما يضع الحشيش في جيب بنطلونه. مشى أمامنا صامتا فمشينا خلفـه. أكذب لو قلت إني لم أخف للحظات رغم وجود الضابط. أخذنا طريقنا إلى منطقة الحمزاوي. كل هذا يأخذني إلى التاريخ. يا للقاهرة التي تحتاج إلى سـنوات وسـنوات من الفرجة. الألفة كانت تمشي معنا وسط محـلات الملابس والعطـارة. دخل بنا عمر زقاقا بيـن صفين من البيوت القديمـة انتهى إلى باحة صغيرة لكن تبدو واسـعة وسـط زحـام البيوت. رأيت حوالي عشـرين جالسـين. كل اثنين أوثلاثة معا. وخمسة جالسين فرادى. رآنا الشاب الذي يرتدي الجينز وبلوفر فوق القميص والذي يمر بينهم حاملا أحجارالمعسـل والجوزة التقليدية فهتف قائلا: «يادي النور يادي النور» ونادى رجلا يرتدي جلبابا ويقف خلف نصبة الشاي والقهوة قائـلا: «عمـر بيه وصل » ألقى الرجل التحية بيده على عمر وبسـرعة جاء الولد إلينا بثلاثة مقاعد خشـبية وترابيزة خشـبية صغيـرة. أعطاه عمر ربع جنيـه قائـلا وهو يضحك: «بتوحشـني يا جابـر» ثم وضع علـى الترابيزة لفتي الحشـيش الصغيرتين وانتظرأن يأتي الشـاب بطاسة عليها عدد كبير من «الأحجار» وعلب من المعسل. بدأ عمر يقطع الحشيش بعد أن مشى عليه بنار الولاعة التي أخرجها من جيبه.

دارت بيننـا «الجوزة». رحنا ندخن وسـعيد يقول لـي هذا هو العلاج لأحـزان مصـر ويضحك هو وعمـر. عمر يفتـح الأحاديث في السياسـة

وأنـا غيـر مقبل عليهـا ولا على الحشـيش لكن بعد الحجـر الثالث الذي شـاركتهم فيه كسـابقيه بدأت أشـعر بالراحة والغيا ب يسري في روحي. كان صـوت أم كلثـوم يأتي من راديـو بالداخل خلف النصبـة وهي تغني «شمس الأصيل».كنت أعرف أنها الساعة العاشرة مساءً فقلت مازحا:

- شمس الأصيل الآن؟ متى إذن تغني سهران لوحدي!

قال عمر:

- أكيد هؤلاء جالسون من ساعة العصر.

ضحكنا. قلت:

- آسـف. هو الحشيش جعلني أنسـى أن أم كلثوم ماتت. آسف جدا. لا أعرف كيف فعلت ذلك.

قال سعيد في أسف:

- يبـدو أننا نسـيناها جميعا الآن. لكنها سـتغفر لـك لأن ليلة حفلتها كانت مصر كلها في البيوت تحشش.

ضحكنا. لكن سعيد قال:

- هل تعرف الآن وهي في الجنة أننا نسمعها؟ هل للموتى ذاكرة؟

قال عمر:

- لا أحـد يعود مـن هناك ليخبرنا. هل نسـيت وأنـت الذي أخرجت مسرحية هاملت. هل نسيت مشهد حفار القبور بسرعة هكذا؟

كان غيرنـا فـي الغرزة يضحك وغيرنا يدخـل في الصمت للحظات. أكثـر من شـخص جالس وحده خرج وانصـرف صامتا. قلت لأخرج من الأسى الذي عاد يتمدد في روحي وقد ذكرتني هاملت بأوفيليا.. بصفاء:

- هي وزارة الداخيلة مش هنا ليه؟

ابتسم سعيد وقال عمر بسرعة:

- سؤال في محله. دائما هنا ضابط جالس عند الباب.

ونادى جابر فجاء مسرعا قائلا:

- أمرك يا باشا.

- صحيح لماذا لا يوجد حضرة الضابط الليلة؟

نظر جابر حوله وهمس لنا:

- أمـس لـم يدخـن لا سـيجارة ولا حجر. لكنه اتسـطل مـن الرائحة والدخان. ذهب إلى محل الدهان وأكل دون أن يدري. بعيد عنك أصابه تلبك معوي.

نظرنا إليه مندهشين فقال:

- آه والله بدون ما يحشـش. كان حشش أحسن يمكن كان وعي ماذا يأكل!

ضحك سـعيد بصوت عالٍ ضحكة قصيرة وابتسـم عمر بينما هززت أنا رأسي فقال عمر بعد أن انصرف جابر:

- أكيد لا يكذب. الرائحة وحدها هنا تأكّل بلد.

ثم سكت قليلا وقال شاردا:

- هل حقا ماتت أم كلثوم؟! لا أظن. مثلها لايموت.

في حوالي الساعة الثانية عشرة انصرفنا. كنا جائعين. اقترح عمر أن نذهب إلى محل الدهان نتعشى كبابا. قال سعيد ضاحكا:

- والتلبك؟

ضحكنا ونحن تقريبا نجري في فضاء الشوارع والأزقة التي صارت شبه خالية. في ميدان الحسين كان هناك كثيرون على المقاهي وضوء الميدان يوسع في الراحة والانسجام. قال عمر:

- لا داعي للكباب الليلة. نأكل حماما عند فرحات ما رأيكم؟ المهم ينتبه كل منا ولا يأكل أكثر من حمامتين.

بينما نجلس عند فرحات في الزقاق الضيق لاحظت الزحام من الجالسين أو المارين يقفون أمام المحلات التي تبيع الجلابيب البلدية والإيشاربات والصواني النحاسية وتماثيل متنوعة أو يكملون طريقهم إلى خان الخليلي رغم أننا في منتصف الليل. لا ينام الناس في الحسين.

أكلنا وبين لحظة وأخرى يقول سعيد أو عمر: «حمامتين بس» فنضحك. قلت أنا ذلك أكثر من مرة. وكان كل منا قد بدأ في الحمامة الثالثة. نضحك ونكرر: «حمامتين بس». وحين دفع عمر الحساب اكتشف أن كلا منا قد أكل أربع حمامات! وقف مندهشا لا يصدق ثم

ضحكنا. دفع خمسة عشر جنيها وهو يقول: «طيب ليه مش خمس حمامات بالمرة» انصرفنا ضاحكين لنقف في شارع الأزهر. قال عمر:

- لكما عندي مرة كل أسبوع - ثم قال لي - انتبه لموهبتك. كل الأحزان تمر والحياة جديرة بأن تعاش ونحن لا نعيشها إلا مرة واحدة.

ابتسمت فسألني:

- أكيد قرأت رواية «نحن سقينا الفولاذ». أوسترفسكي مؤلفها هو الذي قال هذه العبارة فصارت شعارا للشيوعيين وغيرهم في كل الدنيا. سأترككما.

على عجل أشار إلى تاكسي. وقفنا أنا وسعيد ننظر إلى بعضنا ثم انطلقنا في الضحك. قال سعيد:

- خائف أرجع البيت أنام بعد ما فعلناه. قد يغلبنا النوم دون أن ندري. النوم أخطر شيء بعد الحشيش والأكل. الأكل قد يكبس على نفسك وتموت.

كنت بحاجة إلى هواء أكثر. كان الجو باردا حقا لكني أعشق هذا البرد الخفيف. قلت:

- لنمشي حتى نهضم شيئا مما أكلناه.

قال سعيد:

- الحمام أشعل في جسمي النار.

مشينا في شارع الأزهر في اتجاه العتبة. طال الوقت جدا بعد أن بدأنا نمشـي، لكني حيـن نظرت إلى سـاعتي الجديدة التي اشـتريتها بعد التي أخذوها مني في أمن الدولة رأيت الوقت الذي مر ربع ساعة فقط. ظللت أمشـي غير منتبه إلى سـعيد جواري إلا بين لحظات تطول. لا بد أنه كان مثلـي لأنه توقف مرة وتلفت يبحث عني ويسـأل: «أيـن أنت؟» ثم يراني جواره.

عبرنـا صمت ميدان العتبة. لا أحد في الطرقات غير الأوراق المهملة على الأرض وبقايا يوم من الزحام والبيع والشـراء والأكل. مشينا وعبرنا تمثال إبراهيم باشا ثم ضحك سعيد وقال وهو يشير إليه:

- هـل تعـرف أنه فـي الخمسـينيات كاد جمال عبـد الناصـر أن يأمر بتسـييح نحاس تمثال محمد علي باشا في الإسكندرية وإبراهيم باشا هنا وإسماعيل باشا في الإسكندرية أيضا للقضاء على أزمة الفكة!

ضحكت فقال:

- بشاعة. صح. أو حرب إشاعات على عبد الناصر. عبد الناصر مات وأزمة الفكة قائمة!

عشـت فـي الإسـكندرية أربع سـنوات أيـام الجامعـة ولـم أرَ تمثال إسماعيل باشا. صدفة فيما بعد وأنا أقرأ في كتاب عن تاريخ الإسكندرية عرفت أنه كان هناك تمثال للخديو إسماعيل فعلا أمام النصب الذي صار اسـمه «نصـب الجندي المجهول» وأنه انتزع مـن مكانه ولم يقل الكتاب أين هو الآن.

مشـينا قليلا لنعبر شـارع 26 يوليو وندخل في شـارع قصر النيل فمر أمامنا تاكسي طل من نافذته الخلفية شاب وهتف:

– ماشـيين لوحدكـم في نـص الليل ليه يـا أولاد الهبلـة. مافيش مَرَة تنيلوها.

نظرنـا إليه مندهشـين لكن التاكسـي كان قد عبر بعيـدا يتجاوز جامع كخيـا. كنا سـمعنا أيضا أصوات ضحكات نسـائية عالية تأتـي منه. نظرنا إلى بعضنا نبتسم في دهشة فقال سعيد:

– عنده حق ابن العبيطة. حرام هذا الحمام اللي أكلناه على الفاضي!

تابعنـا المشـي نضحـك مندهشـين حائرين. مشـينا كثيرا تلـك الليلة ولا نـدري حتـى وصلنا إلـى ميدان طلعت حـرب فانتبهنـا ووقفنا أمامه. قلت:

– السـاعة تجاوزت الثانية ونحن لا زلنا نمشي في الاتجاه المخالف لبيتينـا. أظن نكتفي بهذا ونأخذ تاكسـي إلى بيتـي فتأخذ حقيبتك وتكمل بالتاكسـي إلـى سـكنك الجديـد. أو تبيت معـي الليلة ففي الغرفة سـرير آخر.

– مـا دمنـا جئنا هنا ما رأيك نقف قليلا علـى كوبري قصر النيل. ربما نجد امرأة وحيدة تقف هناك فنكيد للتافه الذي شتمنا.

– سنقف على الكوبري لأني أشتاق للوقوف على النيل لا لشيء آخر يا سعيد؟

أدركـت أننـي صـرت أكثر وعيا. ها هـي صفاء تطل علي فمـا أكثر ما وقفنا على الكوبري نطل على النيل يطوقها ذراعي. شـهران فقط مرا من العام الدراسي الجديد وضاعت صفاء! فليتحمل النيل أحزاني.

وصلنا إلى الكوبري الخالي. رأينا بخر الماء يصعد من النيل لمسـافة قليلة. السـفن المضيئة بعيدا لا تزال ساهرة. ونحن ننظر إلى النيل شمالا رأينا على يسـارنا أسـفله سـفينة «علاء الدين» لكن مظلمة. جلست فيها مرتين مع صفاء. أجل مرتين. نفضت رأسي أبعد عنه الذكريات. لن أترك الباب مفتوحا أكثر من ذلك للألـم. أن تتذكر كل شـيء بالتفصيل يعني أن كل شـيء قد ضاع منك! لماذا لا أمسـك بالتفاؤل وأفوز بما أسـتطيع من بهجة على الأقل الليلة!

قال سعيد: ما رأيك أن نترك الكوبري وننزل إلى أسفل نقف قريبا من الماء أو نجلس هناك قليلا؟

المقاعـد على الشـاطئ أسـفل الكوبـري تمتد أمامنا واضحة بسـبب اللمبات فوق أعمدة الشـارع العالي. مشـينا ونزلنا إلـى المقاعد. ظهرت فجـأة فتاتـان على الكوبري تقفان مثلما كنا نقف. ربما مكاننا نفسـه. قال سعيد:

- هل ترى ما أراه؟

- أجل.

- ما رأيك أن نصعد مرة أخرى؟

ضحكت، قلت:

- أخشى أن نصعد فلا نجدهما ثم نراهما من جديد هنا مكاننا أسفل الكوبري.

ضحك وقال:

- هل هما شبحان مثلا؟ هل تظن ذلك؟

قلت:

- لنقطع الشك باليقين نشير إليهما.

راح سعيد يحرك ذراعيه عاليا. كانت المفاجأة أنهما اتجهتا إلينا.

قلت لسعيد:

- ماذا ستفعل؟ ألم تقل لي إنك تحب الآن؟

ضحك بصوت عالٍ وقال:

- كنت فاكر نفسي أحب. طلعت بنت عبيطة لا تعرف أي شيء.

لم أكرر الكلام في الأمر. كانت الفتاتان تقتربان ترتدي كل منهما «تايير» ضيقا. ما كادتا تصلان حتى قالتا هاتفتين:

- كنا نفكر أننا فقط المجانين.

وضحكتا فضحكنا.

أخذني سعيد بعيدا خطوتين وهمس يسألني:

- معك نقود؟

- معي جنيهان.

- وأنا أيضا. سيدفع كل منا جنيها لمن يجلس معها.

وقال لهما:

- قبل أي شيء ليس معنا غير جنيهين.

نظرت إحدى الفتاتين لزميلتها ثم لنا مستنكرة وقالت:

- هل يبدو أننا عاهرات؟

وبدت غاضبة فهتف سعيد:

- آسف جدا. سامحيني. إذن نكتفي بالحديث معكما.

قالت الأخرى ضاحكة:

- لكننا لا نحب الكلام.

نظر إليّ سعيد مندهشا ثم تقدم ناحيتها وكانت الأقصر. أخذها في حضنه وجلس بها على مقعد قريب. جلست أنا مكاني فجلست الأخرى جواري ووضعت ذراعها على كتفي. وضعت رأسي على صدرها قليلا أشم عطرها وأشعر بدفء جسدها والراحة التي صارت تسري في جسدي ثم رحت أقبلها وراحت تقبلني وأنا أفكر هل هما من بني البشر حقا أم هو حلم بعد ليلة الحشيش؟ سمعتها تقول: «ربنا يستر ولا يمر عسكري الآن فيأخذنا بجريمة الفعل الفاضح في الطريق العام». لكني

كنـت قد ذهبت بعيدا عن أي حديث. كم طال بنا الوقت؟ لا أدري. فجأة قال سعيد:

- جنون بجنون ما رأيكم أن ننزل الماء؟

هتفت الفتاتان:

- سننزل الماء. معكما حتى النهاية.

خلعنا ملابسنا كلها والفتاتان تضحكان وتضعان أيديهما على عيونهما كـي لا تريانا، ثم خلعتا ملابسـهما دون الملابس الداخلية التي رفضتا أن تخلعاهـا مثلما فعلنا. بل أكثر من ذلـك طلبتا منا أن ننظر إلى الماء وهما تخلعان ثيابهما. قال سعيد: الماء الذي يخرج منه البخر الآن دافئ وليس مثـل الجو حولنا. فقفزنا إلى الماء بسـرعة وصرنا نغطس ونعلو، نرتعش ونتبادل القبل والأحضان، فانتهت رعشـة البرد وصرنا نضحك ونتسـابق ولا أعـرف أيضا كـم مضى من الوقت حتى سـمعنا صـوت أذان الفجر. قلت:

- يكفي هذا اليوم. لا بد أن نتقابل مرة أخرى.

خرجنا من الماء نضحك وأنا لا أصدق ولا أعرف الواقع من الخيال. لا أعرف ماذا جرى لأجد نفسي وحدي مع سعيد والفتاتان على الشاطئ تركبـان تاكسـي ظهـر فجأة كأنـه على موعـد معهمـا وانطلـق بهما دون كلام. كيـف غفلنـا عنهما حقا، وكـم من اللحظات كانت الغفلة؟ أسـئلة لـم نجـد إجابة عنها. وقفنا صامتيـن مصدومين ثم انطلقنـا نضحك. لقد

ظهرتا أمامنا جوار التاكسي في ملابسهما كاملة ولايبدو على شعرهما أنه تعرض للماء. والمدهش أن أغنية ديميس روسوس«Good by my love good by» كانت تنطلق من التاكسي عالية. وسألني سعيد:

- هل رأيت سائقا يقود التاكسي؟

- طبعا؟

- لم أرَ أحدا فكيف رأيته أنت؟

قلت في حيرة:

- بصراحة لا أعرف.

ارتدينا ملابسنا في صمت وذهول ولم نجد حذاء أي منا. كانت بالفعل كل منهما وهي تدخل التاكسي تحمل حذاء في يدها وإحداهما أشارت إلينا من النافذة بواحد منهما والتاكسي يتحرك مسرعا:

قال سعيد ضاحكا وهو ينظر إلى قدميه:

- هل تأخذ عرائس البحر أحذية الرجال؟

لم أجد ما أرد به. مشينا حافيين. الأرض تحتنا خشنة بارد أسفلتها في الشارع وعلى كوبري قصر النيل الذي مشينا حفاة على رصيفه وكان أكثر نعومة. نطمع أن نجد تاكسي يقلنا إلى بيتينا ونور الصبح ينزل فوق الدنيا وسعيد يقول لي: «خلق الإنسان حافيا. هذا أمر مؤكد. والإنسان صانع الأحذية»

13

أسـبوعان مضيـا الآن ولم أقابل صفـاء ولـم أعرف عنها شـيئا. كانت قـد أعطتنـي تليفون بيـت الطالبات المغتربـات لأتصل بها عنـد الضروة القصـوى لأنهم هناك ينظرون إلـى المكالمات الهاتفية بارتياب. اتصلت مرتين. ردت عليّ سـيدة بصوت غليظ في المرة الثاينة. قلت لها إني ابن خالهـا أتيت من بني سـويف أحمل لها أشـياء من أسـرتها. جاءت صفاء وقالت في شغف: «أهلا عادل» ثم لم تقل شيئا آخر.

اسـتمعت لي أقول أعطني فرصة اللقاء وسأشرح لك كل شيء. هذه المـرأة مجنونة تخلط بيني وبين صديقي سـعيد، وحين أقابلك سـأبرهن لك على ذلك. سأقابلك بسعيد وتسمعين منه أن الأجنبية صديقة له. لقد تركنا لها البيت معا.

لا أعـرف ما إذا كانت سـمعتني إلى النهايـة أم لا. ولا أعرف هل كان الكذب هو الوسيلة الصحيحة لكني لم أجد أمامي غير ذلك. لكنها كانت أغلقـت سـماعة التليفون بطريقة هادئـة لم أنتبه إليها ولـم أجد أمامي إلا الصمت.

هل هكذا انتهت القصة؟

في لقائي الشـهري مع الرفاق لاحظوا شـرودي كثيرا، ابتسـم سـراج منير وقال:

- واضح أنك تحب!

- طبعا.

لا أعـرف كيـف قلـت ذلك. ضحك سـراج منيـر ثم راح يشـد نفس الحشيش من السيجارة وقال:

- من زمان لم أرَ محبين. استمر.

لم أعد للموضوع. جلسـتنا اليوم تغيـب عنها المطرب زكريا فخري. رحنـا نناقـش بجدية موقف الحـزب الذي يرى أن التغييـر يمكن أن يتم مـن داخـل النظام ذاتـه. بمعنى أن يكـون للحزب أعضاء في مؤسسـات الدولة، وشـيئا فشـيئا تتم السيطرة على كل شـيء. موقف بعيد عن الثورة الشـاملة، عـن كفاح الطبقة العاملـة التي تقود النضـال أو يجب أن تفعل ذلـك. كنا نرى أن هذا رهان خاطئ، فالنظام قوي وأجهزته الأمنية تعرف كل شيء. كما أن النظام الآن يزداد تحالفه كل يوم مع الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية التي صارت نشطة في الجامعات تهاجم اليساريين والناصريين. وتعمـل علـى السـيطرة على الشـارع المصـري من خلال المسـاجد التي ترتفع فيها صيحات غريبة بالعودة إلى الإسلام بالحجاب واللحيـة، وتهاجـم القوى الأخـرى من اليسـاريين الكفـار! لقد ظهرت الشـعارات عن الحجا ب كفريضة إسـلامية على كثير من جدران المدن خاصة في الأحياء الشعبية. ظهرت كتب رخيصة عن عذاب القبر ونعيمه. عـن يوم القيامة ونهاية العالم. حكيت لهم عن الشـيخ كشـك الذي يملأ

الجامع القريب مني في شـارع الملك بالهجوم على المثقفين والممثلين والمطربين والمطربات. السادات فتح أبواب الجحيم على مصر.

قابلـت الرفيـق عامر. سأسـافر إلى الإسـكندرية يـوم الجمعة لأقابل شخصا يجلس في مقهى «الإسكندرية» بالمنشية. سأجده جالسا واضعا أمامه مجلة صباح الخير. ستكون نفس المجلة معي فأضعها أمامه. اسمه الحركي رشـاد واسـمي طبعا هاني. كدت أبتسـم. هذا اسم لم أستخدمه غيـر مرة واحـدة مع فتـاة كوبـري الجامعة التي كـدت يومهـا أن أخبرها باسمي الحقيقي.

تحدثنا فيما أعلنه الرئيس السـادات عن رغبـة مصر في تنويع مصادر السلاح. قال الرفيق عامر ساخرا:

- سيقطع السادات آخر حبل مع الاتحاد السوفييتي. لا يعرف الأحمق ماذا سيفعل فيه الأمريكان بعد ذلك.

أخبرني أن فتاة أخرى سـتعطيني المجلات لكن في شـارع بورسعيد هذه المرة. سـألته عن علامة في الفتاة التي ستعطيني المجلات في شارع بورسعيد فقال إنها تعرفني. اندهشت. قال إنها جاءت هنا ورأتني أجلس معـه. كما أن زوجهـا عضو في الحزب أيضا ولقد جـاء ورآني معها وهو الذي سأراه يقود السيارة البيجو البيضاء!

تركته ومشيت أفكر في حظي في لقاء الفتيات في الحزب. هل يمكن أن يخففن عني فراق صفاء!

فـي الموعد المحدد وقفـت أمام المتحف الإسـلامي. أول مرة أرى شـارع بورسـعيد رغم ما مضى عليّ في القاهرة. الحركة فيه كثيرة لكنها لا تقلل من الإحساس باتساعه. لم أرَ الترام يتحرك فيه رغم وجود قضبان له. سيارات نصف نقل كثيرة تقف أمام محلات تبيع الأثاث ومستلزمات البيوت من مراتب وبوتاجازات وغيرها. محلات لشـركات نقل بضائع. شـوارع كثيرة تصب في الشـارع وتخرج منه ولا تنتهي حركة الناس منها وإليها.

وقفت أمامي السـيارة البيضـاء البيجو. نزلت منها الفتـاة التي قدمت لـي الأوراق بسـرعة في حقيبة جلدية. ابتسـمت قائلة: خمسـون نسـخة ورحلة سـعيدة. عادت إلى السـيارة قبل أن أتمكن من نطق كلمة واحدة. كانت ترتدي فسـتان شـانيل وتطلق شـعرها خلفها ولم يبقَ في ذهني أي ملمح آخر لها. ابتسمت ومشيت قليلا والحقيبة في يدي. أوقفت تاكسي وطلبـت منـه أن يذهب بـي إلى البيت. هـذه الليلة سـأمضيها وحدي مع الأوراق. لـن تكون معي إذا خرجت ولـن أتركها وحدها في البيت. باب الغرفة بلا مفتاح ومفتوح دائما فلا مفر من البقاء معها في غرفتي.

الليـل يدخـل علـى المدينة. لسـعة البرد تتقـدم، وأنا كما أنـا رغم ما أحصـل عليه من عملي في الوكالة، لم أشـترِ جاكت بعد ولا بالطو. فقط البنطلون والبلوفر تحته القميص.

كانت ليلة اختلط فيها ألمي من فراق صفاء الذي يسـتمر ورهبتي من السـفر حاملا هذه النسـخ التي أخذت أقرأ واحدة منهـا. ثم رحت أكتب

عرضـا لكتـاب «الحب في الغـرب» لديني دي روجمون، الذي اشـتريته مترجمـا من الفرنسـية إلـى العربية من معـرض الكتـاب الماضي. بدوره أشعل أحزاني على صفاء. لكني ابتسمت في حسرة وأنا أرى نفسي أقف أمام بيت الطالبات في الشـارع أعزف الموسيقى وأغني وأهتف باسمها. هل يمكن حقا أن أفعل ذلك؟

فـي منتصـف الليـل أخذتني الموسـيقى الهادئـة السـابحة حولي من البرنامج الموسـيقي. تمددت على السـرير فاتحا عينيّ ناظرا إلى السقف سـابحا مع صفاء متمنيا أن أطوف بها مرة أخرى حدائق وشـوارع القاهرة كلها. ما طفنا فيه وما لم نعرفه.

فـي اليوم التالـي، الجمعة، كنـت أركب القطار المكيـف «المجري» الـذي تصـل أجرته إلى جنيه ونصـف. لم يكن هذا صعبـا. عملي قل في الوكالـة الصحفية حقـا، لكن الرفيق عامـر يدفع من أمـوال الحزب الآن الخمسة عشر جنيها إيجار غرفتي في دير الملاك.

في القطار قرأت كل الصحف. الأهرام والأخبار والجمهورية ومجلة روز اليوسف. قمت بحل الكلمات المتقاطعة فيها كلها لأقطع الطريق إذ أشـعر بالتوتر يرتفع في روحي. هل سـتتم المقابلة مع الرفيق السكندري بسلام؟

***

نزلـت في «محطة مصـر» فرأيت الغيوم فوق المدينـة منذرة بالمطر. آثـار المطـر علـى الأرض. السـماء بيـن لحظة وأخـرى ترسـل زخة من

المطـر سـريعة. الناس تسـرع فـي الطرق والسـيارات تمشـي على مهل. جوار محطة مصر رأيت قليلا من التاكسـيات الواقفة بداخلها السـائقون وقـد لف كل منهم وجهه بغطاء فـي مواجهة البرد والهواء، أو يرتدي كابا فوق رأسه، أو يغلق زجاج النافذة ويطل من خلفها. الحوذيون يقفون إلى جانـب عرباتهم الحنطـور القليلة يرتدون الجلابيـب البلدية فوقها بالطو قديم وأيضا يفركون أياديهم.

مشيت من محطة مصر التي هي محطة الإسكندرية لكن هكذا يسميها السـكندريون. ذهبت إلى مقهى «الكريسـتال» على البحر بمحطة الرمل! كانت السـاعة الخامسـة وموعدنا السادسـة. لم أنظر إلى الجالسـين لأنه لـم يصل بعد. أعرف أنـه بهذا المقهى يجلس عدد من الشـباب الفنانين. عرفـت أحدهـم يوما. كان معنا فـي كلية الآداب لكنه هاجـر إلى إنجلترا بعد تخرجه. كان يسبقني بعامين في الدراسة. قليل من الوجوه أشعر أني رأيتها من قبل لكنها تغيرت شـيئا ما. لا بد أني تغيرت أيضا بعد سـنوات الجندية والحرب.

رأيت فوق الماء السـحب السـوداء كثيفة أكثر مما هـي فوق المدينة. كم أحببت الإسـكندرية في الشـتاء. هـل يأتي يوم تكون معـي هنا صفاء نتدفـأ بالأحضان والقبل ونجلس فـي أتينيوس أو تريانون أو ديليس نتدفأ بالأحاديث والطعام السـاخن ومشهد النسـاء والرجال الهادئين المحبين والنوافذ مغلق زجاجها حولنا.

لـم يكـن الوقت طويـلا حتـى السادسـة لأن صفـاء أخذته كلـه! في اللحظـة التـي كنت أشـعر فيها بالألـم أنظر حولـي وأسـتمع إلى صوت

الموج العارم الذي أراه من خلف الزجاج يصعد سور الكورنيش إلى الرصيف ويتجاوزه إلى الشارع. بين حين وآخر يدخل شخص مندفعا إلى المقهى غارقا في ماء المطر الذي عاد ولم ينقطع وصار صوت زخاته وهي تصطدم بالأرض يصل إلينا.

لم يأتِ أحد في السادسة ولا حتى السابعة. ماذا أفعل الآن؟ هل أتحدث مع الرفيق عامر من هنا؟ ولو كان رجال أمن الدولة سجلوا مكالماتي معه بعد أن تكررت فماذا يعني تسجيل مكالمة لي من الإسكندرية غير أني عضو نشط في الحزب! ليس أمامي إلا العودة في قطار العاشرة والنصف. لكن لماذا لا أمضي الليلة في الإسكندرية أبتهج بشتائها الذي حرمت منه سبع سنوات حتى الآن منذ تخرجي في الجامعة؟ كيف حقا سأفعل ذلك؟ أترك هذه الحقيبة في مكان ما وأمشي أغسل أحزاني تحت المطر أو في أحد البارات. أو حتى مقهى مزدحم صيفا وشتاءً مثل مقهى «والي» أنشغل فيه بالناس. لن أترك الحقيبة في فندق. ليس أمامي إلا «حسين» زميل الدراسة الذي يسكن في العطارين، والذي أكلنا معا السمّان من عند ملك السمان في كل خريف مرّ عليّ في المدينة. لا زلت أذكر البيت بسبب السمان الذي قفز إلى روحي طعمه الآن وأنا «أجرش» عظامه الصغيرة.

ضحكنا ونحن نقف في شارع العطارين أمام محل ملك السمان. تعانقنا كثيرا. عرفت أنه يجهز أوراقه لمغادرة مصر إلى الكويت وربما إلى الأبد. ليس معقولا أن نتخرج في الجامعة ونحارب ثم نخرج لنجد

وطنا لم يعد لنا. هكذا قال. لكننا قد لا نجد السمان اليوم فنحن في الشهر الأخير للخريف. السمان القادم عبر البلاد من أوربا الباردة يلتمس الدفء التهمته شعوب آسيا وأفريقيا في الطريق. ما أجبن الإنسان. قال ذلك وضحك. قد نجد حماما عند الرجل. ابتسمت وقلت لا أريد حماما مرة أخرى. هنا لن نستطيع أن ننزل إلى البحر! نظر إليّ غير مدرك ما أقول وابتسم، فحكيت له ليلة الغرزة والحمام والفتاتين اللتين نزلنا معهما إلى النيل.

«يا أولاد العفريتة. أنتم جبارون. لكن هل معقول أنهما فتاتان؟» قال فضحكت. قلت هذا ما أفكر فيه حتى الآن. ما علينا يا حسين خذني إلى الأستوديو بسرعة قبل أن يغسلنا المطر.

أخذني في سيارة فيات قال إنها سيارة أبيه إلى أستوديو التصوير في شارع طيبة. هذا الأستوديو يملكه أبوه وله سلم داخلي صغير يفضي إلى سندرة عريضة مساحتها حوالي أربعة أمتار بها سرير ملاصق للحائط وجواره كوميدينو صغير. قال لي زمان إنه لا يعرف أي معنى لوجود هذا السرير إلا أن أباه يمارس عليه الجنس مع النساء. سرق مرة مفتاح الأستوديو من أبيه وصنع منه نسخة، وكان أحيانا يذهب إليه ومعه بعض النساء بعد أن يغلقه أبوه ليلا.

أعطاني المفتاح أمام الأستوديو في شارع طيبة الذي رأيته خاليا تماما من الناس. بيوته كما هي لا ترتفع عن ثلاثة أو أربعة أدوار. لونها كما هو أبيض أو يميل إلى البياض وكل نوافذ محلاته الآن مغلقة. آثار

المطر قوية على الأرض والرصيفين. أضواء فقط من خلف شيش بعض النوافذ. ضحكت وسألته:

- لا تزال نسخة المفتاح معك.

قال ضاحكا:

- لا. هذه المرة أخذتها من أبي الذي كان يريد أن تبيت عندنا في البيت فلا غطاء للسرير في الأستوديو. قلت له إنك سترفض لأنك تحب القراءة بالليل والسهر مع الكتب.

وأشار إلى فتحة في الجدار جوار باب الأستوديو ثم قال:

- في الصباح ضع المفتاح في هذا الشق. أبي يفتح في الشتاء بعد الثانية عشرة، ويوم الجمعة بعد الصلاة، فخذ راحتك في النوم.

- ألا يغلق يوم الجمعة؟

- لا طبعا. أبي لا يزال يعيش مع الخواجات فيغلق يوم الأحد.

تصافحنا. وعدته بزيارة جديدة يوما ما. أعطيته عنواني وعنوان عملي وتليفون العمل حتى إذا جاء القاهرة لأي سبب وأراد أن يبيت فيها أو احتاج إلى أي شيء يأتي إليّ.

وقفت في الدور الأول أتطلع إلى الصورعلى الجدران بعد أن أضأت النور. وجوه جميلة للنساء والشباب. صور كثيرة للزفاف. صور لممثلات السينما المصرية. ماجدة وفاتن حمامة وشادية وسعاد حسني ولبنى

عبد العزيز وزهرة العلى، ونجوم السينما عماد حمدي وكمال الشناوي وعمر الشريف وأحمد رمزي وحسين فهمي ومحمود ياسين وعزت العلايلي. مكتب مغطى بالزجاج تحته عشرات الصور. فتحة كبيرة على غرفة أخرى أصغر بها آلة التصوير تقف على الأرض وعدستها في وجهي من بعيد. صعدت إلى السندرة فلم أجد مقعدا. نصف متر فقط من الفراغ أمام السرير الذي وضعت تحته حقيبتي ثم خلعت ثيابي وتمددت. من حسن الحظ كان هناك كوميدينو وحيد وفوقه جهاز تسجيل وراديو. فتحته على البرنامج الموسيقي وكانت الساعة قد دخلت في العاشرة. كنا اشترينا في عودتنا ساندوتشات فلافل من عند البغداي الشهير وفول أيضا. اشتريت ستة ساندوتشات منتظرا أن يبقى حسين ويتعشى معي لكنه تركني لأستريح. قال إن الطعام لن يفسد ويمكن أن أفطر بما يتبقى.

الجو دافئ حقا رغم أنه لا بطانية على السرير. الملاءة فوقها كوفرتة يمكن أن تكفي لأنه لا نوافذ يتسرب منها البرد. ثم هناك سخان كهربي لعمل الشاي لاحظته في ركن من الغرفة الداخلية التي بها الكاميرا أسفل. لن أحتاج للشاي الآن. أحتاج أن أنام وأصحو مبكرا أغادر هذه المدينة بما أحمل من جريمة. أجل. فكرة أن أترك الحقيبة وأخرج أسهر في مقهى لم تعد مناسبة.

فجأة شعرت بالقلق، رغم أن حسين لم يسألني عن سبب سفري إلى الإسكندرية. حتى لو عرف فلن يخونني. والجو بارد والمطر لا

ينقطـع. لو كان هناك مـن يراقبني منذ خرجت من القاهـرة لا بد أنه كمن فـي مكان دافئ الآن ولم يعد يهتم رغم أن المسـافة من هنا إلى مبنى أمن الدولة في منطقة الفراعنة ليست بعيدة. هذا المبنى الذي لم أتعثر فيه مرة ولا أعرفه إلا من حكايات زملائي الماركسيين أيام الجامعة الذين تركوا فـيّ الرغبة في تغييـر العالم دون أن أنضم إليهم أبـدا في أي عمل. كانت مظاهـرات عـام 1968 هي عملهم الأكبـر مع طلاب الكليـات الأخرى. فصل أكثرهم من الكلية ولم يمسسـني أذى لأني لم أكن مشـاركا في أي شيء. من يومها صرت أفكر لماذا يتم القبض على شباب يريدون معاقبة قادة الهزيمة ويريدون تحرير الوطن. لم يعد يشغلني السؤال كثيرا بعد أن التحقـت بالجيش. صرت في قلب عمليـة التحريرالتي انتظرناها ومهدنا لها بعمليات حرب الاستنزاف.

لكـن القلـق لا يبارحني رغم أن البرنامج الموسـيقي يذيع سـاعة من الغناء العربي. محمد عبد الوهاب ينفرد بها الليلة. بافكر في اللي ناسيني وحياتـي أنـت وهان الـود وعاشـق الـروح. ألا تكفي لأخرج مـن القلق ويأخذني الحزن فقط لفراق صفاء! اشتقت إلى الأسى أخرج به من التوتر ولا فائدة! وجدت نفسي أقف. أرتدي ثيابي بعد أن خلعت البيجامة التي كنـت أحملها من القاهرة في الحقيبة مع المجلات ثم أترك الأسـتوديو. مـا إن خرجـت مـن الباب حتـى كادت عاصفة مـن الهـواء تحملني عن الأرض تبعتهـا موجة من المطر الذي كان انقطع بعض الوقت. هنا، وفي شارع تانيس، تجد امرأة في الطريق في أي وقت. شهرة شارع تانيس أكبر وسـكنت فيه بعـض الوقت مع زملائي. لشـارع طيبة أيضا شـهرته، رغم

أن الملاهي الليلية هناك في الضفة الأخرى على الكورنيش نفسه خلف شارع تانيس. هل سأجد امرأة الآن ونحن وسط المطر والريح ولسنا في الصباح الباكر موعد عودة العاملات في الملاهي؟ يمكن أن تكون هناك واحدة لا تعمل في الملاهي أنجزت مهمتها وخرجت من أحد البيوت، أو طردها من دعاها بعد أن أخذ منها حاجته. أو حتى قتلت عجوزا يعيش وحده وخرجت هاربة. لا بد أن أجد امرأة تبحث عن ملاذ وسط هذا الليل وهذه البرودة وهذا المطر.

لم يطل الوقت. رأيتها تخرج مسرعة من أحد الأزقة الجانبية القليلة لتعبر الشارع إلى الزقاق من الناحية الأخرى. صفرت لها على الفور. توقفت على الرصيف تحت شمسية سوداء صغيرة تحملها فوق رأسها وتكاد تنكمش في بعضها. أسرعت إليها قائلا لنفسي فلتسامحني صفاء، بين الحزن والفرح رعب أقوى. غير قادر على النسيان وغير قادر على الراحة. الحقيقة أنا لم أترك الأستوديو لذلك فقط. لقد شعرت فجأة بالرغبة الجنسية عارمة على فمي ولساني. لقد قلت ذلك مرة لأحد أصدقائي أيام الدراسة فلم يصدق أن يكون للرغبة الجنسية علاقة بالفم واللسان واعتبرني مجنونا. لم أقل ذلك لأحد أيام الجيش لأنه أيضا لا فائدة وليس أمامنا إلا الانتظار. ويكفي الشاي بالقرنفل الذ ي نشربه دائما وما يضعونه في الطعام لوأد رغباتنا الجنسية أو نومها. حدث ذلك الآن كما كان يحدث كثيرا من قبل. ربما كان التوتر والرعب أيضا مبعثه.

كانت ترتدي تاييرا أسود قصيرا فوق ركبتيها. سألتني وهي ترتعش تحت الشمسية أين أسكن. قلت هنا على بعد أمتار. قالت:

- طيب بسرعة اجري.

و جرت أمامي بخطوات قصيرة لكعب حذائها العالي ومشيت مسرعا خلفها.

دخلت بها إلى الأستوديو فتنهدت في ارتياح. لمّت الشمسية ووضعتها على أحد المقاعد. ظهر لي كيف صارت ملابسها رغم ذلك مبلولة. قالت وهي تفرك يديها:

- نوّة وسخة، صدق من سماها المكنسة. تكنس كل شيء وكادت تكنسنا أيضا.

ضحكت وقلت:

- أي نوة؟

كنت نسيت نوّات الإسكندرية وأسماءها ومواعيدها رغم أنها أيضا نوّات دمياط ورأس البر. قالت:

- أنت غريب عن الإسكندرية؟

- هل هناك غريب يعرف شارع طيبة؟

- صحيح - ونظرت حولها وقالت - يا خرابي. ماذا سنفعل هنا. لا توجد حتى كنبة؟

ضحكت وقلت:

- اصعدي السلم. الدفا فوق على السرير.

صعدت السلم على مهل وصعدت خلفها. لم تجد مقعدا ولا مساحة للحركة. قالت:

- هذا أفضل. حتى ننتهي بسرعة.

كنت أنا أتأمل جسمها. كان بديعا. أحاول أن أصل إلى تقدير لعمرها فرأيتها لم تتجاوز الثلاثين رغم أني لاحظت وهي تتكلم أن هناك عددا من أسنانها غير موجود على يمين فكها. لو سألتها ستقول من أثر الضرب في قسم البوليس، أو من أحد الزبائن، أو من القواد الذي لم تنفذ أوامره. سمعت ذلك كثيرا من قبل في الإسكندرية.

راحت تخلع ثيابها وأنا أخلع ثيابي. دخلت بملابسها الداخلية تحت الكوفرته وقالت:

- ألا توجد بطانية؟

- أنا بطانيتك. ما رأيك؟

كنت تمددت جوارها وأخذتها في حضني بشبق كبير أشعر بسخونة جسدها. أجساد النساء لا يعترف فيها بتغير الفصول إلا أطرافها. قالت:

- الصور اللي تحت حلوة أوي. وهنا كمان. والله مكسوفة أنام معاك بين الناس دي كلها.

ضحكت أنا. بعدت عني وقالت وهي ترتكن على ظهر السرير:

- دعني أدخن سيجارة أولا.

كنت وأنا أخلع ملابسي أخرجت من جيبي علبة سجائر الكليوباترا ووضعتها على الكوميدينو، كذلك كل نقودي وكانت خمسة عشر جنيها وضعتها جوار العلبة. أشعلت لها سيجارة ولنفسي فراحت تتنفسها على مهل. أدرت الراديو الذي بدأ يبث مقطوعات كلاسيكية. قالت:

- أنت رائق جدا. موسيقى أجنبية؟ هل أنت صاحب الأستوديو بجد؟

- أرجوكِ لا تسأليني عن أي شيء. سنقضي وقتا ممتعا وبعدها سأنام. خذي ما تشائين من النقود التي على الكوميدينو واتركي الأستوديو في أي وقت. ولو أردتِ المبيت هنا معي فهذا أفضل لك.

بعد أول مرة وجدتها تنظر لي بإمعان شديد وقالت:

- عارف أنا عادة لا أشعر بمن معي. شغل وخلاص. لكن أنت كدت تجعلني أتفاعل معك جدا. هل مضى وقت طويل وأنت محروم؟

- قلت لك لا تسأليني عن شيء أرجوكِ.

اقتربت مني وسألتني:

- ما لك؟

وراحت تقبل صدري على مهل. وجدت نفسي أشرد من جديد فيما فعلت اليوم والمجلات السرية التي معي وغياب صفاء عني. قالت:

- لم تسألني كغيرك كيف وصلت إلى هذا الطريق؟

كنت حدثتها عن جمال عينيها السوداوين وشعرها الناعم ولحمها غير المترهل. توقعت أن تحكي لي قصصا خرافية سمعتها من قبل من مثيلاتها أيام الجامعة عن الذي أوصلها لذلك. حكايات من نوع زنا المحارم جعلها تهرب من البيت أو زوج اتضح أنه قواد يستخدمها للوصول لأغراضه المالية فقررت هي أن تنفصل وتصل إلى ما تريد من المال. أو كيف اغتصبها مدرس أو ابن الجيران أو موت أبيها وما تركه من أطفال لا حيلة لأمها المريضة فيهم. لكنها حكت كيف كانت هنا قريبا في شارع بورسعيد في إحدى الشقق. أخذها من مقهى «بترو» شاب قال إنه ضابط جيش رغم أنه يرتدي ملابس مدنية. دخلت الشقة معه فوجدت عشرة آخرين قال أيضا إنهم ضباط. كان بينهم خمسة بالفعل يرتدون زيا عسكريا. قال لها إنهم جميعا يريدون النوم معها الليلة. خافت. تصورت أنهم مجموعة من المجانين. رأت الشاب الذي أخذها من مقهى «بترو» يعود إلى باب الشقة ويغلقه بالمفتاح فعرفت أنه لا حيلة لها لكن هل ستستطيع. يمكن أن تموت. شرحت لي أنها تعرف كيف تضحك على الزبون وتعطيه فخذيها ثم تغلقهما في اللحظة المناسبة فيتصور أنه في مكانه الطبيعي وينتهي بسبب تأوهاتها في دقيقة أو اثنتين، لكنها خافت أن لا تنجح معهم وتموت بينهم. كيف تهرب؟ كان هذا هو السؤال. نام معها خمسة ضحكت على ثلاثة منهم. ثم دخل عليها السادس الذي وجدته طويلا جدا، قويا جدا، أسمر لكن في وجهه آثار كثيرة من جدري قديم. بدا لها وحشا من الوحوش التي تراها في الأفلام الأجنبية. نظر إليها مسعورا فاقتربت منه ومشت بيديها على صدره وقالت له: «لو عملت لنا كوبين من الشاي حتى نمضي أكثر وقت معا أكون شاكرة لك جدا »

أخبرته أنها معجبة به. بل أخبرته كيف ضحكت على ثلاثة من زملائه ولـن تفعل ذلك معه لأنهـا من زمان لم ترَ رجلا فـي قوته. وضحكت ثم قالت:

- صدقنـي العبيط وخرج من الغرفة ليعد لنا كوبين من الشـاي. كنت بعـد أن انتهيـت مـن أولهم خرجـت إلى البلكونـة ووضعت فيهـا التايير والحـذاء والشمسـية. خرج هو يعد الشـاي فدخلـت البلكونة وارتديت التاييـر بسـرعة وألقيـت بالحذاء والشمسـية إلى الشـارع ثم قفـزت منها وجريت.

كنت أسمعها مبتسما وأحيانا أضحك وأظهر دهشتي. سألتها:

- قفزتِ من البلكونة ولم يحدث لك أي شيء؟

- أجـل، الشـقة في الـدور الأول ترتفع عن الأرض أربعـة أمتار على الأكثر. عارف العمارة التي أمام قصر ثقافة الشاطبي جوار البنزينة؟

حاولت أن أتذكرها فلم أستطع فقالت:

- هي هذه العمارة. مش مصدقني روح شوفها.

- مصدقك طبعا.

- تعلقت بيدي في سور البلكونة وتركت نفسي أسقط على الأرض. توجعـت طبعـا في المؤخـرة لكنها أخـذت الصدمـة عني والحمـد لله. كويس أن ربنا خلق لنا دي.

وراحت تضرب على مؤخرتها بيدها ثم ضحكت بقوة وقالت:

- وقفت تحت البلكونة وهتفت عشرة على امرأة واحدة يا غجر. وجريت لا أعرف هل سمعوني أم لا. جئت شارع طيبة لأنام عند صاحبتي فقابلتك. بصراحة حظي حلو. شكلك ابن حلال.

نمت معها مرة ثانية ولما طلبت مرة ثالثة فاجأتني وقالت:

- أنت شكلك خائف من شيء؟

- لماذا تقولين ذلك؟

- لأنك نمت معي مرتين وفي كل مرة أشعر أنك تريد أن تختبئ في جسمي.

- أبدا. الحكاية أني قضيت خمس سنوات في الجيش بعيدا عن النسوان. لا أكثر ولا أقل.

ضحكت وسألتني:

- كنت ضابطا؟

ابتسمت وقلت:

- لا. مجند حارب في حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر.

- أجدع ناس والله أنتم.

ثم ضحكت بقوة وقالت:

- مش عارفة الستات من غير هانش كانت حتعمل إيه. بتنضرب عليه في أقسام البوليس وتقعد عليه وتقع عليه كمان!

ضحكت بقـوة وضحكت معي. لا أعرف ما الذي جعلني أفتح درج الكوميدينـو فأجد كوتشـينة. رحنا نلعب «الكومـي» ونضحك. قلت لها إنـي قادم من القاهرة وتأخرت في العودة. وإني أصلا من دمياط. حكيت لها لعبي الكوتشـينة مع مدام فيولا فقالت: «يا لهوي دا انت شـفت كتير. حرب ونسوان مجنونة. احمد ربنا أنك عايش»

ضحكنـا كثيرا جدا حتى أذن الفجر فوجدتهـا تندفع باكية في حضني وتقول حتوحشني أوي. اندهشت جدا وضممتها إلى صدري أكثر ورحنا فـي صمت عميق. لا أعرف من سـحبه النوم قبـل الآخر، لكني صحوت فلم أجدها جواري ولا أسـفل الأسـتوديو. لقد خرجت وأنا نائم ويرتفع حولـي الآن أذان الظهر. صلاة الجمعـة. نظرت إلى الكوميدينو فوجدت كل نقودي كما هي لم تأخذ منها شيئا.

***

أخبـرت الرفيـق الأكبر عامر كيف لـم يأتِ الزميل السـكندري فقال لـي إنه كان بالمقهى وإنني الذي لم أذهب إليه. أطلعته على تذاكر القطار فقال وهو يهز رأسه:

- غريبة. لن أستطيع أن أكذب أيا منكما. اذهب إليه الخميس القادم. لقد أخبرته أن ينتظرك مرة أخرى.

ظللـت ثلاثة أيام أتذكر هذه الليلة العجيبـة. هذه المرأة الصغيرة وكل مـا فعلتـه أو قالته. ثم ثقـل عليّ فراق صفـاء من جديد فاتصلـت بها مرة فـردت علي المرأة ذات الصـوت الغليظ وقالت إنها سـافرت في إجازة قصيرة إلى بلدها ثم أغلقت التليفون.

سافرت حزينا وجلست كالمرة السابقة في مقهى الكريستال فلم يأتِ الزميـل ولـم نلتقِ. لم أبت في الإسـكندرية. اليـوم لا حاجة بي للجنس. ليس لأني تعودت على حمل المجلات الممنوعة، لكن كل شيء جميل الآن يحرك الأحزان.

عدت إلى القاهرة في قطار العاشرة والنصف ليلا بعد أن شبعت مطرا ورياحا باردة. كنا اقتربنا من عيد الميلاد حيث تتواصل نوة الميلاد مع ما قبلها. لم يكن أمام الرفيق الأكبر هذه المرة إلا أن يأخذ هو المجلات مني ليوصلها بنفسه.

فـي اليـوم الخامـس مـن ينايـر التقيته فـي مقهى أسـترا فقـال لي في دهشة:

- أنـت محظوظ يا صابر. الزميل مسـئول منطقة الإسـكندرية اتضح أنـه مخبـر للأمن. أبلغ عن عشـرين شـخصا من الإسـكندرية هم مقررو الخلايـا الذين يأخذون منـه المجلات، فقبض عليهـم جميعا صباح ليلة رأس السنة.

نظرت إليه لا أصدق فقال:

- مـن يـدري ربما كان يسـتعد لك بالبوليس نفسـه. لـو قبض عليك بخمسـين مجلة لن تصدقك النيابـة ولا المحكمة إذا قلت إن أمن الدولة

هـو الذي وضعها لك. سـيثبت عليـك تماما عضوية تنظيم سـري مضاد للحكم وهذه عقوبتها خمس وعشرون سنة.

ابتلعت ريقي. عاد يقول مبتسما في سخرية:

- تأبيـدة يعنـي. منتهـى الديموقراطيـة التي يتحدث عنها السـادات. ديموقراطية ولها أنياب.

ثم نظر لي مندهشـا أكثر وقال: «أمك داعية لك فعلا يا زميل» فكرت قليلا ثم قلت وأنا أكاد أدخل في بعضي من القلق:

- لكن اسمح لي. لو كان هذا الزميل كذلك لكان حريصا على مقابلتي ليسلمني لأمن الدولة، وكان وصل مقهى الكريستال قبلي ينتظرني.

نظر إليّ في دهشة ثم ضحك بقوة وقال:

- الكريسـتال! هل ذهبت إلى مقهى الكريسـتال؟ أنا قلت لك مقهى الإسكندرية.

وازداد ضحكه وقال:

- فعلا أمك داعية لك والله يا صابر يا سعيد.

انتبهـت إلى أنه قال لي مقهى الإسـكندرية حقـا. فكيف اختلط الأمر عليّ إلى هذا الحد!؟

14

لم تكن المسألة دعوة أم، ولا تدعو أبدا إلى الضحك. حزب سري يكون مسئول منطقة من مناطقه مجندا في أمن الدولة أمر يستحق القلق.

التقيت في أول اجتماع في العام الجديد، عام 1976 الذي بدأته وحيدا دون صفاء، مع أعضاء الخلية، وجلست بينهم صامتا. لاشك سيشعرون مثلي بالقلق. لم أتكلم خارج ما تناقشنا فيه. وهو أن أصواتا كثيرة في الحزب بدأت تبدي اعتراضها على فكرة التغيير من داخل النظام. كما أن جماعة من القادة الذين سافروا من قبل واستقروا في الخارج بدأوا يصدرون مجلة مطبوعة تناقش أمور الأحزاب الشيوعية في العالم وما يفعله النظام الحاكم في مصر. مجلة لا أعرف من أين توفرت المعلومات عنها عند علي الكبير، ويقول إنها أكثر تطرفا من المجلة الداخلية. وفي الوقت الذي تطبع المجلة الداخلية بماكينة «الرونيو» تطبع الأخرى على ورق أبيض أنيق وفي المطبعة الطبيعية. في نهاية الاجتماع نهض علي الكبير إلى غرفة أخرى وأحضر نسخة منها وقال ضاحكا إنها وصلته ليس عن طريق الحزب ولكن كاتبا لبنانيا كان هنا وأحضر نسخة منها معه تركها له.

بعد الاجتماع انصرف المطرب زكريا فخري كعادته وبقي سراج منير الذي ضحك وقال:

- تناقشنا كثيرا اليوم والأمر يحتاج إلى الجوزة يا علي.

أخرج من جيبه قطعة حشيش. وجدت نفسي أقف وأعتذر عن عدم الاستمرار بينما هو وعلي الكبير ينظران إليّ بدهشة. في الحقيقة لم أكن أفكر فيما جرى في الإسكندرية. لكن ضاقت نفسي وأنا أفكر فجأة أنه حتى الآن لا أمل أن تنتهي القطيعة مع صفاء.

بدأت إجازة نصف العام الدراسي وانتهت دون أن نلتقي. كيف تتحمل صفاء فراقي أنا غير القادر على تحمل ابتعادها!؟ هل حقا تحملت أم تعاني مثلي الآن؟

قررت أن أذهب إلى بيت الطالبات المغتربات أقف قريبا منه ربما تكون عائدة من الخارج. ما إن نزلت إلى شارع يوسف الجندي حتى وجدت الهدوء يغلف كل شيء، والظلام يقبع فوق المدينة. الساعة الآن العاشرة ويمكن أن أصل روكسي حقا، لكن ستكون الساعة الحادية عشرة. مشيت هائما حتى وصلت ميدان التحرير. عدت إلى البيت أستعد لسفر كنت نسيت موعده مع وفد أدبي إلى بورسعيد في الصباح الباكر. ها هي ثلاثة أيام أخرى ستمضي دون أن أحاول رؤية صفاء.

لم يكن ما سألقاه في بورسعيد جديدا. لقاء أدبي في قصر الثقافة يمكن أن أديره أنا مع أحد ضيوف الوفد، بينما يدير اللقاءات الأخرى آخرون من أدباء المدينة. ستكون لديّ فرصة أن أشتري أي شيء من هناك.

مشـيت بين الأسـواق الجديـدة في المنطقـة الحرة التـي صارت في المدينة. محلات راقية كثيرة في شـارع. في أكثر من شـارع محلات تبيع الملابـس القديمـة القادمـة من الصيـن وتايوان. مـاذا يمكن أن أشـتري لصفاء حتى إذا التقينا أهديها إياه. لا أعرف. يمكن أن أعرف لكني صرت عاجـزا عن القرار. وجـدت جواكت كثيرة متنوعة وجديدة من الشـامواه ومن الشامواه المبطن بالفرو. لكنا الآن دخلنا في شهر مارس وبدأ الشتاء يتراجـع عن القاهرة. عدت كما ذهبت بلا شـيء. فقط ضاعت ثلاثة أيام كنت قررت أن أفعل فيها المستحيل لأقابل صفاء. عدت مرتبكا لا أعرف مـاذا أفعـل بالضبط. رحـت أدور على السـينمات. شـاهدت فيلم «مولد يا دنيا » بسـينما ديانا. حسـين كمال الذي أبكاني بمشـهد شـادية في فيلم «شـيء من الخـوف» وهي تفتح هاويـس الماء لتروي الأرض العطشـى التي تشـققت من الجفاف، أبكاني وعفاف راضي تغني «يهديك يرضيك اللـه يخليك». وحين تصل إلـى «الحلو والنبي تبسـم للنبي.. غزال على قصته قال النسـيم غنوة والورد شاف بسـمته قال والنبي حلوة» وتمد في الكلمات مـع اللحن الرائع لمحمد الموجي تقتلنـي. وأرى صفاء أمامي تضيء ظلام السينما. شاهدت فيلم الكرنك بسينما ريفولي لأبعد عن كل ذكرى وعاطفة فذكرتني كل كلمة ولفتة من سعاد حسني بصفاء وخرجت لا أرى أحدا حولي أو أمام سينما ريفولي رغم أن حركة الناس لا تنقطع. فـي اليـوم التالي، بعد أن نمت متأخرا، صحوت في السـاعة الثانية ظهرا. سـمعت صوت جرس الباب. لم أتوقع أي زائر لي. ابتسـمت ساخرا من نفسـي إذ تصـورت أن صفـاء يمكن أن تأتـي إليّ هنا كما حـدث من قبل

وجاءت إلى العمل. لكني سمعت الطالب الذي فتح باب الشقة يهتف لي من خارج الغرفة:

- أستاذ صابر. ضيف علشانك.

فتحت باب الغرفة فوجدت سعيد أمامي. كيف مضت أربعة أشهر تقريبا دون أن أراه. كيف تحملنا هذا الفراق. تعانقنا. جلس أمامي على طرف السرير الآخر وقال ضاحكا:

- حضرت معك المرة الوحيدة لآخذ حقيبتي قبل الفجر. لم أشأ أن أحدثك عن المكان الذي تسكن فيه. اليوم جئت أحدثك أو أسألك عنه.

ارتبكت. هل هناك شيء لا أعرفه في هذا المكان؟ هل هناك سر خفي فيه؟ هل عاش سعيد هنا من قبل؟ ثم لماذا ينتظر كل هذا الوقت ليخبرني؟ ضحك وقال:

- هل تعرف ماذا خلف السور الذي يسد الشارع؟

- لا.

- ألم تحاول مرة أن تعبر السور؟

- لا طبعا. ما الفائدة أن أفعل ذلك. كل ما أريده في الناحية الأخرى أمامي وفي شارع الملك.

- خلفك عزبة القرود يا بطل.

قال ذلك وابتسم. أنا الذي سمعت كثيرا عن عزبة القرود حين كنت أدرس في الإسكندرية لم أفكر أن أزورها. لا معنى ولا حاجة لذلك. ثم إنني كنت أحيانا أقابل أحد أصحاب القرود في ميدان محطة مصر الذي نادرا ما ذهبت إليه، والناس تقف حوله والقرد يلعب أمامه وبينهم. هذا تراث قديم في الحواري الشعبية لم يهمني يوما. في دمياط ورأس البر لا أذكر أني اهتممت بهذا أو رأيت حتى قردا واحدا. لكن هل أتى سعيد اليوم ليقول لي ذلك حقا؟ سألته مبتسما:

- هل ترى ذلك شيئا هاما؟

- اليوم أراه هاما أن تعرفه. لا تسألني لماذا. لكني بحق اشتقت أن أرى قردا. تعبت من الإخراج. مسرحية «ثورة الموتى» أرهقتني جدا. ليس لصعوبتها لكن كلما اخترت فتاة لتقوم بدور البطولة وتحفظ الدور تتركه في اللحظات الأخيرة. ثلاث بطلات حتى الآن. لقد أخطأت خطأ شديدا واستعنت بممثلات معروفات. يجدن أدوارا في التلفزيون فيتركن العمل في الثقافة الجماهيرية التي يعتبر ما تدفعه ملاليم قياسا على أجر التلفزيون. أخيرا انتهيت إلى وجه جديد. بنت رائعة من معهد التمثيل وسيكون لها مستقبل. أنقذتني.

ضحكت وقلت:

- طيب هذا يجعلنا نحتفل لا أن نذهب إلى عزبة القرود.

لم يرد. سكت فجأة وأنا بدوري سكت. شعرت بالحيرة. قلت:

- قل لي بالضبط يا سعيد ماذا يضايقك؟

رفع النظارة عن عينيه ومسح دمعة بإصبعه وقال:

- صدقني لا شيء. فقط اشتقت إليك.

- لا. ليس هذا هو السبب يا سعيد. صارحني.

- قل لي أولا كيف حالك الآن مع صفاء؟

- للأسف لم نلتقِ حتى الآن.

نظر إليّ نظرة طويلة. بدا لا يصدق ثم ابتسم وقال:

- لـن تصدقنـي إذا قلت لك إنني ذهبت أمـس إلى كوبري قصر النيل ووقفت وسـط الليـل لعلي أعثر علـى الفتاتين اللتيـن قابلناهما من قبل. أجل. قررت أن أذهب وإذا قابلتهما أتأكد ما إذا كانتا بشـرا مثلنا. قلت قد أفاجئك بلقائي معهما من جديد وأواعدهما نلتقي جميعا معا. لكن الذي حدث غريب.

هزّ رأسه أكثر من مرة بينما أنا أفكر ماذا أصاب عقله، ثم قال:

- لم تظهر أي فتاة. مع أذان الفجر الذي لم أعرف مصدره مرت امرأة ترتدي جلبابا أسود وعلى رأسها طرحة سوداء. رأيتها قادمة من بعيد على الرصيف الآخر......

خلع النظارة مرة أخرى ومسـح دمعة جديدة وقال بصوت متحشـرج قليلا:

- كانـت تهتف بصوت عالٍ وسـط الظلام وتحـت الأضواء الصفراء المتفرقة من الأعمدة: «يارب ماتنسـانيش. يارب سـايبني لمين» وتسـرع فـي الطريـق كأنها تـرى هدفا لا أراه حتـى اختفت عن بصـري في ميدان التحرير. لم أستطع النوم حتى الآن.

سكت قليلا ثم قال:

- بكاء النساء بالليل أمر صعب.

سـكت. اكتشـفت فيه أمرا جديـدا. كنت أراه عبثيـا ولا مباليا إلى حد كبير لكني اليوم رأيت فيه طيبة ورومانسية نادرة. قلت له مبتسما:

- سـأرتدي ملابسـي وأذهب معك إلـى عزبة القرود يا سـعيد ما دام ذلك يخرجك من الهم.

لكنه تمدد فجأة فوق السرير. قال:

- لا تقلـق. سـأنام خمـس دفائـق ترتـدي فيهـا ثيابـك وسأسـتيقظ وحدي.

قـال ذلك وغط فجـأة في النوم. ابتسـمت. قلت أنا أيضـا أحتاج إلى النوم ساعة أو بعض ساعة فلأتركه في نومه وأنام.

***

- يارجل. كيف تركتني أنام ساعتين كاملتين. هيا قبل أن يدخل الليل فلا نرى شيئا. القرود تنام مبكرة.

ضحكت وقلت:

- لا زلت مصمما؟

- لن أتراجع.

ارتديت البنطلون والقميص والبلوفر ونزلنا لنرى عزبة القرود.

عبرنـا مـن الفتحة الموجودة بالسـور بعد أن وقفنـا أمامها لحظة ننظر إلـى بعضنا ونبتسـم. بعد السـور مباشـرة وليس بعد مسـافة طويلـة رأينا شـارعا عرضه في حدود عشـرة أمتار وعلى جانبيه بيوت واطئة لا ترتفع عـن دور أو دورين تمتد مسـافة طويلـة تكاد لا تنتهي وتدور مع الشـارع الـذي يدورعند نهايتـه جهة اليمين. لم يكن ذلك مدهشـا. كان ما أثارني هـو الأزقة التـي على الجانبيـن بين البيـوت. أزقة كثيـرة لا يزيد عرضها علـى مترين وثلاثـة أمتار. تلتـوي دائما وتخـرج منها أزقـة أخرى. على جانبيهـا بيـوت مـن دور واحـد أو دورين أيضـا. كان يمكن أن نـرى بيتا يرتفـع إلـى ثلاثـة أدوار لكنه لا يتكـرر كثيـرا. لاحظنا أن الشـارع الكبير منخفـض لحوالـي مترين عن شـارعنا الـذي جئنا منـه، وكان النزول إليه بعد فتحة السـور على حجريـن موضوعين علـى الأرض كأنهما درجتي سـلّم. توزعت نساء عجائز جالسات أمام كثير من البيوت يرتدين السواد وأطفـال تلعـب أكثرهـم يرتـدي قميصا قصيـرا أو فانلة ونصفه الأسـفل عاريـا. البنات الصغيـرات يلعبن أيضا ويرتدين جلابيـب ممزقة في أكثر مـن موضع. رجال قليلون يمشـون ويختفون بين الأزقة. رأينا خمسـة أو

ستة أفراد لا أكثر. بائع على عربة يد يبيع «الحرنكش» وآخر يبيع الحلاوة العسلية وعليها ذباب كثير جدا. كان الذباب قاسما أعظم على وجوه العجائز والأطفال تهشه العجائز وبعض الأطفال يضرب بيده الذباب على وجهه ويضحك. رأينا ثلاثة أشخاص يرتدون الجلباب البلدي المتسخ وأمام كل منهم قرد. يجلسون معا على مقاعد خشبية وكل منهم يمسك بسلسلة طويلة بها قرد تظهر مؤخرته الحمراء أكثر من مرة وهو يستدير حول نفسه.

كان كل من يرانا ينظر إلينا مندهشا. بعض العجائز هتفن لنا: «اتفضلوا». أحد الممسكين بقرد جاء إلينا جاريا وسلسلة القرد في يده:

- تشتري قرد يا أستاذ؟

تراجعت وابتسمت وهو يخاطبني فسحب القرد إليه وضم السلسلة إلى يده وهتف له قائلا: «نوم العازب يا له» مال القرد على جانبه ووضع يده تحت رأسه. فهتف: «نوم العازب يابن الكلب دا نوم المفلس» راح القرد يتقلب على بطنه ونحن نضحك وقال لنا الرجل:

- ما رأيكما. أنا عارف أنتما لا يمكن أن تسرحا به. شكلكما أولاد ناس لكن يمكن وضعه في البلكونة. تحفة.

وجدت نفسي أضحك وأسأله:

- كيف تأتون إلى هنا. أنا لم أرَ أحدا معه قرد يعبر السور؟

- نأتي من ناحية «القصيرين».

أشـار أمامه إلى نهاية الشارع. بدا أني لم أفهم فقال سعيد لي إن هناك حيا قريبا اسمه «القصيرين» وقال الرجل:

- نحن لا ندخل شارع الملك. كفاية القرود التي فيه.

ضحكنـا. قـال أيضـا إنهـم يحبـون المشـي فـي الأحيـاء الشـعبية، و«القصيريـن» حـي لا يختلـف عن عزبـة القـرود. الفارق الوحيـد أن به سوق سمك.

وسكت لحظة يتأملنا ثم قال:

- طيـب بـلا ش القـرد ده. عندي قـرد صغير ينفع أكيد فـي البلكونة. مناسب أكثر. حيفرح الجيران وعيال الجيران.

أخرج سـعيد من جيبه ورقة فئة العشرة قروش. أعطاها للرجل فقبّلها ومـس بهـا جبهته ثم تركنـا وعاد إلـى أصحابـه. وقفت أنظر إلى سـعيد الـذي كان يضحـك. ظهرت فتاة جميلة ترتدي جلبابا منزليا يكشـف عن ذراعيها. ممشـوقة القـوام ترتدي في قدميها شبشـبا. كانت جميلة الوجه والجسـد بحق والكحـل كان واضحا في عينيها الواسـعتين. كانت تتجه ناحيتنا فوقفنا أمامها مأخوذين من جمالها. ما إن عبرتنا حتى قال سعيد:

- هل رأيت جمالا مثل هذا وسط البؤس؟ تعرف من تذكرت الآن؟

- من؟

- سعاد حسني حين اكتشفها عبد الرحمن الخميسي. رآها تغسل الصحون أو الملابس لا أعرف في بيت أبيها فأشعلت فيه الحماس بجمالها. نقلها نقلة كبيرة إلى السينما. ونقل السينما بها إلى الأمام أيضا. سعاد أخت نجاة الصغيرة بالمناسبة.

كنت أعرف شيئا من هذه المعلومات لكني لم أكن متأكدا منها. سكت لحظة وقلت:

- أظن يجب أن نعود الآن.

ضحك وقال:

- ألا تحب أن ترى «القصيرين»؟ أم أنت مكتفٍ بقصير واحد؟

ضحكت من القفشة. إنه يقصد نفسه. قلت:

- يكفي ما رأيناه اليوم. مش طالبة قصيرين فعلا!!

ضحكنا وعدنا. لقد اكتشفنا أننا ابتعدنا كثيرا عن السور. هي إذن منطقة كبيرة وإذا كان الشارع الذي لم نصل إلى نهايته هو طولها فلا بد أنها أيضا عريضة.

رأينا الفتاة تقف مع أصحاب القرود الثلاثة تعاكس القردة وتجري إلى الخلف. يرخون هم سلاسلهم فتتبعها القرود جارية ثم لا تصل إليها لقصر السلاسل. هتف الرجل نفسه الذي حدثنا من قبل:

- يا أستاذ. يا أستاذ. لو عايزين خدامة لن تجدا أفضل من هذه البنت. أروبة.

ابتسـمنا. رأيـت الفتـاة تتابعنا بنظراتهـا كأنها تنتظر أن نوافق. سـألني سعيد:

- ما رأيك؟

- لو جاءت عندي لن يتركها تلميذ واحد ممن في الشقة.

- على رأيك.

قال سعيد وعدنا على مهل حتى خرجنا من السور.

كان الليل قد بدأ ينزل على الدنيا من حولنا. اكتشـفت أنني لم أتناول غدائي فسـألته ما إذا كان تغدى فقال لا. مشـينا إلى محل الكبدة وجلسنا نأكل. قلت:

- لم أكن أعرف أن بالقاهرة أحياء مثل هذه.

- هناك ما هو أبشع.

أخـذ يحدثنـي عـن منطقـة الدويقـة التـي بـدأت تظهـر فيهـا البيوت العشـوائية. منشية ناصر التي يظل المطر في شـوارعها حتى العام التالي. بولاق الدكرور التي بدأت تظهر فيها العشـوائيات فوق الأرض الزراعية. قال هناك هجرة كبيرة من الريف إلى القاهرة ويجدون في المناطق البعيدة فرصـة البنـاء بدون ترخيص. سـتظهر مع الوقت في القاهرة أحياء بشـعة ستمتد حتى تدخل على العمران القديم. سألته ألا يوجد من ينظم ذلك؟ أليـس هناك إدارات للأحيـاء يمكن أن تضع تخطيطا يلتزم به الناس؟ قال

إن الفساد صار للركب والرشوة تقدم لموظفي الأحياء والسادات يقول إن من لن يغتني في عهدي لن يغتني أبدا. ثم سألني:

- هل تعرف أن السادات أصدر قانونا يسمح لمن يبني جامعا تحت بيته أن يخالف البناء؟

- لا.

- هذا ما حدث. الآن بدأت تظهر عمارات في أزقة لا تزيد على ثلاثة أمتار وعلى العمارة لافتة تحمل اسمها، وهوغالبا اسم إسلامي مثل عباد الرحمن والصفا والمروة والحرمين وهكذا.

- هناك محلات بدأت تحمل هذه الأسماء أيضا.

- تزداد يوما بعد يوم. أكثرها تقدم الأطعمة الفاسدة احتماء في الأسماء الدينية. ما له الجحش؟ بيعمل أحسن فول، أو حتى الخول بيعمل أحسن فسيخ؟

ضحكنا. قال إنه كان يحمل هما كبيرا منذ سمع المرأة تنادي على الله في الفجر أمس. الآن غسل أحزانه. صحيح بشيء أسوأ لكن لا يفل الحديد إلا الحديد! قال ذلك وضحك.

عرفت أنه سيذهب إلى قصر الريحاني يتابع العمل. قررت أن أذهب إلى بيت الطالبات. لا يزال لدي متسع من الوقت. يمكن أن تكون صفاء في الخارج وتعود. من يدري قد يحالفني الحظ.

أخـذت المتـرو إلى محطة روكسـي أدعو الله أن أراها. مشـيت حتى بيـت الطالبـات الذي رأيتـه يمتد أمامي لحوالي عشـرين متـرا ولا ترتفع أدواره عـن ثلاثـة أدوار. نوافـذه العاليـة واضحـة ولا نوافـذ فـي دوره الأرضـي. كل النوافذ مغلقة ولا أضواء في الشـارع أمامـه غير عمود نور واحد لا يكفي أن أرى شـيئا. الباب الرئيسي مغلق والساعة الثامنة مساء. وقفـت أتطلـع إلى النوافـذ ربما تنفتح واحـدة. بالفعل بعد نصف سـاعة مـن الوقـوف والتحرك قليلا ذهابا وجيئة فتحت نافـذة طل منها وجه فتاة خلفها نور الغرفة شاحب يضفي على الوجه ظلالا فلا أراه كاملا. أطلّت الفتاة لحظات ثم عادت واختفت بسـرعة. وقفت أتطلع إلى نور النافذة. هـل يمكـن أن تكون صفـاء ورأتني فدخلت مسـرعة؟ ابتسـمت وتحرك قلبـي بالفـرح. من يدري. قد تنـزل إليّ. لكن عادت الفتـاة وراحت تطل مـن النافذة مرة أخرى ورحـت أتطلع إليها. طالت طلتهـا وطال تطلعي! أشـارت إليَّ بيدها كأنها تحييني فارتبكت ثم أشـرت إليها بيدي. تركت النافذة لحظات من جديد ثم عادت وقذفت شـيئا صغيرا جدا ما إن لمس الأرض حتـى قفز عليها أكثر من مـرة وابتعد كثيرا. تابعته بعيني ووصلت إليه وأمسكت به. كانت ورقة صغيرة ملفوفة على شيء متماسك. فتحت الورقة فوجدتها ملفوفة حول «أسـتيكا». ذلك سـر تقافزها على الأرض. رأيت مكتوبا في الورقة: «أحسـن لك تمشـي من هنا بدلا من أن أرسـل لك الأمن» مزقت الورقة. قذفت بالأستيكة بعيدا بقوة ذراعي ثم ابتسمت ساخرا ومشيت.

***

فـي اليوم التالي ذهبت منذ الصباح إلى كلية التربية. هذه هي الجامعة التـي نسـيتها. مبانٍ علـى الأجناب هي التـي بها المدرجـات والفصول. أشـجار قليلـة. حركـة لا تنقطـع مـن الطـلاب والطالبات كأنهـم جميعا خـارج الفصول. مهرجان أزياء. وجوه تبدو مـن الريف ووجوه تبدو من المدن. حديقة أزهار من البشـر. ذلك كان شـعوري دائما في كليتي، كلية الآداب بالإسـكندرية. الشـعور القديـم يعود إلـيّ والجو بـارد والفتيات تعيد شـعرها الطائر إلـى مكانه. لكن ليس الهواء بحدته في الإسـكندرية ولا برودة فنحن في الربيع. رأيت نفسي صرت عجوزا بينهم؟ أجل. أكثر من خمس سـنوات الآن بعد خروجي من الجامعة جعلتهم يبدون أمامي أطفـالا. كثير مـن الفتيات يرتدين الجينز الذي لم يكـن قد ظهر في أيامنا وكثير مـن الأولاد أيضا. على كل ناحية جماعـات صغيرة تقف تضحك بينمـا الفتيات يحتضـن كتبا أو كراريس على صدورهـن ويعلقن حقائب صغيرة على أكتافهن. الأولاد لا يمسـكون شـيئا فـي أياديهم. دائما هكذا كانـوا وأنا في الجامعة. إذا أمسـك أحدهم بكتاب يمسـكه في لا مبالاة. يجب ألا تأخذني المشاهد عن البحث عن صفاء. كل الوجوه التي قابلتها أشـحت بوجهي عنها لأني لا أخطئ وجه صفاء. كثير من الأجسـاد التي مرت أمامي تأملتها وأسرعت لأكون أمامها ثم أستدير ناظرا إلى وجوهها. كثير جدا من الأجساد الغضة موسيقية التكوين مثل جسد حبيبتي. أجساد تدعوك إلى أن تضعها في صدرك. وجه صفاء تتحرك فيه العينان بدهشـة توسع في الكون فيضطرب من حولك. وأنا مضطرب الآن. ليس من كثرة الوجوه الجميلة ولا الأجساد التي تتوق إلى ملاذ، لكن أن يدرك أحد أني غريب. سـألت عن قسـم اللغة الإنجليزية. عرفت أنه في الدور الثاني من

المبنى الذي يقابلني. صعدت إليه. وجدت فتيات جالسات على درجات السلم فرحن يفسحن لي طريق العبور. أمام القسم طرقة طويلة وقفت فيها مرتكنـا بظهري إلى الحائط والطلاب والطالبات يمرون أمامي. عبر أحد الكبار. لا بد أنه مدرس. وكذلك سـيدة. لا بد أنها مدرسـة. نظر كلاهما إليَّ واسـتمرا في طريقهما بين الطلاب الذين يحيطونهما. من أسأله عنها الآن وهـي لا تبـدو هنا أيضا؟ الأفضل الانصراف. قـررت ذلك بعد أكثر من سـاعة بيـن الطلاب في الفناء الواسـع وأمام قسـم اللغـة الإنجليزية. خرجـت من الكلية وأخذت طريقي إلـى محطة المترو تقابلني الطالبات القادمـات إلـى الكليـة والطلبة مسـرعين جميعـا وأتطلع إلـى وجوههم بـلا فائدة. كأنه لم يكن في الدنيا صفـاء. انتهت القصة. هل يمكن؟ ومن هـذه التي أراهـا تجري أمامي في الغابة الآن وتضحـك وأنا ألهث خلفها لأمسك بها ولا أطولها. إنها ترتدي قطعة قماش واحدة مثل ورقة التوت بين فخذيها وعلى ثدييها قطعتين صغيرتين وشعرها منطلق خلفها وعلى الجوانب حيوانات تضحك. قرود تصعد مسـرعة سعيدة أعالي الأشجار وزرافـات تمـد رقابها وتصدر أصواتا موسـيقية وأسـود تقـف تنظر إلينا ونحـن نجـري فـي فخر ونمـور تدور حـول الأشـجار تتربص بنـا لكنها لا تتحرك من مكانها. صفاء أمامي تصعد فوق الأشـجار بقفزات سـريعة وأنـا أقفـز خلفها حتى أمسـكت بها وتعلقنا فـي حبل وعبرنا بـه الفضاء فنزلنـا خلف الشـجر على شـاطئ يمتـد أمامـه البحر يتسـع أمامنا ونحن نقف يهب علينا هواؤه محملا بالعطر. هل سنقف هنا كثيرا يا صفاء؟ كما تشـاء يا حبيبي. أخذتها تحت ذراعـي ودلفت بها إلى الكوخ الذي خلفنا ينتظرنا ودخلنا لنجد رائحة المسـك تملأه وسريرا ناعما مرتبته ووسادته

مـن ريـش النعام.أجل. هي صفـاء ولا أحد غيرها الآن بيـن يديّ وتحت صـدري أقبلهـا وتلف حولـي سـاقيها وذراعيها وتصـرخ متأثـرة باللذة. هـي صفـاء التي معي الآن قد فقدت وعيها وهـي تحتي ودم بكارتها نثور صغيرة منه تحتها. هي صفاء تفتح عينيها سعيدة غير مصدقة أن في الكون لـذة كهذه، وتفتـح ذراعيها وتضمنـي إليها لا تريد أن تتركنـي من فوقها. أتركها فتمسـك بالمنديـل الأبيض تضعه علـى عفتها فتسـري فيه الدماء النبيلة. غشـاء البكارة لم يخلقه الله عبثا. شـهادة حب تفتح الطريق فقط لمـن يسـتحق. صفاء معي ولـم تهجرني. لا حاجة لـي بالبحث عنها بعد اليوم. إنها تنتظرني في بيتي وتنتظر معي أياما كثيرة سعيدة قادمة.

- يا أستاذ... يا أستاذ!

همـس الـذي جـواري على مقعـد المتـرو وهـو يلكزنـي بلطف في كتفي.

- حضرتك بتكلم نفسـك؟ - وابتسـم - كلنا بنعمل كده بس صوت حضرتك عالي والمترو كله تقريبا سمعك.

امـرأة عجوز تجلـس أمامي تمد يدها تربت سـاقي وتقول: خد بالك من نفسك يا بني أنت لسة صغير ومافيش حاجة تستاهل.

فـي غرفتي وأنا أقف فـي بلكونتها التي تطل على المنور الواسـع بين البيـوت قـررت أن أنتهي من القصة كلها. لقد غـادرت المترو خجلا مما سمعته من الجالسين معي وركبت التاكسي لأكون وحدي أفكر. وصلت متعبا رغم قصر المسافة وخلو الطرق. صعدت مقررا أن أنسى صفاء بأي

ثمن أدفعه. لن يكون ثمنا متعبا ولا مقلقا. سـأترك نفسي للسهر مع سعيد أو مع علي الكبير أو عمر إبراهيم أو غيرهم في غرز الحشيش والبارات. سأنتقم منها وأفتح غرفتي لكل نساء العالم. طال فراقك يا صفاء وأخطأتِ «التقـل» و«التدلـل». للقلوب في النهاية احتمال. لقـد انتهى الزمن الذي يعيش فيه الحبيب على ذكرى واحدة أو يمضي حياته متوحدا مع الفراق! لا بد أن أقيم علاقة أخرى أنسى بها صفاء!

***

هـل اسـتطعت؟ صار صمتـي عميقا بيـن كل من أجلـس معهم وفي العمـل. انصرفت روحي عـن المباهج. لـم أكمل كتابا بـدأت في قراءته. قـلّ ما أعطيه للمكتـب الصحفي فلم يـزد على مقالين في الشـهر. انتهى العام الدراسـي دون أن نلتقي. قد تكـون نجحت في الامتحان وحصلت على الليسانس ومن ثم لن تعود إلى القاهرة مرة أخرى. قررت أن تكتمل القصة في بلدها هي. بني سـويف التي لم ألتقِ في حياتي بشـخص منها، ولا أعـرف مـن تاريخها شـيئا غير أنها فـي الصعيد. سـأعرف بيتها لأني أعرف اسم أبيها وأعرف أين يعمل.

أخذت القطار في الثامنة صباحا لأنزل بني سويف في العاشرة. لم يكن صعبـا أن أعرف مبنى المحافظة حيث يعمـل والدها. لم أجده في العمل اليـوم. لماذا تغيب؟ من سـألته عنه قـال إنه ليس من عادتـه الغياب دون إخطار زملائه. ترددت في السـؤال عن بيته لكني فعلتها. سـألت الفراش الذي رأيته يمشـي بيـن المكاتب يحمل الشـاي يوزعه علـى الموظفين.

قلت له إني أحمل رسالة له من قريب في دمياط وأريد أن أقابله. وصف لي البيت والشارع الذي كان بعيدا على أطراف المدينة قريبا من الحقول. مشيت في المدينة بين مبانيها التي يحوطها تراب وغبار وأرض جرداء تنتهي بأرض زراعية. عند إشارات المرور يقف جنود يرتدون الملابس الكاكية ولا يبدو أن هنا أصلا سيارات تمر! المقاهي يجلس أمام أبوابها رجال نائمون تقريبا من تعب مجهول. ولا نساء كثيرات في الشوارع. لكن بنات وصبيان المدارس الابتدائية يملأون فجأة الطرقات خارجات من مدارس لا أراها. ليس مهما أن أنظر حولي الآن.

وقفت أخيرا أمام بيت صفاء الذي كان صغيرا بين بيوت صغيرة قليلة تطل على شارع واسع لكن أرضه أيضا غير مسفلتة ومليئة بالحجارة الصغيرة والتراب. ماذا سأفعل الآن؟ هل أدخل أسأل عنها أم أنتظر في أي مقهى قريب فقد تمر أمامي. لا مقهى رأيته في هذا الشارع البعيد عن المدينة. لا معنى للانتظار. ما دام أبوها لم يذهب إلى العمل اليوم فقد يكون بالداخل وتنتهي القصة نهاية جميلة.

اقتربت من باب البيت الخارجي. مددت يدي فوجدته ينفتح أمامي من أول لمسة. دخلت خطوة مرتبكا فرأيت أمامي ردهة حولها عدد قليل من الغرف. في الردهة عدد قليل من البط والإوز. يدور البط حول بعضه بسرعة ويمشي الإوز على مهل في شموخ. ماذا أفعل حقا؟ قبل أن أستدير وجدت طفلة في حوالي الخامسة تظهر أمامي حافية ترتدي جلبابا صغيرا. يا إلهي. وجهها قريب الشبه بصفاء.

- أنت مين؟

سألتني الطفلة ببراءة. ابتسمت وانحنيت أمشي بيديّ على شعرها الناعم الأصفر وأتملى من عينيها العسليتين.

- أين بابا؟

هتفت على الفور «بابا» أكثر من مرة. خرج لي رجل خمسيني العمر يرتدي جلبابا أبيض وعلى عينيه نظارة وفي يده جريدة كان لا بد يقرأ فيها وسألني:

- من حضرتك؟

قلت له باسما إني في حاجة إلى أن أجلس أولا. كان واضحا أني مرتبك قليلا. هز الرجل كتفه وقال لي: «تفضل». صعد بي سلما إلى الدور الثاني ثم دخل بي غرفة واسعة بها مقاعد كبيرة قائلا:

- قلقتني يا بني. الآن قد جلست. قل لي من أنت وماذا تريد؟

شعرت بأقدام تمشي أمام الغرفة التي كنت أجلس في ناحية خلف بابها فلا أرى من هو خارجها. سمعت وشوشة في الخارج أيضا. تماسكت وقلت:

- أنا اسمي صابر سعيد من دمياط. - وأخرجت بطاقتي الشخصية قدمتها له - أعمل في القاهرة بوزارة الثقافة، وأختي تدرس في كلية التربية في روكسي مع الآنسة صفاء.

بدأت عينا الرجل تتسعان وتبدو عليهما الدهشة فأكملت بسرعة:

- طبيعي لوجودي بالقاهرة أن أقابل أختي وأزورها في بيت الطالبات. لحسن حظي هناك قابلت معها مرة ابنتكم المحترمة صفاء.

بـدأت عينـا الرجل تتسـعان والابتسـامة تبـدأ في التمـدد على وجهه فأسرعت قائلا:

- من رؤيتها مرة واحدة وأحاديث أختي عنها قررت أن آتي وأخطبها من حضرتك.

ضحـك الرجل ونادى أم صفاء فدخلت امرأة ريفية تبدو عليها الطيبة عيناها أيضا عسليتان وجلست فقال ضاحكا:

- الأستاذ صابر سعيد من مصر جاء يخطب صفاء.

ثم حدثني قائلا متعجبا:

- لكن حضرتك شفتها مرة واحدة بس وجئت تخطبها؟

ارتبكت. قلت:

- أجل. شـفتها مع أختي التي شـكرت لي فيها كثيرا جدا. قالت إنها أفضل بنت في «الدفعة» وسلوكها محترم.

سكت الرجل قليلا ينظر إلى الأرض وقال:

- والله يا بني لن نجد أحسن منك لكن صفاء اتخطبت لابن عمها.

أصابنـي الصمـت. شـعرت بالغم الحقيقـي. كانت أمهـا قد خرجت من الغرفة لأسـمع صوت صفاء عاليـا تقول صارخة: «أنا ما أعرفش حد بالاسم دا ولا أعرف مين أخته»

شعرت بالعرق يقفز على وجهي وحر الغرفة التي كانت بلا مراوح أو تكييف. وقفت مادا يدي مودعا الرجل. ونزلت بسرعة.

ما إن خرجت وابتعدت قليلا حتى وجدت نفسي ألتفت خلفي لأرى صفاء تطل من النافذة العالية تتطلع إليّ في صمت. لا أعرف هل لمحت في عينيها دموعا أم لا. لكنها أشـارت لي بيدها ببطء الحزين تنعي فراقنا إلى الأبد.

15

الأيـام تمضـي ولا تقـف مـن أجل أحـد. إذا فكـرت قليـلا تجد كل النـاس في مشـاغلها ولا يعرف أحد أنك حزيـن فلتخرج من هذا الحزن يـا صابر! ذهبت مـن جديد رغم ما جرى في الإسـكندرية، مرتين بمجلة الحزب لكن إلى المنيا التي أحببتها من قبل. مشيت على نيلها مع الزميل الذي تسـلم مني المجلات. نمت في المرتين في فندق إخناتون البسـيط الجميل على النيل. لكني كنت أضبط نفسـي راغبا أن أنتهي من هذا كله. أن أتفـرغ للكتابة النقدية فقط. صرت أجلس على مقهى ريش صامتا بين الأدباء. من ناحية لا أريد أن يقبض عليّ فلديّ من المجلات دائما الكثير سـأذهب بها إلى المنيا. ومـن ناحية أخرى لا تعجبنـي حالة الضياع التي عليهـا الكثيـرون. معارك الأدباء بيـن بعضهم لا معنى لهـا. كل ينظر إلى الآخـر باعتباره رجل أمن خفي. فـي أكثر من اجتماع كدت أعلن زملائي بالخلية برغبتي في الخروج من الحزب وكل عمل منظم.

في الأسبوع الأخير من أغسطس بدأ شهر رمضان. جاء أحد الطلاب الأربعة الذين يسكنون معي وقال:

- رمضان يحب اللمة يا أستاذ صابر.

أنقذوني من وحدة أعرفها. رغم أن العمل في سرادق الثقافة الجماهيرية بالدراسة كان ينقذني لكن تظل ساعة الإفطار صعبة على الوحيد فما بالك بالغريب. وأنا في البنسيون كان سعيد يفطر لدى عائلته معظم الأيام. كنت أسمع مدفع الإفطار وأجد نفسي أفطر وحدي. الإفطار هو الغداء الذي أعدته فيولا مع قطعة من الكنافة أو قطعتين من القطائف. كانت تأتي من دكانتها التي تغلقها ساعة الإفطار كما تغلق كل المحلات في مصر، فتدخل غرفتها ولا تخرج إلا بعد ساعة عائدة إلى الدكان. كنت أترك الطعام وأنزل إلى الشارع أجلس في المقهى الذي لا يغلق أبوابه في شارع طومان باي. قطعت رمضان ذاك والذي قبله بالسفر أسبوعا إلى دمياط. لم يكن عمر راضيا أول مرة.

- هذا هو الوقت الذي أحتاجك فيه. لكن لا بأس. لا تتغيب عن أسبوع.

وتركني عمر إبراهيم أسافر أسبوعا وقد بان عليه ضيق خفيف.

في أول يوم أفطر بين أهلي في العام الماضي والعام قبل الماضي كدت أبكي. قبّلت يد أمي وأبي في كل مرة وقبّلت إخوتي البنات اللاتي تساقطت دموعهن ونحن حول السفرة.

- خذ لك إجازة شهر رمضان كله يا بني وخليك معانا. رمضان صعب في الوحدة.

- عندي شغل كثير يا ماما. أخذت إجازة أسبوعا بالعافية.

كان الجنود في الجيش يعوضونني عن أهلي قليلا. كان كل منهم يحكي عن رمضان الذي يفتقده حين كان يمضيه بين أهله. من يحصل على إجازة في رمضان يرقص فرحا. «وحشني أكل أمي. وحشتني أختي وهي بتديني طبق الكنافة. وحشتني قعدة القهوة مع أصحابي. واحشني صوت أبويا وهو بيدعي لنا بعد الصلاة. دا انتم رمضان معاكم صعب أوي!» نضحك. الآن صرت بعيدا حتى عن الجنود. لكن هؤلاء الطلاب يعوضونني عن كثير من الوحدة التي أشعر بها ساعة الإفطار. كما أن عمر إبراهيم أقنعنا هذا العام أن نشترك في إفطار جماعي مرة كل أسبوع في محل الدهّان. الجلسة بين زميلاتي جميلة. وجوههن الشاحبة من الجوع مضيئة حولي تشع راحة وأملا ورضا وهن ينتظرن انطلا ق مدفع الإفطار. بعد ذلك ننطلق في الطريق بين المقاهي. الطاقة التي تظهر الآن رهيبة. تتفرجن على معروضات المحلات. قد تشترى سامية أو وديعة شيئا من الفضيات وقد تشتري نجوى أو دعاء أو لبنى إيشاربات.

رحت أشغل نفسي كثيرا في العمل لأنام معظم النهار. أتحرك كثيرا بين الفنانين خلف السرادق الذي نقيمه لهم في الحديقة. أتصل بهم نهارا أتاكد من حضورهم. لا أقف أو أجلس إلا بين زميلاتي. يأتي إلى السرادق كثير من الكتاب والنقاد فنسهر في مقاهي الحسين كما فعلنا من قبل في العامين السابقين. لكن هذا العام أضيف إلى الوحدة فراق صفاء. سعيد مشغول ببروفات مسرحيته. يلتحق بي أحيانا ونعود مع الفجر معا. بين الفرق المدعوة فرقة الموسيقى العربية. لها مع الجمهور لقاء كل

خميس. أشعر أن كل الأغاني كتبت لأجلي. كتبت عني. هؤلاء المغنون والعازفون يحملون قلبي في أصواتهم.

قد ما احبك زعلان منك

وليه ترضى بعدي أنا عنك

اسمح بأه وتعالى أما اقول لك

إن ما كان دا يكون خلينا منك

***

جرحني لحظك وهجرني قلبك

ماكانش عشمي الله يسامحك

أما حين كانت تغني «حياتي انت» لعبد الوهاب فكنت أبتعد عن السرادق كله. أقف بعيدا أدخن سيجارة غير قادر على حجب دمعة تسقط مني.

في الأسبوع الأخير من رمضان فوجئت بعمر إبراهيم يصحبنا إلى الغرزة التي لم أكن أعرف أنها تعمل في رمضان. فعل ذلك لأربع ليالٍ متتالية. في الليلة الأخيرة قال:

- أربع ليال متواصلة نأتي هنا وفي رمضان أيضا أمر صعب. كنت أراك شاردا كثيرا. ليس أمامي إلا أن أستخدم سلطاتي وآمرك أن تنسى هذه البنت وتبحث لك عن بديل فورا.

ابتسم سعيد وقال:

- هذا ما قلته له. لا يصدقني.

قلت:

- ومن قال لكم أني لا زلت أحبها.

قال عمر:

- جميل. والآن سأترككما. سأتناول سحوري في البيت.

بعد أن فارقنا عمر سألت سعيد فجأة:

- حتـى الآن لا أعرف شـيئا عن عمر إبراهيم غيـر أنه مديري ومثقف عظيم.

- لا يجب أن تعرف. هو يعيش وحيدا. كانت له قصة حب مع مذيعة شـهيرة يبدو أنها انتهت إلى لا شـيء. من يومها تستغرقه الكتب والعمل. و....... الحشيش.

سكت لحظات ثم قال:

- لكنه يبدو دائما قادرا على الوحدة!

صمتنا ونحن نمشـي في شـارع الأزهر صاعدين إلى الدراسـة. لكنه قال كأنه يحدث نفسه:

- لا أكثر ولا أقل.

لم أعلق. مشينا لا يشعر أحدنا تقريبا بالآخر. أقول ذلك لأني كنت لا أشعر بسعيد كثيرا. أجل. حتى لا يقول ناقد لي وأنا أكتب رواية بضمير المتكلم كيف عرفت ما يفكر أو يشعر به الآخر! ما يحدث لي لا بد أنه يحدث له. أثر الحشيش علينا واحد. ربما على سعيد أكثر لأنه كان مقبلا عليه أكثر مني! وعلى النقاد أن يعرفوا ذلك إذا نشرت هذه الرواية يوما. أو إذا انتهيت من كتابتها حقا! وإن لم يصدقوني فليجربوا الحشيش!

مشينا في شارع الأزهر حتى شارع سيدي صالح الجعفري. المحلات والمكتبات حولنا مغلقة. سيارات قليلة من التاكسي أو الملاكي تعبر جوارنا. دخلنا في شارع وبعده وجدنا نفسينا أمام ميدان عبده باشا. ميدان صغير جدا رأيته أول مرة منذ شهور حين أرسلت لي هايدا على عنواني بدير الملاك رسالة ومعها من البريد إخطار يبلغني أن هناك طردا لي منها وعليّ الذهاب لاستلامه بنفسي. كانت خمسة كتب إنجليزية ومعها بنطلون جينز وزجاجة عطر ورسالة تقول لي فيها إنها لن تنساني أبدا لأننا ولدنا في يوم واحد وشهر واحد وإن اختلفت الأعوام. في عيد ميلادها الأخير وضعت اسمي جوار اسمها فوق التورتة وبين الشمع واحتفلت بي أيضا. ما أجمل هذه المرأة التي لن أراها ثانية. قالت أيضا إنها قابلت في إسطنبول شابا ذكرها بكل ما فعلت أنا لأنه كان تقريبا مثلي في كل تصرفاته في السرير وفي الشارع.

ها أنذا أرى ميدان عبده باشا بالليل صغيرا كما هو بالنهار. تتوسطه البوستة وتحيط به العمارات ولا يبدو ميدانا أبدا كما تعودت من اتساع

الميادين. هذه هي القاهرة وعليّ أن أصدقها. لكني وجدت نفسي أسأل سعيد:

- هل هذا ميدان حقا؟ إنه صغير جدا.

ضحك وقال:

- نفس السؤال أسأله لنفسي كلما أتيت هنا.

سكتنا لحظة ثم أضاف:

- حشيش الليلة لم يكن جيدا. ألا تشعر بذلك؟

- يبدو لي كذلك فعلا. لم ننسطل بما يكفي رغم كثرة مادخّناه.

- كما أنني لا أشعر بجوع شديد.

كنا نشم رائحة كباب تأتي من شارع صغير يخرج من الميدان إلى شارع الوايلي. كان المحل أمامنا مباشرة تأتي منه الرائحة ولا أحد يأكل، فقط رجل يرتدي جلبابا بلديا يقف خلف نصبة من الرخام في واجهة المحل.

قال سعيد:

- أنا أيضا أشعر بالجوع وبالعند في الحشيش سأعزمك على كباب. من يدري ربما نجوع ونحن نأكل.

ضحكنا. اتجهنا إلى المحل. دخلنا وكان المكان متسعا قليلا. صفان من المقاعد والترابيزات. بين الصفين مسافة تكفي للمرور. في الخلف حوض لغسل الأيدي. على اليسار يقف الرجل خلف النصبة التي ترتفع

فيهـا أمامه قطع اللحم القليلة وعلى الرخامة الكبيرة أسـياخ حول بعضها قطـع الكفتة. على يسـاره نار هي التي ترسـل الرائحة إلـى الخارج. رأينا رجلًا جالسا عند النهاية تقريبا. في حوالي الخمسين، أسود يرتدي بلوفر أسـود تحته قميص أسـود! هذا مـا ظهر منه لي. بدا لـي نوبيا من ملامحه الهادئة. بعد أن جلست رأيت ساقيه من تحت المنضدة فعرفت أنه يرتدي بنطلون جينز. كان أمامه الكباب والكفتة والخبز والسـلاطة ويأكل. ما إن رآنا حتى ابتسم. لم أهتم بابتسامته. طلب سعيد من البائع الذي لم يسألنا عمـا نريد نصـف كيلو كباب وكفتة لنا معا. كانت شـهيتنا لا تزال أقل من مرات التحشيش السابقة.

انشـغل عنـا البائـع الصامـت. راح يلف الكفتـة النيئة حول الأسـياخ والكبـاب ويضعها فوق النار داخل الفرن ذي الفتحة الواسـعة التي تظهر الفحم المشتعل داخله. انصرفنا كل منا عن الآخر فقال سعيد ضاحكا:

- يبدو أن الحشيش اشتغل لأني نسيتك تماما.

ابتسمت. سمعنا البائع الصامت فنظر إلينا ولم يعلق. استمر في عمله. قال الرجل النوبي فجأة:

- لماذا يا أسـتاذ سعيد كلما قال الرئيس السادات كلمة تقول الجرايد إنها كلمة تاريخية؟

اندهشـت من معرفته بسعيد الذي بدوره صار أكثر دهشة وهو يلتفت للرجل متسائلا:

- حضرتك تكلمني أنا؟

- طبعا.

- حضرتك تعرفني؟

- طبعا وأعرف أيضا الأستاذ صابر.

اندهشت بدوري. ضحك سعيد وقال:

- بصراحة لا تفسيرعندي. لكن السادات يمكن أن يقول أي شيء والصحافة تحت أمره. لكن كيف تعرفنا حضرتك وأين التقينا؟

- لا أحد لا يعرفكما يا أستاذ. مخرج كبير وكاتب عظيم كيف لا تعرفهما مصر كلها؟

طالت نظرتنا إلى بعضنا مندهشين. انحنى سعيد ناحيتي يهمس باسما:

- غريب حقا هذا الرجل. ربما هو من أمن الدولة ومكلف بمراقبتنا.

همست بدوري:

- لماذا أمن الدولة؟ لا. لا بد أنه التقانا في ندوة أو بار أو غرزة حقا وسمعنا نتحدث. لا أكثر ولا أقل.

سكتنا. لم ننشغل به لأنه أيضا سكت. كان البائع لا يزال مشغولا بطهو طعامنا. فقط حين سمع مهنتنا لاحت منه نظرة إلينا وعاد إلى عمله. لم يدخل المحل أحد غيرنا وخرج الرجل النوبي بعد أن ودعنا. مشى يترنح أمام الباب ثم اختفى. هز كل منا كتفه أمام الآخر مندهشا ولم

نعلـق. وضـع البائع الطعـام أمامنا فانجذبت إليه. شـعرت فجـأة بالجوع فطلبـت مـن الرجل أن يطهو لنا نصف كيلو آخر من الكباب والكفتة معا. قلت لسعيد:

- نأكل على مهل حتى يلحق بنا الطلب الجديد وسأدفع أنا الحساب كله.

ضحك وقال:

- كما تشـاء. أنا آكل على أقل مـن المهل. بل أغيب بعيدا عن الطعام وأعود إليه. فعلا حشيش عجيب اشتغل متأخرا جدا. أكيد من موريتانيا.

ضحكت. سألته:

- لماذا موريتانيا؟

- لأنها أبعد عن المغرب. المسافر يستغرق وقتا حتى يصل!!

ضحكنا بقوة.

حتـى الآن لـم يقل البائع كلمة واحدة. بدا لـي رجلا ملغزا قد يتحول فجأة إلى قاتل يضع أسياخه في صدورنا أو عيوننا. أغمضت عيني أخفي عنها هذه الرؤية العجيبة، ثم انحنيت إلى الأمام أحدث سـعيد بما فكرت فيه فضحك وقال هامسا بدوره:

- يمكن جدا. رجل تعرّف علينا دون أن نعرفه من قبل. إذن يمكن أن يقتلنا رجل آخر دون سبب.

وضحك بصوت عالٍ.

فوجئنـا أن الأطبـاق أمامنا كلها فارغة ليس فيهـا إلا البقدونس الذي كان تحـت الكبـاب وقليل من الطحينـة والبابا غنوج ولا شـيء تبقى من المخلل أو السـلاطة الخضـراء. أعطيت الرجل جنيهـا ونصفا فنظر فيها وهز رأسـه، ثم انشـغل عنا بوضع كفتة في أسـياخ أخرى. يبدو أن زبائن خاصة تأتي إليه بعد منتصف الليل.

خرجنـا مـن المحل لنجد الميـدان الصغير خاليا أمامنـا إلا من عمود إنارة وحيد بعيد ضعيف الضوء. وسط الظلام رجل يجلس على الرصيف واضعا رأسه على ركبتيه:

- ما هذا؟

تساءل سعيد فقلت:

- يبدو أنه الرجل النوبي الذي كان يأكل قبلنا؟

- فعلا.

اقتربنا منه حتى صرنا أمامه لكنه لم يرفع رأسه إلينا.

- هيه. مالك يا عم؟

تساءل سعيد ضاحكا ثم أكمل:

- انهض. لا شيء يستحق أن تبكي هكذا وحدك وسط الليل.

كان بالفعـل يبكي. رفع رأسـه إلينـا فرأيت عينيه تلمعـان بلون أحمر غريب. قال:

- متى يمكن أن يظهر الله لليائسين؟

صرنـا في غاية الدهشـة. أعاد رأسـه فـوق ركبتيه مـن جديد وصمت لا نسـمع إلا أنفاسـه ثم رفع يده يشـير لنا أن ننصرف فانصرفنا سـاكتين. ربمـا تذكر سـعيد المرأة التي سـمعها تنادي الله فوق كوبـري قصر النيل لأن شروده بدا واضحا. قلت :

- إلى هذا الحد بلغ اليأس بالناس!؟

لم يرد. لكن ما إن دخلنا أول زقاق يخرج بنا إلى شـارع الوايلي حتى قال ضاحكا: «يأكل كبابا ويسـأل متى يظهر الله لليائسين! كل شيء جائز في هذا الزمان» وجرينا غير مصدقين.

ونحن نفترق في شارع الملك صافحني سعيد ضاحكا وقال:

- فـي مثـل هذا الوقت كنا نقفز من البلكونة إلى الشـارع. ما رأيك أن نذهب إلى البنسـيون في روكسـي ونقفز من البلكونة هذه المرة لكن إلى الداخل فتهرب فيولا وتجلس على المقهى؟

انطلقنـا ضاحكين ثم أخـذ هو طريقه إلى الأمام في الشـارع الخالي. دخلـت أنـا فـي شـارع شـبين الذي منـه سـأدخل شـارعنا وأصعـد إلى غرفتي.

***

أحسســت أني صرت أتعافى يوما بعد يوم مـن فقد صفاء. الأحداث السياسـية تثيـر القلق وتدعو للتريث. دائما نحن فـي حاجة لنلتقي. إن لـم يكـن من أجل الحـزب فلنتكلـم فيما حولنا مـن عبث. كانـت انتخابات مجلس الشـعب قد أجريت وفقا لنظـام المنابر السياسـية وليس الحزب الواحد. شـهد لها بالنزاهة لكن نتيجتها مضحكة. كان السـادات قد أعلن قبـل أن ينتصف العام قيام المنابر السياسـية بدلا من الاتحاد الاشـتراكي تنظيـم الدولـة الوحيد. منبر الوسـط الـذي هو الصـورة المعدلة للاتحاد الاشـتراكي وقـد حمل اسـم منبر مصـر العربي الاشـتراكي فـاز بثمانين فـي المئـة من المقاعد. مئتـان وثمانون مقعدا، بينما حـزب اليمين الذي يمثله منبر الأحرار الاشـتراكيين ففاز بثمانية مقاعد، والمستقلون بثمانية وأربعيـن مقعـدا، أما اليسـار الأعلى صوتـا والأكثر رغبة فـي التغيير فقد فـاز بمقعدين. مسـخرة تاريخية تدعو إلى الضحك فـي النقاش ومن ثم الحشـيش والتحشيش كما يقول سـراج منير. المسخرة الأكبر كانت فوز السـادات في الاسـتفتاء على مدة رئاسـية جديدة في 16 سـبتمبر بنسـبة 99,93٪ مـن الأصـوات. تقريبـا لـم يدلِ بصوتـه إلا هو كما يقول سـعيد وإن كان قـد أدلـى بصوتـه وصورته فـي الصحف! ولأننا كنا في العشـرة أيـام الأخيـرة من رمضان قـال عمر: «حتى رمضان لـم يمنعهم من تزوير الاسـتفتاء! وربما كان هذا إلى جوار قلقه لشرودي الكثير وراء دعوته لنا إلى الغرزة.

سـافرت إلى بورسعيد في مهمة مرة أخرى. كانت سريعة هذه المرة. اشـتريت مـن المنطقة الحرة جاكت شـمواه مبطـن بالفـرو. انتظرت برد

الشتاء لأرتديه. وبالفعل مع شهر ديسمبر ارتديته فوجدته ثقيلا أكثر مما شعرت وأنا أقيسه هناك. كما أنه واسع إلى درجة أنه يمتد أمامي ولا يقترب من جسمي. كل زميلاتي قلن لي إنه ضخم جدا. صرت أشعر بالحرارة فيه أكثر مما أتحمل. القاهرة رغم بردها القوي ليست سيبيريا. تركته في الدولاب ولم أعد أرتديه.

في منتصف ديسمبر جاءني سعيد حزينا في منتصف الليل. ماذا سيطلب مني هذه المرة. هل سنذهب إلى عزبة القرود من جديد؟

- ماذا لديك غدا؟

- لا شيء. لكن لماذا تسأل؟

ابتسم ساخرا وقال:

- هل تذكر أني قلت لك يوما أني أعيش قصة حب؟

فكرت قليلا وقلت:

- أظن أنك قلت لي إنها انتهت وإن البنت التي أحببتها طلعت هبلة أو عبيطة.

قلت ذلك وابتسمت:

- لم تكن هي.

سكت ولم أعلق. هز رأسه ساخرا وقال:

- أخفيت القصة عن كل الناس. حتى عنك أنت. هي طلبت مني ذلك. داري على شمعتك تقيد. وافقتها. يوما بعد يوم استحسنت الكتمان

خاصــة أني رأيت قصة حبك التــي عرفناها جميعا قد تحطمت. فعلت ما يفعله كل شــخص جــاد. تقدمت إلى خطبتها ووافــق أهلها. حددنا حفل الخطوبة وكتب الكتاب غدا.

- عظيم. لماذا إذن تبدو حزينا؟

- أنت تعرف أني أصلا من شبرا وعائلتي كلها هناك.

- أعرف.

- كان طبيعيا أن أخبر أبي. هذه أيضا رغبة أهل حبيبتي.

ثم هزرأسه في أسف وقال:

- حبيبتي!!

- ما الحكاية يا سعيد؟

- حضر أبي اليوم ليخطبها لي ويتفق مع والدها على كل شيء. يعني المهر والعفش وغيره. اختلفا. أبوها طلب أن يكون الحفل للخطوبة فقط دون عقــد القران، وأنا كنت أريد عقد القــران. عائلتها متزمتة وكنت أريد مسوغا لخروجي معها بدلا من خروجها معي دون علم أهلها.

- طيب ماذا حدث؟

- وافــق أبوها على عقد القران لكنه اشــترط أن نكتب قائمة بالعفش. أنــا وافقــت لكن أبي رفض. قــال إن زمن القائمة انتهى. قــال كلاما فارغا لا يحدث أصلا من نوع أن الزواج ثقة ونحن نريد البنت حتى لو بملابسها

وغيـر ذلـك. أهل البنت طبعا خافـوا أن يعقدوا القران بـلا قائمة بالعفش فلا أكتبها بعد ذلك، وأبي رفض القائمة من أصله. لا الآن ولا فيما بعد.

- كان يمكـن أن تؤخـر عقد القران حتى تقنع والـدك. لماذا لم تفعل ذلك؟

- حاولـت لكـن أبي أعلن رفضه فجأة لكل شـروط أسـرتها ونهض تاركا المكان. خرجت خلفه وجئت إليك الآن.

قلت بعد لحظات من الدهشة والصمت:

- حكاية غريبة.

- وأنـا أمشـي مع أبي قال لي فجـأة إنه تذكر أيـن رأى أباها من قبل. إنه كان سمسـار عقارات لكنه كان لصا يسـتولي علـى أراضي الدولة مع غيره من اللصوص، وإنه حاول الاستيلاء على بيت مغلق في شبرا ومنعه الناس بالقوة منذ عشـر سـنين. لم أسأل ثريا أبدا عن أهلها ولم أحاول أن أعرف عنهم أي شـيء. قابلتها فـي ندوة بالمركز الإيطالـي في الزمالك. إنهـا تدرس سـينما. كان هنـاك فيلم لفيلليـني وندوة عن الفيلـم. حكاية طويلة عليّ أن أنساها.

وضحك ساخرا واستطرد:

- لـم ينجح إخفائي للقصة. أخفيت حبي لهـا لأنها جميلة جدا بنت الكلب. جعلتني أحب أغنية محمد قنديل عيونك سـود وأقول مش سود علشـان الناس تتوه عنك. رغم أني كما تعـرف أعتبر الغناء العربي مرضا

نفسيا.. ما علينا. هذا ما أخذته من أبي. ضاعت القصتان. قصتك المعلنة وقصتي الخفية. من يستطيع حقا أن يفهم هذه الحياة؟

وسكت لحظة وقال وهو يهز رأسه:

- المهم أحتاجك غدا.

- ماذا ستفعل؟

- تعرف طبعا أن التليفونات غالبا معطلة. سأدور على من سبق وعزمتهم أتصل بهم من أي تليفون في الشارع أخبرهم بتأجيل الحفل. من لن أصل إليه سأذهب إليه بنفسي. أنا عزمت ناس مهمة كتير.

وخلع نظارته ومسح دمعة ثم ضحك ساخرا.

- كنت نويت أن آتي لك الآن لأعزمك غدا. قررت أن أجعلها مفاجأة لكن للأسف مافيش نصيب - وضحك - أو هي مفاجأة أيضا لكن على الوجه الآخر.

- هوّن عليك يا سعيد. ستجد أفضل منها. لست أول من ضاع حبهم.

- كنت أقول لك ذلك أيضا!

ونظر إليّ في أسى ثم قال:

- الآن عرفت مدى ألمك.

سكتنا لحظة ثم قلت:

- طيب لماذا تريدني غدا؟

- لتجلس في الشـقة لأن هناك معازيم ستأتي. كان مفترضا أن نخرج معا في أكثر من تاكسي وسيارة ونذهب إلى الفرح. تنتظر في شقتي لتقول لمـن يأتـي إن الفرح تأجل لأني طبعا سـأكون في الخـارج كما قلت لك أمرعلى الشخصيات الهامة التي عزمتها من الفنانين والصحفيين.

فكرت قليلا وأنا أشعر بالأسى الحقيقي من أجله. قلت:

- طيب وإذا سألوني عن سبب التأجيل؟

- قل أي شيء. أبو العروسة مات أو حتى أبو العريس!

كدت أضحك خاصة أنه هز رأسه ساخرا ووقف يقول:

- تعرف. أنا المخطئ. كنا في روكسـي في شـقة لا تسـمح صاحبتها لنـا بالنسـوان وكنـا نهربهن إلـى الداخل. أنـا الآن في شـقة تملكها امرأة أيضـا لكنها لا تتدخل في شـيء. الشـقة مفتوحة لما أريـد لكني لم أفعل حبـا لثريـا. لو فتحت الطريق للنسـوان ربما كان حظي سـيكون أحسـن. أجل. نسـوان كتير فاتحة السـكة وأكتر مسـتعدين يفتحـوا ونحن نذهب إلـى الطريق المغلق. الحب. والجواز. نحـن أغبياء يا صديقي ومن الآن سأغزو كل نساء العالم من جديد. أجل. سأعود إلى ما خلقني الله له.

ضحك ساخرا مرة أخرى وهو يهز رأسه. كنت طبعا لا أصدقه وأدرك أنه فقط يهوّن على نفسه. قال فجأة:

- سأتركك الآن.

كان صـوت المطـر يأتي من خـارج نافـذة البلكونة المغلقـة وأحيانا صوت الريح. وكان يرتدي بدلة زرقاء أنيقة. قلت:

- هذه بدلة جميلة والمطر سيفسدها. نم هنا الليلة.

- هذه بدلة جديدة اشتريتها لهذا اليوم. هناك بدلة أخرى أجمل كنت سـأرتديها غدا. هذه زرقاء والثانية بيضـاء. لا الزرقاء نفعت ولا البيضاء. تصبح على خير.

- المطر يا سعيد.

- سأمشي تحت البلكونات. وقد أجد تاكسي. سأمر على الناس غدا ببدلة الفرح البيضاء أطلب منهم عدم الحضور.

غادر الحجرة وتركني في حسـرة عليه. تمددت فوق السـرير أسـتمع إلى الموسيقى وأتساءل هل يمكن؟ كانت موسيقى جسر على نهر كواي. لا أخطئها. موسـيقى الهزيمة أم النصر. لا فرق. الجنود يمشـون في غير اتجاه!

***

ذهبت في اليوم التالي في السـاعة الثالثة بعد الظهر لأنتظر من سـيأتي مـن المعزومين. وجدت باب الشـقة مفتوحا. كانت هـذه أول مرة أدخل هـذه الشـقة التي يسـكنها سـعيد. لقد حدثنـي بالتفصيل عن الشـقة ومن يسكنونها معه من قبل. صاحبتها تسكن في الشقة المجاورة ولديها ولدان يريـد الأصغر منهمـا الذي هو في الدراسـة الإعدادية أن يعمـل بالتمثيل

لذلـك يحضر كل البروفات المسـرحية لسـعيد في قصر ثقافـة الريحاني القريب. كيف تحول الأمر إلى مادة للسـخرية فأمه تعتبر ذلك أول طريق الفشـل وتضحك دائما. بينمـا الأكبر طالب في كلية التجـارة صمته أكثر من كلامه. البيت صغير مكون من دورين. الدور الأرضي ورشة لصناعة الأحذية والدور الثاني شقتان. شقة لصاحبته وأبنائها وشقة للعزاب. شقة العـزاب رأيت فيهـا غرفتين إحداهما مغلقة يسـكنها أيضـا ضابط جيش اسمه عبد الحليم لكنه مسلم، يأتي مثل مجدي زاخر مرة واحدة كل شهر لكـن معه امرأة صغيرة لا تتغير حتى الآن. يغلقان عليهما الباب ثلاثة أيام ثم يخرجان ولا يعودان إلا في بداية الشـهر التالي. الغرفة الثانية يسـكنها ثلاثة طلاب فـي كلية الآداب فقراء من محافظة البحيرة. لكل منهم لحية صغيـرة ويحبون جدا الشـيخ كشـك الـذي يخطب في الجامـع القريب، ودائما يستمعون إليه من المسجل الذي لا يطفئونه ليل نهار. لا يختلطون بسعيد الذي يزوره فنانون شبابا وأحيانا يسهرون يغنون.

حاول سـعيد أن يتناقش معهم فيما يسـتمعون لكن الطرق مسـدودة. هـم يعتبـرون كل الفنون كفرا. في النهاية طلـب منهم أن يخفضوا صوت الشيخ كشك خاصة بالليل لأنه يزعجه فاستجابوا بأدب وصاروا يغلقون الباب عليهم ويتسرب الصوت لكن ضعيفا. إنهم ينامون يسمعونه أيضا. غرفة سـعيد هي في الحقيقـة غرفتان متصلتان ببعضهمـا ليس بينهما غير جـدار صغيـر لا يرتفـع عن متـر ويمتد إلـى متريـن بينهما. كأنهمـا غرفة وصالـة معـا. وكذلك همـا مفتوحتان علـى الصالة التي تتوسـط الغرف

بـلا باب، بمسـافة مفتوحـة لمتريـن. وضع عليها سـعيد سـتارة. قال لي ضاحكا من قبل أيضا إنهم يتركون باب الشقة مفتوحا لأنه لا غريب يأتي إليها أو إلى البيت عموما، ومن ثم أحيانا يصعد فيجد تحت السـرير قطة أو أكثـر. رأيـت في كل ناحية سـريرا ودولابا صغيرا. هـي إذن مخصصة لاثنين لكن سعيد استأجرها لنفسه فقط لقربها من العمل.

رأيت أكثر من رف للكتب في الناحية اليسرى منها التي يشغلها سعيد وطبعا جهاز التسـجيل الذي لا يفارقه ويسـتمع منه إلى الموسـيقى مثلي طـول الليـل. رأيت على الجدران صورا لسـعاد حسـني وفاتـن حمامة. صورتان لكل منهما. رأيت صورة لسـعيد نفسـه فـي تابلوه صغير وقفت أمامهـا مندهشـا متحيـرا. يظهـر في الصـورة واقفا وسـمينا جدا بشـكل لا يمكـن تصـوره. ملصـق علـى ذراع الصورة صـورة أخرى لـه صغيرة وبالحجـم الطبيعـي أيضا وهو علـى حالته التي عرفته عليها. سـعيد على وضعه الحالي في صورته نصف وزن وحجم سـعيد في الصورة الأولى. هـل هناك خدعة فـي الأمر؟ لا أظن لأني أيضا قـرأت في الفراغ الأبيض المحيط بالصورة الكبيرة جملة «سعيد الأصلي يحمل سعيد المزور على ذراعه» ثم أيضا تحتها جملة «ليه يا بن عمي شلت الفيشة؟» فهمت الأولى لكن لـم أفهم الثانية وضحكت. ماذا سـأفعل الآن؟ الجلوس وانتظار من سـيأتي قد يطول. فتحت الراديو وجلسـت أقرأ فـي الإلياذة التي وجدت لديه منها نسـخة حديثة الطبع. الأساطير اليونانية هي التي ستأخذ الوقت مـن أمامـي وتجعله خلفي. كنت أعرف من سـعيد أيضا أنه بعد صف من

العمارات الخلفية توجد سينما الحدائق الصيفية يأتي منها بالليل صوت الفيلم والموسيقى لكنه ينتهي بعد منتصف الليل. لا صوت الآن يأتيني فنحن في الشتاء.

كان الطلاب الثلاثة يفتحون باب غرفتهم. وصوت الشيخ كشك يأتي إليّ عاليا. يعرفون أن سعيد غير موجود. لا بد. رأيت واحدا منهم يطل عليّ من الصالة بعد أن رفع الستارة أمامه ويقول:

- السلام عليكم - ثم يراني فيقول مرتبكا - لا مؤاخذة. كنا نظن أن الأستاذ سعيد وصل.

ابتسمت ولم أرد. أعاد الستارة مكانها وبعد لحظة سمعت صوت الشيخ كشك منخفضا. بدوا لي شبابا جميلا طيبا. من الذي يعبث برؤوس هؤلاء الشباب الآن في مصر. الفقر في بلادهم والحاجة في الغربة أرض مناسبة لكل هذا الخراب الفكري. لا بد أن أحدا يتبرع لهم ببعض المصروفات الدراسية أو يعدهم بالتوظف بعد التخرج. هذا يحدث كثيرا الآن والدولة تعرف وتساعد عليه. الدولة المجنونة تستهدف اليسار ولا تعرف إلى أين تذهب بالبلاد !

لم يكن من حضروا هذا اليوم يسألون عن سعيد كثيرين. وجدت نفسي أقول لكل من يأتي أن والد العروسة توفي فجأة فتأجل كل شيء. يقفز الأسف إلى وجوههم وينصرفون مندهشين. لم يكن بينهم أحد أعرفه.

في حوالي الساعة التاسعة هطل مطر شديد. كنت أعرف أن بالشارع وحلا كثيرا من مطر أمس. سمعت صوت هذا المطر وأدركت أن أحدا لن يأتي الآن فالساعة تأخرت. لم أنصرف. تمددت فوق السرير بعد أن خلعت حذائي أنتظر عودة سعيد. ليس مهما أن أعود إلى بيتي في وقت محدد. لا شيء خلفي أو ورائي. صارت الدنيا فراغا بعد صفاء. شعرت بالجوع وأنا أقرأ في الإلياذة من جديد. كنت تناولت إفطاري الساعة الواحدة ظهرا كأغلب الأيام بسبب نومي متأخرا ومن ثم يقظتي. لم آكل شيئا آخر. هل أنزل في هذا المطر؟ وماذا يحدث إذا حضر أحد؟ عليّ بالصبر على الجوع فلا شيء في الغرفة ولا أعرف هل هناك شيء يخص سعيد في المطبخ أم لا. هذه الحياة المشتركة تربك الغريب.

فجأة سمعت صوتا خفيضا في الصالة ينادي «أستاذ سعيد». خرجت حافيا فرأيت أمامي شابين طويلين قويي البنيان وعلى وجهيهما دهشة كبيرة.

- حضرتك تعرف سعيد صابر؟

- أجل. الفرح تأجل للأسف؟

- عرفنا. ذهبنا إلى بيت العروسة مباشرة فقالوا لنا إنه تأجل لأن والد سعيد قد مات.

اندهشت بدوري وكدت أضحك فقالا:

- نحن لا نعرف بيت والده ولا نعرف شيئا عن موعد العزاء. مسكين سعيد.

هنا ضحكت وطلبت منهما الدخول والجلوس. قررت أن أخبرهما بالحقيقة. ضحكا كثيرا وغادرا الشقة يضحكان والمطر لا يكف عن النزول. بدأ يومض في السماء ضوء البرق من خلف النافذة ويقذف منها إلينا صوت الرعد. ليلة صعبة جدا يا سعيد فهل حقا ستعود إلى شقتك الليلة لأراك.

رفعت صوت البرنامج الموسيقي وبدأت أغاني الطرب العربي تتهادى. رأيت نفس الطالب الذي أطل عليّ من قبل يزيح الستارة ويسألني:

- حضرتك تعشيت؟

اندهشت. تجدد لي إحساسي بطيبة الطلاب فقلت باسما:

- أنا اسمي صابر. ما اسمك؟

- عبد الونيس.

قلت:

- في الحقيقة يا عبد الونيس لم أتعشَّ وجائع جدا ولا أعرف كيف أستطيع شراء طعام في هذا الجو.

ابتسم وقال:

- نحن معنا واحد مجنون اشترى سمكا ونحن أصلا لا نعرف نقلي أو نشوي. إذا كنت تعرف تعالَ ساعدنا وتعشَّ معنا. المجنون اشترى

اثنيـن كيلو بنصف جنيه. سـمك ماكريـل كان مجمدا وتركنـاه يفك منذ الظهر. لو بقي للغد سيفسد لأنه لا توجد ثلاجة في الشقة.

فكـرت أنها لحظات نادرة أقطـع بها الوقت بدلا من الانتظار. لا أحد يتأخر عن السمك مهما كان نوعه. ثم إنهم فيما يبدو غلابة جدا.

قلت:

- أنا أصلا من دمياط. سأصنع لكم سمكا تحلفون به!

استغرق الأمـر سـاعة تحلقـوا حولـي فيها ينظـرون إليّ وأنـا أنظف السـمك وأحشـوه بالملح والكمون والبقدونس والبصل. صنعت صينية بها شـرائح البطاطس والطماطم والبصل أيضا مع السـمك، وضعتها في الفـرن والرائحة صارت تملأ الصالـة والغرف وتخرج من الباب حتى أن أميـر ابـن صاحبة البيت الصغيـر جاء ودخل الصالة ووقـف يقول «ريحة السـمك حلـوة أوي» وهـم يضحكـون سـعداء ويخبرونـه أننـي صديق للأستاذ سعيد فصافحني ضاحكا وقال:

- مامـا أيضا شـمت الرائحـة وقالت لي أبلغكم أن عندنـا أرزا أحمر بالخلطـة كثيرا لأننا أيضا تغدينا سـمكا اليوم وسـأحضر لكـم طبقا كبيرا منه.

اكتمل طهو السـمك. أخذت نصيبي ودخلت غرفة سـعيد. جلسـت إلى المكتب الصغير آكل ومعي الصبي أمير الذي صار ينظر إلي بإعجاب ويسـألني هـل أنا مخـرج أيضـا. عرّفته بنفسـي فقـال: «ناقد يعنـي تقول

المسرحية حلوة ولا وحشة. صح؟ قلت له ضاحكا: «صح». كان رقيقا جدا. قال: «مامتي زعلانة أوي علشان اللي حصل للأستاذ سعيد. هو حكى لها كل حاجة النهارده الصبح لكن قالت له إن شاء الله حيعوض عليك بأحسن منها. عارف يا أستاذ لو كانت البنت دي بتحبه كانت انتحرت. أيوه الواحدة لما تحب ويضيع حبيبها بتنتحر. أعرف واحدة قريبتي عملت كده. خالتي أخت ماما الصغيرة الله يرحمها».

أخذني الصمت لحظات ثم هززت رأسي متحيرا من حديث الشاب الصغير الجميل. كل المحبات أوفيليا. أحيانا. لكن دائما قصص الحب كتاب مفتوح للآلام. ويبدو أن الشاب الجميل أدرك شرودي فنهض تاركا المكان قائلا تصبح على خير.

ظللت أنظر في الإلياذة التي تركتها بعد أن انشغلت في طهو السمك. هيلين قسمة الآلهة لباريس أشعلت الحرب التي مات فيها كثيرون. نحن نرضى الآن بما قسمته لنا الآلهة من فراق. هل من ينسى حبيبته التي تركته أو أجبرت على تركه هو الأجمل أم الذي يشن حربا على الجميع؟

أغلقت الراديو. أحسست بالضجر الذي لم يخرجني منه سوى صوت رعد متواصل وضوء برق يصل إليّ من خلف الشيش وصوت مطر لا ينقطع ثم رأيت سعيد يقف أمامي ببدلته البيضاء ونظارته في يده ويبتسم. كانت البدلة ملطخة بوحل الشارع من كل ناحية ومبتلة من المطر. هز رأسه وقال:

- الحمد لله النظارة لم تنكسر.

نظرت إليه واجما. فقال وهو يهز رأسه.

- تزحلقـت هنا قريبا من البيت. وقعت على ضهري فأكملت ودرت على الأرض ألطخ البدلة كلها. بالمرة. هي ليلة سوداء والسلام.

لم أجـد كلاما أقوله فتحـرك إلى الناحية الأخـرى وراح يخلع البدلة بسـرعة ويلقي بها على الأرض. رأيت دموعه تسـقط خلف ملابسه على الأرض أيضـا وهـو ينحني إليها. ثـم جلس منهارا على المقعد بملابسـه الداخليـة ووضـع رأسـه بيـن يديـه يبكي بحرقـة فاقتربـت منـه وقبل أن أتكلـم وقـف وقد امتـزج الضحك بالبـكاء يقول: «ليه يا بن عمي شـلـت الفيشة؟».

16

مـع نهاية العام دخلت مصر في شـجار مع الهـواء. مطر لا ينقطع عن البـلاد. الأخبار تأتي بإغلاق بوغاز الإسـكندرية. توقف حركة الصيد في دمياط. عشش انهارت في رأس البر وبورسعيد صارت وحلا في الشوارع بين المحلات الجديدة ولا أحد يعرض بضاعته إلا سـاعة وبعض سـاعة في اليوم. قلّت الرحلات إليها من المحافظات الأخرى. الشـكوى ترتفع من المطر في كل مكان وشـوارع كاملة في أحياء عريقة مثل شبرا صارت مملوءة بالماء لإهمال المحافظة في مشروعات الصرف الصحي. مناطق غرقت مثل منشـية ناصر وبولاق الدكرور والـورّاق. الصحف تبرز ذلك كله في صفحاتها الداخليـة. جريدة الأهالي التي يصدرها حزب التجمع فقط تجعلها عناوين رئيسية ولا تتوقف عن الهجوم على النظام السياسي وأدائـه. صـارت تقريبـا أكثـر الجرائـد مبيعا في مصـر فبدأ النظام يسـلط عليهـا أحـد القضاة يصادرها أكثر من مرة في الشـهر الواحد وهي جريدة أسـبوعية. لم يتم القبض على الشيوعيين مع بداية العام كما يحدث دائما لكن الحياة السياسية كانت تغلي.

فجأة ارتفعت أسعار أكثر من مئة وخمسين سلعة في قرار واحد. كان إعلان القرار يوم السـابع عشـر من يناير. نامت مصر على صمت غريب.

صمت مثل صمت الحملان. صمت يشي أن من سيتكلم لن يجد أمامه إلا معركة يخرج منها قاتلا أو مقتولا. سلع تبدأ من رغيف الخبز حتى البنزين تجاوزت المئة سلعة. لا شيء في مصر تقريبا لم يرتفع ثمنه إلا الإنسان. الشعب المصري الذي خرج يؤيد سياسة السادات بالأجر من المصانع والنقابات وغيرها، أو بغير أجر، أو لا يخرج يؤيده، نام صامتا على ضجر.

كنت أجلس مع علي الكبير في مقهى ريش. قلت:

- ألا تلاحظ أنه لا أحد من الأدباء اليوم؟

- فعلا. غريبة.

سكتنا قليلا وقلت:

- هل يمكن أن يحدث شيء بعد قرارات الحكومة الجديدة؟

- لا بد.

- حسنا. أين نحن؟ لم تصل لي أي تعليمات من الحزب.

- الحزب انتهى!

قال ذلك يائسا ووقف. لم أفهم هل يقصد بـ «انتهى» هذه الحزب نفسه أم علاقته به. في روحي شعرت بشيء من الرضا. أنا أيضا تأخرت كثيرا في قرار الابتعاد عن الحزب. فلتمر هذه الأيام وسنرى ماذا سيحدث فيها.

- أنا ذاهب إلى البيت هل تأتي معي؟

- لا. أنا أيضا سأعود لبيتي.

فكـرت أن أذهب إلى سـعيد بعـض الوقت. لقد زرتـه مرتين وجدت معـه فـي إحداهما فتاة لم أرهـا من قبل فلم أنتظر طويلا. عاد سـعيد إلى مـا يحـب أو مـا قـرره لكن هـل حقا انتهـى حبه لثريـا هذه التي لـم أرها ويبدو أنها أشـعلت حياتـه بالحب وإن كان سـرا، أم أن ما يفعله محاولة لإطفاء النار؟ قلت ربما يكون مشغولا مع فتاة أو امرأة أخرى الآن أيضا. ذهبت إلى غرفتي وكان المطر قد انقطع منذ سـاعات لكن الهواء شديد. سهرت أكتب عرضا لكتاب «the new wave- لجيمس موناكو james Monaco» وهو أيضا من الكتب الإنجليزية التي أرسلتها لي هايدا أرسكين عن السـينما الجديدة التي قدمها فرانسوا تريفو وجان لوك جودار وكلود شـابرول وإيريك رومـر Eric Rohmer وتأثيرها على السـينما العالمية. أنفقـت فـي قـراءة الكتـاب سـاعات والموسـيقى تمـلأ الحجـرة حولي بالـدفء. بين حين وآخر أتركه وأعد لنفسـي كوبا من الشـاي. اكتشـفت نوعـا جديدا من السـلمون يدخـل إلى مصر موطنه الأصلي يوغسـلافيا. كنت أحب السـلمون الياباني الذي انقطع من مصر طويلا. إذا كان الأمر كذلـك فلتحيـا سياسـة الانفتـاح الاقتصادي. قلت لنفسـي سـاخرا. في اللحظة التي فكرت فيها أن هذا قد يسـبب خسـارة لشركة إدفينا المصرية وهي من شركات القطاع العام هززت رأسي أنفض عنه ما ينغصه. أكلت علبتيـن صغيرتين مع الخبز. وضعت أمامي برتقالتين أسـتعين بهما على

الجـوع أثناء السـهر. لـم أنتبه إلا وصـوت أذان الفجر يرتفـع حولي. كان علـيّ أن أكتـب المقال الآن بعد أن انتهيت من قـراءة الكتاب. في حوالي السادسـة نمت لا يشـغلني أي شـيء. صار العالـم من حولي جميلا. لقد أخلته الموسيقى والكتاب من كل هاجس أو ألـم.

صحوت من النوم في السـاعة الحادية عشـرة على حركة شـديدة في الصالـة وأصـوات متداخلـة مسـرعة. خرجت والنـوم في عينـي فرأيت الطلاب الأربعة من الغرفتين الأخريين يمسـك كل منهما بحقيبة في يده. ما إن رأوني حتى قال أحدهم:

- لا زلت نائما يا أستاذ صابر؟

ابتسمت. لم أرد:

- المظاهـرات مـلأت البلـد. الجامعة قفلت ونحن مسـافرون. نراك على خير.

قالوا ذلك ونزلوا بسـرعة دون مصافحـة. مظاهرات؟ أخذت طريقي إلى الحمام ثـم ارتديت ثيابي. البنطلون الجينز والقميص والبلوفر ونزلت إلى الشارع. لا حركة في الشارع الصغير. لا أحد. وصلت إلى محل ألبان أبي حشـيش الذي أفطر فيه كل يوم. لم أرَ شيئا في الشارع أمامه. جلست أتنـاول إفطاري المعتاد. سـاندوتش الجبـن الرومي وسـاندوتش الزبدة بعسـل النحل وشربت كوب اللبن الساخن ولا أحد معي يأكل أو يشتري مـن المحل الصغيـر. عامل المحل يبحـث في الراديو عـن محطة إذاعية ويقول:

- لا توجد أغانٍ. كل المحطات تقول إن هناك مظاهرات قام بها الشيوعيون المخربون. يعني إيه شيوعية يا أستاذ؟

ابتسمت. ليس هذا وقت النقاش. انتهيت من الأكل بسرعة. كان هو يقف على الباب فصرخ:

- يا لهوي. ناس كتير تجري في شارع الملك. لازم نقفل. شكلها جد.

نهضت ونظرت ناحية شارع الملك فلم أرَ شيئا مما يقول.

- أين هم الناس؟

- رجعوا تاني ناحية النفق جري.

أسرعت فوصلت إلى شارع الملك. أسرعت مرة أخرى حتى عبرت النفق المؤدي إلى شارع رمسيس. رأيت أمامي مسيرة كبيرة من الشباب تتقدم على مهل ترفع لافتات من قماش. تقدمت بسرعة ناحيتهم. أدركت أنهم طلاب جامعة عين شمس. فتيات جميلات ترتدين البنطلونات الجينز والجواكت القصيرة أو التاييرات البسيطة الجميلة يطير الهواء شعرهن في كل اتجاه. يضحكن ويهتفن خلف الشباب الذين يحملون عددا قليلا منهم على مسافات متباعدة ويحيطون بهم في إصرار. ارتفعت الحناجر تهز الفضاء والهواء الذي لا يتوقف.

«مش كفاية لبسنا الخيش

جايين ياخدوا رغيف العيش»

«يا حكومة الوسط وهز الوسط

كيلو اللحمة بأه بالقسط»

«يا حرامية الانفتاح

الشعب جعان مش مرتاح»

«الصهيوني فوق ترابي

والمباحث على بابي»

«يا أمريكا لمي فلوسك

بكرة الشعب العربي يدوسك»

«سيد مرعي دا يبقى مين

يبقى حرامي الفلاحين»

«هو بيلبس آخر موضة

واحنا بنسكن عشرة في أوضة»

اللافتات القماشية عليها صور سيد مرعي رئيس مجلس الشعب وعبد المنعم القيسوني نائب رئيس الوزراء للشئون الاقتصادية وصاحب اقتراحات زيادة الأسعار وعبد العزيز حجازي رئيس الوزراء وصور السادات مميزة بينها، على أكثرها علامة إكس فوق وجهه. في واحدة منها صورة له وعلى عين من عينيه غِمامة موشي ديان الشهيرة وفي إحدى اللافتات صورة لجيهان السادات في بدلة رقص.

المسـيرة تمشـي في عزم. ما الذي جعلهم يدخلون شـارع الملك ثم يعـودون. لا بـد قابلتهم أعـداد من قوات الأمـن ولا بد أنهـا كانت قليلة وانصرفت. مشـيت بينهم أهتف. لا أقابل أحدا فيهم أعرفه. لا أعرف أين زملائي من الحزب الآن. أو من أعرف أنهم في أحزاب أخرى من الأدباء والمثقفين. كل من أمامي وحولي طلاب وطالبات. المسـيرة تمشي على مهل وأعرف أن غايتها سـتكون ميدان التحرير. هناك لا بد سـألتقي بعدد كبيـر من الأدباء والشـعراء. ميدان التحرير هو كعبـة الثوار منذ عام 1972 ومنـذ كتـب عنه أمل دنقل الكعكـة الحجرية وقبل ذلـك أيضا على طول التاريخ.

اقتربت المسـيرة من محطة غمرة. انضمت إليها مسـيرة أخرى قادمة من شـارع أحمد سـعيد فصارت المسـيرة ضخمة بشكل لافت. صارت اللافتات العالية أكبر من أن يحصيها أحد. الأصوات تهتف فيهتز الهواء. مصـر كلها خرجت اليوم. هكذا تتطاير الأحاديث. في أسـوان مظاهرات وفي الإسكندرية وبورسعيد ودمياط وكل الوجه البحري والقبلي. لا أحد فـي بيته اليـوم من الطلبـة والعمـال. كل المواصلات توقفـت في مصر. لا أعـرف كيف كانـت تصل الأخبار إلـى من هم حولي. وجدت نفسـي بين المسـيرة بقـرب فتاتين جميلتين. إحداهما أطـول قليلا من الأخرى. الأقصر كانت تستمع إلى الثانية وتضحك لكن تضع يدها على فمها مع كل ضحكـة فبدت كطفلة جميلة. كانت ترتدي «تايير» ضيقا يبرز مفاتنها وتحتـه بلوزة سـماوي وتلف عنقها بشـال قطيفة مليء بالـورود الصغيرة

وشـعرها الناعم منسدل خلفها. بعد أن عبرنا كوبري غمرة وجدت نفسي لا زلـت جوارهم وخيل لي أنهما تتهامسـان حولـي أنا الذي صرت قريبا منهمـا. لا بد أنهما تندهشـان من وجودي أنا الـذي لا يبدو أني طالب أو زميـل لهـم. كانت الأطول قليلا شـقراء على عكس الأقصـر التي كانت قمحية اللون عيناها خضراوان وشـعرها الأسـود اللامـع الناعم لا يكف عن الطيران حول وجهها. فوجئت بالأطول تسألني:

- حضرتك معانا في الجامعة؟

ارتبكت للحظة، وقلت:

- لا.

- حضرتك شبه معيد عندنا في قسم لغة عربية قلنا ربما تكون أخوه.

ابتسـمت وابتسـمتا. سـمعنا صوت فرقعات تأتي من الأمـام متوالية. كانت قوات الأمن تسـد شـارع رمسيس أمام المستشـفى القبطي وتطلق علينـا قنابـل الغاز. اهتزت المسـيرة. البعض تراجـع والبعض راح يخلع بـلاط الرصيف ويكسـره ويهاجم الجنود. كثير مـن الفتيات تراجعن إلى الخلـف ودخلن في الشـوارع الجانبية على يسـارنا فعلـى يميننا ليس إلا خط المترو المحاط بسور. كنا في الخلف كثيرا فقلت لهما:

- لا تخافا. ادخلا في هذا الزقاق حتى تنتهي المعركة.

أسـرعتا داخلتين. تقدمت مع الطلبة. صار الهجوم بالقنابل علينا قويا جـدا لكـن الطلبة لـم تتراجـع. كان الجنود هـم الذين يتراجعـون أمامنا.

رأيـت دفعـة مـن القنابل قادمـة في الفضـاء ناحيتنـا. أدهشـني أن أكثرها سـقط علـى الأرض يتدحرج ولم ينفجـر. جرى إليها عدد من الشـباب، بعضهـم يعيـد قذفها ناحية الجنود وبعضهم ينظر إليها في دهشـة. واحدة منهـا تدحرجت أمامي على الأرض. توقفَت فجريت إليها وأمسـكت بها أتطلع إلى شكلها. زرقاء سماوية اللون عليها باللون الأصفر وبخط دقيق جدا سـنة الصنع 1976. ونقوش بالأصفر أيضا أكبر قليلا عن بلد الصنع: «الولايات المتحدة الأمريكية.U.S. A».

الشـباب يلقون أيضا بالقنابل التي تسـقط بينهم منفجرة بالدخان مرة أخـرى علـى جنود الأمن المركزي الذين كان غيـم الدخان الأبيض يملأ الفضـاء أيضا حولهم، وملابسـهم السـوداء تشـف بينه وعلـى وجوههم الأقنعة الواقية. كان كثير من الطلبة يسعلون ويدعكون عيونهم حولي لكن يستمرون في الهجوم. هل أعيد إلقاء القنبلة مرة أخرى على الجنود؟!

أعجبني شـكلها فقررت أن أحتفظ بها. أسـطوانية ولهـا قاعدة دائرية لا تزيد على خمسة سنتيمترات ولا يزيد ارتفاعها على عشرة سنتيمترات. كيف سأحتفظ بها وسط ما يأتي من أحداث؟ أمر لم أفكر فيه. اقترب مني شاب يمسك بواحدة ويقول مبتهجا:

- شـكلها حلـو جدا. سـأحتفظ بها ذكـرى لأولادي وربمـا أحفادي أيضًا.

وجرى من أمامي ضاحكًا..

تراجعت قوات البوليس أمامنا وتفرقت. إنهم يجهزون لمعركة أخرى. لا بد. مشت المسيرة إلى ميدان رمسيس. ظهرت حشود الأمن التي تسد الطرق هنا كثيرة هذه المرة. من جديد راحت القنابل تتوالى علينا. سمعنا صوت طلقات رصاص وسقط شاب مضرجا في دمائه أمامنا. راح الطلبة يستخدمون الحجارة في الهجوم على البوليس لكن عربات الأمن المركزي لم تكف عن الوصول من شارع رمسيس وفي الاتجاه المعاكس من شارع الجلاء والقوات تنزل متحمسة تهاجم بضراوة مطلقة أمامها قنابل الدخان والخرطوش وواصلة إلى الطلبة فتضرب فيهم بالعصي المكهربة والهراوى.

تفرقت المسيرة إلى شوارع كلوت بك والفجالة والجمهورية. كنت أنا ممن دخلوا شارع كلوت بك. دخلت وراءنا قوات البوليس مسرعة بالهراوى. كما كان يحدث في العصور الوسطى إذ يلقي السكان الحجارة والمياه على الغازي للبلاد ظهرت في الشرفات الصغيرة نساء يلقين بالماء الساخن على قوات البوليس. شباب وأطفال وبنات يلقون عليهم ما يجدونه عندهم، فعاد الجنود إلى شارع رمسيس. وقفت مع عدد كبير من الشباب نضحك ونصفق للنساء في البلكونات ونسمع منهم الدعاء لنا والدعاء على السادات وحكومته.

وجدت القنبلة لا تزال في يدي فابتسمت. سمعت صوتا جواري يسألني:

- ماذا تمسك في يدك؟ قنبلة! ياماما!!

نظرت فوجدتها. الفتاة الأقصر التي رأيتها من قبل عند غمرة.

- أين زميلتك؟

- روحت. هي ساكنة في الضاهر.

- وأنتِ لماذا لم تعودي إلى البيت مثلها؟ المعركة شديدة وستستمر وأخشى عليكِ.

نظرت لي وابتسمت. قالت:

- لا تخف. عمر الشقي بقي.

- قلتِ إنكِ طالبة في جامعة عين شمس.

- هي. أنا من جامعة القاهرة لكني كنت أزورها اليوم في جامعة عين شمس. هي بنت خالتي.

- لماذا لم تذهبي معها عند خالتك؟

- لا بـد أن أعود إلى البيت فـي المعادي. تليفون البيت عندنا عطلان ولن أستطيع أن أخبرهم بمكاني وسيقلقون عليّ جدا.

- لكن المترو توقف.

- سأجد تاكسي. لا بد.

فكرت لحظة وقلت:

- اسمعي. سأترك كل شيء وآخذ تاكسي معك حتى المعادي وأعود. لا يمكن أن تركبي تاكسي وحدك اليوم.

نظرت إلي صامتة في عينيها دهشة الرضا والإعجاب. قلت:

- هيا من هنا بعيدا عن المعارك. سأعود إليها وحدي فيما بعد.

دون أن أدري أمسكت بيدها فتركتها لي واندفعنا نمد الخطى في شارع الجمهورية. منه دخلنا في شارع عماد الدين ثم شارع عرابي ثم شارع 26 يوليو. كانت الجماعات كثيرة من الطلاب والعمال تأتي من مظاهرات مشتعلة في منطقة الإسعاف بشارع رمسيس. مسافة كبيرة حقا مشيناها. القنبلة في يدي اليسرى. لم تعد تترك يدها في يدي الآن فنحن لا نسرع ونعبر الطرق الخالية تقريبا من البشر. فقط الدخان كان يأتي من شارع رمسيس ويكاد يصل إلى منتصف شارع 26 يوليو ونحن نتركه لندخل في شارع شريف الذي تقدمنا فيه. فجأة توقفت، قالت:

- هل تعرف إلى أين نتجه؟

- باب اللوق.

- صحيح لكن أيضا وزارة الداخلية ستصبح قريبة وفي يدك قنبلة.

- صحيح.

قلت ذلك منتبها للقنبلة حقا. ثم أضفت مبتسما:

- لا أعرف لماذا أخذتها لكن طالبا أمسك بقنبلة لم تنفجر أيضًا وقال إنه سيحتفظ بها ذكرى لأولاده وأحفاده. ضحكت. فقلت:

- فكرة.. رغم أنها أكبر دليل ينتهي إلى السجن.

قالت:

- خلاص. إلى هنا كفاية على حضرتك. سأعرف كيف أعود وحدي إلى البيت لا تقلق وليتك تتخلص منها. أولادنا سيجدون قنابل كثيرة!

ضحكت لكن بدت كلمة «حضرتك» كأنها حاجز بيني وما أريد. هذه البنت الجميلة التي طاوعتني حتى الآن يمكن أن تحل محل صفاء. سأعطي الفرصة لمشاعري قد تنمو معها وفي هذه الحالة لن أتخلى عنها. لن أفعل كما يقولون، أستعيض بها عن الأولى لأنسى.

لم أتركها. وجدتها تبتسم ونحن نتوقف في ميدان باب اللوق تحت نهاية الكوبري الذي يعبره وأمامنا شارع منصور المؤدي لمحطة المترو. كان مئات من المتظاهرين يأتون من ميدان التحرير ومن نص البلد إلى المقاهي الموجودة في ميدان باب اللوق. لم نعد وحدنا الآن. قوات الأمن يمكن أن تأتي هنا فجأة وتصير مقتلة. توقفت فسألتها:

- لماذا توقفتِ هنا. هل تحبين أن نرتاح في أي مقهى قليلا؟
- لا. لكن لأشكرك.
- طيب اسمحي لي أن أنتظر حتى تركبي التاكسي.

وقبل أن تعلق قلت:

- أنا لا أعرف إذا كنت سأراكِ مرة أخرى أم لا. لكنني فعلا أحتاج إلى أن أفعل ذلك.

قالت:

- لهجة حضرتك قريبة من لهجة أهل بورسعيد؟

- دمياط. أنا ناقد أدبي جئت أجرب حظي في الحياة هنا. أعمل بوزارة الثقافة واسمي صابر سعيد. ربما تجدين مقالا لي يوما في إحدى المجلات.

قالت ضاحكة:

- دمياط؟

- ليس كل أهل دمياط بخلاء والله. ولتتأكدي من ذلك دعيني أدفع لك أجرة التاكسي.

ضحكت من جديد ولم يرتفع صوتها. غطت فمها بيدها رغم أن أسنانها لؤلؤ حقيقي وقالت:

- آسفة. لا أقصد ذلك.

أشارت إلى تاكسي يتحرك على مهل قادما من ناحية شارع نوبار. توقف أمامنا وحده. قال السائق كأنه يعرف ما نريد:

- أنا لن أتحرك من هنا. لا أعرف أين أذهب. كل الطرق مظاهرات.

سألته ما رأيه أن يذهب في مشوار مفيد ماليا إلى المعادي. فسكت لحظة يفكر ثم قال:

- يمكن. لكن سأعود بلا زبون. يعني خمسة جنيه.

قالت في حماس:

- موافقة.

لكني أخرجت بسـرعة خمسـة جنيهات دفعتها وأشـرت لها بإصبعي السبابة ألا تعلق وسألتها هامسا:

- لم أعرف اسمك؟

- صفاء.

لا بد ظهرت الدهشة على وجهي. واستطردت هي:

- في كلية الإعلام جامعة القاهرة. السنة الثالثة.

انطلـق بها التاكسـي وعـادت إليّ الدهشـة من جديد رغـم أني رأيتها تنظر إلي من المقعد الخلفي كأنها تلقي نظرة وداع أو أمل!

صفـاء مـرة ثانية؟! وفي السـنة الثالثة أيضا! صرت أسـأل نفسـي غير مصدق وأنا أعبر الميدان متجها إلى مقهى الحرية الذي كان مفتوحا على الناحية الأخرى. حتى لو قابلتها مرة ثانية ففي كل مرة سيسـتدعي اسـمها صفـاء الأولى ومن ثم لن تكون روحي خالصة لها. لعنة إغريقية صارت تطاردني وسـتطاردني إلـى الأبد. انتهـى. قلت لنفسـي. كان لقاءً جميلا رغـم غرابته وسـط الأحداث. لكني ضحكت سـاخرا من كل شـيء وأنا أدخل إلى مقهى الحرية والهواء يطير شعري الطويل فوق رأسي. أشعر به يتحـرك و ينزل إلـى عيني. لم أجلس في مقهى الحرية من قبل رغم مرور ثلاثة أعوام عليّ هنا في القاهرة. مقهى عريق آخر.

رأيـت من خلـف زجاجه كمـا أرى عادة حيـن أمر أمامه، الجالسـين وأمام كثير منهم زجاجات البيرة. ليكن.

ما إن دخلت حتى تذكرت كيف جلسنا في بار متاتيا يوم مظاهرات يناير 1975 أنا وسعيد وسراج منير والأقصري. يبدو أن هذا اليوم الصعب سيكتمل بحضور سعيد هنا فجأة ثم سراج منير ومن يدري ربما يظهر أيضا الأقصري ونتأخر إلى الليل ثم نخرج بعد أن يتركنا الأقصري فيتم القبض علينا من جديد! ضحكت من هواجسي وجلست وحدي أشرب البيرة بين أعداد كبيرة من الشباب والفتيات. كان بينهم فتيات أجنبيات وشباب أجانب أيضا. تماما كما أرى في مقهى أسترا. أكيد لنفس السبب وهو قرب الجامعة الأمريكية التي بها أجانب يدرسون اللغة العربية وآدابها. كنت بورقة كبيرة وجدتها على الأرض قد لففت القنبلة بحيث لا يظهر منها شيء وأضعها الآن أمامي على المنضدة الرخامية. لم أكد أفرغ من زجاجة البيرة الأولى حتى رأيت سعيد يدخل المقهى. رآني فضحك أما أنا فزادت دهشتي لأنه ربط رأسه بعصابة بيضاء من الشاش. لا بد أنه أصيب اليوم. اقترب مني يقول:

- كنت أعرف أني سأجدك هنا.

- ماذا جرى لرأسك؟

- قنبلة بنت كلب اصطدمت برأسي قبل أن تنفجر جرحتني جرحا كبيرا.

نظرت إليه ودهشتي تزداد فقال:

- لا تقلق. ذهبت إلى عيادة هنا وعملوا اللازم. أخذت غرزتين فقط الحمد لله.

كان الجرسون قد اقترب منا فطلب لنفسه زجاجة بيرة وقال:

- السادات سيهرب اليوم، لا أمل له في البقاء.

كانت الساعة تقترب من الثالثة. فجأة ضحك وقال:

- إذا هبط علينا سراج منير لازم نمشي وإلا سيقبض علينا مرة تانية.

ضحكت مندهشا من الطاقة الضاحكة التي صار عليها. لقد جاءت الأحداث السياسية في وقت يحتاجه كل منا لينسى حقا. لكنها بالنسبة لي أعادت القصة كلها، صفاء وصفاء أيضا. يا له من صفاء في الحياة! قلت لنفسي ساخرا ومبتسما.

شرب كل منا زجاجة واحدة من البيرة ستيلا وقلت له فجأة:

- يكفي هذا اليوم.

تركنا المقهى الذي فكرنا أيضا أنه لا بد سيغلق أبوابه بسرعة اليوم فقال:

- الليل سيشهد تجمعا في كل الميادين. دعنا نذهب عند صديق شيوعي قريب من هنا. لا يمر عام إلا ويقبض عليه. شاركته السجن المرة الوحيدة التي سجنت فيها. أستاذ حقيقي أشتاق له اليوم.

اندهشت من حديثه ولماذا لا يقول لي اسمه؟ لكني تركت له نفسي ومشينا. أخذني من عابدين إلى شارع مجلس الأمة مشيا وسط زحام من الناس على المقاهي وباعة الخضر والفاكهة. الحياة هنا تمضي غير عابئة بما يحدث والمحلات كثير منها مفتوح. دخلنا شارع المبتديان من

آخـره. وقفنا أمام العمارة التي بها حلواني عبد الهادي وأمامنا دار الهلال العريضة في الشـارع. صعد بي إلى الدور الثاني بالعمارة. كان قلبي يدق مع كل خطوة في شـارع المبتديان. أشعر أنه سيذهب إلى شخص أعرفه. من هو هذا الشخص؟ هكذا كنت أفكر. قال مبتسما:

- مؤكد سمعت عن الأستاذ عامر فضل عامر.

بسرعة قبل أن أرتبك قلت:

- طبعا. شيوعي معروف.

فتحت الباب فتاة جميلة طويلة، ممتلئة الجسم قليلا، سمراء، فعرفها بنفسـه وسـألها إذا كان الأسـتاذ عامر موجـودا. قالت نعم وسـمحت لنا بالدخـول وأنـا في ذهول. إنـه الرفيق الأكبر عامر فضل عامر. هل سـعيد في الحزب معي ولا أعرف؟ سـتكون مصادفة مذهلة. جلسـنا في الصالة الكبيرة للشقة العتيقة التي بدت واسعة جدا وبها أثاث قديم قوي ونورها شـاحب حيـث كل النوافـذ مغلقة. جـاء إلينـا الرفيق عامر مرحبا بسـعيد مبتسما ابتسـامة عريضة. ارتبك لحظة حين رآني لكنه رحب بي. أدركت من ارتباكه أن سـعيد ليس في الحزب معنا. هي مجرد صداقة سجن كما قـال. وحتـى لا يزداد ارتباك الرفيق عامر قدمت له نفسـي. ابتسـم معجبا بذكائي وقال:

- أهلا أسـتاذ صابر. جميل والله. صابر سـعيد وسعيد صابر. اسمان جميلان مليئان بالتفاؤل. هذا يوم عظيم - ثم نادى - يا سارة.

جاءت الفتاة السمراء التي فتحت لنا الباب، فسألها:

- ماذا سنأكل اليوم؟

- هند في المطبخ وأنا أساعدها. دجاج مشوي.

- ولحم وكبد. لدينا ضيوف محترمون.

ابتسمنا ورأيت السعادة على وجه سعيد. كيف لم يحدثني عنه سعيد أبدا من قبل؟ هو في الحقيقة لا يحب أن يذكر أيام السجن. يقول إنه يساعد نفسه على النسيان. إذا أردت أن تنسى شيئا فلا تتحدث عنه ولو حتى إلى نفسك! هذه حكمته.

عرفنا أن الفتاتين هما ابنتاه ومتزوجتان لكن جاءا اليوم هنا لأن زوجيهما في المظاهرات. لدى كل منهما طفل واحد تركته عند جدته لأبيه لأن عامر فقد زوجته من زمان. أمضينا وقتا جميلا حتى الساعة السابعة ناقش عامر معنا فيه كل الاحتمالات ومنها القبض عليه وقال ضاحكا:

- ويمكن أن يتم القبض عليكما بسبب هذه الزيارة. استمتعا إذن بالأكل والنبيذ حتى تتذكراه جيدا.

استعاد معه سعيد أيام السجن بينما انشغلت بالفرجة على التلفزيون مع الفتاتين سارة وهند. التلفزيون يذيع أحداث السرقة والنهب في شارع الهرم. والحرائق في مقهى كورنيش الإسكندرية. أجمل الرفيق عامر الأمر في أن وزارة الداخلية أخرجت المجرمين من أقسام البوليس ليفعلوا ذلك لتلصق التهم باليسار. وأن الليلة سيتم القبض على الكثيرين. ثم نظر لي نظرة ذات مغزى وقال:

- يعني أي شخص عنده أي كتاب لكارل ماركس يتخلص منه الليلة.

فهمت الإشارة التي تعني أن أتخلص من مجلات الحزب التي عندي. خرجنا من عنده والصمت والظلام يحط على الدنيا. قررنا أن نعود إلى البيت. لكن هل يمكن أن نعود ومن أي طريق؟ قال سعيد:

- نمشي من هنا إلى شارع بورسعيد ومن هناك إلى شارع الأزهر فميدان عبده باشا - وضحك - مسافة طويلة حقا لكن ربما نجد التاريخ فرحا ولا يبكي!

ضحكت وحكينا للرفيق عامر حكاية النوبي الذي قابلناه هناك غاضبا من أجل امتهان التاريخ وينتظر نزول الله لليائسين. حرك الرفيق عامر رأسه مندهشا ولم يعلق. ثم قال لي أن أترك القنبلة في أي ركن في الشارع ولا أمشي أبدا وهي معي. لكني كنت أشعر برغبتي في الاحتفاظ بها تزداد. كيف حقا أحمل قنبلة لم تنفجر؟ كان هذا السؤال يضحكه جدا ونادى ابنتيه لتضحكا على تصرفي. قال هذه تصرفات فنان وليس ناقد أدبي. الفنانون مجانين. شعرت أنه اختصر المسألة بالفعل. لم يكن ينقصه إلا أن يقول إنها ليست تصرفات كادر سياسي. تعززت رغبتي في ترك الحزب. طبعا لم أناقش معه أيا من أمور الحزب أمام سعيد أيضا. وخرجنا ليأخذني سعيد إلى شارع بورسعيد.

عبرنا ميدان السيدة زينب فضربنا الهواء من كل ناحية. لا أحد ولا آثار لمعركة هنا. فقط على أطراف الأرصفة رأيت أكثر من امرأة

ورجـل نائـم متكوم حول نفسـه من البرد. الأشـجار تكاد تخفي مسـجد السـيدة. قسم بوليس السـيدة مغلق ليس أمامه شيء. كل المحلات أيضا مغلقة ولا حركة من أو إلى المسـجد. في شارع بورسعيد أيضا كانت كل المحلات على الجانبين مغلقة. ليس إلا الهواء يمشي معنا أو بنا حتى أن سـعيد قال وهو يضحك: «أحسن شـيء الجري في الهوا» وجرى أمامي وأنـا أضحـك. البلكونـات أيضا مغلقة فـي العمارات والبيـوت وأضواء شحيحة من خلفها. إلى هذا الحد بلغ الخوف من الناس أو الحذر.

اقتـرب منا تاكسـي قادمـا من الناحية الأخرى. اندهشـنا. مـا إن صار أمامنـا حتى توقف وقال سـائقه: «بـلاش من هنا الضـرب جامد في باب الخلق»، تركنا واسـتمر في طريقه بينمـا نحن نتقدم ولا نبالي حتى اقتربنا مـن محكمة بـاب الخلق. دخان يرتفـع من داخل المحكمة. حشـود من الشباب تحاصرها وتلقي عليها شعل النار التي صنعوها. هنا قابلت الفتاة التي تعطيني المجلات السـرية ولا أزال أقابلها. لكن لماذا يريد الشـباب إحـراق المحكمة؟ لقد اشـتهرت بالنظر في القضايا الملفقة للشـيوعيين واليسـاريين وكل معارض. هي رمز لاسـتبداد نظام السادات. كان الهواء شديدا. سمعت أحد الشباب يصرخ: «الهوا مع الحكومة يا ولاد الكلب. المحكمـة مـش بتولـع»، كان الهـواء يحد من وصـول المقذوفـات إلى المحكمـة المغلقـة كل أبوابها. لسـاعة نقف نشـاهد الحشـود المهاجمة والغاضبة ولـم تحترق المحكمة. قررنا أن نترك المكان بعد أن اشتد علينا البـرد. هطـل مطر مفاجئ لم يسـتمر طويـلا. قال أحد الشـباب إن قوات

الأمن المركزي في شـارع الأزهر تسـد الطريق إلى ميدان الحسـين، كما أنها في شـارع الجيـش وفي ميدان العتبة. ليس أمامنـا إذن إلا العودة إلى «نـص البلد» نبيت في ميدان التحرير أو فـي المقاهي القريبة بباب اللوق أو شـارع شامبليون لكن هل سـنتحمل البرد وهو يشتد جدا بشكل يفوق الاحتمـال؟ ندمت أنني لم أرتدِ الجاكت الشـمواه. كان مناسـبا جدا هذا اليـوم كما أن أحـد جيوبه كان سيسـتوعب القنبلة الصغيـرة التي لا زلت أحرص عليها في يدي.

ظهـرت أكثـر مـن سـيارة مصفحـة وسـط الظـلام قادمة بسـرعة من خلفنا في شـارع بورسـعيد وأخرى من الناحية المقابلة للشارع. نزل منها الجنود مسـرعين. راحوا يلقون علينا القنابل المسـيلة للدموع. يهجمون بوحشـية على الشباب الذي كانت نسبة البنات فيه قليلة جدا الآن فلم أرَ غيـر فتاتيـن لا تكفان عن الحركة. تفرقنا جميعـا تحت وطأة الهجوم إلى شـارعي حسن الأكبر ومحمد علي. كان من نصيبي وسعيد أن ندخل في شارع حسن الأكبر. ابتعدنا قليلا فقال ضاحكا:

- يبدو أننا سننام عند الأستاذ عامر الليلة ليقبض علينا!

ضحكـت. أخذنـا طريقنـا مبتعدين. ليـس أمامنا إلا ميـدان التحرير. هـذه القنبلـة التـي لا أريـد التخلص منها هل سـتبقى معي إلـى الصباح؟ كذلك مجلات الحزب السـرية في البيت ولا بد من طريق للعودة. قلت لسعيد:

- لقد مشيت كثيرا اليوم.

حكيـت لـه مـا جرى فـي الصبـا ح. ما مشـيته من شـوارع مـع صفاء الأخرى. قال:

- صفاء تاني؟

- حظي!

قال:

- البنـات كتير وأنت تتعـرف على واحدة تذكرك بالأولى كل لحظة. هذا نحس.

عدنـا إلى الضحك. اقترحت عليه أن ندخل إلى شـارع طلعت حرب ومنه إلى ميدان عرابي ومنه إلى شـارع الجمهورية أو عماد الدين ثم نعبر شارع رمسيس بسرعة إذا وجدنا البوليس يسده وندخل في محطة كوبري الليمون ونمشـي بين قضبان السـكة الحديد حتى محطـة دير الملاك فلا قطارات اليوم ثم ننزل إلى شارع الملك فأذهب أنا إلى شقتي وهو يستمر إلى شقته.

نظر إليّ مندهشا وقال:

- كيف عرفت القاهرة إلى هذا الحد؟ لقد تفوقت عليّ.

ضحكت. الحقيقة لا أعرف كيف فطنت إلى ذلك الطريق العجيب.

قال:

- لكن لا بد من شيء من الراحة الآن.

- ربما نجد مقهى في شارع الجمهورية.

قال:

- أو كلوت بك.

لم نعد إلى البيت. قابلنا علي الكبير مصادفة. قال إنه ذاهب إلى البيت يرتاح قليلا وسيعود إلى ميدان التحرير حيث يتجمع الكثيرون من الأدباء هناك. طلب منا أن نصحبه لنرتاح ثم نمضي الليل معا في الميدان. نسيت ما كان يقلقني وهو المجلات التي في البيت. وجدت نفسي أمشي معه وأطلب من سعيد أن يستجيب لطلب علي الكبير. فكر قليلا وقال إنه قد لا يعود إلى البيت لكن يود لو ذهب إلى بيت أسرته في شبرا. أجل. لا بد أنهم قلقون عليه. صافحنا وانصرف ضاحكا يقول: «سآخذ الطريق الذي وصفته لي لكن حتى ميدان رمسيس فقط».

لم أكن جائعا فأكل علي الكبير وحده. تمددت على الكنبة ونمت في مكاني. في الساعة الحادية عشرة صباح اليوم التالي استيقظت فوجدته ينظر لي ضاحكا. قال:

- نمت كثيرا. ألن تذهب إلى ميدان التحرير؟

- سأذهب؟

نهضت بسرعة وهو يضحك. قال:

- لقد مرت الليلة، اليوم يوم آخر. لقد تركتك نائما وأمضيت الليلة في الميدان.

لكنا خرجنا معا. مشـينا في شارع يوسـف الجندي حتى دخلنا شارع محمـد محمـود وأخذنـا طريقنا إلى الميـدان. لم يكن عـدد المتظاهرين كبيرا. قال علي إن ذلك بسبب البرد والهواء الذي لا يتوقف. كانوا يقفون في الصينية أو ما سماه الشاعر أمل دنقل بالكعكة الحجرية. كان مطر كثير قـد هطل فلم يكـن ممكنا الجلوس. كثيـر من الواقفيـن يتحدثون صبيانا وبنات يتدفئون بالحديث. طلاب وعمال يبدون أكبر سنا يغنون:

شيد قلوعك في المزارع

من كدنا وعمل إدينا

والخمارات جنب المصانع

والسجن مطرح الجنينه

واطلق كلابك في الشوارع

واقفل زنازينك علينا

وقل نومنا في المضاجع

آدي احنا نمنا ما اشتهينا

واتقل علينا بالمواجع

إحنا اتوجعنا واكتفينا

وعرفنا مين سبب جراحنا

وعرفنا روحنا والتقينا

عمال وفلاحين وطلبه

دقت ساعتنا وابتدينا

نسلك طريق ما لهش راجع

والنصر قرب من عنينا

النصر أقرب من إدينا

تعرفت من بينهم على وجوه كثيرة من الحركة الطلابية كان علي الكبير يعرفها ويشير إليها. لم يسبق لي أن التقيت بأحد منهم. بدا لي أن علي الكبير يعرفهم شكلا لكن لم يسبق له أن تعرف إليهم عن قرب.

تركنا الميدان. دخلنا شارع شامبليون فوجدنا الكثيرين جالسين على المقاهي. من بينهم كان سراج منير الذي ما إن رآنا حتى ضحك وقال:

- لن أترك المقهى وإذا أرادوا أن يقبضوا عليّ فليكن من هنا.

ضحكنا.

مسيرة مرت أمامنا فقررت الانضمام إليها. مشيت بين الطلاب والعمال والفتيات اللاتي صرن أقل من أمس يقودهم عدد من الطلاب الذين قال لي علي الكبير عنهم إنهم قيادات بالجامعة.

«اهتف يا بن الشعب وقول

سرقوا بلدنا عرض وطول»

«إيه ر اح تاخد يا قيسوني

وانا غرقان في همومي وديوني»

«يا بن بلدنا اصحى وبص

جوز جيهان غلّى الرز»

«الانفتاح جاب لنا إيه

غير العاهر والكباريه»

«يا مصر بس أنا عايز أفهم

ويا الكلاب ولا معانا»

مشت المسيرة حتى دار القضاء العالي دون وجود لرجال البوليس. في الحقيقة كان الجو مثيرا لي. لم يحدث أن شاركت في مظاهرات ليوم كامل فما بالك بيومين متتاليين. أخذتني المسيرة إلى ميدان باب الشعرية. مسافة طويلة حقا مشيناها. رأيت قوات الأمن المركزي من جديد تسد الميدان وتطلق علينا الغازات وتهاجمنا بالهراوى. شجاعة المتظاهرين كانت جبارة فردوا الهجوم بهجوم. وألقوا على ترامين واقفين منذ أمس قنابل مولوتوف لا أعرف من أين جاءوا بها. قنابل عديدة لا أعرف من سبق وجهزها فاحترق التراماان. كان هناك أوتوبيس يبدو أن سائقه تركه أمس أيضا متوقفا. نزلت عليه القنابل فاحترق بدوره. انطلقت عبوات الرش على أقدام وصدور المتظاهرين الذين تفرقوا لكن أيضا انطلق الرصاص فأصيب شاب أمامي. سقط جواري مباشرة والدم ينزف من

وجهه. مات. بينما أصيب آخر بطلق في ساقه في المسافة بيننا وبين البوليس فسقط على الأرض ينزف وغير قادر على الحركة. لا أعرف كيف توفرت الحجارة للمتظاهرين بسرعة كبيرة فهاجموا قوات البوليس التي في النهاية هربت. أجل. هربت في الأزقة التي تؤدي إلى منطقة الحسين كما عرفت من أحد المتظاهرين. تعقبهم متظاهرون كثيرون وعادوا بعد قليل منهكين. كان بعض المتظاهرين قد حمل الشاب القتيل والشاب المصاب ولا أعرف أين اختفوا بهما، فلا عربات إسعاف هنا ولا سيارات تمر. تفرقت المظاهرة في الأزقة. ظل عدد قليل بالميدان الخالي يدور حول الترامين المحترقين والأوتوبيس. فجأة هلل المتظاهرون أن السادات ألغى القرارات الاقتصادية. لا أعرف كيف عرفوا الخبر. هناك أشياء في الانتفاضات والثورات لا تفسير لها إلا أن ملائكة في السماء ترعى على الأرض أبناءها الثوار.

شاع خبر آخر أن هناك حظرا للتجوال سيبدأ في الساعة الرابعة. لقد تم إلغاء القرارات الاقتصادية وفرض حظر التجوال. إذن نجحت الانتفاضة وعليّ العودة إلى البيت. كثيرون يفعلون ذلك الآن ضاحكين. في ناحية الطرق التي تنتهي إلى ميدان الحسين كما سمعت. إذن الناحية الأخرى تقربني من شارع رمسيس. مشيت دون أن أسأل أحدا. على مهل مشيت كأني لم أكن في معركة. كلما انتهى زقاق انحرفت إلى آخر يمتد إلى الأمام. أخذتني الأزقة إلى الخلف كثيرا، في اتجاه شارع رمسيس حقا لكن إلى شارع الفجالة الذي رأيته فوقفت أضحك. مغلق كله ومن واجهات زجاجية لبعض المكتبات تظهر الكتب. واجهات زجاجية لكن

أمامها سـور من أسـياخ الحديد. لا بأس. سـينتهي بي شارع الفجالة إلى ميدان رمسيس. الساعة دخلت في الرابعة وبدأ حظر التجوال.

رأيت في شـارع رمسيس دبابتين بعيدتين تغلقان الشارع. إذن اختفى البوليس وترك البلاد للجيش. سـأعبر بسـرعة إلى محطة كوبري الليمون وأدخلها لأمشـي جوار قضبـان القطارات التي تتجـه وتأتي من «المرج» حتـى أصل إلى محطـة الدمرداش. هناك أعبر بسـرعة إلى الأسـفلت ثم أعبر شارع الملك وأدخل شارعنا. ما قلته لسعيد أمس سأفعله أنا. عبرت ميدان رمسـيس بسرعة إلى محطة كوبري الليمون. هل رآني من هم فوق الدبابـة وخلف مدفعها وحولها من الجنود؟ لا أظن. وصلتَ إلى قضبان القطارات من محطة كوبري الليمون. مشيت حتى وصلت إلى البيت كما قدرت تماما.

ماذا يمكن أن أفعل الآن. لا تلفزيون في الغرفة. سـأفتح الراديو أتابع الأحداث. شـعرت بالجـوع. لم أتناول فطورا عند علـي الكبير لا أعرف لماذا ولا في الطريق. الأهم أن أحرق ما لدي من مجلات الحزب.

لثلاث سـاعات أحرق في سبعين عددا من المجلة في المطبخ. ذلك سـهل ولا يسـتغرق كل هـذا الوقت، لكـن المطبخ مفتوح علـى المناور الخلفيـة للعمارات المجاورة والدخان يخـرج منه لأنه لو أغلقت النافذة سـأختنق في الشقة. عليّ ألا أحرق بكثافة حتى لا يظهر دخان كثير يلفت نظر السكان حول بيتنا. كنت أحيانا أنظر فأجد من النافذة سحابة الدخان أكبر مما أتوقع فأتوقف قليلا.

فكـرت أنني وقد تخلصت من المنشـورات يجب أن أخفـي القنبلة. انتبهـت إلـى أنها ليسـت معي. لم تكن معـي طوال الطريـق.. لقد تركتها في بيت علي الكبير. هو أيضًا لم ينتبه. وقفت مرتبكا ومندهشـا لكن أكاد أضحـك. أين أذهب الآن في حظر التجوال؟ المحلات كلها لا بد مغلقة ولن أستطيع الاتصال به لتحذيره.

كنـت حرقت المجلات في «حلة» كبيـرة على أرض المطبخ لا يزال بها بقايا.

الحريـق رمـاد أسـود. أحضرت كيسـا بلاسـتيكيا وجمعته فيـه بيديّ فسـقط كثير منه هبب الأرض. غسـلت يديّ. ولأني جائع وضعت ثلاث بيضات في إناء صغير لأسـلقها على البوتاجاز. مسـحت أرضية المطبخ وأخـذت الكيس البلاسـتيك بما فيه مـن رماد وأضفت إليـه كل بقايا في المطبـخ وخرجـت أضعـه في سـلة القمامـة أمام البـاب. فتحـت الباب وخطوت خطوة. دون أن أدري أخذت الباب معي في يدي أغلقه.

وقفت حائرا. ماذا أفعل الآن؟ الباب أغلقته وأقف بالبيجامة ولا أحد في الداخل. للباب شرّاعة من زجاج لكنها مغطاة بشبكة من الحديد. لا بد من شـيء معدني رفيع أكسر به الزجاج. نزلت إلى الشقة السفلى مترددا. صاحبها عنده بنتان وولد صغير في حوالي العاشـرة ويكره وجودنا خوفا علـى بنتيـه. يتجهم دائمـا إذا قابل أحدا منا ويبدو عليـه الضيق. ضغطت علـى زر الجـرس فلم يـرد أحد. كنت أسـمع صوت التلفزيـون يأتي من الداخل. صوت سـعيد صالح وعادل إمام. عرفت أنها مسـرحية مدرسـة

المشـاغبين. ابتسـمت وأعدت دق الجرس. جاءني صـوت الرجل عاليا ومنزعجا:

- مين؟

- لو سمحت افتح لي أنا صابر أسكن فوقكم. هناك مشكلة كبيرة.

لحظات وفتح شرّاعة الباب ونظر إليَّ قائلا:

- عايز إيه في نص الليل؟

تماسكت وابتسمت قائلا:

- كمـا ترى حضرتـك أنا بالبيجامـة. خرجت أضع الزبالة في السـلة انغلـق البـاب وهناك أشـياء علـى النار فـي المطبـخ ويمكـن أن تحدث حريقا.

- طيب وأنا حاعمل لك إيه؟

لا يزال قرفانا ومنزعجا وأنا المضطر أبتسم. قلت:

- جاكوش صغير فقط أو مفك أكسر الزجاج.

عـاد متأففـا ثم خرج إلـيّ ابنه الصغيـر ومعه مفك وجاكـوش صغير. صعدنـا ووضعت طرف المفـك على الزجاج وطرقـت عليه بالجاكوش فتهشـم. هشمته كله تقريبا. طلبت من الطفل أن يمد يده الصغيرة من بين الحديد ويفتح الباب من الداخل. دخلت الشـقة لا أصدق نفسـي. دخل الطفل معي فقال:

- رائحة شياط قوية.

انتبهت. قلت له بسرعة:

- احترق البيض على النار. خذ الجاكوش والمفك وانزل أنت بسرعة.

خرج الولد الصغير وأغلقت الباب خلفه ثم رحت أضحك. في المطبخ كانت المياه قد جفت فوق النار والبيضات الثلاث تصطدم ببعضها وأسمع صوت الاصطدام فأطفأت البوتاجاز وأنا أضحك أيضا. أكلت وتمددت على السرير لا أصدق ما فعلت.

في الساعة الواحدة ليلا ازدادت هواجسي. خرجت مقررا أن أذهب إلى سعيد. إن لم أجده سأبيت حتى يأتي سعيد غدا. لن يتواجد الطلاب الفلاحون فالجامعات أغلقت. الشقة مفتوحة دائما.

تركت المنزل ومشيت في شارع خلفي لشارع الملك الذي كنت أعرف أن به رجال الجيش. وحدي مشيت في أزقة مظلمة وإن كنت أسمع أصواتا ضاحكة من خلف النوافذ المغلقة. لا بد يتابعون مسرحية مدرسة المشاغبين.. هناك على عكس ما توقعت وجدت سعيد. ما إن رآني حتى راح يرقص.

- السادات كان يفكر في الهرب فعلا لولا الجيش. هكذا تقول محطة مونت كارلو.

قال ضاحكا ثم أردف:

- المهم أنه رجع عن كل القرارات.

***

صباح اليوم التالي ذهبت إلى علي الكبير للاطمئنان. انتظرت أمام الباب أن يفتح لي بعد أن دققت الجرس. شعرت بباب الشقة الأخرى خلفي يفتح. أطلت منه سيدة عجوز في ارتياب. رأتني فكادت تغلق الباب إلا أنها ترددت ولم تغلقه:

- من حضرتك؟

- أنا كاتب صديق علي اسمي صابر سعيد. أين علي؟

نظرت إليّ لحظة مترددة ثم قالت:

- قبض عليه في الفجر.

تركت مكاني ونزلت إلى الشارع الذي صار واسعا رغم حركة الناس. أفكر هل وجدوا عنده القنبلة؟ وماذا يقول عني الآن؟ ركبت الأوتوبيس حتى ميدان رمسيس. من هناك ذهبت ماشيا إلى جزيرة بدران لأقابل سراج منير في بيته. خرجت لي زوجته وقالت في أسف إنه قبض عليه في الفجر أيضا. تركتها عائدا إلى ميدان رمسيس لأركب الأوتوبيس. لم أعد مقبلا على المترو الذي كلما ركبته تذكرت صفاء الأولى. بينما أعبر من ميدان أحمد حلمي فوجئت بشخص يمسك بذراعي. نظرت إليه فوجدته ضابط شرطة. قلت في نفسي انتهى الأمر يا صابر، لكنني أدركت

أنـه يرتدي بدلة ميري وضباط أمن الدولة عادة يرتدون الملابس المدنية. تشجعت ونظرت إليه قائلا:

- نعم. خيرا؟

ابتسم وقال:

- أنت تعبر من الطريق الخطأ. لا تتحرك.

ورأيـت فجـأة الطرق كلهـا خاليـة وثلاث سـيارات ترحيـلات تعبر مسرعة ومن داخلها أصوات تهتف: «يسقط أنور السادات».

أخـذت طريقي إلى البيـت وأنا أعرف أن الأمـور تدخل مرحلة جادة وخطيرة.

17

تـم القبض على أكثر من ثلاثمئة طالب وكاتب وسياسـي بتهم تتفرق بيـن الانتماء لتنظيمات سـرية شـيوعية وتكدير السـلم العـام والتخريب وقلـب نظام الحكم، رغم أننـا فوجئنا للمرة الثانية بالمظاهرات تندلع في مصر وربما فوجئت كل الأحزاب السرية والعلنية. كيف تتأخر الأحزاب عن فهم حركة الناس إلى هذا الحد؟ الرفيق الأكبرعامر قبض عليه أيضا. هكذا لم يعرف أحد أني أحرقت المجلات. وهكذا لم أوصلها إلى خلايا الحزب في المنيا.

منـذ أتيت القاهرة أجلس دائما صامتا بيـن الأدباء الذين هم مفرطون فـي الحديث عن السياسـة حتى أبعد عن نفسـي أي شـبهة يتم بمقتضاها القبـض عليّ خاصة بعد أن صار في حجرتي مجلات تؤكد تهمة الانتماء إلى تنظيم سـري. كنت أجد نفسـي بين علي الكبير وأعضاء الخلية لكني لا أقابلهـم كل يـوم. الآن لا معنـى أيضـا لأن أتغيـر فجأة وأمـارس حياة صاخبة بين الأدباء.

لا أعـرف مـاذا جـرى للبرنامج الموسـيقي الذي صار يذيـع كل ليلة ضمـن سـاعة الطرب العربي أغنيـة محمد عبد المطلب «فـي قلبي غرام مصبرنـي علـى خصامك. يطـول بعدك وأقول أنسـاك يحايلنـي ويإلمني

زمان ودك» لم أكن قد سمعت هذه الأغنية من قبل. أجل. فتحت الباب لحزني من جديد على صفاء.

وسط هذا البحر من الوحدة فوجئت بسعيد يأتي إليّ في منتصف الليل.

- كيف حالك؟

قال بعد أن استقبلته في الصالة بسعادة ودخلنا إلى الغرفة. لم يكن الطلاب الذين سافروا قد عادوا بعد. لا زالت الجامعات في إجازة.

فوجئت بالسؤال. لقد كنت معه منذ أيام. ثم إنه سألني وأطرق ساهما. ترى ماذا حدث في الأيام القليلة الماضية.

- هل أنت سعيد يا صابر؟

سألني فابتسمت. قلت:

- أنا صابر يا سعيد. قل لي ماذا يقلقك فجأة؟

سكت لحظات وقال:

- اليوم بلغت الثلاثين.

ذكرني أني سأبلغ الثلاثين في ديسمبر القادم. قلت:

- جميل. كل سنة وأنت طيب. علينا أن نحتفل لكن أين نذهب الآن وقد انتصف الليل والجو بارد وقد تمطر في أي لحظة.

- أمر صعب أن تبلغ الثلاثين دون أن تحقق أي شيء.

قال ذلك وابتسم ساخرا ثم أضاف:

- انتبه حتى لا تبلغ الثلاثين مثلي دون أن تحقق شيئا.

- أنت مخرج رائع يا سعيد وتكتب الصحف عن كل عرض تقدمه.

- ومـاذا بعد؟ مسـرح الثقافـة الجماهيريـة محاصر في دائـرة ضيقة. ليس هو المسـرح القومي أو حتى مسـرح الطليعة. الذين يكتبون عنا هم صحفيون تدعوهم الثقافة الجماهيرية. يعني كلمتين نظير الدعوة!

لم أشأ له أن يستمر فيما يحزنه. قلت:

- اسمع يا سعيد. لا بد أن نخرج الآن نفعل أي شيء. نحتفل ببلوغك الثلاثين. اشـتريت جاكت شـمواه من بور سعيد محشـو بالفرو استعملته نهارا فوجدته ثقيلا يبعث على الحر في عز الشتاء.

نهضـت أخرجت الجاكت من الـدولاب المعدني ورفعته أمامه فقال ضاحكا:

- هذا حقا لا يستخدم إلا ليلا.

- سأستخدمه الآن.

ارتديت ثيابي بسرعة وخرجنا لا نعرف ماذا سنفعل. كنت لا أريده أن يستسلم لحالة الشجن فينقلها إليّ.

شـارع الملك خالٍ من كل شـيء. لا مـارة ولا أوتوبيس يمـر. المياه متوقفة جوار الرصيف لا تتسع لها البالوعات. صنعت عند أطرافها وحلا طفيفـا مـن تراب الشـارع. عبرنا النفق. سـعيد يكاد يجري مـن البرد فهو

لا يرتـدي غيـر بدلـة تحتها قميص وبلوفـر خفيف وأنـا يعطيني الجاكت الشـمواه الشـعور بدفء عظيم. دخلنا إلى شارع رمسيس ثم مشينا قليلا حتى شـعرنا بتاكسـي قادم خلفنا فتوقفنا. كان بطيئا. كلما اقترب ظهر لنا على جانبيه وحل كثير تعلق به من الأرض.

- لازم نركب. أنا بردان جدا.

قال سعيد ذلك. أشرنا للتاكسي فتوقف. كان جوار السائق رجل أنيق. جلسـنا في الخلف. قال لنا السـائق إنه ذاهب إلى شارع كلوت بك. قلت لـه ونحـن أيضا. الحقيقة نحن لا نذهب إلى أي مكان محدد. تهامسـنا أنا وسـعيد حـول الرجل الأنيق الجالس جوار السـائق. هو القـواد الذي كنا نقابله على المقهى، في شارع طومان باي بعد منتصف الليل. قال سعيد:

- آه. صح.

سـكتنا لكنا كنا نكتم الضحك. إذن سينسـى سعيد ما يحزنه الليلة. لم أستطع أن أمنع نفسي من الكلام فقلت للرجل الأنيق:

- حضرتك خلصت الشغل بدري الليلة؟

قال السائق:

- حضرتك تكلمني؟

قال سعيد وهو يضحك:

- كيف يكلمك وأنت تعمل؟ أنت تسوق بنا.

قال الرجل الأنيق الذي لم أعرف اسمه بعد أن التفت إلينا:

- تكلمني أنا؟

- أجل.

- حضرتك تعرفني.

- تقريبا. رأيتك في شارع طومان باي لذلك أسألك هل انتهيت مبكرا من العمل.

نظر إلينا مندهشا ثم ابتسم وقال:

- حسب الأحوال. الليلة لا يوجد عمل كثير.

لم يتحدث باللهجة اللبنانية كما حدث من قبل. تبادلنا النظر أنا وسعيد مندهشين وسكتنا. في ميدان رمسيس قال لنا السائق.

- تفضلا بالنزول. سأدخل بالزبون إلى بيته في شارع كلوت بك.

- نحن أيضا نسكن هناك.

قال سعيد ذلك فهز السائق رأسه وقال:

- أنتم أحرار.

كتمنا ضحكنا. كأنما اتفقنا أن نتبع الرجل القواد قد نكتشف شيئا جديدا هنا. شارع كلوت بك شارع معروف بالدعارة قديما قبل ثورة يوليو 1952. لا أنسى حين رأيته لأول مرة في رحلة مدرسية إلى القاهرة وأنا في الثانوية العامة. كان ذلك عام 1965. كأنه اليوم!

لقـد بتنا فـي إحـدى لوكانـدات الشـارع الرخيصة. كانت هـذه أول مـرة أرى القاهـرة. كان النازلون باللوكاندة فقراء فيما يبدو من ملابسـهم وملامحهم. على أكثر من ناصية بالشـارع امرأة تجاوزت الخمسين على وجهها مسـاحيق كثيرة وشـعرها محلـول خلفها صبغتـه باللون الأصفر ودائمـا تدخـن الشيشـة وجوارها شـاب يقف يغيـر لها أحجار المعسـل وأحيانا جوارها امرأة أصغر سنا. حدثنا المدرس المرافق وكان أصلا من القاهرة عن تاريخ الشـارع. كيف بني هو وشـارع الفجالة وشـارع محمد علـي فـي عهد الخديو إسـماعيل الـذي كان يريد مصر قطعـة من أوربا. كيف كان وراء هذا الطراز من المباني أيضا علي باشا مبارك. وكيف صار الشـارع فـي الحربين العالميتين الأولـى والثانية مكانا للدعـارة المقننة. لقـد انتهـت الدعارة الرسـمية في الأربعينيـات لكن لا يـزال هناك بعض أوكارها. البوليس لا يتدخل ويتركها ربما تنفيسـا للشـعب. وربما جمال عبد الناصر الذي كان رئيسـا ذلك الوقت ويعـرف ذلك كان يرغب أيضا في عدم التضييق على الناس.

توقف السـائق مـن جديد بعد أن مشـى قليلا في الشـارع. قال لنا أن نترك التاكسـي فهو لن يسـتطيع أن يتقدم بنا أكثر من ذلك. كان جادا هذه المرة. فيما يبدو أدرك كذبنا وربما فكر أننا نريد أن نتبع القواد الذي معه. تركنا التاكسي ودفع سعيد له ربع جنيه. وقفنا وحدنا تحت بواكي الشارع الصامت. البواكي تمتد أمامنا ولا أحد. مطر خفيف بدأ يهبط.

- طبعا أنت دفيان بالجاكت.

قال سعيد ضاحكا وهو يفرك يديه التماسا للدفء. قلت باسما:

- ترى أين ذهب السائق بالقواد؟

- أكيد إلى بيت دعارة. لا تزال هناك في القاهرة بيوت سرية كثيرة.

- هذا شيء لم أجربه؟

- أعرف بيتا في شارع شبرا.

- انسَ الدعارة الآن. دعنا نمشِ في شارع كلوت بك قليلا نتفرج على مبانيه الجميلة.

ما إن مشينا عدة أمتار حتى هبت نوبة هواء شديدة وزخة مطر مفاجئة. المطر لم يطلنا فنحن تحت بواكي الشارع لكن الهواء كان شديدا بحيث أشفقت على سعيد. قلت ضاحكا:

- أنت الذي أتيت عندي ووافقت أن نترك البيت.

- هيا نتقدم. الساعة الآن الواحدة صباحا وهذا يعني أنني تجاوزت العام الثلاثين بساعة. أجل دخلت في العام الواحد والثلاثين.

وإذا به يهتف: «يا عالم يا هوه أنا عديت الثلاثين والحمد لله» ثم قال لي:

- هيا بنا ندخل في الأزقة. سيكون الدفء أحسن.

لم تكن أزقة في الحقيقة. مسافات متروكة بين البيوت القديمة تتسع للحركة لكن من الصعب أن تدخل إليها السيارات. مسافات ليست ضيقة

لكنهـا متعرجة بين البيـوت. البيوت حولها غير مرتفعـة لكنها أيضا مبنية علـى الطـراز الأوربي فهناك أمـام كل بيت باكية بعـرض البيت. لا بد أن السـكان يجلسـون تحتها بالنهار. لا بد أن هذه المحـلات المغلقة تحت البواكـي تمنح المكان كثيرا مـن الحركة بالنهار أيضا. لا أحد يظهر أمامنا الآن غيـر الهـواء الذي يصـل صوته إلينا مـن بعيد ومطر قليـل. ليس هنا أعمـدة معلق بها مصابيح فلا ضوء إلا ما يتسـرب إلينـا من خلف النوافذ المغلقة.

- مكان جميل جدا. تصدق أول مرة أدخل هذا المكان.

- أنت من القاهرة وتقول ذلك إذن ماذا أقول أنا!

- شـارع كلوت بك بالنسـبة لي هو الشـارع نفسه. لاشـيء بينه وبين شارع الجمهورية يعنيني. لكن - وأصاخ السمع - اسمع!

ركزت في الاسـتماع فإذا بصوت خفيض لأغنية «ياللي كان يشجيك أنيني». قلت:

- أم كلثوم في كل مكان يا سعيد.

- أنا خائف.

انتبهت إلى ما قال فاستطرد:

- هيا بنا نعُد.

ضحكت. أمسكت بذراعه وقلت:

- دعنـا نمـشِ قليلا بيـن الزمن القديـم. من يعرف ربمـا نلتقي بعلي مبارك!

ضحكنـا وإذا بفتاة تمر بين بيتين مسـرعة ترتدي قميص نوم يكشـف ذراعيها ويكشف ما تحته على جسمها وشعرها مطلوق خلفها. قالت:

- حد يضحك كده والناس نايمة؟

لم تلتفت إلينا. دخلت بسـرعة البيت الصغيـر المقابل. لكن ما الذي جعلهـا تعبـر بقميص نوم شـفاف فـي هذا الوقـت وهذا الجـو. بدت لي كخيال ولا بد أنها بدت لسـعيد أيضا كذلك لأنه سألني مندهشا وبصوت خافت:

- شفت؟

- حلوة أوي!

وجـدت نفسـي أقول ذلك شـاردا. لمـاذا تختفي البنـات الجميلات فـي الأماكن الفقيـرة المعزولة التي لا يعيرها أحد انتباها. سـؤال قفز إلى ذهني فقد تذكرت فتاة عزبة القرود. هذه مرت وحيدة ولا أحد تكلم معنا عنها. لكن نافذة في الدور الأرضي من البيت الصغير الذي دخلته فتحت وطلت علينا الفتاة نفسها ضاحكة:

- أين ستذهبان في هذا الجو؟

تبادلنا النظر. رأيت سعيد مترددا فقلت:

- سنحتفل الآن بدخولك سن الواحدة والثلاثين. ستنسى تماما أنه قد مرت ثلاثون سنة.

قبل أن يعلق قلت:

- لقد دخلنا عزبة القرود ونزلنا النيل عند الفجر مع العفاريت. لن يحدث لنا شيء.

قالت الفتاة:

- أريد أن أغلق الشباك. هل ستدخلون؟

أشار لها سعيد بيده بالموافقة. دخلنا في خطوتين من باب البيت الصغير لنجد باب الشقة على يسارنا مفتوحا وهي تقف أمامه تستقبلنا.

جلسنا في الصالة الصغيرة ودخلت هي إحدى الغرف. دقائق ننظر إلى بعضنا في دهشة. رائحة بخور جميلة تملأ المكان لا نعرف مصدرها. المقاعد قديمة وعلى الجدران أكثر من صورة لفريد شوقي وهدى سلطان وسناء جميل وعمر الشريف وصلاح منصور. كانت صور فريد شوقي أربع. واحدة على كل جدار. كلها متشابهة ومن فيلم بداية ونهاية. وإذا بسعيد يبتسم ويسألني:

- هل تعيش وحدها؟

- سنعرف كل شيء.

عادت ترتدي روبا جميلا هذه المرة لكنه أيضا يكشف عن ذراعيها ورائحة بارفان غلبت رائحة البخور وبدا أنها أضافت «روج» على شفتيها

ومعهـا امـرأة عجوز فـي حوالي السـبعين ترتـدي جلبابا أسـود وتحيط رأسـها بغطاء رأس أسـود وليس على وجهها أي مكياج وجلست شاردة في صمت. قالت الفتاة لسعيد:

- هذه جدتي التي حدثتك عنها من قبل.

إذن جاء سعيد إلى هنا من قبل كما قال. لكنه كان ينظر لي مندهشا بما يشـي أنه لـم يقابلها من قبل. هل تكذب الفتـاة أم يكذب هو؟ هل اختلط عليها الأمر أم عليه هو؟

فكـرت أنني وقعت بيـن مجانين. هل دخل سـعيد بيتهم ولا أعرف. قالت الفتاة:

- طلبـت منـي أن تراهـا وها هـي. لكنهـا لا تتكلم مع أحد. سـمعها ضعيـف جدا وتسـتطيع الكلام لكنها منذ سـنوات اختـارت الصمت في الحياة. هي أخبرتني من قبل بكل ما حدثتك عنه.

قال سعيد مبتسما وحائرا:

- أنا لم أحضر هنا من قبل.

- كنت هنا. هل نسيت بهذه السرعة؟

ثم نظرت إليَّ وقالت:

- جدتـي قالـت لي وأنا صغيرة قبل أن تتوقـف عن الكلام إن نجيب محفـوظ كان يعرفهـا. كان كثير التردد على المكان ليس من أجل النسـاء

لكن من أجل الحشيش. آه والله! لم تنجب جدتي غير أمي، ولم تنجب أمي غيري ولا تسألني عن أبي أرجوك. نجيب محفوظ كان صديقا لجدتي وكتب روايته بداية ونهاية كلها هنا. كل شخصياتها كانوا حقيقيين عرفهم عن طريق جدتي. ماتوا جميعا وتركوا جدتي.

رحت أتطلع إلى صور فريد شوقي وسناء جميل وعمر الشريف وصلاح منصور. ثم قالت:

- جدتي كانت تحب نجيب محفوظ جدا. وعدها إذا تحولت الرواية لفيلم في يوم من الأيام أن يحضر لها هدية. وفعلا أحضر لها خاتما من الذهب.

وقامت أمسكت بيد جدتها رفعتها أمامنا وبها خاتم ذهبي فلاحظت أن ابتسامة تحركت على شفتي جدتها.

عادت تجلس مكانها وتقول:

- بعد هذا الخاتم لم يأتِ أبدا. ربما صمتها هذا لأنه لم يعد يأتي إلى هنا. قلت لك ذلك المرة السابقة وسألتك هل يمكن أن تحضره إلى هنا. لكنك أحضرت صديقا لك.

قال سعيد ضاحكا بصوت خفيض وقد اتسعت عيناه:

- قلت لكِ أنا لم أحضر إلى هنا من قبل. هل تعرفين اسمي مثلا؟

قالت الفتاة:

- طبعا. اسمك سامي فلماذا تنكر أنك أتيت من قبل؟

نظر إلي وهز رأسه وقال:

- إذن فقد أتيت فعلا لكني نسيت. أنا آسف.

كان واضحا أنه يريد أن ينتهي من الأمر كله خاصة أنها لا تعرف اسمه. وقالت هي:

- إياك أن تكون نسيت أيضا أن اسمي هدى.

قال بسرعة:

- لا طبعا يا هدى. هل يمكن أن أنساكِ؟

نظرت إلى الجدة فوجدتها تنظر إلي وقد فتحت عينيها الذابلتين ثم تنهض داخلة إلى غرفتها. تساءلت:

- هل كانت تسمعنا؟

- لا. لا بد أن نقترب من أذنها ونرفع أصواتنا. لكن صديقك هذا لم يفهمني. أنا أكذب عليها كلما حضر هنا أحد وأقول لها إنه يعرف الطريق إلى نجيب محفوظ وإنها ستراه يوما ويسعدها ذلك. على أي حال هي لن تزداد يأسا. ستبدأ الآن في الصلاة جالسة حتى الصباح وتنام.

خرجت فجأة من غرفة أخرى امرأة جميلة لكن أكبر من هدى إذ تبدو أنها تجاوزت الثلاثين، ترتدي قميص نوم أحمر قصيرا يكشف عن جسدها كله تقريبا ويظهر تحته «سوتيان» أسود و«كيلوت» أسود. قالت لهدى في صوت خشن:

- لماذا تركتيني كل هذا الوقت؟

ابتسمت هدى وقالت لسعيد:

- لا يوجد الليلة غيري وناهد. كل واحد يختار.

بدا سعيد منبهرا من جسد ناهد. قلت له بسرعة قبل أن يستدرك بسبب صوتها الخشن:

- اتركني مع هدى الليلة يا سعيد. سأكمل معها القصة. سأقول لها أين يجلس نجيب محفوظ لتذهب إليه مع جدتها.

قبل أن يتكلم كانت ناهد قد جلست إلى جواره وأحاطته بذراعيها. قمت أنا فقامت هدى ودخلنا غرفتها. ما إن تمددنا على السرير حتى قالت:

- حتى لو عرفت أين يجلس نجيب محفوظ لن أذهب إليه بها. لو رأته ستموت. هذه آخر أمانيها.

وبدت شاردة تنظر إلى السقف لا تنتبه لي.

18

هذا البقال الغبي الذي يفتح الراديو على خطاب جديد لأنور السادات هل يحبه حقا أم أن الخطاب شغل كل المحطات الإذاعية؟

كنت أقف في الطابور لأشتري سكرا وشايا. البلاد لا تزال تعاني من نقص كبير في السكر الذي إذا تواجد في المحلات أو الجمعيات التعاونية تقف أمامه طوابير طويلة. كذلك كان النقص في الزيت والأرز والدجاج وطبعا اللحم. لم يكن يهمني من هذا كله أنا الذي أتناول معظم غذائي في المطاعم غير السكر.. أشرب الشاي كثيرا أثناء السهر. مشهد الجمعيات التعاونية والطوابير أمامها صار مشهدا مألوفا في البلاد. كذلك وإن بدرجة أقل محلات البقالة رغم ارتفاع سعره فيها عن الجمعيات التعاونية. وقفت في الطابور أمام المحل. كل يوم خطبة للسادات جديدة أو معادة في الراديو والتلفزيون. إنه يشغل ثلاث ساعات تقريبا من الإرسال في المساء لخمسة أيام في الأسبوع على الأقل. لا أعرف ما الذي جعلني أنتبه للخطاب هذه المرة. ربما لأشغل نفسي به عن الطابور أنا الذي أشغل نفسي عنه دائما بالتفكير في بريجيت باردو أو مارلين مونرو وصوفيا لورين وجميلات السينما العالمية آخذهن إلى جزر بعيدة وأخلع ثيابي وسطهن وهن بدورهن يفعلن ذلك وأمارس معهن الجنس

تحت الأشجار وفي البحر. كان السادات يسخر من الشيوعيين والاتحاد السوفييتي والثورة البلشفية، وكان كعادته جادا جدا في الحديث فيما لا يستحق ذلك. قال فيما قال إن «لينين وأصحابه كانوا حرامية راحوا سرقوا البوستة في موسكو وقالوا عملوا ثورة. كانوا كلهم اتناشر ألف» قال إن «الشيوعية خلاص وإن العملا اللي هنا اللي سرقوا البلد في انتفاضة الحرامية في يناير لازم يعرفوا إن الاتحاد السوفييتي إلى زوال»!

حين جاء دوري لم أشتر السكر. تركت المحل وغضب كبير على وجهي وحزن أيضا. لا يزال رفاقي في السجن وهو يسخر من كل شيء جميل. اتجهت إلى محل صغير لبيع الخمور واشتريت زجاجة «أوزو». لتر كامل وعدت إلى البيت. جلست أشرب وأنا أعرف أن كأسا أو كأسين يكفياني رغم أني أمزج الأوزو الثقيل بالماء، وأني لن أشرب أبدا اللتر كله. لا أعرف ماذا جرى. قررت الانتحار بالخمر. هل لأن صفاء قفزت أمامي وقفزت معها كل ليالينا وأحلامي الضائعة، أم لوحدتي، أم حقا شعرت بعد خطاب السادات أنه لا أمل. أم إنني قررت الانتحار بعد أن ذهب الأوزو بعقلي؟ أمسكت بورقة صغيرة ثبتها على باب الغرفة من الخارج. عليها كتبت: «أيها الأصدقاء ستصبحون تجدوني ميتا. في هذه الحالة عليكم الاتصال بالأستاذ عمر إبراهيم في الثقافة الجماهيرية فهو يعرف عنوان أهلي في دمياط».

ظللت أشرب طول الليل. اسيقظت في اليوم التالي ظهرا ناسيا كل شيء. صداع كبير في رأسي. حركتي ثقيلة. رأيت زجاجة الأوزو الكبيرة

خاليـة أمامي وجوارها الكوب الفارغ وزجاجة الماء أيضا فارغة. لـم آكل معها شـيئا. فتحـت باب الغرفـة لأذهب إلـى الحمام. وجـدت الطلاب الأربعة الذين يسكنون معي يجلسون على مقاعد الصالة شبه متجمدين. رأونـي فصرخـوا: الحمد للـه. الحمد للـه. حضرتك عايـش. وأنا أقف بينهـم متحيرا. أشـاروا إلى الورقـة وقالوا: ليه كده بس يا أسـتاذ! إحنا ما رحنـاش الكلية النهـارده ومن الصبح خايفين نفتـح عليك الباب. نظرت إلـى الورقة فرأيت ما كتبتـه. خلعتها ومزقتها وقبلتهـم واحدا بعد الآخر معتذرا بجد وأنا أحتضنهم متأثرا من طيبتهم وغبائي.

***

زارنـي منـذ أيام والحر يدخل علـى القاهرة مبكـرا كالعادة. تصورت أن هناك حكاية أخرى ومغامرة جديدة سـنقوم بها لكنه ما إن جلس حتى قال:

- طبعا أنت إجازة اليوم لأنه عيد العمال.

اندهشت جدا. كدت أضحك. سعيد يعرف أن كل الأيام تقريبا إجازة بالنسبة لي. اكتفيت بالنظر إليه فقال:

- هل أنت سعيد هنا؟

- عادي. لا أشعر بسعادة أو تعاسة.

كنت أكذب عليه. صرت أشـعر بتعاسة شـديدة. فلا زالت صفاء تلح علي صورتها وحبنا الضائع يقفز أمامي بالألـم مهما بدا أني نسيت.

فوجئت به يقول:

- أنـا أيضا لـم أعد أعرف هل أنا سـعيد أم تعيـس. لا الذين أحببناهم استمروا معنـا ولا الذيـن قابلناهم في الليـل قابلناهم مرة ثانيـة. أجل أنا متأكـد أننا لو ذهبنا إلى شـارع كلوت بك لن نقابـل هدى ولا جدتها ولن نجدهما. سـنجد نسـاء أخريات، وإذا ذكرنا شـيئا من سـيرتهما ستعتبرنا النساء الجدد مجانين كما اعتبرنا هدى وجدتها.

وسكت قليلا ثم قال:

- سؤالي هو لماذا حقا يعيش كل منا بمفرده.

- سـأنتقل للعيـش معـك الآن يا سـعيد رغم أن الحزب لـن يدفع لي معك الإيجار.

لا أعرف كيف قلت ذلك فنظر لي مندهشا جدا. قلت:

- لا تندهش.

حكيت له القصة كلها. كانت دهشته تزداد ويبتسم حينا ويضحك آخر ثم قال.

- تكوينك الروحي ليس تكوين الكادر السياسـي. ولا أنا أيضا. رغم أني جربت السـجن. خرجت منه بعلاقات إنسانية طيبة لا أكثر ولم أتقدم أكثـر من ذلك فيها. لا أذكـره ولا أزايد به وأعتبر ما جرى نوعا من العبث في الحياة. الآن أجهز لإخراج مسرحية «في انتظار جودو» فهل يمكن أن أكون شيوعيا؟ لا أظن - ثم ضحك بقوة - يا عم إحنا عارفين نغير الشقة اللي عايشين فيها لما حنغير العالم!

ضحكت بقوة بدوري. وقمت أجمع ملابسي وكتبي في حقيبتين. كان فوق الدولاب عدد قليل من الكتب. مددت يدي أسحبها فسقط أحدها بين الدولاب والحائط. جذبت الدولاب بعيدا عن الحائط لأطول الكتاب فوجدت خلفه عشرين نسخة من مجلة الحزب السرية كنت أخفيتها من قبل ولم أحرقها يوم أحرقت المجلات. جلست أضحك وأطلعه عليها وأقول له لم يتم القبض عليَّ لأن أمي داعية لي فعلا فلا أظن أنهم لو فعلوا ذلك كانوا يتركون الدولاب في مكانه. كانوا سيجدونها وستكون أيضا دليل اتهام كبير. عشرون نسخة يا محترم دليل قوي جدا.

كان هو ينظر إليها مندهشا والمجلات بين يدي وقد تفرق بعضها ساقطا على الأرض. راح يجمعها معي. قلت له سأحرقها أيضا. قال:

- لا تستحق. فلنمزقها ونلقي بها في سلة المهملات قطعا صغيرة.

احتفظ هو بواحدة ضاحكا وقال:

- حاجة من سيرة المرحوم.

أدهشتني الكلمة وأدركت أن ما فعلته يعني حقا خروجي من الحزب ولا يبقى إلا أن أخطر أعضاء الخلية أو الرفيق الأكبر وكلهم في السجن حتى الآن باستثناء زكريا فخري.

حملت الحقيبة الأكبر وهو الأصغر وخرجنا. في الصالة توقفت لحظات أنادي على الشباب الأربعة. كان اثنان فقط منهم موجودين.

قلت لهما مبتسما إنني سأغادر المكان وإن عليهما إخطار السمسار وإنني لا أريد الشهر المقدم المدفوع له. كدت أقول الذي دفعه له الرفيق عامر! وقفا صامتين مرتبكين قليلا. صافحتهما وخرجت ومعي سعيد أفكر كيف حقا أمضيت هذا الوقت بين الطلاب الأربعة ولم نتبادل الأحاديث إلا نادرا. كيف كانوا ينادونني دائما بالأستاذ صابر رغم أن الفارق بيننا في العمر لا يتجاوز خمس سنوات تقريبا.

ما إن وصلنا بالتاكسي إلى شقة سعيد حتى قال مبتسما:

- اليوم نبدأ حياة جديدة مع عيد العمال.

ضحكت. أخذني إلى الست أم أمير. رأيتها سيدة جميلة بحق. جمالها ليس في وجهها فقط ولا في ملابسها المنزلية الأنيقة ولكن أيضا في بساطتها. رحبت بي باسمة وكان ابنها الأصغر فايز الذي قابلته من قبل جالسا ينظر إليّ سعيدا وتتسع عيناه بالفرح كأنه يعرفني كثيرا من قبل ويحبني.. اكتشفت أن لديها ابنة صغيرة في حوالي الثانية عشر، شقراء عذبة عيناها زرقاوان مثل عيني أمها أعدّت لنا كوبين من الشاي وقالت السيدة الجميلة إن العشاء الليلة سيكون هدية منها. بالفعل بعد ساعة أرسلت إلينا الابن الأصغر أمير بصينية عليها طبق كبير ممتلئ بالأرز فوقه دجاجة محمرة وبطاطس بوم فريت. هكذا رغم أن السكنى لا تشمل الطعام وستتقاضى شهريا ثلاثين جنيها منا معا بدلا من عشرين من سعيد وحده ففرش الغرفتين واضح أمامي نظافته. بدا لي جديدا رغم أنه ليس كذلك.

رحنا نأكل وصوت الممثلة نادية الجندي يصل إلينا من السينما التي خلفنا. عرفنا أنه فيلم «شوق» حين كان الممثلون ينادونها باسمها في الفيلم ثم ارتفعت الموسيقى والرقص البلدي!

***

عندما رآني سعيد أقف أمام صورته التي يبدو فيها سمينا جدا وعلى ذراعه فيها صورته على هيئته الحالية قال:

- أول مرة تراها؟

- رأيتها حين أتيت من قبل، وكلما قررت أسألك عن الحكاية أنسى.

ابتسم وقال:

- هل تذكر مسرحية مدرسة المشاغبين؟

- ومن لا يذكرها. آخر مرة أذاعوها في التلفزيون يوم 19 يناير بالليل بعد حظر التجوال.

ضحك وقال:

- كنت سمينا جدا كما ترى في الصورة؟ اختارني المخرج جلال الشرقاوي الذي شاهد مرة عرضا أخرجته في الجامعة وفاز بالجائزة الأولى على الجامعات. كان هو أحد المحكمين. قال لي إنني أصلح للتمثيل ولديه دور في مسرحية جديدة. أعطاني موعدا وقابلته. كانت

هي مسـرحية مدرسة المشاغبين. كان دوري هو الذي قام به يونس شلبي بعد ذلك.

اندهشت جدا. لكنه ضحك من جديد وقال:

- قبـل أن أوقع العقـد وأبدأ البروفـات معهم أصابتنـي حمى غريبة. دخلت المستشـفى. لم يعرفوا نوع الحمى. أعطوني كل الأدوية الممكنة حتى شـفيت بعد شهرين لكني خرجت من المستشفى وقد فقدت تقريبا نصف وزني. خرجت كما تراني الآن. طبعا لم ينتظرني جلال الشرقاوي وضـاع الدور منـي - ثم ضحك من جديـد - وحتى لـو انتظرني لم أكن لأصلح على هيئتي الجديدة.

رحت أنظر إليه صامتا ومندهشا. أسأل نفسي هل هذا معقول؟ وأشعر كم هو سيئ الحظ. لكنه ضحك وقال:

- كنـت أعمل موظفا فـي الجامعة لم أنتقل بعد إلى هنا. كل من رآني بعـد ذلك في العمـل كان يندفع باكيا - وراح يضحـك أكثر وتدمع عيناه من الضحك - المدهش هو أنني كنت اشـتريت قماش صوف وكان عند التـرزي ليحيـك منه بدلة جديدة لي. ذهبت إليه فسـألني نعـم يا ابني ماذا تريـد؟ قلـت له البدلة. قـال أي بدلة أنا لم أرك من قبل. قلت له أنا سـعيد صابر. لم يعرفني فأقسـمت له وحكيت لـه الحكاية فراح يبكي هو أيضا. كان قد انتهى من البدلة وكانت تتسـع لاثنين من حجمي الآن. في النهاية قرر أن يعيد تفصيلها وحياكتها بحيث تناسبني.

ضحكت وإن كنت أشعر بالحيرة تنتقل منه إليّ وبعض الألم أيضا. قلت متجاوزا المسألة:

- أنت هكذا أفضل.

- طبعا. لكن متى سيفاجئني القدر بالعودة إلى ما كنت عليه. لا أعرف؟

لم أجد ردا أقوله. سألته مبتسما:

- ما هي حكاية ابن عمك والفيشة.

ابتسم وقال:

- وأنا طفل كان فيه سلك كهرباء ممتدا من الراديو متصلا بفيشة في الكهرباء. السلك كان به نقطة مكشوفة من العزل لم يرها أحد. أمسكت بالمكان المكشوف والكهرباء راحت تهز فيّ بشكل رهيب وأمي تصرخ. ابن عمي كان عندنا جرى وسحب الفيشة من الكهرباء. أنقذني منه لله، آه والله. من ساعتها كل ما اتعب أقول ليه يا بن عمي شلت الفيشة.

وضحك ثم قال فجأة:

- ما رأيك في طريقة جديدة نقتل بها الملل؟

تساءلت:

- كيف؟

نهض وأحضر «طاولة» كانت عنده. وضعها بيننا على المنضدة فقلت:

- لعب الطاولة حل أكيد.

سكت قليلا ثم ابتسم وقال:

- أفكر أن نغير أسماءنا كل يوم.

لم أفهم فقال:

- يعني كل يوم يأخذ كل واحد منا اسما آخر. علي. أحمد. إسماعيل. عمر، وهكذا. سيساعدنا هذا كثيرا.

ضحكت فقال:

- صعب أليس كذلك؟ إذن كل أسبوع.

ضحكت أكثر فقال:

- نجرب.

سكت أشعر بالدهشة لا تفارق وجهي، فقال:

- أيضا سنحتاج أن نطهو الطعام. أنا مثلك آكل غالبا في المطاعم. لكن الأسعار في ارتفاع. أيضا لن نستطيع أن نطهو طعاما مختلفا كل يوم. ما رأيك أن نأكل كل أسبوع نوعا واحدا من الطعام؟

- سعيد! ماذا جرى لعقلك؟

- أنا اليوم لست سعيد. أجل سنبدأ الآن. أنا الآن عادل وأنت - وفكر قليلا - إبراهيم. ما رأيك؟

ازداد ضحكي فقال:

- من الغد سنأكل أسبوعا كاملا سلمون في الغداء والعشاء. طبعا أنت حر أن تأكل في الخارج، لكن هنا إذا جعت تأكل السلمون. سنشتري غدا عشر علب وإذا انتهت نشتري غيرها.

قلت ساخرا:

- والأسبوع القادم؟

قال:

- جبن وطماطم.

ثم انطلق في الضحك وقام ليعد لنا كوبين من الشاي لأننا سنسهر نلعب حتى ينفرد كل منا بكتاب يقرأه أو أكتب أنا مقالا جديدا. عاد من المطبخ وقال:

- أي شخص يأتي يسأل عني ستخرج له تقول إن لا أحد يسكن هنا اسمه سعيد. هنا يسكن علي - وضحك - حسب اسمي ذلك اليوم.

جلسنا نشرب الشاي ونضحك. بعد لحظات قلت لنفسي ما الذي يمنع أن أجرب معه هذا العبث. قد تمضي الحياة بشكل أفضل.

كان البرنامج الموسيقي كما يحدث كل ليلة يبث موسيقى خفيفة لأفلام رأينا الكثير منها. رحنا نتعرف عليها. جسر على نهر كواي. الأب الروحي. رجل وامرأة. زوربا اليوناني. وبعضها كنا لا نعرفه. كذلك رحنا نتعرف على كونشيرتات وسوناتات ومقاطع من باليه وسيمفونيات

سـمعنا أكثرها من قبل أيضا مثل ملحمة الأمير إيجور لبرودين والبوليرو لرافاييل وطقوس الربيع لسترافنسـكي ومارش السلاف لتشايكوفسكي. أمـا شـهرزاد فقـد عرفناهـا وقلنا معـا بصوت عالٍ، شـهرزاد لريمسـكي كورسـاكوف. تعرفنا على السـيمفونية الخامسـة لبيتهوفـن بتوزيع جديد لفريق الآبا.

مرت الليلة ونحن نلعب الطاولة معظم الليل ثم انتقل إلى سريره في الجزء الداخلي وأنا ظللت في الجزء الخارجي. لم ينسَ أن يقول لي:

- ليلتك سعيدة يا إبراهيم.

وجدت نفسي أقول:

- وأنت يا عادل.

***

فـي منتصـف مايو مـلأ الفضاء الحـر وصـارت القاهرة أكثـر جهامة رغـم أننـا لـم ندخـل في يوليـو بعد وهـو الصيـف الحقيقي. خـرج علي الكبير وسـراج منير من السجن. التقينا في اجتماعنا الأول. ضحكا كثيرا وضحكـت معهما أنا والمطرب زكريـا فخري وهما يحكيان طرائف أيام السجن. وعلي الكبير يحكي كيف حين دق جرس الباب في الفجر أدرك أن القادمين هم مباحث أمن الدولة ورأى لأول مرة القنبلة أمامه. لم يكن قـد رآها مـن قبل فجرى بها لا يعرف ماذا يفعل ثم وضعها بسـرعة داخل سـيفون الحمـام فلم ينتبهـوا إليها. وهو يقـول الله يخرب بيتـك يا صابر

يا مجنون.. ثم فتح لهم الباب.. في اللحظة التي بدأنا فيها نقترح برنامجا جديدا للقراءة والعمل قال المطرب زكريا فخري:

- في الحقيقة أتيت اليوم لأخبركم بسفري إلى بيروت. لم يعد لي مكان في مصر. صحيح أنا لم يقبض عليّ لكني أشعر أن الحركة الشيوعية مثالية جدا لن تزيد على الدخول إلى السجون والخروج منها. سأغني وأناضل بين المقاومة الفلسطينية خاصة أن الحرب الأهلية مشتعلة الآن والفلسطينيون يحتاجون من هم مثلي بشدة.

ابتسم سراج منير وقال:

- وأنا سأسافر إلى سوريا أشن الحرب على السادات من هناك.

تبادلنا أنا وعلي الكبير النظر في دهشة. وجدت نفسي أقول:

- أنا أيضا أريد الخروج من الحزب. للأسف حدثت أشياء كثيرة تجعلني أقرر ذلك.

وحكيت لهم ما جرى لي في الإسكندرية منذ أكثر من عام ونصف حين ذهبت بالمجلات إلى مسئول المنطقة الذي اتضح أنه كان وراء سجن أكثر أعضاء الحزب هناك بعد ذلك. كيف من يومها أفكر في هشاشة الحزب وكيف أني أوافق المطرب زكريا فخري على قوله إن الحركة الشيوعية لن تزيد على الدخول والخروج من السجن.

راح سراج منير يتكلم عن الأحزاب السرية الأخرى وكيف هي أقوى وأكثر تماسكا ثم في النهاية قال:

- لكن ما فعله السادات من السماح للأحزاب العلنية سيضعف، إن لم يكن أضعف بالفعل، كل الأحزاب السرية. ما جدوى العمل في السر إذا كان العمل في النور متاحا. ما جدوى أن تكون في حزب شيوعي سري وهناك حزب التجمع مثلا.

فوجئنا بعلي الكبير يضحك ويقول وهو ينهض من مكانه:

- ما دام الأمر كذلك فليس أمامي إلا أن أنهض أحضر لكم قطعة حشيش معتبرة تركها عندي الفاروق أبو أحمد الذي زارني أمس وسافر اليوم وأخذ القنبلة معه لا أعرف لماذا!

خرجت من الحزب فاتسعت الدنيا حولي. ليس بالضياع كما كان من قبل بل بالراحة. أحسست أن حكاية صفاء ابتعدت عني كثيرا. ربما صرت قادرا عليها دون أي هموم أخرى. لكن الوكالة الصحفية كانت قد أغلقت لأن مديرها في الأصل أحد الشيوعيين القدامى. ترك مصر بدوره منذ شهر إلى الكويت بعد أن شعر بالحصار يزداد حوله من أمن الدولة. لماذا حقا لا أفكر في السفر أنا أيضا. كيف سأجد لنفسي يوما بيتا نظيفا حسن الإضاءة. مهما نشرت الآن فلن أستطيع أن أدخر خمسمئة جنيه لأسكن في حي شعبي مثل «القصيرين» أو «الوايلي» فما بالك إذا أردت أن أسكن هنا في حدائق القبة.

لا أعرف كيف اقترن هذا التفكير في المستقبل برغبتي أن أرى صفاء الجديدة وأقيم معها علاقة أنهي بها تماما على ما بقي من علاقتي بصفاء الأولى. ربما لأن ضحكتها أطلت عليّ فجأة من فضاء الغرفة. الآن يكاد

شـهر مايو أن ينتهي وتنتهي امتحانـات الجامعة فلماذا لا أحاول الذهاب إلى كلية الإعلام، قد أجدها. إذا وجدتها يكون القدر هو الذي قرر القصة الجديـدة، وإذا لم أجدها يكون القدر أيضـا أراد إنهاءها. أجل التراجيديا اليونانيـة تتمثل لي الآن. سـأذهب إلـى مصيري رغم أني أعـي أني أفعل ذلـك علـى غير عادة أبطـال التراجيديا الذين يذهبون إلـى مصائرهم غير مدركين. وسأرضى بمصيري في كل حالة.

ذهبـت إلـى كليـة الإعلام. كانـت هـذه أول مـرة أدخل فيهـا جامعة القاهـرة. كانت أيام امتحانات ومن ثم فرصة لقائها قليلة لأنه قد لا يكون هذا يوم امتحانها. قررت إذا لم أجدها ألا أذهب مرة أخرى.

لدخـول جامعة القاهرة رهبة التاريخ. رحت أتطلع إلى سـاعتها وإلى أشـجارها ومبانيها العتيقة وما أضيف إليها من مبانٍ حديثة ليست بجمال القديمـة. والطـلاب والفتيـات يتحركـون حولي في اسـتغراق يراجعون دروسهم منفردين أو مجتمعين في قلق.

كيف حقا سـأعرف صفاء. هل أسـأل عنها؟ قالت لي إنها في السـنة الثالثـة. لا أعـرف مـن اسـمها غيـر صفـاء. قبل أن أفكـر كثيرا فـي الأمر وجدتهـا أمامي تضحك وتضـع يدها على فمها وهي تقـف بين طالبتين وطالب واحد.

انتبه يا إسـماعيل. هذه الضحكة ستكون سبب فنائك. وجدت نفسي أكاد أضحـك. وأنا أنادي نفسـي بإسـماعيل وهو اسـمي هذا الأسـبوع. ضحكـت فعـلا ووضعـت يدي علـى فمي مثلهـا أخفـي ضحكتي عمن

يمكـن أن يراني فيتصورني معتوها. رأتني من بعيد وجمدت نظرتها إليّ. تقدمت إليها بسرعة قائلا:

- صباح الخير يا صفاء.

اشـتعل وجهها بالدهشـة والخجل أيضا. بدا أنها فقـدت القدرة على الكلام فتأكد لي أنها لـم تنسني. نظر إليّ من حولها مندهشين من صمتها ونظرتها إليّ فقلت:

- مفاجـأة طبعـا. كنـت أعرف أنك فـي الامتحان. عرفـت من البيت عندكم؟

لكنها بسرعة تخلصت من ارتباكها قائلة:

- الأسـتاذ صابـر سـعيد. ناقـد أدبـي. كنت سـأدير معه حـوارا العام الماضي لمجلتنا في الكلية.

- أهلا.

قالت الفتاتان مبتسـمتان ثم انصرفتـا وانصرف الطالب بعد أن ودعوا صفـاء التي عادت إلى خجلها وبدا من جديد أنها غير قادرة على الكلام. قلت:

- جميل أنك لا زلتِ تذكرين اسـمي. وآسف جدا إذا كنت اقتحمت حياتك. أرجو ألا أضايقك. ومستعد أن أتركك فورا إذا أردتِ.

بـدا أنها ارتبكت أكثر فلم ترد. حرك هواء خفيف شـعرها المنسـدل على ظهرها قليلا. قلت:

- هذه المرة أيضا سأوصلك إلى باب اللوق، لكن ليس قبل أن نجلس قليلا وحدنا. أعرف سفينة جميلة اسمها علاء الدين تحت كوبري قصر النيل مباشرة.

قالت مبتسمة:

- يمكن أن توصلني إلى باب اللوق لأني لم أقل لأهلي أني سأتأخر اليوم ونلتقي في موعد آخر.

قلت مبتهجا:

- موافق يا صفاء. سنلتقي كثيرا جدا ولن نفترق.

19

صرت متلبسا بقلق الانتظار. سألت نفسي أكثر من مرة. هل معقول أنني سأحبها. هل معقول أنني سأشفى بها من صفاء الأولى. وهل ستساعدني العلاقة بها حقا على استكمال النسيان؟

كان سعيد ينظر إليّ كثيرا حين أشرد. صار شرودي أيضا حين ألعب معه الطاولة فكان يبتسم ويزداد دهشة. سألني:

- ما لك؟ منذ أيام وأنت كثير القلق والشرود.

فكرت أنه كان يعرف كل شيء عن علاقتي بصفاء الأولى وأنا لم أعرف شيئا عن قصة حبه بثريا ولقد فشلت القصتان. احترت ووجدت نفسي أضحك. أين أذهب حقا بمشاعري. لا الخروج بها نافع ولا طيها في القلب. وجدت نفسي أقول:

- يبدو أنني سأفعل ما نصحتني به أنت وعمر.

ابتسم.

- أنا لا أذكر شيئا نصحتك به.

- قابلت صفاء الثانية التي عرفتها يوم 18 نياير؟

فكر قليلا وقال:

- رائع.

قال ذلك بحماس ثم استطرد:

- أنا ليس لديّ وقت الآن لأفعل مثلك. لقد اكتشفت أني كنت حمارا إذ فكرت في الزواج.

قلت:

- طبعا. مثلك محاط بنساء كثيرات يفتحن له كل الطرق.

ضحك بقوة وقال:

- أخبرني باليوم الذي ستلتقي فيه معها حتى لا أحضر البنت الجديدة التي معي في نفس الوقت. مارس أنت رومانسيتك وسأمارس أنا عملي.

ابتسمت فقال:

- لا أعرف كيف نعيش في غرفة بلا باب؟ صاحبنا الضابط عبد الحليم يغلق باب غرفته سواء حضر أو لم يحضر!

- لماذا لا يخرجان أبدا من الشقة. ألا يستحمان مثلا. ألا يذهبان إلى دورة المياه؟

قال ضاحكا:

- لا بد يفعلان ذلك. نحن فقط ننشغل عنهما. ثم إننا لا نجلس في الشقة طول الوقت.

لكنـي كنت على يقيـن أنهما لا يخرجـان أبدًا من الشـقة إلى الحمام لا أعرف لماذا. ولم يكن أي منا يسمع لهما صوتا لا بالليل ولا بالنهار.

قال ضاحكا:

- THE SIELENT FUCK.

ثم سكت لحظة وقال:

- المشكلة في التلامذة.

قلت:

- صحيح لكن إذا أرادوا فليفعلوا مثله أومثلك.

قال وهو يهز رأسه:

- أحيانا أسـأل نفسـي كيف أفعل ما أفعله في الوقت الذي يرتفع فيه قريبا مني صوت الشـيخ كشك. هو في النهاية رجل دين يذكرك بالفضيلة رغـم مـا يقوله من عبث. آخر مرة سـمعت المرأة التـي كانت معي، وهي تحتي، صوتا يقول «الله أكبر» فارتعبت وسألتني ما هذا؟

ضحكت بقوة فقال:

- كانوا يصلّون وباب غرفتهم مفتوح فوصل الصوت إلينا.

- وماذا فعلت؟

- لا شيء. أكملنا لكن من دون نفس.

ضحكنا بصوت منخفض فقال:

- إنهـم في النهاية يحملونني كثيرا من الذنـوب. لا بد أن نجد طريقة نجعلهم يتركون بها الشقة.

- حرام. إنهم فقراء مساكين.

قام سعيد بعد ذلك بالحديث معهم بوضوح في الأمر. طلب منهم إذا صلـوا ومعه امرأة في الغرفة أن يغلقوا الباب. استجابوا له. بل واعتذروا عما حدث!

***

في سـفينة «عـلاء الدين» رحت أتأمل عينيها الصافيتين، وهي تبتسـم سعيدة وتقول:

- أنا لا أصدق ما حدث.

- لماذا؟

- نلتقي في مظاهرة ثم نلتقي على النيل.

وضحكـت ضحكتهـا السـاحرة التـي تقترن بوضـع يدها علـى فمها الصغير. قلت لها لقد تأخرت عليكِ.

- بصراحة لو كنت أتيت بسرعة كنت سأعتذر.

- لكن ضاعت أربعة أشهر.

- حضورك متأخرا يعني أنك لم تنسني.

- صعب أن ينسى الإنسان وجها كوجهك وعينين كعينيك.

كنت كلما قلت شيئا من الغزل أطرقت في خجل.

أمامنا كوبان من عصير الليمون، وحولنا عدد قليل من العشاق في السفينة الصغيرة، وصوت فريق الآبا يرتفع knowing me knowing you.

- تحبين فريق الآبا؟

- من لا يحبه.

- أنا أحب أوليفيا نيوتن جونز جدا.

- الله. أنا أيضا أحبها وأحب تينا تشارلز وفريق البكاراه.

قالت ذلك بحماس شديد فضحكنا مسرورين ثم قلت:

- وأحب أيضا فرانك سيناترا وخوليو إجليسيوس.

ومددت يدي حول كتفيها وجذبتها ناحيتي بهدوء. تركت يدي تمشي على شعرها الناعم لحظات ثم ابتعدت قليلا. قالت:

- آن لنا أن ننصرف.

- الساعة بعد الثامنة. انتظري حتى التاسعة.

- المرة القادمة.

قالت ذلك مبتسمة وهي تنظر لي نظرتها البريئة. تركنا السفينة ومشينا على كوبري قصر النيل. العشاق من الشباب يقفون يتطلعون إلى الماء.

كل شـاب أحاط كتفي حبيبته بذراعه. السفن في النيل تتحرك ومنها تأتي أصوات الغناء كما كنا نسمعها ونحن في السفينة. أضواء فندق سميراميس والمباني على الناحيتين تجعل المشـهد يفوق الفتنة والجمال. دخلنا في ميدان التحرير. عبرناه أسـفل الكوبري القبيح المسـتدير فوقه. سـيارات قليلـة فـي الميدان رغم أن الجو حار. وصلنـا إلى الرصيف الأيمن حيث مقهى أسـترا وعلـي بابا. تذكرت الرفيق الأكبر عامـر. تذكرت الفتاة التي أخذتها إلى بنسـيون روكسـي. ما كدت أدخل بصفاء شارع التحرير حتى رأيتهـا. الفتاة نفسـها قادمة في مواجهتي. ارتبكت. بسـرعة أمسـكت بيد صفـاء حتـى صارت الفتـاة أمامي تمامـا. انحرفت جانبا أنظر إلى أسـفل حتى عبرت. لاحظت ابتسامتها. لاحظت صفاء إطراقي إلى الأرض فبدا عليهـا السـرور من خجلي. لم تفهـم أني خفت أن أكون فـي ذاكرة الفتاة فتكلمنـي. هـؤلاء كثيرات منهـن اضطربت عقولهن من جـراء ما يحدث لهـن من مفاجـآت. امرأة ترتمـي مضطرة فـي أحضان عشـرات الرجال مختلفي الأشكال والطباع لا بد أن يضطرب عقلها.

كانـت الناحية اليمنى من شـارع التحريـر مزدحمة بالمـارة لا أعرف لماذا. كثيرون في مواجهتنا. انتقلت بها إلى الناحية الأخرى. مشـينا حتى وصلنـا أمام مقهى الحرية حيث يبدأ سـلم الكوبـري العلوي الذي يصل إلى الناحية الأخرى وبعده شارع منصور حتى محطة المترو.

- يكفي هنا.

قالت ذلك مبتسمة.

- سأصل معك إلى المحطة.

- لا داعي. قد يكون على المحطة أحد يعرفني ويعرف أسرتي فيراني معك.

نظرت إليها مندهشا. لقد مشينا معا مسافة طويلة جدا ولم تخف. ربما حقا فرصة أن يراها أحد وهي معي على المحطة أكبر. لكن هل هي خائفة حقا؟ لقد بدت سعيدة وراضية معي طول الوقت.

صافحتها. أمسكت بيدها الصغيرة في يدي لحظات حتى سحبتها مني بهدوء. كنا اتفقنا على موعد ثابت يوم الخميس من كل أسبوع في نفس السفينة.

صعدت الكوبري بينما وقفت أنا في مكاني أتابعها بنظري حتى وصلت تقريبا إلى منتصفه فإذا بها تلتفت لتراني ثم تستمر في طريقها. ظللت واقفا حتى نزلت السلم الآخر واختفت من أمام عيني.

***

- ماذا تفعل هنا؟

كان شخص يضع يده على كتفي. نظرت إليه فوجدته يحيى الأقصري. ضحكت.

- أهلا. فرصة سعيدة. مضى وقت طويل لم أرك. لكن هل تأتي هنا أيضا؟

- قلت أجرب مقهى الحرية. لم يعجبني. ضجة كبيرة. شربت زجاجة بيرة واحدة. سأكمل في متاتيا. ما رأيك أدعوك إلى الشرب معي وعلى حسابي والله؟

تذكـرت أن سـعيد لا بـد أتته الفتـاة الجديدة. قلـت فلأعطيه الفرصة أكثر.

- سأذهب معك.

قلت مبتسما. ركبنا تاكسي ووصلنا إلى بار متاتيا الذي بدا لي منقطعا عمـا حولـه في الدنيا. بل بـدا لي فجأة أنه ليس في الدنيا شـيء غيره. هل سينسـيني البـار الوقـت الجميل الذي قضيتـه مع صفاء أم سـيجعله ملء الدنيا؟

جلسـنا نشـرب البيرة معا. توقعت أن يحكي لي شـيئا مما يحدث في الأقصـر لكنـه دخل فـي صمت طويـل. طلب لنا مـزّات كثيـرة ومر بائع العصافير المشوية فاشترى لنا ثمانية. في الوقت الذي كان فيه أمامنا جبن بالطماطم ومش وسـلاطة وفول سـوداني وفول نابت وكبد دجاج. زحام من المزّات كلما انتهت طلب غيرها ثم سألني:

- لماذا لم يعد يصلني نساء أجنبيات من طرفك؟

لا يزال يذكر هايدا. ابتسمت. قلت:

- هايدا لم تتكرر.

- كيـف وأنت في القاهرة وناقد أدبي. لا بـد تعرف أجنبيات كثيرات يدرسن الأدب العربي.

- هل تعاني من نقص النساء الأجنبيات في الأقصر.

ضحك. قال:

- ليس أكثر منهن في الأقصر. لكن هايدا كانت شيئا آخر.

ذكـر لي أنه لم ينم معها حيـن التقينا من قبل. لقد بدأت الخمر تلعب برأسه. قال بعد صمت قليل:

- في الفترة الماضية شغلت نفسي كثيرا بقراءة الأساطير اليونانية.

- بصراحة جميلة جدا. مهمة جدا لأي كاتب.

سكت لحظات ثم قال:

- الفرق بين آلهة اليونان وآلهة المصريين كبير جدا.

سكت متوقعا أن يشرح.

- آلهـة اليونـان كانـت تنزل إلـى الأرض تمشـي بين النـاس. الآلهة من الرجال كانت تنزل من جبل الأوليمب وتعاشـر من تشـاء من النسـاء والعكس صحيح.

ابتسمت وقلت:

- طبعا تتمنى لو قابلت إلهة يونانية وعاشرتها.

ابتسم وقال:

- تخيل تخلف ولد ولا بنت من فينوس أو هيرا.

- فينوس أفضل طبعا لأن هيرا أولادها حيطلعوا ولاد كلب.

ضحكنا بقوة لفتت انتباه من حولنا. قال:

- وخصوصا لو بنت. زوجها سيطفش من البيت ويخونها مع كل النسوان. لكن فينوس أكيد ستنجب بنتا رائعة الجمال وطيبة جدا. آه والله.

قلت وأنا لا أنقطع عن الضحك.

- خلاص يا عم تخيل في أي وقت أن معك فينوس.

انتبهت إلى أني يمكن أن أفعل ذلك أيضا. ففي صفاء الثانية رقة وطيبة سماوية كما بدأت أشعر. لكنه قال شاردا:

- ليس هذا ما أفكر فيه. آلهة الفراعنة كانوا دائما بعيدين عن الأرض. الفراعنة أصل كل ديانات الشرق الأوسط. لذلك جاءت الديانات السماوية كلها تفصل بين الآلهة والناس. هل تعرف السبب الحقيقي للإلحاد؟

سكت. لم أعلق. قال:

- هذا البعد بين الآلهة والناس. لو الناس شافت الآلهة قدامهم لن تنساهم. لذلك أنا غلطت حين دعوت الشباب في الأقصر إلى عبادة إله فرعوني.

ذكرني بحكايته القديمة. كم مضى من الوقت ولا يزال يذكرها. يبدو أنها تركت فيه جرحا حقيقيا، وربما على عكس ما يقول كان يتمنى أن تنجح. لم أجد ما أقوله. لكنه فجأة ابتسم وقال:

- لكن بيني وبينك هكذا أفضل. أجل. لأنه لو الآلهة اختلطت بنا لن تستطيع الكلام مع أحد. أجل. أي شخص تتكلم معه الآن يقول لك هل

تعرف من أنا. أنا ضابط. أو أبي قاضٍ أو سفير. مش ناقصة حد يقول لك أنت ما تعرفش أنا مين. أنا ابن زيوس!!

ضحكت بقوة فقال:

- آه واللـه. وواحدة تقول لك أنا أمـي ديانا والا هيرا. مش حنخلص من الرجالة والنسوان.

انطلقنا نضحك ثم وقف فجأة وكوب البيرة في يده والتفت للجالسين ثم قال بصوت عالٍ:

- في صحة زيوس رب الأرباب بتاع النسوان.

وجلس بينما أنظار من سـمعوا تتجه إلينـا. بعضهم مندهش وأكثرهم مبتسـم. فوجئت بشـاب وسـيم يأتي إلينا على مهل مترنحا، وقف أمامنا وكأس بها نبيذ قليل في يده ويقول:

- لو سمحت لا تأتِ بسيرة زيوس مرة أخرى لأنه قريبي.

ضحكنا وضحك الشـاب الذي أخذ رشـفة من النبيذ وعاد إلى مكانه بسـرعة يضحـك ويرقص فـي الطريق. ثم نـزل علينا الصمـت حتى قال الأقصري:

- ستكسب كثيرا لو أتيت إلى الأقصر. صدقني.

- سأحضر قريبا. لا بد.

وصلـت إلـى البيت قبـل منتصف الليـل بقليل. كنـت أضحك طوال الطريق. دخلت البيت فلم أجد سـعيد وجلست أضحك. سمعت صوت

الطلاب الثلاثة يتحدثون وسمعت ضحكاتهم. كان باب غرفتهم مفتوحا. ما إن شعروا بدخولي حتى أغلقوا الحجرة وجاءني صوت الشيخ كشك من خلف الباب يقول «وأنام وأصحى على ابتسامتك بتقول لي عيش. تنامي وتصحي يا مرضعة قلاوون؟!» يقصد أم كلثوم طبعا وأغنيتها. لم أشأ أن أشغل نفسي به. خلعت ملابسي وارتديت بيجامتي وتمددت فوق السرير أضحك. تذكرت اللقاء القصير مع صفاء. لن أقول صفاء الثانية بعد الآن. أغمضت عينيّ لأني تذكرت مقولة إحسان عبد القدوس في روايته «الوسادة الخالية»: كل حب يمكن نسيانه إلا الحب الأول. أغمضت عينيّ وتقلبت في السرير لطرد الذكرى القديمة التي تستيقظ. أدركت أن الراديو صامت فأشعلته. أشعلته أم فتحته؟ في المدارس علمونا أن نقول أشعلت الراديو ولم أرَ راديو يحترق. الناس في لغتهم العادية يقولون فتحت الراديو ولم أرَ راديو مفتوحا فيظهر ما بداخله. بعض الكتاب يقولون أدرت الراديو والراديو أمامي وظهره في الخلف! ضحكت. لا يزال أثر الشراب معي. المؤكد والذي أشعر به رغم أي شيء هو أن الموسيقى تهادت فاشتعلت روحي وهي تملأ فضاء الغرفة حولي. من جديد موسيقى أفلام روميو وجولييت ورجل وامرأة وقصة حب. لماذا كل قصص الحب الجميلة تنتهي بالفراق؟ ولماذا كل الأغاني المصرية الجميلة عن الفراق؟ لكن الموسيقى تغيرت إلى سوناتات وكونشيرتات وأوبريتات. تشوقت لرؤية الموسيقى التي تملأ روحي كل ليلة بالشجن. لا أحد يستطيع رؤيتها. تمسك الرواية بيدك تقرأها وديوان الشعر وكتاب

الفلسفة وتشاهد اللوحة لكنك لا تمسك الموسيقى ولا تراها. هي سلم يتهادى من السماء يصعد بنا إليها. لو رأيت الموسيقى لسجدت لها.

***

دخل سعيد وما إن رآني حتى قال:

- تبدو مبسوطا جدا.

- يبدو يا سعيد أني سأحب بجد.

- هذا أول الغلط. أنا لست سعيد. هل نسيت يا علاء.

ضحكت بقوة وصفقت بيدي وقلت:

- حقك علي يا نادر.

ضحكنا معا. خلع ثيابه وارتدى بيجامته ثم عاد إليّ يجلس أمامي يقول:

- هناك كارثة.

- ماذا جرى. هل اعترض أحد على مجيء صاحبتك هنا؟

- لا طبعا. جاءت واستمتعنا وانصرفت. بالمناسبة أعدت لنا العشاء بنفسها. كنت قد أحضرت بطة طهتها لنا وطهت معها ملوخية وأرزا. نصيبك في المطبخ. لقد أكلت نصف البطة وحدي رغم أنها كانت كبيرة. هي أكلت الربع وباقي ربع لك. سامحني لأني غيرت اليوم نظام أكلنا!

نظرت إليه مندهشا فقال:

- لا تنظر لي. لقد بذلت مجهودا كبيرا وشعرت بجوع لم أشعر به أبدا من قبل بعد ممارسة الجنس. تراكم جوع!

كنا بدأنا أمس أسبوعا جديدا من التونة بعد أن كنا انتهينا من أسبوع العسل والطحينة. كان هناك قليل من العسل والطحينة في طبق ممتزجين فقلت ضاحكا سنحتاج أسابيع حتى نعود إلى العسل والطحينة من جديد فماذا سنفعل بما تبقى؟ فوجئت به ينهض ويتجه إلى المطبخ ويحضر الطبق الذي به العسل والطحينة ويدلقه على التونة ويأكل بالخبز وهو يقول: «انتهت المشكلة».

ضحكت كثيرا وأنا آكل أمس. شاركته في الأكل الملخبط فقال كل شيء يختلط في المعدة فلماذا يضع الإنسان لنفسه العراقيل!

تركته الليلة مسرعا إلى المطبخ بعد أن قلت البط يستحق أن نهدر النظام وهو يضحك. في الحقيقة كانت شهيتي كبيرة. سخنت الطعام لدقائق على البوتاجاز ثم عدت ووضعته أمامي على المنضدة التي سنلعب عليها الطاولة فوجدته يقول لي:

- لم تسأل عن الكارثة!

- بصراحة قضيت يوما جميلا. صفاء جماله الأول ويحيى الأقصري جماله الثاني.

- هل قابلته؟

- أجل.

قلت ذلك وأنا آكل. رحت أحكي له ما قاله لي الأقصري وهو لا يكف عن الضحك. بينما أرفع الأطباق فارغة إلى المطبخ من جديد قال:

- لا بد أن تعرف الكارثة. هذا أمر يهمك جدا.

عدت إليه قلقا بعض الشيء. وضعت الطاولة بيننا وقلت:

- قل لي ما هي الكارثة ونحن نلعب حتى لا تكون ثقيلة.

- عمر إبراهيم.

- هل جرى له شيء سيئ؟

- لا. لكنه كان قد اتصل بي في قصر الثقافة منذ أسبوعين. قال لي أن أخبرك أنك تتغيب أكثر مما يتحمل العمل هذه الأيام. هناك ندوات ولقاءات ثقافية كثيرة تنعقد في الأقاليم ووفود كثيرة تسافر.

- بسيطة. سأذهب غدا.

- المسألة أنه كلمني منذ أسبوعين، وأنا نسيت أكلمك. كان لك أسبوعان لم تذهب فيهما إلى العمل كما قال. الآن صار لك شهر كامل من الغياب.

قلت غير مبالٍ:

- العب يا نادر. سأذهب غدا. لقد أقلقتني وتصورت أن هناك كارثة حقيقية.

- الكارثة فيما فعلت أنا.

نظرت إليه وقد تعذر عليّ الفهم.. قال:

- اتصل بي عمر اليوم في قصر الثقافة. قال لي أن أخبرك أنه مضطر لتقييدك غيابا عن العمل. لم يصدق أني نسيت أن أخبرك بما قال، واعتبر أنك تستخف به فقلت له.....

وابتسم وهو يهز رأسه ثم وقف وقال:

- قلت له إني أخفي عليه كارثة حقيقية، وهي أنك تقريبا فقدت عقلك ولا ترد على أحد ولا تهتم بما حولك وتمضي ليلك ونهارك تلعب الطاولة مع نفسك فقط.

ضحكت بقوة ثم قلت:

- أكيد لن يصدق وسأذهب إليه غدا.

- للأسف صدقني. أبدى شفقة كبيرة عليك وقال إنه سيأتي غدا ليراك بنفسه وإنه يعرف طبيبا نفسيا كبيرا يمكن أن يعرضك عليه إذا لزم الأمر.

- ليس معقولا ما تقول يا نادر!

- هذا ما حدث. قلت له أيضا إنك لم تعد تذكر اسمك. وأن اسمك الذي تقوله لي دائما هو إسحق.

- نعم؟

هتفت مندهشا جدا فقال:

- هذا هو الاسـم الذي جاء ببالي، ولذلك أنت غدا اسـمك إسـحق. لا تنسَ ذلك.

اتفقنا حبكة في المسألة أن ألعب وأنا وحدي بالنهار الطاولة مع نفسي وأتحدث بصوت عالٍ كأن أحدا يلاعبني فيسـمعني الطلبة أيضا ويرونني فقد يحتاج سعيد إلى شهادتهم أمام عمر.

جـاء عمـر إبراهيم فـي اليـوم التالي فـي السـاعة السـابعة تماما كما أخبرني سـعيد. حين دخل من باب الشـقة المفتوح نادى سـعيد. بسرعة وضعت الطاولة أمامي ووزعت قواشـيطها كأني ألعب من قبل. أمسكت بالنرد ورحت ألعب مع نفسي. خرج سعيد ليعود بعمرمن الصالة فرآني جالسـا مندمجا مـع الطاولة ألقي بالنـرد وأردد ما يظهر من نقطه. شـيش يـاك. بانج دو. جهار سـه، دش. وانطلقت أضحك فرحا «بالدش» وعمر ينظر غير مصدق ويقول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم ناداني قائلا:

- صابر.

لم أرد. همس له سعيد في أذنه فناداني:

- إسحق.

نظرت إليه ثم عدت إلى اللعب.

في الحقيقة كنت أقاوم رغبة عارمة في الضحك. قال عمر مبتسما.

- أخشى أن تكون لعبة تلعبانها عليّ. لو كانت كذلك لن أسمح لك بالغياب مرة أخرى أبدا يا..... إسحق.

نظرت إليه نظرة حادة ثم تركت مكاني وذهبت إلى الحمام. دخلت لأضحك لكني لم أستطع أن أكبح جماحي فارتفع صوتي بالضحك بشكل جعل الطلاب الثلاثة يخرجون من حجرتهم مرعوبين يسألون سعيد وأسمع صوتهم من الحمام الذي لا زلت واقفا خلف بابه.

- لماذا يضحك الأستاذ صابر هكذا في الحمام يا أستاذ سعيد؟ ماذا جرى له؟ شوفه يا أستاذ سعيد الله يخليك. ثم إننا رأيناه اليوم يلعب طاولة مع نفسه كثيرا بحماس كبير كأنه يهزم أحدا أمامه.

خرجت من الحمام أضع يدي على فمي مثل صفاء. قلت للطلبة أنا آسف. ما إن رآني عمر من جديد حتى قال:

- خلاص. ضحكت. والله أنتم ولاد كلب.

رحت أضحك أنا وسعيد وهو أيضا بدأ يبتسم ابتسامته العريضة الطيبة. قال وهو يهز رأسه:

- حرام ما فعلتماه معي. منذ أمس وأنا حزين من أجلك. ورغم إحساسي أنها خدعة كدت أصدق خاصة بعد ما سمعته من الطلاب.

- معذرة يا أستاذ عمر. أردنا فقط أن نضحك معك.

قلت له ذلك وأنا أشعر بالخجل يرتفع إلى وجهي ثم أضفت:

- سعيد هو صاحب الاقتراح. لم يجد شيئا يفسر غيابي غير ما قال دون أن يفكر فيه. لقد حاولت أن أجعله صادقا.

قال سعيد:

- أنا أيضا أعتذر لك يا أستاذ عمر. وحتى أبرهن لك على صدقي في الاعتذار سأعزمكما الليلة على الغرزة. كل شيء سيكون على حسابي. الحشيش والطعام.

أمضينا وقتا ممتعا كالعادة في الغرزة. تعشينا حماما عند محل «فرحات». صافحنا عمر ليعود إلى بيته فسألته:

- هل تحتاجني حقا في العمل هذه الأيام؟

قال باسما:

- لا. خذ راحتك في الغياب. المهم لا تغير اسمك مرة أخرى حتى لا تنسى اسمك الأصلي.

ضحكنا. مشيت أنا وسعيد تملأ وجهينا الدهشة والسعادة. وجدت نفسي أقول:

- يبدو أن الأيام ستمضي حلوة مع صفاء يا سعيد.

قال ضاحكا.

- أتمنى يا إسحق. لا تنسَ مرة أخرى أن اسمي اليوم حسام. هذه هي أسـماؤنا الحقيقية. نضعهـا بأيدينا ونغيرها بأيدينا. دعـك مما فعلناه أمام عمر في الغرزة. كنا نكذب عليه بأسـمائنا المستعارة. أجل. صابر وسعيد أسـماؤنا المسـتعارة. لا أريـد أن أقول أسـماءنا الحركية حتـى لا أذكرك بالماضي. ولتحيا الحرية.

وأسرعنا ضاحكين.

20

كل ما فعلته مع صفاء الأولى فعلته مع صفاء! جلسنا عصرا في شارع الجبلاية واستطعت أن أفوز منها بأول قبلة. علّقت في عنقها كل ليلة عقد الفل. جلست معها في مقهى الفيشاوي. صعدت معها القلعة. ذهبت بها نهارا إلى الأهرام. وليلا إلى المقطم. زدت عليها ذهابنا إلى هرم سقارة. صارت هذه الأماكن كلها مسرحا لقبلاتي وأحضاني.

مشينا في شارع الغورية فكان له وقع آخر. كل ما مشينا فيه في منطقة الحسين والجمالية كان يحيطنا بعطر التاريخ وجلال الزمن. في شارع الغورية كانت الحركة كبيرة بين الباعة على العربات للملابس والطرح والشيلان والجلابيب وبين المحلات الصغيرة لمستلزمات النساء من مشابك الشعر حتى الخواتم الفضية والحلقان. وسط الحركة وأصوات الباعة ومرور النساء الذي لا ينقطع وبائع عرقسوس يمشي على مهل يرن بصاجاته ارتفع صوت محمد قنديل من أحد المحلات «يارايحين الغورية هاتوا لحبيبي هدية» أحطت صفاء بذراعي وضحكت وضحكت هي أيضا وغطت فمها بيدها الصغيرة. قلت لها لنتوقف نتفرج أو نشتري أي شيء حتى نسمع الأغنية كاملة. وحين قال «والله الجمال جبار.. خايف عليه وباغير.. لفوا على التجار.. وهاتولي تُل حرير.. أرخيه

على جبينـه ورموشـه وعيونـه.. دا الحلـو راضـي عليا» وجدت نفسـي أصـرخ هاتفا: «يـا ناس يا حلوين يا أجدع ناس في الدنيا أنا عايز أشـتري لحبيبتـي كل اللي قال عليـه محمد قنديل». وأحطتها مـن جديد بذراعي وقبلتها وأشـرت إليها أقول: «حد شاف جمال زي كده». أصاب الذهول الجميع. رجالا ونسـاءً وبعض النسـاء مرت بسـرعة من أمامي باعتباري مجنونـا والتفتت صفاء تكاد تخفي وجهها بيديها وأسـمعها تردد بصوت خفيـض: «مجنـون مجنون» لكن خرج رجل يرتـدي مثل كثير من الباعة هنـا الجلباب البلدي من أحد المحال واقترب مني مسـرعا وهتف: «وأنا موافـق، وعنـدي حتاخد كل حاجة بلاش» ثم نظر في الشـارع إلى الناس وهتف: «إحنا شـغلتنا الناس تفرح ملعون أبو الفلوس. شـربات يا ولد» فصفق كثير من القريبين منا وضحكوا وفوجئت بولد صغير يجري هاتفا: «حاضـر يا معلم»، ثم أشـار لي الرجل أن نجلس في دكانته حتى نشـرب الشربات ثم نأخذ ما نريد. ترددت صفاء لكني صرت أضحك وأقول لها أن تلبي رغبة الشعب. في النهاية ضحكت.

لكـن صفاء ترفض الحضور معي إلى الشـقة. كلما رفضت أغمضت عينـي وأقنعت نفسـي أن في ذلك سـترا لعلاقتنا فقد تأتـي فعلا وترفض أن نمـارس الجنـس في غرفة مفتوحة، وإذا وافقت قـد يدخل علينا أحد. لكنـي لـم أتوقف عن طلبي رغم خوفي من النهاية. شـاهدت معها أفلاما في السـينما كنـت أحيطها بذراعي أكثـر الوقت وأحيانا أقبلها. اكتشـفت سـينما أوديـون التي كانت تعرض أفلاما روسـية نـادرة وصارت تعرض أفـلام كاراتيه أمريكية قبيحـة لكنها لا زالت مكان العشـاق الحقيقي بين

السينمات في القاهرة. وكلما زاد تمنعها ازداد يقيني أنها ليست إلا للزواج. لكن كيف يمكن أن أفعل ذلك؟ معي ثلاثمئة جنيه ادخرتها في نصف العام الأخير. عملت في وكالة صحفية أخرى يقال إن صاحبها مسنود من الدولة. يأكل حقوق المتعاملين معه لكن في النهاية أجد ما أوفره. أجلت إخبار صفاء بحماسي لإيجار شقة حتى أسافر لأهلي في دمياط وأعود. لا بد أن ذلك سيكون وقعه رائعا عليها. مئتا جنيه أخرى وأستأجر شقة صغيرة في إمبابة أو كما أسمع في منطقة الهرم في مناطق جديدة وسط الحقول يقال عنها الطالبية والعمرانية. في دمياط حدثت أبي وأمي في الأمر. شملهما الصمت. هل يرفضون زواجي؟ دون أن أسألهم جاءت الإجابة: «كنا سنسألك أن تدبر لنا مثل هذا المبلغ لأن عريس أختك يقول إننا أطلنا الوقت في تجهيزها. ثلاث سنوات وأختك مخطوبة الآن. أختك الأخرى صارت في جامعة الإسكندرية مثلك وتستنفد كثيرا من المال». أعطيتهم المبلغ كله. بدأت أفكر جادا في السفر إلى أي دولة عربية. أساعد نفسي وأساعد أهلي. تحدثت مع صفاء في الأمر فخيم عليها الصمت. بدا عليها وجوم حقيقي.

- هل هذا يمنعك أن تخطبني؟

- لا. لكن هل يمكن أن أذهب إلى أسرتك وأقول إني لا أملك أي شيء.

- يمكن. أغلب الشباب في وضعنا. خاصة أنني اعترفت لأمي بكل شيء.

سكت مندهشا بدوري. سألتها:

- أخبرتيها أنك على علاقة بي.

- أخبرتها أنك تحبني وطلبت مني الزواج.

- وماذا كان رد فعلها؟

- قالت أن أطلب منك أن تخطبني، فهذا هو المعيار الوحيد لصدق العلاقة. وحدثت أبي في الأمر.

- والدك أيضا عرف؟

- أجل. أبي موظف ومثقف. بل وحدثني وقال الكلام نفسه. عرف مني ما قلته لأمي عنك. وظيفتك وكونك كاتبا أمامك مستقبل في الحياة الأدبية وأين تعمل. سامحني.

لم يعد أمامي غير أن أتقدم لخطبتها أو أنهي هذه العلاقة التي أتقدم فيها كل يوم سعيدا!. قلت لها أمهليني شهرا يا صفاء. ليس لدي أي سبب لكن سأقرر في نهاية هذا الشهر ما إذا كنت أستطيع أن أستمر في الحياة هنا وأدبر المطلوب لاستئجار شقة أم سأسافر حقا، لكن لا تغيبي عني هذا الشهر.

***

لم تأتِ صفاء في موعدها التالي. انتظرتها في المركب علاء الدين أكثر من ساعة. ما دامت صفاء أخبرتهم بقصتنا فلن يسمحوا لها بالخروج

للقائـي إلا بعد أن أخطبها. صرت في حالـة من الصمت أفكر ماذا أفعل. قلـت لنفسـي أنـت الآن في لحظـة فارقة. عليـك أن تقرر هل ستكسـب بالزواج منها أم لا. إذا ابتعدت الآن لن تخسـر شـيئا ولن تكون خسارتها هـي كبيـرة. وإذا تقدمت إليها فليس هناك أي مشـكلة. المهـم أن تجتهد للحصول على شقة. الأمر في يدك. وإذا فشلت لن تتوقف الدنيا وسيجد كل منكما من يسعده في زمن أفضل.

بعـد يومين طلبت صفاء في التليفون فجاءني صوت جميل قريب من صوتهـا أدركـت أنه صوت أمهـا. قالت إن صفاء غير موجودة وسـألتني مـن أكون. سـألتها من تكون وعرفت أنها أمها فعـلا فقلت لها إنني صابر سـعيد وإننـي أريـد أن أذهب إليهـم لأخطبها. سـكتت المـرأة فقلت لها سوف يحضر أبي فيما بعد ليطمئنوا تماما لكني الآن أريد فقط أن يتعرفوا عليّ.

ذهبـت إليهـم في المعـادي. حرصت علـى أن يكون مظهـري جيدا. حلقـت شـعري الكبير واشـتريت «بنطلـون» وقميصـا جديديـن وحذاءً جديدا. واشتريت علبة شيكولاتة صغيرة.

قابلنـي أبوها عنـد الباب وأخذني إلـى غرفة الصالـون. رأيت حولي شقة جميلة. متواضعة الأثاث حقا لكن نظيفة ومنسقة وباقة زهور طبيعية فـي أكثر مـن ركن. كان الرجل الذي يعرف بموعـدي يرتدي بدلة صيفية رماديـة كاملة ورباط عنـق أزرق فوق قميص أبيض وحـذاءً أبيض. كنت أعـرف من صفاء أنه موظف في الشـهر العقاري وأن أمها ناظرة مدرسـة

ابتدائية. دخلت أمها خلفنا ورحبت بي وجلست. لم أخفِ عنهما شيئا. حدثتهما بأمرعائلتي المتواضعة وأنني الآن لا أملك المال الكافي للحصول على شقة ولكني سأحاول وإن لم أستطع سأجد طريقة للسفر إلى بلد عربي ومن ثم سأستطيع أن تكون لي شقة. قلت متشجعا بجو السكينة الذي شعرت به بينهما إنني في الحقيقة أحب صفاء وسأكون نعم الزوج لها، وإنني أشعر الآن أن لي أهلا وأسرة جديدة في القاهرة.

كان الأب يستمع ولا يتكلم وكذلك الأم التي بدت جادة كأنما راحت الابتسامة من فوق وجهها. ثم تركني الاثنان وخرجا. جلست وحدي أشعر بقلق حقيقي منتظرا قرارهما. عشر دقائق كاملة وإذا بصفاء تدخل إلى الغرفة في أبهى ثياب. كدت أقفز أحتضنها لكني تماسكت. مدت يدها لي تصافحني مبتسمة وجلست أمامي وإذا بدمعة تقفز من عينيها.

- صفاء. هل رفضا زواجنا؟

هزت رأسها نافية والدمع ينزل.

- إذن لماذا تبكين؟

دخلت أمها باسمة ابتسامة لم أرَ في جمالها وهي تقول:

- صفاء فرحانة وتبكي من الفرحة. كانت خائفة أن لا تأتي. خلاص يا صفاء يا حبيبتي لا تبكِ. عريسك باين عليه ابن حلال وزي الفل أهه.

ضحكت صفاء سعيدة. مسحت دموعها بيدها ثم خرجت جارية. لحظات وعادت ووجهها أكثر إشراقا. دخلت بعدها أختها الأصغر

صافحتني باسمة. تشبهها كثيرا. عرفت أن اسمها وفاء وفي الثانية الإعدادية. عاد الرجل يجلس سعيدا يطلب مني أن لا أغادرهم إلا بعد أن أتناول العشاء معهم. اعتذرت رغم ما بدا من صفاء من رغبة أن أظل معهم. لم أشأ أن أبدو ثقيلا من البداية.

مشيت قليلا في المعادي بين الأشجار. ابتعدت قليلا عن ميدان الحرية ومشيت بين الفلل التي لا أعرف أصحابها. تذكرت عبد الحليم حافظ في فيلم «بنات اليوم». في البداية ابتسمت وأنا أتذكر ماجدة وهي تتعذب بحبها الصامت لعبد الحليم خطيب أختها آمال فريد. تذكرت كريمان وأحمد رمزي والحياة المتحررة وضحكت، لكن ارتفع من إحدى الفلل صوت عبد الحليم يغني «في يوم من الأيام كان لي قلب». وجدت نفسي أتذكره بعد أن فقد لبنى عبد العزيز في فيلم «الوسادة الخالية». كيف مشيت حقا مع صفاء الأولى في شارع السباق و لم أذهب بها إلى عين شمس حيث الآثار القديمة لأكتب عليها صابر وتكتب هي صفاء. هل لا تزال هذه الآثار موجودة. تشاءمت وشعرت بالضيق. ظهر تاكسي فقلت له أن يقلني إلى محطة المترو.

***

عدت إلى البيت سعيدا أفكر لماذا لم يصل الإنسان إلى اختراع تليفون صغير يكون في اليد يستطيع به الحبيب أن يكلم حبيبه في أي وقت. أذكر وأنا في السابعة من عمري أن سألت أبي لماذا لا يخترعون راديو صغيرا يحمله الإنسان معه يسمع ما يشاء في أي وقت. بعد سنوات

ظهر الراديو الترانزستور في مصر. ربما كان موجودا في العالم وأنا أسأل أبـي هذا السـؤال الذي جعله ينظـر إلي ويدعو الله أن يكون لي مسـتقبل عظيـم يتفق مع ذكائي. وحين ظهر الراديو الترانزسـتور في مصر كان أبي يقول لي ضاحكا: ها هو ما سألتني عنه في أيدي الناس جميعا. هل يمكن أن يكـون هناك هذا الاختـراع الآن؟ هناك تليفونات لاسـلكي مع رجال البوليس وفي الجيش لكنها كبيرة وليست متاحة للناس. هل من الصعب أن تكون أصغر من ذلك وتوضع في جيوب المحبين!

ضحكت وأنا صاعد إلى البيت. رآني سعيد أدخل ضاحكا فقال:

- تبدو سعيدا يا كمال.

انطلقت أضحك بقوة أكبر. اسـمي هذا الأسـبوع كمال وقد نسـيت. الحمد لله أني نسـيت وإلا كانت مسـخرة حقيقية لو قدمت نفسـي لأبي صفاء باسـم كمال. شعرت بالتفاؤل من الاسم للحظة ثم رحت أضحك مـن جديـد وهـو ينظر لـي مندهشـا. حكيت لـه كل ما مضى ثـم انتقلت أحدثه عن خيالي الذي ذهب إلى التليفون الصغير الذي يمكن أن يحمله الإنسان في جيبه. فكر قليلا وقد فتح عينيه على اتساعهما ثم قال:

- فكـرة مدهشـة. يمكن جـدا أن تحدث. هل تعرف أنهـم في أميركا الآن اخترعـوا جهـاز كومبيوتر يمكن أن تكتب عليه بدلا من الآلة الكاتبة وتحفـظ عليـه الكتابات وتتبادل عليه الرسـائل مع الناس. شـركة جديدة اسمها مايكرو سوفت.

قلت له:

- قرأت شـئيا عن ذلـك منذ عامين أو ثلاثة. حقا لمـاذا لم يظهر بعد في مصر.

- سـيظهر لا بد. أما إذا حدث اختراع التليفون الصغير هذا فسـتكون طفرة في التقدم الإنساني.

ثم فكر قليلا وضحك قائلا:

- لا يا عم. يا رب ما يحصل.

- لماذا؟

- سـتتابعك حبيبتـك فـي كل وقـت وكل مـكان وكل خمـس دقائق سـتتظاهر أنهـا تطمئـن عليك والحقيقـة أنها تريـد أن تعرف مـاذا تفعل. وسـتكون كارثة لو كان يحتفظ بالأرقام. سـتنام حضرتك وتقوم زوجتك بالتفتيـش عن مكالماتـك وتفتح لك تحقيقـا لمن هذه المكالـة ولماذا؟ العيشـة حتبقى هباب! يا رجل أنا شـفت أمي وأبي زمان يتشـاجران كل يوم لأنها تشـم ملابسـه بحثا عن رائحة مختلفة وتفتـش أيضا في جيوبه، فما بالك لو وجدت رقم تليفون لا تعرف صاحبه.

نظرت إليه نظرة طويلة وأنا جالس، ثم قلت له:

- إذن هيـا نلعب طاولة أحسـن. ومن فضلك أغلـق النافذة التي تأتي إلينا بصوت الفيلم المنيل الذي تعرضه السينما!

مددت يدي أسحب الطاولة وذهب هو إلى النافذة لكنه دخل البلكونة ولم يعد.

- سعيد.

لم يرد. تذكرت أن اسمه هذا الأسبوع جمال. ناديته:

- جمال.

لم يرد. انتظرت دقائق أدخن سيجارة ولم يعد. قمت إليه ودخلت إلى البلكونة. كنا في نهاية سبتمبر وبدأ برد الخريف الجميل ينعش البلاد. ما إن وقفت جواره أنظر حيث ينظر حتى تجمدت غير مصدق؟ خلفنا منزل من خمسة أدوار يفصلنا عنه منور واسع. في الدور الأرضي شقة خلفية دائما مغلقة نوافذها. تساءلنا عن ذلك كثيرا وكانت الإجابة التي نصل إليها أنها عادة من هم في الأدوار السفلى. يغلقون النوافذ معظم الوقت وربما كل الوقت ليلا لأن البيوت المقابلة تستطيع من المناور أن ترى من فيها وماذا يفعلون. شقق الأدوار السفلى دائما «مجروحة» أكثر من غيرها. همس لي:

- لا تتكلم.

لم أكن سأتكلم من الجمود الذي أصابني. أمامي غرفتان لكل منهما نافذة مفتوحة الشيش مغلقة الزجاج الذي يكشف خلفه كل شيء. في واحدة منها سرير ومقاعد. على أحد المقاعد يجلس رجل تجاوز الخمسين من ملامحه التي يظهرها الضوء القوي، يرتدي بيجامة ويمسك في يده مصحفا واضحا لنا، ويبدو مستغرقا في قراءة القرآن. في الغرفة الأخرى سرير عريض فوقه فتاتان تبدو إحداهما أكبر من الأخرى. تبدو

الصغرى في العشرين والكبرى تجاوزت الثلاثين ترتدي كل منهما قميص نوم. قميص الكبرى أحمر والصغرى أبيض يكشف عن أذرعهما ويشف عـن ملابسـهما الداخلية وبينهما ولد يبدو في الخامسـة عشـر من وجهه الذي يظهره الضوء لكنه سمين لحمه أبيض يرتدي بنطلون بيجامة وفانلة داخلية تكشـف عن ذراعيه السـمينين وصدره الأبيض الذي لـم يظهر فيه الشعر بعد. الفتاتان تحيطان بالغلام وتلفانه بسيقانهما وتمنعانه من القيام مـن بينهمـا، وكلما قاوم ونهض أعادتاه إلى السـرير على ظهـره وارتميتا فوقه من الناحيتين وراحت أيديهما تعبث في صدره وبطنه وأسـفل بطنه. هما لا تكفان عن الضحك لكن لا يأتي صوتهما إلينا والولد لا يكف عن المقاومة والرفض لكن صوته لا يصل إلينا أيضا.

- ما الذي يحدث هنا؟

همست. قال:

- أعرف هذا الولد. رأيته أكثر من مرة في محل البقالة القريب يشتري شـيئا. صاحب المحل حين يراه يضحـك والولد يتجهم. الولد يبدو غير ناضج قليلا. درجة قليلة من التخلف العقلي.

- هل تعرف البنتين؟

- لا. لكن واضح أنهما أختاه أو من أقاربه على أقل تقدير.

استطاع الولد أن يفلت منهما وينزل من فوق السرير بعد أن لف حول إحداهمـا فنزلتا وراءه وأمسـكتاه وهو يكاد يفتح البـاب خارجا وجذبتاه

مـن بنطلـون البيجامـة. واحـدة منهما نزلـت بالبنطلون إلى أسـفل فظهر سـرواله الداخلـي أبيض وردفـاه كبيران وفخـذاه بيضـاوان كبيرتان مثل أفخاذ النساء. قاوم ولـم ينجح ودفعتاه إلى السرير مرة أخرى ووقفتا أمامه تنظـران إليـه ضاحكتيـن ومتعبتين من المجهـود الذي أنفقتـاه في إعادته إلـى السـرير. الصغرى رفعت وجهها إلـى أعلى بحركـة لا إرادية فرأتنا. تسمّرت بنظرتها علينا. همست قائلا:

- رأتنا.

تراجعنا بهدوء وأغلقنا النافذة. كانت هي أيضا قد تقدمت إلى النافذة وراحت تغلقها غير ناظرة إلينا مرة أخرى.

رأيت سعيد حائرا يتلفت حوله قائلا:

- كيف لم أرَ ذلك من قبل؟

- قل كيف لا يسمعهم الرجل الذي يبدو أبوهم.

- صحيح. هومستغرق في قراءة القرآن.

وضرب سعيد كفيه في بعضهما وقال:

- أشياء غريبة تحدث في الدنيا - وضحك - كنت أظن أننا من نفعل الأشياء الغريبة. تعال نلعب يا عم حسن.

- كمال وليس حسن من فضلك. لم ينته الأسبوع بعد.

- كمـال أو حسـن. كلـه شـبه بعضه. يـا عم نرجـع لاسـمينا أفضل. لا شيء يتغير حولنا.

ضحكنا. لم يطل لعبنا. أغلق سعيد الطاولة فجأة وقال:

- لا أحد منا مندمج في اللعب. أنا أفكر فيما رأينا ولا بد أنك أيضا.

وقف. أشاح بالستارة ناظرا إلى باب الطلاب المغلق وقال:

- كنت نويت اليوم أن أتحدث معهم فيما يفعلون. لم أعد أتحمل خطب الشيخ كشك. فعلا لم أعد قادرا.

- ما رأيك أن نقنع أم أمير تطلب منهم مغادرة الشقة.

- حدثتها. ضحكت وقالت أنا قبطية يا أستاذ سعيد. هل نسيت؟

- خائفة؟

- ربما. ومحرجة طبعا. فكرت أترك أنا الشقة لكنها قريبة من عملي وقريبة أيضا من عملك الذي لا تذهب إليه وفي حدائق القبة. حي جميل.

وإذا به يعود من جديد يفتح الطاولة.

- لا فائدة. نعود لننهي هذا التوتر.

لم أنسَ بعد ذلك أن أطل من البلكونة أكثر من مرة بالليل لعلي أرى المشهد العجيب مرة أخرى ولم يحدث.

تقدمت في العلاقة مع صفاء إذ جاء أبي وأمي وخطباها لي رسميا من أبيها وأمها. اتفقنا أن يكون حفل الخطوبة في بداية العام الجديد. شهران يفصلاننا عنه الآن. سألت أبي لماذا حددت موعدا مبكرا هكذا. قال:

- حتى تنتبه إلى ما تكسب وتوفر شيئا منه.

نسي أن كل ما أوفره أرسله لهم. إذن عليّ أن أوفر ثلاثمئة جنيه لشراء الشبكة.

رحت مع صفاء ندور على محلات الذهب. ذهبنا إلى حي الحسين نجلس في مقهى الفيشاوي أكثر من مرة. في كل مرة نمشي في شارع المعز نتطلع إلى محلات الذهب ونقف أمامها نفكر فيما نختار حين تتوفر معي النقود. أحسست أن ما فعلته صحيح. أنه يجب أن أنتهي من هذه الحياة التي بلا هدف. أو يبدو هدفها بعيدا من جراء مقاطعتنا لصحف الدولة التي يرأسها السادات الذي لا نتفق مع سياسته، ثم ما نكسبه مرهون بالنشر في الخارج والنشر في الخارج يتعطل معظم الوقت. في النهاية استطعت أن أوفر مئتي جنيه مع نهاية العام. أعطيتهما لصفاء تحتفظ لي بهما. في نهاية يناير ستكون معي ثلاثمئة جنيه.

***

دخل الشتاء قويا مثل كل عام. زادت إحساسي به زيارة السادات للقدس في نوفمبر. مطر من كل ناحية. السياسيون والأدباء في ثورة في مصر وغضب. العالم العربي كله في غضب من السادات والدعوة لاجتماع الجامعة العربية لطرد مصر منها لكنها انتهت بتعليق عضويتها. قلب السادات كل موازين القوى، عندما خطب في مجلس الشعب قبل زيارته بأيام وقال إنه مستعد أن يذهب إلى القدس من أجل السلام بدأ التوجس ثم ظهرت الحقيقة. ربع قرن مضى على ثورة يوليو والدرس

الأول في المدارس تحرير فلسطين والقضاء على إسرائيل. كيف تتحمل النفوس؟ لكن الحزب الحاكم وحكومته أخرجا من الشركات والمصانع والمصالح الحكومية المظاهرات المؤيدة والمستقبلة للسادات. مظاهرات مدفوعة الأجر. مشهده وهو ينزل من الطائرة وفي انتظاره قيادات إسرائيل كان مذهلا للمصريين وكان مضحكا أيضا. جولدا مائير أهه. موشي ديان. ياه مناحم بيجن كمان. والناس تضحك وتضرب كفا بكف ثم تلعن السادات وأيامه. لكن سعيد سألني فجاة:

- كيف حقا تعيش بلا نساء؟

كنت حقا في حاجة إلى امرأة لكني أريد صفاء وليس غيرها. ولا أعرف كيف استطعت أن أقنعها بالحضور معي إلى الشقة. وافقت أخيرا حين عرفت أن غرفتنا بلا باب. ضحكت وقالت:

- إذًا لن أخاف منك أو من نفسي.

كانت تقصد أننا لن نستطيع أن نفعل شيئا لأن فرصة أن يرانا السكان الآخرون قائمة. وأضافت:

- فقط أريد أن أرى كيف تعيش مع سعيد الذي حدثتني عنه كثيرا.

رغم فرحي كنت طوال الطريق مترددا أفكر في العودة. صرت كما يقولون أقدم رجلا وأؤخر أخرى. صرت خائفا حقا من شيء ما لا أتوقعه. دخلت بها من باب الشقة المفتوح. كان الطلاب الثلاثة يتحركون في الصالة. ألقيت عليهم السلام فقالوا وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ونظروا إليّ فرأوا صفاء فدخلوا حجرتهم وأغلقوا الباب عليهم!

وقفت صفاء مندهشة من الغرفتين المفتوحيتن على بعضهما والمفتوحتين أيضا على الصالة. ضحكت ووضعت يدها على فمها ثم قالت:

- أنتما تعيشان في شارع.

وضحكت من جديد.

جلست على المقعد الوحيد ناحيتي والذي يجلس عليه سعيد حين يلاعبني الطاولة. جلست أنا على طرف السرير. قلت:

- لدينا مطبخ به شاي وسكر.

كنت في الحقيقة مضطربا.

- لا أريد. هل تريد أنت؟ يمكن أن أعمل لك أنا الشاي.

نظرت إليها نظرة طويلة أشعرأنها تحمل شوقا قد يغريها. مددت يدي وأمسكت يدها فجذبتها وقالت:

- وبعدين؟ اتفقنا أتفرج فقط على المكان.

كان هناك صوت حركة ضعيفة تحت السرير فانزعجت قليلا وقالت:

- ماذا يحدث؟ شيء ما يتحرك تحت السرير.

ضحكت. قلت:

- الباب الخارجي كما رأيتِ مفتوح. عادة نجد بالليل قطة أو قطتين تحت السرير نخرجهما. ربما دخلت قطة مبكرا اليوم.

كانت الساعة الخامسة والليل نزل على الدنيا وبدأ صوت المطر يأتي من الخارج قويا. ظهرعلى وجهها الذعر. قالت:

- ماذا سأفعل لو استمر هذا المطر؟

- تباتي هنا.

قلت ذلك وضحكت بينما زاد رعبها. قامت تفتح البلكونة لترى المطر وقوته فتمنيت أن تكون النوافذ الخلفية في الدور الأرضي مفتوحة وترى ما رأيناه فيثيرها.

فتحت النافذة فرأت المطر شديدا وسيدخل إلى الغرفة. أغلقتها وعادت.

وأنا ضاع اضطرابي. لكنها انتبهت إلى أن صوت الحركة تحت السرير يعلو.

- لازم تطرد القطة. أنا خائفة.

أمسكت بيديها.

- ماذا ستفعل؟

- لا شيء. سأطمئنك. لا تخافي.

أخذتها إلى صدري برفق، واحتضنتها. رحت أقبل خديها على مهل ثم انتقلت إلى عنقها فتنهدت ورأيتها تغمض عينيها وتهمس. لا. لا. أرجوك. تحاول أن تضغط على صدري بيديها تبعدني لكن الضغط تحول إلى إمساك بيديها في البلوفر وفي صدري نفسه. خايفة. خايفة.

تقول وأنا أحضنها أكثر في صدري وتركت يدي اليمنى تنزل إلى وسطها ثم إلى فخذها بينما أضغط عليها بيدي اليسرى. نزلت بيدي اليمنى أسفل الجيبة ثم أدخلتها تحتها أمسك بفخذها بعد أن انخفضت قليلا وإذا بها تبعد يدي بسرعة وقوة وسمعنا صوت حركة عنيفة أسفل السرير فابتعدت عني في هلع.

- لا. لا. لا يمكن. أنا لازم أروّح.

رأيت وجهها قد ذهبت منه الدماء وعينيها مسبلتين رغم أنها تنفعل بالكلام ثم عاد الدم إلى وجهها وهي تصر على الخروج وأنا أحاول تهدئتها. قالت بعنف:

- ما هي آخرة حكاية القطة هذه التي تحت السرير؟

قلت بهدوء:

- انتظري قليلا. سوف أخرجها. أعدك أنك ستنزلين بعد أن تهدئي ولن أتركك إلا في محطة باب اللوق، وقد أذهب معك إلى البيت أيضا.

جلست على المقعد شبه منهارة وقد وضعت رأسها بين يديها. ذهبت أنا بسرعة إلى المطبخ وعدت بمكنسة طويلة أدخلتها تحت السرير لأخرج القطة لكن شيئا سحب المكنسة إلى الداخل.

كانت هي قد رفعت يديها عن رأسها وترى ما أفعل فوقفت مذعورة وصرخت:

- مامي.

قلت أنا بهدوء ودهشة المرتبك:

- لا تخافي.

رفعت طرف ملاءة السرير وانحنيت أرى ماذا يوجد أسفله. وهي في رعب كبير. تراجعت بسرعة غير مصدق ووقفت هي في فزع.

- فيه إيه؟ نزلني من هنا بسرعة.

كانت كفان تظهران من تحت السرير وتخرجان أكثر، ثم ظهرت رأس امرأة وشعرها ونحن متجمدان حتى خرجت المرأة أمامنا ووقفت. كانت ترتدي روبا تحته ملابس منزلية وعنكبوت كثير وتراب يعلق بثيابها ووجهها وشعرها وقالت:

- فين المتنيل على عينه صاحبك. ابن الكلب اللي باعاكسه كل يوم وهو ولا هنا.

21

«حبيبتـي صفـاء. اتصلـت بـك عشـرات المـرات ولا أحد يـرد على تليفوناتـي. ذهبت إلى الكلية أكثر مـن مرة ولـم أجدك. أعطني فرصة ولو دقائق. أنا بريء مما رأيتِ. امرأة مجنونة فعلت ذلك فأضاعت حلم حياتي رغم أنها جاءت تقصد سـعيد ولقد سـمعتيها بنفسـك. كما أن سـعيد لا يفعل ذلك. كل شـيء حولي صار أسود يا صفاء. لا تتركيني لأني أحبك. أعطني الفرصة أن أشرح لك. مرة واحدة. مرة واحدة ولن تخسري شيئا يا أحب الناس. يا ابنة الله التي اصطفاني بها..........»

صـارت «بوسـتة» دير الملاك مـلاذي رغـم أن البريد لا يـزال يضيع رسـائل العشـاق! أبعـث منهـا الخطابـات ولا رد. لم تعد بي قـدرة على البقاء في المنزل. صرت أخرج بالليل أمشـي في شـوارع القاهرة القديمة بلا هدف رغم البرد. سـعيد الذي اعتبر نفسـه مسئولا بعض الشيء عما جرى كان يخرج معي. يقول ضاحكا: «أنت ترتدي الجاكت الشمواه وأنا ارتـدى البلوفر أو البدلة العادية وأعاني مـن البرد حتى أكفّر عن ذنب لم أرتكبه» بل أكثر من ذلك لم يعد يواعد نساءً في البيت. يعاقب نفسه أيضا مـن أجلي. يقـول متأثرا قد يكـون أبوها عاقلا ويأتي فجأة ليتأكد بنفسـه فيجد في الشـقة نسـاء فتضيع حتى فرصة الحديث معه وشـرح ما جرى.

كنت أشعر أن الأب لن يفعل ذلك، وأن صفاء لن تخبره أو تخبر أهلها بما جرى. لكن بلا شك تعرف أمها أنها تقاطعني فيا ترى أي سبب قالته لها؟ فـي روحي إحساس خفي بعودتها إلـيّ. أراها تتقلب في فراشـها حزينة وتصحو من نومها تائهة فيزداد ألمي. صرت أحبها حبا عظيما حقا. لكني كنت أرى سعيد أكثر من ليلة يقف في البلكونة ينظر إلى الشقة التي خلفنا في الدور الأول. لم تعد نوافذها تفتح. والمرأة انقطعت عن الحضور بعد أن طردتها تلك الليلة.

يومها سـألني سـعيد عنها وهل هي إحدى البنتيـن اللتين رأيناهما في العمارة الخلفية. قلت له لا تشـبه أيا منهما. تبدو أكبر. من هي إذن؟ كان متحيرا ويضرب كفا بكف. ألم تعرف حتى اسـمها أو أين تسـكن؟ قلت لك يا سعيد كانت ترتدي روبا وتحته جلباب وهذا يعني أنها تسكن قريبا منا. هل يهمك ذلك الآن؟ لا طبعا، لكن هذا الموضوع لن ينتهي بسهولة. قد تعود مرة أخرى. وقد يكون وراءها شيء خطر. أجل ربنا يستر. هكذا كانت حواراتنا كل يوم. أحيانا أشـعر بشـوق سـعيد الكبيـر للالتقاء بهذه المرأة.

***

قلت له باسما بينما أشعر بالمرارة من فراق صفاء:

- طبعـا لا بد تفكر أن هذه المرأة حالـة فنية. نوع من الناس أحبطتهم الحياة فيصنعن فرصا عبثية.

- أحيانا أفكر في ذلك. لكن دعنا نمشِ الآن.

كنـا فـي ميدان العتبة والسـاعة تقترب من الثانية بعـد منتصف الليل. الميـدان الصامت الآن الذي لا ترى عماراته القديمة الجميلة إلا في مثل هذا الوقت حيث يختفي البشر.

- أين يذهب كل هؤلاء الناس الذين تراهم بالنهار في الميدان؟

سألت سعيد فضحك وقال:

- مؤكد يعودون إلى بيوتهم؟

- وهل هناك بيوت تتسع لكل هؤلاء؟

ضحك من جديد وقال:

- طبعا لا يصعدون إلى السماء.

سكت قليلا وقلت:

- هل تعرف أني أسمع أصواتهم؟

نظر إليّ ولم يضحك هذه المرة ثم قال:

- ممكـن جدا. المـكان المزدحم بالنهار يحتفظ بالأصوات يرسـلها بالليل أيضا. المهم أن تراه مرة بالنهار. هل زرت ميدان السيدة عيشة؟

- لا.

- أرجـوك لا تذهـب لأن أصواتـه لـن تتحملها، لا وهـو مزدحم ولا وهو فارغ.

ورحنا نمشي في شارع الأزهر. رأينا ونحن نقترب من شارع الغوري عسكري بوليس عجوز يمشي على مهل أمام المحلات. ينحني أحيانا يمسك بالأقفال يتأكد من إغلاقها ويروح ويجيء أمامنا ونحن نقترب منه.

- هل لا يزال من الشرطة من يفعل ذلك؟

سألت فقال سعيد:

- شكله باقٍ من أفلام زمان ولم يعد إلى بيته بعد.

كنا نمشي ضاحكين وسعيد يقول إنه يشعر بالبرد الشديد. كل ذلك حتى أستعمل الجاكت الشمواه الذي يخنقني بالنهار. ليس له ذنب لكنه لن يتركني. كنت أعرف أنه في الحقيقة يساعدني في التخلص من حزني الكبير الذي أحدثه فراق ليس بيدي ولا أعرف لماذا دبره لي القدر. قلت:

- ما رأيك أن نستريح قليلا. لا بد سنجد مقهى ساهرا.

رأينا أحادا من الناس في جلابيبهم يهرعون عابرين الشارع إلى مسجد الحسين. صلاة الفجر إذن تقترب. بالفعل سمعنا صوت تواشيح الشيخ نصر الدين طوبار تأتي من ناحية المسجد وتملأ الفضاء بالسكينة. «نستنظر الغفران

وإليك نلوذ

نستنظر الغفران

من فيضك السخي العطاء»

ذهلت عن سـعيد قليلا أقاوم الشـجن الذي يتمدد في روحي ومشينا لا نفكر في الراحة. أنا الذي أسرعت قليلا والبرد يكاد يشعل وجهي رغم أنـي رفعت ياقة الجاكت العريضة المكفتـة بالفرو حول عنقي وجزءا من وجهي. أشفقت عليه لكني لم أعد حقا أفكر في الراحة.

عبرنا ميدان الحسـين ومشـينا. كل شـيء حولنا مغلق. لا يقابلنا أحد من جديد ولا حتى عسـكري بوليس. عبرنا مستشـفى الحسـين الجامعي وصار الشارع صعودا ولو قليلا. كنت أعرف أننا سنصل إلى شارع صلاح سـالم. كل ذلك ولا يفكر سـعيد في العودة ولا يطلب؟ رأيته صار بدوره ذاهـلا عني. رأيتـه يرفع النظارة عن وجهه ويمسـح دمعة. لـو أعرف فيمَ يفكـر الآن. هل هـذا الطواف يجدد روحه هو أيضا كمـا قال لي وأقنعني بأنه سـيجدد روحي؟ رغم أن انحدار الطريق ليس كبيرا لكني أحسسـت أني أصعد جبلا مقدسـا سأجلس فيه مطمئنا بين يدي الآلهة الحنون. قال سعيد فجأة وهو يشير إلى أسفل:

- انظر.

نظـرت إلى الأرض فوجـدت فوقها يرتفع ضباب خفيف يكاد يغطي نصف سيقاننا.

قال:

- هـذا يحـدث حين ينقشـع الضبـاب. هل رأيـت ضبابـا أمامنا حتى ينقشع؟

لم أكن قد رأيت ضبابا. ابتسـمت لكن الضباب صار يرتفع أكثر على غير ما نتوقع. قلت:

- شيء غريب. أخشى أن لا أراك بعد قليل.

لم أسمع منه ردا إذ صار يزداد ارتفاع الضباب عن الأرض حتى صار مثل سور بيننا وبين الفراغ خلفه.

- سعيد.

ناديته في حيرة. فقال:

- أنا جوارك لا تخف.

- لا أراك حقا.

ضحك.

- نعود.

- صبرا. أراه ينقشع.

- لكني أسمع أصواتا.

- أنا أيضا. انتظر. ليس أمامنا غير ذلك.

بالفعـل رأيت الضباب يبدأ في الانخفاض من أعلى من جديد. شـيئا فشيئا رأيت رأس سعيد وصدره ثم هبط الضباب إلى أقدامنا.

ضحكت لكن سعيد قال:

- ما هذا؟

رأيت أمامنا صفا من جنود الأمن المركزي يقفون في ملابسهم الشتوية السـوداء يحملون في أيديهم الدروع وعلـى وجوههم الأقنعة الواقية من الرصاص. كانوا يسدون الطريق كله ولا يتحركون من أماكنهم.

- كل هؤلاء الجنود ظهروا فجأة. لا سـيارة رأيناها تنزلهم ولا سيارة تقف لتحملهم.

سـعيد لـم يـرد. رأيته شـاخصا إلى الأمـام لا يتحرك فـي مكانه لكنه يرتعش.

- ما لك؟

- لا أتحمل البرد.

- النهار يستيقظ وسيتغير الجو.

كان ضوء الصباح ينزل على الدنيا على مهل.

- هيا نعود. لا داعي للاقتراب منهم.

- انتظر.

أمسك سعيد بيدي وأنا في حيرة. سألني:

- هل هؤلاء جنود حقيقيون؟

- ماذا تقصد؟

- يبدون لي كالأصنام. إنهم لا يتحركون. عادة حين يقف الجنود يصدرون أصواتا ويحركون أقدامهم.

- سعيد. أنا سأعود إلى ميدان الحسين وسأركب أي تاكسي من هناك؟

لم ينتظر ليسمعني. تحرك متقدما إلى الأمام يمشي على مهل وأنا أقف أنظر إليه في حيرة. كان يقترب من الجنود ولا أحد يتحرك منهم تجاهه أو يشير إليه بالتراجع. لا يزال الضباب رغم أنه لم يعد مرتفعا لكنه لا يفارق الأرض. بدا لي مثل دوامات من الماء لا تكف عن الحركة على مهل. اقترب سعيد جدا منهم ولم يتحرك أحد أيضا ثم دخل بينهم واختفى خلفهم.

لم أستطع أن أفعل مثله. بدا لي فجأة أنه يمكن أن يتغير الأمر حين أقترب منهم رغم أنني حتى الآن لا أرى منهم أي حركة.

التفت عائدا إلى ميدان الحسين قائلا لنفسي لا بد أنني سأقابله في البيت. للحظة وجدت نفسي أفكر هل حقا أمضيت الليلة مع سعيد وهل حقا أنا في الشارع الآن، أم أن ما أراه هو أحلام أو كوابيس؟

اقتربت من الميدان وكل بضع خطوات أنظر خلفي. خيل لي أن طابور الجنود يأتي ورائي. ضحكت من رعبي لأن الضوء ازداد في الميدان وأعدادا كبيرة كانت تخرج من مسجد الحسين. لا بد أنهم انتهوا من صلاة الفجر ومن سماع تواشيح الشيخ نصر الدين طوبار. بين

مسجد الحسين والجامع الأزهر رأيت تاكسي يأتي من الخلف. أشرت إليه فوقف وأنا أسأل نفسي كيف وصل إلى هنا، وهل عبر الجنود من الاتجاه المخالف. كدت أصدق أن ما أراه هو بالفعل أوهاما حقيقية، وأنني منذ الليل وأنا وحدي في الشوارع وسعيد لم يكن معي، لكني ما إن جلست في التاكسي حتى قال السائق:

- لا أعرف لماذا كل هذه الجنود تسد الطريق. لقد عدت وكنت آخذ طريقي إلى شارع صلاح سالم.

اتسعت عيناي. إذن ما رأيته صحيحا، وسعيد مرّ من بينهم. قلت:

- حظي حلو. لم أكن أحلم أن أجد تاكسي في هذا الوقت.

لم يرد فجلست صامتا حتى عاد بي إلى البيت. كدت أنام في التاكسي. رغم تعودي على السهر كل ليلة حتى الصباح لكني شعرت بحاجة كبيرة للنوم الليلة. ترى هل سأجد سعيد في البيت؟ وهل سأعرف منه ماذا حدث بعد عبوره؟

وجدته تحت البطانية يشرب كوبا من الليمون الدافئ أعده لنفسه. ما إن شعر بدخولي حتى قال:

- حمدا لله على السلامة. لماذا لم تعبر مثلي بين الأصنام؟

ضحكت. قلت:

- غريب أنهم حتى لم يتحركوا بعد عبورك. أي نوع من الجنود هم؟

قال ضاحكا:

- لا زلت تعتقد أنهم جنود حقيقيون. صدقني هم أصنام. تماثيل. وحين عبرت من بينهم اصطدمت ذراعي بأجسادهم. مثل الصخر يا أخي. والآن سأنام يا عزيزي.

- نم. وأنا أيضا.

- لكن هذه آخر مرة أخرج معك ليلا. أنت تخرج لتستخدم الجاكت الشمواه وأنا أموت من البرد.

ضحكت وأنا أخلع ثيابي. سعل سعيد ثم عطس أكثر من مرة وقال:

- يبدو أني أصبت ببرد شديد. ربنا يستر. لا أتحمل البرد وربما أرقد أسبوعا أو عشرة أيام. ربنا يستر لا ينقلب البرد إلى حمى أعود بعدها إلى وزني القديم!

كنت دخلت تحت السرير أرتجف. رحت في النوم لأصحو في المساء أجد سعيد كما هو في سريره يقظا لكنه يرتجف وقد صار فوقه غطاء ثقيل أضافته إليه أم أمير الذي كان معه يقدم إليه حبوب النوفالجين المسكنة.

***

كانت عشرة أيام تفصلنا عن ليلة رأس السنة. قضى سعيد معظمها في السرير وأنا لم أتركه إلا قليلا. كنت أراه متوترا أحيانا يضرب كفا بكف.

- لماذا هذا التوتر. لقد بدأت تشفى؟

- كنت أعد نفسي لسهرة كبيرة ليلة رأس السنة مع عدد من الفنانين الكبار. أخبرتهم أني سأصحب صديقا معي هو أنت طبعا. لكن هكذا لن أستطيع.

- ستكون بخير غدا أو بعد غد. ثلاثة أيام باقية على ليلة رأس السنة.

- وهل أذهب إليهم في فترة النقاهة أعديهم؟

قال ذلك وضحك. قلت:

- يا أخي نقضيها كما نقضي معظم الليالي نلعب الطاولة معا. ومن يدري قد تفتح الفتيات النوافذ خلفنا ونتفرج عليهن من جديد. لا بد سيحتفلن أيضا.

اشتريت في اليوم التالي زجاجة براندي كبيرة وزجاجة نبيذ. قلت له سنشربهما معا هنا بعد غد ونحن نحتفل معا.

سألني فجأة:

- ما رأيك في قصر القبة؟

اندهشت. سألته:

- ما له؟ هل سنسهر فيه؟

- أنا متأكد أن السادات سيسهر فيه.

- الله أعلم. هناك قصور كثيرة. وبيته في الدقي رائع طبعا. ويمكن أن يسهر في بيته في قريته «ميت أبو الكوم».

- لا . هو سيسهر في قصر القبة.

- طيب. لماذا تسألني رأيي؟

- سنسهر معه.

ضحكت بقوة.

- هل وجه لنا الدعوة ولا أعرف؟

- سنسهر في الحديقة التي أمامه.

- في الخلاء وسط البرد؟

- أنت معك جاكت رهيب ولدينا البراندي والنبيذ.

- سعيد. أنت مجنون. ستنتكس بالبرد مرة أخرى وسيكون أصعب.

- من زمان نفسي أحتفل برأس السنة في جنينة مع أبناء الشوارع. هذه أقرب جنينة لنا.

- هناك جنينة جوار البوستة في دير الملاك. هل نسيتها؟

- صغيرة. المهم أننا سنكون قريبا من السادات فإذا سكرنا شتمناه وسمعنا.

لم آخذه مأخذ الجد، لكنه بالفعل أقنعني بذلك. في الساعة العاشرة مساء ليلة رأس السنة خرجنا من الشقة في اتجاه قصر القبة. لم نركب الأوتوبيس. المسافة ليست طويلة. كنت أحمل زجاجتي النبيذ والبراندي في حقيبة بلاستيك، وهو يمشي جواري ضاحكا معظم الوقت. رأينا في

الحديقـة عددا قليلا من الرجال يجلسـون في صمـت ويعقدون أذرعهم علـى صدورهم من البرد. بـدا عليهم الفقر والحاجة. جلسـنا متجاورين علـى أحـد المقاعد الخشـبية. علـى يميننا سـور القصـر العتيـق وأمامنا حركـة المواصـلات وعلـى حـدود الجنينة أكثر مـن بائع لساندوتشـات الكبدة والسـجق فكانت الرائحة تملأ الجو وكذلك بائع كسكسـي. رغم الحركة حولنا كان الفضاء متسعا ثم بدأت الحركة تقل بيننا. كان مع بائع الكسكسي راديو يأتي منه صوت أم كلثوم تغني «أهل الهوى يا ليل» وكلما تقدمت في الأغنية صار الميدان أكثر فراغا من الناس وقلت الحركة أمامه من جميع الاتجاهات. كان هناك بائع للشـاي في الحديقة قال عنه سـعيد وعـن بقية الباعة إن هؤلاء تجدهم فـي كل الحدائق وهم عادة «عصافير» للمباحث العامة. سألته:

- هل يمكن أن تعتمد المباحث العامة على هؤلاء؟

- يمكـن جدا. هذا كلام عرفته من أحد الضباط ونحن في السـجن. كان ضابطا يشبه هاني شاكر - وراح يضحك - آه والله. كان وسيما جدا وقصيرا لا أعرف كيف التحق بكلية الشرطة وكان يبدو متعاطفا معنا.

سـكت ورحت أشـرب البراندي فـي هدوء. لم نأخـذ معنا أي مزات مـن الطعام وكان ذلك صعبا. نهض سـعيد وطلب من بائع الكبدة طبقين كبيريـن وبعـض الخبز وضعهـا بيننا على الكرسـي فرحنا نشـرب ونأكل على مهل. انتهت أم كلثوم وبدأ عبد الوهاب يغني «مسافر زاده الخيال»، وسعيد يهز رأسه ويضحك:

- طول عمري مسـافر في الخيال. لفيت الدنيا ولم أترك مصر. نفسي مرة واحدة أسافر بجد ولن أعود أبدا ولن أسمع عبد الوهاب.

تقدم الليل وبدأ الباعة ينصرفون. نادى سعيد بائع الكبدة وهو ينصرف طالبا أن يأخذ الطبقين الفارغين فقال:

- ارميهم في الزبالة. أطباق بلاستيك قديمة لا تصلح للأكل!

تبادلنـا النظـر نضحـك. لماذا إذن يسـتخدمها؟ أمسـك سـعيد بأحد الطبقيـن ونظر إليه ثم قذفه عاليا إلـى الطريق الذي صار خاليا فنزل على أرض الشـارع وراح يتدحـرج عليها حتى سـكن فأمسـك بالطبـق الثاني وفعـل به ما فعله بالأول ونحن نضحك، وبائع الكسـكي أمام عربته ينظر إلينا مندهشا.

- تصدق حين أتينا كان هناك كسكسي كثير على العربة. خلص.

- غريبة رغم أني لم أرَ أحدا يشتري.

- يبـدو أننا سـكرنا بجد لأنه من غيـر المعقول أن ينتهي الكسكسـي دون مستهلك.

ضحكنا ولم يرتفع صوتنا هذه المرة. لم يعد في الحديقة غيرنا وبائع الكسكسـي الـذي رأيناه يتقدم إلينـا حاملا طبقا من البلاسـتيك أيضا وبه كسكسي. ما إن صار أمامنا حتى وضعه بيننا على المقعد وقال:

- حرام أرجع به. وحرام أبيعه غدا. مني لكما هدية.

نظرنـا إليه مبتسـمين لا نتكلـم. كان فوق الطبق ملعقتيـن من المعدن لكن يبدو أنهما قديمتان جدا. قال سعيد:

- كم تريد؟

- قلت لك هدية مني يا أستاذ.

- حسنا لكن نحن لن نأكله الآن. سنفتح به السنة الجديدة - وضحك
- فهل تنتظر حتى تأخذ الطبق والملاعق؟

- ارمها كما رميت الطبقين السـابقين. ويا ريت تقدر ترميها من سـور القصر حتى يعرف الأفندي الذي يسمي نفسه الرئيس المؤمن كيف يأكل الشعب.

تركنا نضحك ودفع عربته الصغيرة أمامه واختفى بين الأضواء القليلة وبين البرد.

سـمعنا بعد قليـل أصوات هتاف وضحك وموسـيقى مختلفة تختلط ببعضهـا فـي الفضاء من خلـف النوافذ البعيدة. انطفأت أضواء الشـوارع حولنـا لحظـات ثم أضـاءت. لقد بدأت السـنة الجديدة. نظـر كل منا في ساعته وقلنا معا بلا اتفاق:

- كل سنة وأنت طيب.

ضحكنا وقلنا أيضا معا بلا اتفاق:

- هابي نيو يير.

ضحكنا مرة ثانية. رفعت وجهي إلى السماء فرأيت السحب الثقيلة. كان مطر متقطع قد سقط أمامنا لكن بدا لي أنه سينزل الآن بقوة. رآني سعيد أنظر إلى السماء فقال:

- لا تتذكر أحدا ولا تتذكر أي مشكلة واجهتها. دعنا ننعم بالسعادة بعد هذا الشراب وليذهب الجميع إلى الجحيم.

***

لم يكن ما معنا من شراب قد انتهى فرحنا نشرب ما تبقى صامتين حتى انتهينا في أقل من ساعة بعد أن انتهى العام السابق. عام 1977 بما حمل. نهضنا تاركين مكاننا نمشي عائدين في شارع الملك.

توقعت ألا ينتهي الشارع بنا فكلما تقدمت فيه بدا لي لا ينتهي. ليس للخمر تأثير الحشيش حقا لكن السكر إذا تمكن يكون مثل السطل، كلاهما يجعلك في منطقة من أثير. فقط مع الخمر أنت كثير الدهشة لكن مع الحشيش أنت كثير الانسجام!

صرنا نقترب من بعضنا أحيانا وأحيانا نبتعد، شملنا الصمت العجيب. «اجري». يقول سعيد أحيانا فنجري ثم نقف نضحك.

عاد المطر من جديد لكن خفيفا. ورأينا وسط الشارع رجلا يأتي من بعيد يرتدي ملابس ملونة وسط أضواء الشارع وعلى رأسه طرطور من ورق ملون أيضا ويسحب في يده حبلا طويلا جدا يمتد خلفه على الأرض.

- هناك شخص في القاهرة يمشي مثلنا وسط البرد والمطر الآن.

قال سعيد ضاحكا فقلت:

- واضح أنه سكران أكثر منا.

تقدم سعيد إليه بسرعة فتقدمت معه. وقف أمام الرجل يضحك ويقول:

- سكران مثلنا لا بأس فهذه ليلة رأس السنة. ترتدي بدلة أراجوز لا بأس أيضا. على رأسك طرطور البلد كلها طراطير. لكن ما هذا الحبل الذي معك؟

نظر الرجل حيث أشار سعيد فرأى الحبل في يده فقال ضاحكا:

- يا ليلة سودا. أنا وجدته في الطريق وبعد أن أمسكت به تركته. واضح أنه لصق في يدي.

ضحكنا ومد سعيد يده أمسك بالحبل قائلا:

- حسنا. إذن يمكن أن نأخذه منك.

أمسك سعيد بالحبل وراح يلفه ليكون دائرة صغيرة ثم يدخله في ذراعه يعلقه على كتفه رغم ما علق بالحبل من ماء ووحل. رفع الرجل الطرطور عن رأسه وقدمه لسعيد قائلا:

- خذ الطرطور أيضا. أنت قصير وقزعة وينفعك؟

وانطلق الرجل يضحك بقوة وسعادة. بدوري ضحكت لكن سعيد قال بجد غريب :

- سآخذ هدومك.

على الفور بدأ يفك أزرار جاكت الرجل الذي صار يقول لا..لا.. ويضحك وسعيد يفك الأزرار الباقية وينزع عنه الجاكت ويقذفها على الرصيف والرجل لا يقاوم بغير لا ويضحك. بدوري وجدت نفسي أنزع عن الرجل ملابسه أيضا وسط البرد القارس والمطر الخفيف. قلت لسعيد بعد أن صار الرجل أمامنا بملابسه الداخلية:

- حرام أن نتركه عاريا تماما.

ثم تركنا الرجل وجرينا ضاحكين والحبل معلق على كتف سعيد حتى دخلنا إلى الغرفة لا نكف عن الضحك.

وقفنا وسط الصالة ننظر إلى بعضنا وقد أنزل سعيد الحبل عن كتفه وأمسك به في يده وسألني مبتسما رافعا رأسه إليّ:

- ماذا يمكن أن نفعل بهذا الحبل؟

ثم انطلق يضحك ويقول:

- كنت قررت أن ألقي به في الطريق ولكني مثل الرجل نسيت. إياك أن تفكر أن تخلع عني ملابسي.

ضحكنا ثم قلت له:

- ليس من المعقول أن نلقي بحبل ثمين مثل هذا في الزبالة. لا بد أن نفعل به شيئا مفيدا.

راح يتأملني للحظات ثم نظر إلى باب غرفة الطلاب المغلق وصوت الشيخ كشك يتسرب منه إلينا وقال:

- ما رأيك أن نغلق عليهم ليظلوا يسمعوا الشيخ كشك إلى الأبد؟

لـم ينتظـر إجابتـي. تقدم ناحيـة الباب وأحـاط الأكرة بطـرف الحبل وعقـده عليها ثم مشـى به إلى الحمـام الذي لا يبتعد أكثر مـن مترين وأنا أتابعه في دهشة ولا أكف عن الضحك. أدار الحبل حول «خلاط الدش» ثم مشـى به عائدا إلى أكرة الباب فأداره عليها من جديد وضحكي يزداد، ثـم عاد به إلـى الحمام وأداره مرة أخرى حول الخـلاط وعقده عليه أكثر مـن عقدة. كان في كل مرة يجذب الحبـل بقوة فلا تكون هناك أي فرصة للترهل.

دخلنا غرفتنا نضحك.

عرفـت أننـي نمت بملابسـي لـم أغيرها وهـو أيضا فعـل ذلك حين استيقظنا بعد ظهر اليوم التالي لنجد الصالة مزدحمة بالناس والبوليس!

22

لـم يكن مافعلناه ليلة رأس السـنة سـببا في رحيلهم عن الشـقة. حين رأينا ضابط البوليس ومعه أمين الشـرطة وثلاثـة رجال فلاحين كما يبدو من زيهم وحولهم الطلاب وسـط الصالة، ابتسـم سـعيد بينما تكلفت أنا الجديـة. نظر ضابط البوليس إلينا وابتسـم في مكـر. أدرك أننا الفاعلان. لا بد من مظهرنا. هل هناك أثر أوضح من نوم اثنين بملابس الخروج ولا يزال أثر السكر عليهما.

سألني الضابط وأنا عائد من الحمام:

- لماذا فعلتما ذلك؟

كان سـعيد قـد اتجـه إلـى المطبخ يعـد لنفسـه قهـوة دون أن يتوقف ليسأل.

كانت أم أمير أيضا تقف وأمير معهم. حين رأتنا ابتسمت بينما اتسعت عينا أمير دهشة. حين ابتسمت نظر الضابط إليها ولا بد أن ابتسامتها أكدت له اعتقاده. همست للضابط مبتسما:

- بصراحـة لـن أكـذب عليـك. كنـا سـكرانين ولا أعرف مـاذا فعلنا بالضبط.

واتجهت للطلاب الثلاثة آخذهم في حضني أقبّل جباههم وخدودهم وأعتذر. لاحظت بينما أفعل ذلك أن الفلاحين الثلاثة يبتسمون فرحت أيضا أقبل الفلاحين وأعتذر. قلت:

- هم إخوتنا وأرجو أن تقبلوا اعتذارنا، وهم يعرفون كم نحبهم. إننا لا نتركهم وأساعدهم أحيانا حتى في طهو السمك؟ أليس كذلك يا عبد الونيس؟

كان عبد الونيس أكبرهم سنا فابتسم وبدا راضيا. نظر الضابط إلى الفلاحين الذين عرفنا أنهم آباؤهم فبان على وجوههم أيضا نوع من الرضا. أما كيف فتحوا الباب فقد عرفنا أنهم صرخوا من النافذة وسمعهم رجل في البيت المجاور فطلبوا منه أن يخبر الست أم أمير أن الباب مغلق عليهم. جاءت ففتحت لهم غير مصدقة ومعهم راحوا يفكرون من فعل ذلك. هي أدركت من أول وهلة أننا السبب لأنها دخلت غرفتنا ووجدتنا نائمين بملابسنا لكنها لم تقل لهم. هم بدورهم أخذهم الخوف فاتصلوا بعائلاتهم.

عاد سعيد من المطبخ ضاحكا ووقف يقول:

- خلاص صابر اعترف. كان يمكن أن لا نفعل ذلك. قدر الله وما شاء فعل. أليس الشيخ كشك يقول ذلك؟

ابتسم الضابط ابتسامة صغيرة سرعان ما أخفاها وقال:

- للأسف لا بد من فتح محضر. يعني تأتيان معي إلى قسم الحدائق.

تساءل سعيد:

- طيب وإذا غفروا لنا؟ ها أنذا أعتذر أيضا.

وراح يقبلهم جميعا. قال الضابط:

- إذا تنازلوا سوف أمضي ولن أحرر المحضر رغم أن هذا غير قانوني. يعني تنازلهم لا يجب أن يكون هنا. بل في قسم البوليس ما دمنا أتينا - ونظر إلى الطلاب - ما رأيكم؟

قال أكبر الفلاحين سنا:

- خلاص ياحضرة الضابط لا داعي لأي شيء. هؤلاء أولادنا الصغيرين وهؤلاء أولادنا الكبار.

انصرف الضابط وأمين الشرطة. أخذتنا أم أمير جميعا إلى شقتها صنعت لنا الشاي والقهوة واعتذرنا لهم مرة أخرى. لقد تأثرت حقا بقول أكبر آبائهم أننا أولادهم الكبار.

اندفعنا في الحديث عن أخلاق الأولاد الطيبة. هم بدورهم تحدثوا عنا كذلك وأم أمير تخفي دهشتها في ابتسامة تخصني بها تارة وسعيد تارة فهي تعرف أننا نأتي بالنسوان إلى الشقة وندخن الحشيش ونشرب الخمر. في النهاية تحول اللقاء إلى فكاهة وضحك فعم الرضا الجميع وعاد الفلاحون ليلا إلى بلدهم وأغلق الأولاد الباب عليهم وتركوا صوت الشيخ كشك كالعادة يصل إلينا.

فجأة ضرب سعيد جبهته بيده وقال هاتفا:

- وجدتها، عبد الونيس!؟

لم أفهم وراح يضحك بقوة ثم قال:

- كيف لم أدرك ذلك؟

- لا أفهمك. ماذا تقصد بالضبط؟

- ستعرف غدا. العب الطاولة فلن نترك البيت اليوم والمطر لا ينقطع. مساكين أهلهم لا بد أنهم يعانون من المطر الآن في طريق العودة.

بالفعل لم يشأ أن يخبرني بمعنى ما يقول. إذ طلب منهم سعيد بعد يومين من حديثه معي الاجتماع بنا. قال لعبد الونيس:

- اعذرني يا عبده لكن هناك شيء خطير لا بد أن تعرفه.

- ما هو أستاذ سعيد؟

- اسمك.

ابتسم عبد الونيس وقال:

- ماله اسمي؟

ثم راح يدور بعينيه مبتسما حائرا علينا. زميلاه ينظران إلينا أيضا وقد اتسعت عيونهما. قال سعيد:

- عبد الونيس.

هنا ضحك زميلاه. قال أحدهم:

- اسم وحش. قلنا له. لكنه اسم خاله.

قال سعيد:

- ليست هذه هي المشكلة. أنتم متعلمون متدينون. عبد المجيد مثلا تعني عبد الله لأن المجيد من أسماء الله الحسنى، كذلك عبد الرحمن وعبد البصير وعبد السميع وعبد المجيب وهكذا. لكن لا يوجد في أسماء الله الحسنى اسم الونيس.

كتمت ضحكي بيدي فتذكرت صفاء للحظة لكني رأيت الأولاد ينظرون إلى بعضهم في دهشة كبيرة. قال سعيد:

- الإنسان لا يكون عبدا إلا لله. لا يكون عبدا لبشر.

ارتبك عبد الونيس وراح يعض شفته السفلى فقال سعيد بسرعة:

- هل تعرف أن السعودية مثلا لا تحب اسم عبد النبي رغم أنها بلد النبي، وأي شخص اسمه عبد النبي يمكن أن لا يعمل هناك. بعضهم يضطر أن يغير اسمه إلى عبد رب النبي.

راحوا يتبادلون النظر في جدية وقلق واستمر سعيد:

- وطبعا كل إنسان يحلم الآن بالسفر إلى السعودية للعمل وأخشى أن لا تجد الفرصة لذلك بعد أن تتخرج في الجامعة.

حط علينا الصمت وأنا أحاول ألا أضحك. نظر عبد الونيس إلى الأرض لحظات فقال سعيد:

- اسأل حتى الشيخ كشك هل اسمك إسلامي أم لا.

رفع عبد الونيس وجهه إلى سعيد وقال:

- الونيس من أسماء الله الحسنى.

- خلاص. كما تشاء. أنا نصحتك كمسلم والمؤمن ناصح لأخيه وأنت مثل أخي الصغير. في النهاية أنت حر.

سكتنا من جديد لحظات ثم قام الثلاثة وتركونا دون كلام. دخلوا غرفتهم وأغلقوا الباب وسمعنا صوت أحدهم يضحك. في تلك الليلة في منتصف الليل سألت سعيد:

- ألا تلاحظ أننا لا نسمع الليلة صوت الشيخ كشك؟

ابتسم ثم ضحك دون أن يفتح فمه وراح صدره يهتز أمامي ثم همس:

- ولن تسمعه في الأيام القادمة.

قلت معجبا وضاحكا:

- كنت فين يا سعيد من زمان!

وضع إصبعه أمام فمه يحذرني من رفع الصوت ثم همس:

- سيبحث عن القائمة التي بها أسماء الله الحسنى. هي تباع بقرش صاغ في المحلات. سيجد أن كلامي صحيح ولن يستطيع مواجهتي بعد اليوم. سيغادر الشقة وزميلاه معه.

سألته:

- هل أنت متأكد أن الونيس ليس من أسماء الله الحسنى؟

- أجل.

- لكنه اسم شائع جدا في الريف.

- قدر الله وما شاء فعل.

قال ذلك ثم ضحك وراح يمشي أمامي راقصا ثم فجأة انحنى واستند على الأرض بيديه وبحركة بهلوانية رفع ساقيه إلى أعلى وراح يمشي فوق يديه وأنا في غاية الدهشة. خرج إلى الصالة وعاد على يديه ثم نزل بقدميه على الأرض ووقف يلهث ويقول:

- كان نفسي أعمل كده وأنا تخين. الحمد لله عملتها.

مضى يومان وفي اليوم الثالث قالت لنا أم فايز لقد غادر الطلبة الشقة فجأة. لا بد أنهم خافوا منكم بعد ما فعلتموه ليلة رأس السنة. ضحكنا ولم نذكر لها ما حدث.

***

كانت المئتا جنيه التي ادخرتها مع صفاء هي بحق أملي الوحيد. ليس لحاجتي إليها، ولكن ما دامت لم ترسلها لي فهناك أمل في اللقاء. أقول لنفسي ذلك رغم أنني في لحظات أكاد أستسلم للفراق. قلت لسعيد ونحن نجلس نلعب الطاولة فالمطر في الخارج قوي هذه الليلة:

- حتى الخطاب الأخير لم يحرك فيها شيئا ولم تحاول الاتصال بي.

نظر إليّ مبتسما فقلت وأنا أهز رأسي:

- خطاب طويل. كتبته في ثلاثين صفحة.

ترك الطاولة ووقف يضحك ويضرب كفيه ببعضهما. لم يتوقف عن الضحك للحظات وأنا الذي صرت أنظر إليه مندهشا بدأت أبتسم بدوري. راح يسعل من قوة الضحك ثم جلس من جديد. قلت:

- شرحت لها كل ما شرحته من قبل لكن بتوسع. كتبت لها كثيرا من أشعار الحب. هل صارت جمادا إلى هذه الدرجة؟

هز رأسه وقال:

- لا تزعل مني. هي لن ترد عليك.

- لماذا أنت متأكد إلى هذه الدرجة؟

- لأنها تحتاج على الأقل ثلاثة أشهر حتى تنتهي من قراءة الخطاب.

وقام ضاحكا وأنا أنظر إليه في غيظ ثم وجدت نفسي أضحك مثله. في الحقيقة لا أعرف كيف فعلت ذلك. لقد ترددت كثيرا في إرسال الخطاب بعد أن كتبته. قلت لنفسي ما يقوله سعيد. ثم إن هذا الخطاب قد يكون معبرا تماما عن ضعفي وانسحاقي أمام حبها وهذا قد يكون مردوده سيئا فليس كل النساء يقدرن ذلك. الرجل القوي عندهن دائما أفضل. لكن هذا ما جرى. سجلت الخطاب في البوستة حتى أضمن وصوله. ولا رد.

عاد سعيد يلعب ويقول:

- لقد تعبت بما يكفي يا صابر. عش حياتك وانسَ.

- قصتنا حب يا سعيد انتهيتا بالفشل!

- من يدري ربما ينتظرك النجاح الذي لا تعرفه.

سكت لحظات ثم قلت:

- عد أنت إلى حياتك ولا تهتم بي. لقد تخلصنا من الأولاد أتباع الشيخ كشك والدنيا صارت أوسع. ربما يكون هذا فألا طيبا.

- تعرف أنهم كانوا طيبين. والله لقد ظلمناهم. البيت كان فيه الرذيلة منا والفضيلة منهم. يعني توازن كان ممكن يفيدنا يوم القيامة.

قال ذلك ثم ابتسم وهو يهز رأسه وأنا أسأل نفسي وهل يغفر الله لنا بأعمال الآخرين؟ لكنه عاد يضحك ويقول:

- رغم أن كلام الشيخ كشك هذا غير مضمون ثوابه لأنه يشتم كثيرا.

- العب يا سعيد. لا تحملنا ذنوبا جديدة.

***

في زيارة إلى علي الكبير الذي لم أنقطع عن زيارته، قابلت شابا سعوديا يجلس سعيدا مع علي والفاروق أبو أحمد الذي يدور عليهما بالحشيش. قدمنا علي الكبير إلى بعضنا فقال الشاب السعودي الذي عرفت أن اسمه محمد القاسمي إنه قرأ لي مقالا جميلا في مجلة الهلال التي مسموح بدخولها إلى السعودية. قلت في نفسي إذن هي بداية طيبة.

فكرت أنه لا ينقص هذه الجلسة غير سراج منير و زكريا فخري اللذين تركا البلاد ولا أعرف لماذا تذكرت أحمد عبد السلام الذي سافر

إلى أفريقيا. دهشت حين سأل الفاروق أبو أحمد عنه علي الكبير الذي أجابه أنه لم يعد من زيارته الأخيرة لأفريقيا بعد. قال الفاروق ضاحكا:

- شكله ضاع هناك؟ أو يمكن دخل الغابة أكله نمر.

ضحكنا. كان الشاب السعودي يبدو سعيدا وهو يجلس بين شيوعيين مصريين. قلت في نفسي لا بد أنه جاء كثيرا من قبل واعتبر الحشيش طقسا شيوعيا. قال لي علي الكبير إنه أيضا شيوعي لكن لا يستطيع أن يجهر بذلك في السعودية. إن هناك كثيرا من الشيوعيين السعوديين في ألمانيا الغربية وأوربا يتصلون بمحمد ويسافر أحيانا إليهم.

بدا لي الكلام مضحكا أو أسطوريا لكني كنت أوافقهم على ما يقولون وأدخن معهم. فجأة سألت محمد:

- ما هي فرص العمل لكاتب مثلي عندكم.

- تختار السعودية. هل هذا معقول؟

سكت لحظات ثم قلت:

- لا أريد الذهاب إلى بلد أشتم منه السادات ونظامه. أنا أقول رأيي هنا.

بدا معجبا بكلامي وهو ينظر إليّ ثم سأل علي:

- ما رأيك يا علي. هل ترى صابر جادا؟

- بصراحـة عنده حق. هو يحتاج إلى شـقة في القاهـرة. أنا أتيت منذ زمن وحصلت على هذه الشـقة. دفعت مئتي جنيه مقدم إيجار فقط. الآن ألف جنيه لتسكن في إمبابة وهو لن يستطيع.

بعد أسبوعين وصلني خطاب في عملي من محمد فيه رسالة وموافقة على عملي في المجلة الشهرية الجديدة التي يعمل بها ويكتب الآن. لقد أخذ محمد القاسـمي الموضوع بجدية فائقة. إذن عليّ أن أسـافر وأنسى كل شـيء حـدث هنا. البريـد يصل بالرسـائل التي تدعم الفـراق. ذهبت صفاء نفسها فهل هناك معنى أن أنتظر المئتي جنيه التي معها!

***

- هل معقول ستسافر؟

سـألني سـعيد الذي شـحب وجهه فجأة بعد أن أعلنته بالخبر. كنا في نهاية شهر مارس. بدأت بشائر الربيع ترابا وحرارة قليلة.

- لـم يعـد لي ما أفعله هنـا. الوكالات الصحفية العربيـة أغلقت كلها تقريبا. وإذا أرسـلت مقالا بالبريد لا تضمن أن يصل بعد هذه القطيعة مع الدول العربية وإذا وصل لا تضمن أن ينشر.

ضحك ساخرا وقال:

- وإذا نشر لا تضمن أن تحصل على مكافأة.

- بالضبط.

- عصـر جميل. مصر فوق الجميع لا يجد أبناؤها قوتهم. لكن.. هل انتهى موضوع صفاء تماما؟

- أخرجتها من روحي.

- والفلوس؟

كان يعرف بأمرها. قلت:

- لا حاجة لي بها.

- أنت جميل يا صابر.

ونظر لي متأثرا ثم قال بعد خلع نظارته ومسح دمعة صغيرة:

- قد تفرق بيننا الأيام فلا تنسَ ما وعدتني به. أن تكتب يوما قصتنا معا.

- أجل. لا بد.

قلت متأثرا بدوري فانتبه وفتح عينيه وقال:

- ماذا جرى. إننا نتحدث كأنك مسافرغدا؟

وقام وفرد الطاولة بيننا على المنضدة ثم قال ضاحكا:

- ليلة أخرى تضيع ليست هناك مشكلة.

- لم يعد لدينا سكر. سأنزل أشتري.

- ياه. ستجد زحاما شديدا. بمناسبة السعودية والسكر بيقول لك الملك فيصل جاء يزور مصر قبل أن يموت وطلب من السادات أن يصحبه في جولة بالشوارع ليرى الشعب المصري. وبينما هما يسيران

رأى الملـك فيصـل طابورا طويـلا أمام جمعية تعاونية فسـأل السـادات لماذا يقف كل هؤلاء الناس هنا. ارتبك السـادات ولـم يستطع أن يقول له الحقيقة فقال له إنهم يقدمون واجب العزاء في أحد الميتين. بسرعة تقدم الملـك فيصـل ليأخذ الثـواب بالعزاء. قابله شـخص خارج مـن الطابور فصافحه الملك فيصل وسـأله: «عزيت!» فقال المصري: «لا وحياتك ع السكر وخلص مالحقتوش!».

ضحكنا. وقفت ونزلت لأشـتري السكر. وجدت طابورا من الرجال والسيدات أمام المحل. وقفت آخر الطابور فلم يأتِ بعدي أحد. وجدت سيدة تنزل من التاكسي وتقف لحظة تنظر إليّ ثم تمشي إلى زقاق قريب يتفـرع من الشـارع. وقفت مـن جديد قبل أن تدخل الزقاق وأشـارت لي بيدهـا. ارتبكـت. تبدو جميلة وترتدي تاييرا جميلا. أشـرت إلى صدري بإصبعي أعني هل تقصدني فهزت رأسها أن نعم ودخلت الزقاق. ترددت لحظـة ثم تركت مكاني غير مبالٍ. اقتربت منها مندهشـا من جرأتها حتى وصلت إليها فنظرت إلي وقالت هامسة:

- أنت أهبل؟

ارتبكت أكثر. قلت لها:

- حضرتك أشرتي لي لتقولي ذلك؟ شكرا.

التفت لأعود معتبرا أنها مجنونة فقالت:

- انتظر.

- ماذا تريدين. هل تعرفينني؟

هزت رأسها في استنكار:

- حتى الآن لم تعرفني؟ لعلمك أنا حضرت لأقابلك أنت وليس صديقك القزعة. طردتني ولم تعطني فرصة أن أخبرك بذلك.

نظرت إليها غير مصدق. إنها المرأة التي كانت تحت السرير. الآن تأكدت من وجهها. قالت:

- سألتك عن صديقك بسبب البنت البلهاء التي كانت معك حتى لا تسيء الظن بك. فهمت أم لا زلت أبلها؟

لم أرد فقالت:

- سآتي غدا. لا تجعل صديقك يكون موجودا. سأحضر في العاشرة مساءً. مثل هذا الوقت. ما رأيك؟

وجدت نفسي أقول:

- تعالي بالنهار أفضل. في الثالثة عصرا. لا أحد سيكون بالشقة كلها؟

ابتسمت وتركتني ثم عادت إلى شارع الشيخ الأجهوري الذي نزلت فيه من التاكسي. الشارع الذي سأعود إليه أيضا، والذي أشتري السكر من بقال قريب من نهايته عند شارع الملك. هي إذن لا تسكن في هذا الزقاق لكنها دخلته لتناديني وتحدثني. من ضمن لها ألا يمرّ بنا أحد؟ بدت لي

سيدة جسورا. وهكذا أنا الذي فقدت الأمل في كل شيء سلمت نفسي للعبث من جديد. ليس مكتوبا لي الحياة النظيفة فلماذا أحرم نفسي؟

اشتريت السكر وعدت مذهولا. ما إن رأيت سعيد حتى ضحكت. حكيت له كل شيء. كان يستمع إليّ في دهشة. قال:

- ليس لدينا حياة أخرى. أنت حرمت نفسك كثيرا - وضحك - يقولون تتزوج يعني تدخل دنيا والحقيقة هي الآخرة.

ضحكنا وقال على طريقة الممثلة السمينة التي نسيت اسمها: «دو يو إنتر ذا وورلد؟» ثم أجاب ضاحكا: «ذيس إذ ذا ريل وورلد يا ست».

***

أضاعت سميرة شهرا كاملا لم أتقدم فيه لطلب الفيزا. اندفعت معها أنتقم من كل ما مرّ بي. تعلقت بي تعلق المجنون. قالت إنها لا تستطيع أن تتأخر عني يوما واحدا. تتركني وتعود إلى شقتها التي عرفت أنها في عمارة قريبة لبيتنا، وتقول إنها تعد الدقائق حتى تعود في اليوم التالي. لم أسألها ماذا تعمل. لم يشغلني السؤال في الحقيقة وهي لم تسألني عن عملي. اكتفيت بمعرفة اسمها هي فقط. أما كيف تعرفت عليّ وفكرت في فقالت إنها تراني كل يوم أمر أمام عمارتهم وإنها أعجبت بشكلي وجسمي. كثيرا ما قذفتني بقطع الشيكولاتة الصغيرة أو البونبوني ولم أنتبه. كانت دائما تسقط خلفي أو أمامي ولا أنتبه. مرة قذفتني ببرتقالة كادت تصطدم برأسي لكنها سقطت خلفي ولم أنتبه أيضا! في النهاية

قررت أن تأتي إليّ ولما سمعت صوت الشباب الثلاثة في حجرتهم خافت ودخلت تحت السرير. سألتني عن الفتاة التي رأتها معي فقلت لها أن تترك الحديث في هذا الموضوع فلا رغبة لي بتذكره. هي المقادير تصنع حياتنا.

كانت تتلوى تحتي كأنها لم تعرف الجنس من قبل. كانت تصرخ مطمئنة أنه لا يوجد أحد. كانت الغرفة التي تركها الطلاب الثلاثة لا تزال خالية فكنت آخذها فيها ليزداد اطمئنانها. حتى حين حضر الضابط عبد الحليم دخل غرفته مع امرأته ثلاثة أيام لا يخرج ليختفي في اليوم الأخير! كانت تقبّل كل مكان في جسمي وتدور حولي بكل جسمها. وننتهي فتمسك بيدي تقبلها باستغراق المحب الصوفي. ولما سألتها ما الذي يدفعها إلى المخاطرة والحضور كل يوم وهي تسكن قريبا منا ويعرفها الناس قالت:

- الست أم أمير لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم. كذلك أبناؤها.

- إذن أنتِ تعرفينها؟

- الشارع كله يعرفها ويعرف عنها ذلك.

- طيب ألا تخشين أن يراكِ شخص آخر.

- كل من يراني ويعرفني يعرف أني أزور الست أم أمير.

أدهشتني هذه الجرأة الغريبة ولكن ظل شيء غامض يؤرقني. لقد كان سعيد سعيدا بما أفعل. وهو بدوره أحضر نساءه في كل وقت. وحتى

حيـن أكون معه فلا ضـرورة لابتعادي عن البيت. أدخـل الغرفة الأخرى بعض الوقت أقرأ. فجأة ضحك وقال:

- سـميرة لن تتركك بسهولة. تعرف أنك مسافر إلى المملكة العربية السعودية للبنين!

ضحكت. قلت له:

- لقـد أخرتني سـميرة كثيرا. يكاد شـهر أبريل ينتهـي ولم أذهب إلى السفارة لأحصل على الفيزا بعد.

كنـت قمـت بالتصديـق على شـهادة التخـرج الخاصة بي مـن وزارة الخارجيـة عند كوبري قصر النيل. كان ذلك سـهلا لأني يمكن أن أذهب حتـى السـاعة الواحدة ظهرا لتسـليم الشـهادة التي سأتسـلمها فـي اليوم التالي.

نظرت أكثر من مرة للطابور الطويل من الراغبين في ترك البلاد. لا بد بينهم مثلي محاربون حضروا حرب الاستنزاف، وربما أيضا حرب أكتوبر. أجل فبينهم شباب يبدون قد تجاوزوا الثلاثين من العمر. هؤلاء هم أبطال أكتوبر الذين ظلوا في الخدمة العسـكرية أجمل سنوات عمرهم يرحلون عن بلدهم التي حرروها. سياسة الانفتاح الاقتصادي التي أعلنها الرئيس السادات فتحت الباب للرأسمالية الطفيلية تنهب البلاد. تستورد البضائع الفاسدة من كل الدنيا وتهرب بأموال البنوك من مصر. البنوك التي تعطيها القروض بلا ضمان. في مصـر الآن البلوبيف المخصص أصلا للكلاب

يباع للبشـر، ويتم القبض على الباعة والمسـتوردين ولا ينقطع. في مصر الآن مزارع للدواجن التي تكبر خلال شهر لتصبح صالحة للأكل بعد أن تغذت على أطعمة بها مواد عضوية وكيماوية تجعلها تنضج بهذه السرعة وعليها طوابير من الفقراء لشرائها. في مصر الآن رأيت في بولاق أكثر من عربـة يد عليها بائع يبيع أرجل الدجاج وهناك نسـاء تشـتريها لتصنع منها شوربة تجعلهم يصبرون على عدم وجود اللحم أو الدجاج. هؤلاء الذين يقضـون ما تبقى مـن عمرهم في الغربة ويرسـلون المال أو يشـترون في إجازاتهم شـقـقا ليسكنوا إليها ويكون لهم بيت ووطن ثم يضيع كل شيء لأن صاحب العمارة فرّ بما أخذه من نقود بعد أن أجّر الشقة الواحدة إلى خمسة وعشرة وحصل منهم جميعا على «خلو رجل»، وهؤلاء هم حملة المؤهلات فما بالك بمن هم بلا مؤهلات كيف يكون حالهم.

خفت في لحظة وأنا أتذكر ذلك كله إذا ذهبت إلى السعودية ألا أعود لكـن لا كاتـب يعيش فـي أرض أخرى إلا مرغما. أجـل. عام واحد فقط وأعود.

في السـفارة السـعودية للحصول على الفيزا لا بـد أن أكون هناك في الثامنـة صباحـا على الأكثر بسـبب الزحام. كل ليلة نسـهر نلعب الطاولة وفي حوالي الخامسـة صباحا يأخذنا الإرهاق فننام. لم نعد حتى قادرين على السـهر حتى الصباح، من فرط ما نبذله من جهد كل يوم مع النسـاء. فـي الحقيقـة أنـا الذي كنت أبـذل الجهد كل يـوم لأن سـميرة لا تتركني أبـدا إلا يـوم الجمعـة وتقـول إن لقاءنا فيه حـرام. حتى دورتها الشـهرية

لـم تـأتِ. قالت إنها أخذت عقـارا أخّر نزولها. لا أعـرف كيف يمكن أن يحدث ذلك. لما سـألتها قالت عادي نسـوان كتير في الحج بتاخد العقار ده علشـان تأخّر الـدورة والحج يكمل! لكنها في النهايـة جاءتها الدورة فانقطعت عني لكني كنت أسـهر مع سـعيد نلعب الطاولة وأنام مع طلوع النهار حتى قال لي:

- يبدو أن لديك في اللا شعور رغبة في عدم السفر.

نظرت إليه واجما فقال:

- ليس من المعقول ألا تجد الفرصة شهرا كاملا.

- كما ترى أسهر ويطلع النهار أنام!

- اسـهر ويطلـع النهار اخرج. لن تموت. ما أكثـر ما أمضيت من أيام كاملة بلا نوم. لتفعل ذلك غدا وسآتي معك.

سهرنا نلعب الطاولة ووجدته يقول:

- طبعـا تريـد أن تسـألني لمـاذا أريـدك أن تسـافر. ليـس لأنـي أريد التخلص منك. على العكس. لا أعرف كيف سـأعيش دونك. لكن لأني أرى هذه فرصتك لتنجو.

سألته متحيرا:

- أنجو من ماذا؟ صفاء وانتهت قصتها.

- سـميرة زوجها عقيد في الجيش. إنه أكبر منها بعشـرين سنة. وهو دائما خارج القاهرة يأتي مرة كل ثلاثة أشهر.

- كيف عرفت؟

- أم أمير أخبرتني.

- وكيف عرفت أم أمير أن سميرة تأتي هنا؟

سألته مندهشا فقال:

- إنها تدخل أمامها. باب شقتنا مفتوح وباب شقة أم أمير أيضا. هل نسيت؟ من يدخل إلينا لا بد تراه. بل وتعرف عن هذه المرأة الكثير. هي حزينة من أجلها جدا تقول عنها إنها جميلة وصغيرة لكنها وحيدة لم تنجب أطفالا أيضا. هل فهمت لماذا أريدك أن تنجو؟

هززت رأسي فقال:

- لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث. ربما لو عرف زوجها شيئا من ذلك قتلكما معا.

ضحكت وقلت:

- طبعا أي مخرج يمكنه أن يؤلف أيضا.

قال إنه لا يؤلف وإنه بالفعل خائف من هذه العلاقة. قلت له أيام وتنتهي. سمعنا أذان الفجر ثم نزل النهار على الدنيا مبكرا. رأينا النور يعم الكون من خلف شيش النافذة. قال:

- الآن ننزل. الساعة دخلت في السادسة. لو نمنا لن ننهض إلا عصرا.

***

ارتدينا ملا بسـنا بسـرعة وأنا سـعيد بنزوله معي. أشعر بحبي له يزداد ولا أعـرف كيـف سـتمر الأيـام دون أن أراه. خرجنـا إلى شـارع الملك والضوء يسـبقنا ويغمر الدنيا أكثر. كانت نسـمة هـواء ربيعية صافية. كان الشارع الطويل خاليا تماما من الناس والمركبات. وقفنا نصف ساعة حتى جـاء أوتوبيس خاليا أيضا من البشـر. ليس فيه إلا الكمسـاري والسـائق. نظرنا إلى بعضنا في دهشة وجلسنا صامتين. دون اتفاق ترك كل منا رأسه يركـن على حافة المقعد لينام. هنا لن نسـتغرق في النوم كثيرا ففي ميدان التحريـر سـينزلنا الكمسـاري. بالفعل نبهنـا إلى أننا نمنـا وضحك. رأينا الميـدان خاليا. الأوتوبيسـات التي تقف بالموقف ليسـت كثيرة كما هي العادة وليس حولها بشر.

- ما الذي يحدث. لماذا لا يوجد أحد؟

تسـاءل سـعيد فهززت كتفـي لا مباليـا. قطعنـا الميدان ومررنـا أمام مجمع التحرير الذي لا يوجد أمامه، ولا يدخل أو يخرج منه، أحد. دخلنا شـارع القصر العيني فمر أمامنا أوتوبيس خاليا من الناس أيضا ولا أحد. المحلات مغلقة. وصلنا إلى السفارة السعودية.

- لا أحد أيضا حول السفارة ولا باب مفتوحا ولا نافذة؟

قلت ذلك مندهشـا ومتحيرا. رأيت وجه سـعيد قـد صار أحمر فجأة كمن أصابه الخجل. قال بصوت خفيض كأنه لا يصدق ما يحدث:

- عجيب!

ضحكت وقلت:

- هـذه عاقبـة السـهر وعـدم النـوم. أو عقاب مـن القـدر. العلاقات انقطعت بيننا وبين السعودية بالليل فيما يبدو.

هز رأسه ولـم يضحك. شاهدنا أمين شرطة يتحرك حول سور السفارة قادما ناحيتنا على مهل. اقترب فسأله سعيد:

- هل السفارة مغلقة اليوم؟

ابتسم أمين الشرطة الذي كان يحمل في يده لاسلكيا كبيرا وقال:

- طبعا كل سنة وأنتم طيبون. اليوم الأول من مايو عيد العمال.

تبادلنا النظر ثم انطلقت أضحك. قلت لسعيد:

- نشنت يا فالح!

وضحكت من جديد ثم قلت:

- هيا بنا. يبدو أن سـميرة دعـت علينا. قلت لها أن تعتقني اليوم لأني سأعود من مشوار بعيد متعبا وأحتاج إلى نوم يعوضني عن السهر.

مشينا وعاد وجه سعيد يحمر من جديد ثم قال:

- أنـا حمـار. كنت أعرف لكـن لم أتصور أن السـعودية تعترف بعيد العمال لذلك لم أخبرك. أمين الشرطة هذا يكذب.

لم ينتظر أن أتكلم. عاد بسرعة إلى أمين الشرطة ووقف يحدثه. أمين الشـرطة طويل مثلي وسعيد يقف أمامه قصيرا تماما كما يفعل معي لكني

أراه هو وحده ولا أرانا معا، وإن كنت أرى ذلك بسمة في عيون من حولنا. طال نقاشـهما لدقائق وأنا أنتظر مبتسـما لا أسمعهما. فجأة وجدت أمين الشـرطة يضرب سعيد بكفه على وجهه فقفز سعيد وراح يضربه بلكمات علـى وجهه أيضا وأمين الشـرطة يبادله اللكمـات وكلما حاول أن يحيط بجسـم سعيد تملص سـعيد منه. جريت إليهما صارخا. لا. لا. ودخلت أفصل بينهما وما إن فعلت ذلك حتى قال أمين الشرطة:

- وحيـاة أمـك لـن تعود إلـى البيت. تقول علـى بلد النبي شـيوعية يا كافر يا خسيس.

وأمسك جهازه اللا سلكي يتحدث فقفز سعيد من خلفي وضربه على قفاه ضربة قوية وأسـرع جاريا وأمين الشرطة خلفة لا يستطيع اللحاق به. بدوري أسـرعت مـن الناحية الأخـرى ودخلت مبتعدا في شـارع القصر العيني.

مـا إن وصلـت إلى البيت حتى وجدت سـعيد الذي سـبقني ينتظرني ويضحك.

- ما ذا جرى؟

- أمين شـرطة متخلف. سـألته هل أنـت متأكد أن السـعودية تحتفل بعيد العمال. هل صارت السـعودية شيوعية. كنت أقصد الهزار معه لكنه شتمني وقال ما سمعت «تقول على بلد النبي شيوعية وشتمني» فضربته.

نظرنا إلى بعضنا لحظات صامتين ثم انفجرنا في الضحك البهيج.

23

لم أخبر سميرة التي لم تنقطع عني بموعد سفري. هدّت حيلي في الشهر الذي مضى وبدا أنها لا تشبع أبدا. رأيت نفسي صرت شاحبا وفقدت قليلا من وزني. كان أسبوع تبقى لي هنا قبل السفر. وجدت نفسي أسأل سعيد:

- لماذا بعد الزواج يزداد العرسان سمنة ولا يحدث ذلك لي أو لك؟

ابتسم وقال:

- يا عزيزي إنهم يأكلون. نحن نمارس الجنس ولا نأكل. وليست كل امرأة أعرفها مستعدة لتطهو لنا. نحن نعاقب خلايانا وعروقنا التي تتفتح منتظرة البروتينات والدهون فنغلقها بالشاي والقهوة.

ثم ضحك وقال:

- أنت مسافر إلى اللحم والأرز والفتة يا صديقي. إلى «الكبسة». كبسة بدون نسوان. ستبحث عن يوم كنت رشيقا!

ضحكت. بعد لحظات قال:

- أراك لـم تعد تفكر في الخروج كثيرا بالليل. كأنك حشـدت روحك كاملة للسفر ولـم تعد تريد البقاء هنا.

- كل يـوم أقول لنفسـي لا بد من جـولات جديدة في القاهرة قبل أن أودعهـا لكنـي أنتهي من سـميرة فأجلس أفكر في صفاء وكيف سـتضيع مني إلى الأبد.

قال وهو يهز رأسه في أسف:

- قل إنك لـم تعد محتاجا لأي شيء. أجل. أنا كذلك الآن. إذا فزت بالجنس فلا معنى لأي شيء آخر. وكلانا غارق فيه.

جنس بلا حب لحظات زائلة. قلت لنفسي وأنا أهز رأسي. قال :

- سـننظم مـع عمر لقـاءً أخيرا. مـا رأيك ليلـة السـفر؟ أي بعد ثلاثة أيام.

- أفضل قبلها بليلة. ليلة السفر أريد أن أقضيها هنا على السرير أسمع الموسيقى طول الليل.

***

في الطريق إلى بار متاتيا قلت لسعيد:

- لـو أكرمني الله رأيـت كل من أحببتهم هنا الليلة مـع عمر إبراهيم. الأقصري وسراج منير وعلي الكبير والمطرب زكريا فخري.

كنت أعرف أن سـراج منيـر والمطرب زكريا فخري خـارج القاهرة. وبالطبـع لا تتكـرر الصدف كثيرا لأقابـل الأقصري. كمـا أن علي الكبير قليلا ما يأتي هنا.

كان عمر إبراهيم جالسا خلف منضدة وأمامه أربع زجاجات من البيرة وأطباق مزات كثيرة وأيضا كان أمامه وجالسا معه يحيى الأقصري. إذن هو يعرف عمر إبراهيم. كيف لم أفطن لذلك وعمر سافر كثيرا إلى الأقصر في مؤتمرات ثقافية ولا بد التقى به هناك كواحد من الكتاب.

رفع الاثنان كوبيهما أمامنا قبل أن نجلس.

- تشيرز!

قالاها معا. كنا في آخر مايو وكل من حولنا ونحن أيضا ارتدينا ملابسنا الصيفية. فالربيع في القاهرة صيف مبكر. ابتسم عمر ابتسامته العريضة الأليفة المحببة وقال:

- اسمعا الأقصري. يقول دررا هذه الليلة!

هز الأقصري رأسه غير راضٍ ثم قال:

- أبدا. لا أعرف لماذا لا تصدقني.

سأله سعيد ضاحكا:

- قابلت إخناتون؟

- لا تسخر مني يا سعيد. أنا أدخل مقابر البر الغربي فيحتفي بي كل الموتى. المشكلة أنهم لا يريدونني أن أبقى معهم.

سكتنا وتبادلنا النظرات. ثم ضحكنا بينما هو ينظر إلى المنضدة. جاء الجرسون مسرعا فقال له الأقصري أن يقدم لنا أيضا بيرة. كالعادة قال إن

كل طلبات الليلة على حسابه. لكنه عاد مطرقا من جديد وشاردا. ضحك عمر وقال:

- زعل مني لأني طردت الفأر.

قال سعيد مندهشا:

- أي فأر؟ هل سافرت قريبا إليه في الفندق؟

رفع الأقصري رأسه وقال محتجا لكن مبتسما:

- ليس عندي فئران في الفندق وأنت تعرف وعمر يعرف. صابر فقط لم يأتِ ليعرف.

- طيب أين كان الفأر؟

تساءل سعيد ضاحكا فقال عمر:

- هنا. على الترابيزة. أتيت فوجدته جالسا وحده وفأر صغير جدا، جميل والله، أمامه على طرف المنضدة المقابل وأمامه طبق الجبن بالطماطم يأكل منه. آه والله.

ضحكنا أنا وسعيد. قلت:

- غير معقول.

قال الأقصري:

- ما يقوله صحيح. بعد أن جلست ظهر الفأر لا أعرف كيف فوق المنضدة. بالصدفة كان طبق الجبن بالطماطم قريبا منه. صعد عليه وراح يأكل. هل أطرده؟

ضحكنا فقال سعيد:

- طبيعي أن يطرده عمر فلماذا غضبت؟

- لم أغضب. عمر يبالغ. أنا فقط صعب عليَّ الفأر.

ضحكنا فقال:

- ما أغضبني أن عمر لا يصدق المسألة الأخرى.

قال عمرعلى الفور:

- أنا أصدقك لكن لا أعرف ماذا أفعل. تحدث أنت ربما نجد حلا عند صابر أو سعيد.

هز الأقصري رأسه وقال:

- منذ أسبوع جاءني ضابط من أمن الدولة في الأقصر. لا يزعجني ذلك. ضباط كثيرون يأتون إليَّ يأكلون ويشربون بالمجان، ويرسلون أقاربهم أيضا. لم يطلبوا مني شيئا أبدا أكثر من أسماء النزلاء التي أرسلها إليهم كل شهر. لا أستطيع أن أرفض. سيغلقون المكان لأي سبب يخترعونه. المهم. جاءني الضابط وطلب مني أن أعود إلى دیانتي التي حاولت أن أجمع حولها الشباب من قبل. لماذا يا حضرة الضابط؟ قال لأنهم تعبوا من القبض على اليساريين ويريدون قضية ردة أو إلحاد كبيرة يلهون فيها الإخوان المسلمين عن الحديث في السياسة التي بدءوا يخوضون فيها بعد أن صاروا أقوياء الآن.

وسكت فسكتنا نتبادل النظر في دهشة. قال عمر:

- يريد أن نجد له طريقة للهروب من هذه المهمة. هل لديكم حلا؟

قلت متحمسا:

- الحل الوحيد هو نشـر هذا على أوسع نطاق. من المؤكد أن جريدة «الأهالي» يمكن أن تنشره.

قال عمر:

- رأيت يا عم؟ كما قلت لك. الصحف القومية لن تساعدك والنشـر في الخارج قد يرتب عليك مسئولية. أجل. يلفقون لك قضية تخابر مثلا. الأهالي اليسارية ستنشر كلامك ومنها ستأخذ الصحف العربية والعالمية أيضا. وسيكون حظك كبيرا إذا صادر القاضي الذي سلطه السادات العدد كالعادة. العدد المصادر أكثر رواجا!

هز الأقصري رأسه وقال ساخرا:

- وبعد النشر هل سيتركونني؟ سيلفقون لي أي قضية.

قلت:

- لا. سيخافون. صدقني.

قال عمر وسعيد معا إن ما أقوله صحيح. ربما أيضا ابتعدوا عنه تماما. ثم ضحك سعيد وقال:

- وبعد أن يبتعدوا عنك روّج لديانتك وكفّر الدنيا كلها.

ضحكنا وضحك معنا الأقصري هذه المرة ثم هز رأسه وقال:

- لن يلفقوا لي القضايا. طيب وماذا يحدث لو أحرقوا الفندق نفسه؟ الفندق عشش من الخوص والخشب. سيجارة تنهي المسألة.

بدا لنا في ورطة حقيقية. سكتنا وإن كنا نبتسم بين وقت وآخر ونحن نشرب في صمت. ابتسم عمر وقال:

- لا يحل هذه المشكلة إلا تدخل شخصية كبيرة. وزير الداخلية مثلا. لكن كيف الوصول إليه.

- أنا رحت قابلته.

قال الأقصري فظهرت الدهشة على وجوهنا.

- استمع لي وأبدى اهتمامه. أبلغني أنه سيعاقب هذا الضابط. تركت مكتبه وجلست في مقهى الحرية فوجدت الجرسون يناديني. هناك من يطلبني في التليفون. لم أصدقه فلا أحد يعرف أني بالمقهى، لكنه طلب مني أن أسرع. وجدت على التليفون الضابط من الأقصر يقول إن الوزير يشكرني على تعاوني وإنهم في انتظار ما طلبه مني في الأيام القادمة.

لم يستطع سعيد فيما يبدو السيطرة على نفسه فقال ضاحكا:

- لا. هكذا تكون مؤلفا عظيما للقصص. يا عم اكتبها قصة وريح نفسك.

لم نكمل ضحكنا لأن الأقصري قال محتجا:

- أنا لا أكتب هذا النوع من القصص.

وسكت فرحنا ننظر إليه في دهشة من هذا الانفعال الشديد. شرب جرعة كبيرة من البيرة وقال:

- أنا قصصي شيء آخر. ما أحب أن أكتب عنه مختلف. منذ قرأت رواية صحراء التتار للإيطالي دينو بوتزاتي. أجل. دينو بوتزاتي. وأنا طالع ديني ولا أستطيع الكتابة. لا تضحكوا. أنا أريد أن أكتب عن رجل مشى في الصحراء فلم يستطع العودة حتى وصل إلى الأفق فأخذته شمس المغيب إلى مملكة أوزوريس. أو رجل نزل أعماق البحر فاستقبله بوسايدون إله البحر وعاش عاريا تحت الماء. أو رجل نظر إلى السماء فتحول إلى قلة. أجل. قلة من الفخار ورفعه خنوم إله الفخار إليه وراح يشرب فيه الماء المقدس.

رحنا ننظر إليه وإلى بعضنا أيضا. بدا بحق على الوجوه أننا مشفقون عليه لكنه استمر:

- أو رجل يمشي بظهره في الطرقات فتعتدل الطرق ليكون ماشيا بوجهه فيعود يلتفت ليعاكسها. لا ينتهي مشيه بظهره ولا ينتهي دورانها ولا دورانه. لقد عرفت الآن لماذا ظللت السنين الماضية كلها غير راضٍ عما أكتبه ولا أنشره. أجل. هذا ما أتمنى أن أكتبه وكدت فعلا أبدأ فيه فقفز هذا الضابط وأفسد كل شيء. أعادني إلى ما هو تافه ورخيص في الدنيا. أجل. ما يريده البشر من بعضهم تافه ورخيص. ثمن البيرة هذه أكبر منه.

حط علينا الصمت من جديد حتى قال سعيد وهو يهز رأسه:

- إذن لا تحزن. لقد عرفت طريقك الحقيقي والحمد لله. في صحتكم جميعا وفي صحة يوجين يونسكو الأقصري.

ضحكنا وضحك الأقصري ثم طلب منا أن ننسى. صارت زجاجات البيرة الفارغة والممتلئة تملأ المنضدة وهو لا يزال يطلب لنا. تركنا البار وتفرقنا في منتصف الليل.

***

عدنا أنا وسعيد إلى الشقة. لاحظت أنه لم يكن يتكلم كثيرا في الطريق.

ما كدنا ندخل الشقة حتى قال:

- أربكني الأقصري بحق. موضوعات كثيرة ألقاها في الطريق. من يدري. ربما أستوحيها يوما في عمل مسرحي.

ثم تركني وراح يغسل قميصا من قمصانه. خرج ينشره بالبلكونة ثم عاد بسرعة على أطراف أصابع قدميه يشير إلي صامتا أن ألحق به. دخلنا إلى البلكونة معا وبسرعة. كنت أعرف أنه رأى البنتين والولد الصغير. إذن فتحت النافذة أخيرا. ما إن دخلت إلى البلكونة حتى وجدنا النافذة صارت مغلقة.

- غريبة!

قال سعيد ذلك وهو يمسح عينيه ثم أكمل:

- ما الذي رأيته أنا إذن؟

- هلاوس الخمر تأتي بالأمنيات يا جميل.

قلت وعدت إلى مكاني. فتحت الراديو فانسـابت الموسيقى حولي. نمت. صحوت في ظهر اليوم التالي مندهشا من حلم أضاجع فيه سميرة التي هي معي كل يوم. هل احتلت سـميرة مكان ضفاء حقا وصارت هي السعادة الوحيدة الباقية؟

جاءت سـميرة في السـاعة الثالثة كعادتها. أخذتها إلى غرفة الطلاب التي لا زالت غير مسكونة. قالت:

- لماذا تصرّ على هذه الغرفة؟

- لأن لها بابا.

ضحكت وقالت:

- لـم تعرفنـي حتـى الآن. أريـد أن أمـارس الجنس لو اسـتطعت في الخلاء. أنا أحسد القطط والكلا ب. أحسد كل الحيوانات.

نظرت إليها بدهشة شديدة. قلت:

- رغم أنك إذا جئتِ بالليل طلبتِ إطفاء الأنوار.

- لأنه في الظلام يبدو أن لا أحد في الدنيا غيري وغيرك.

نظرت إليها متأملا. لم أعرف عنها من قبل هذا الفكر. قالت:

- آه. طبعـا وتلاقيك فاكرني مثل بقية النسـاء أطفـيء النور خجلا أن تراني. يا حبيبي أنت تدخل فيّ فلماذا الخجل أن تراني!

عـدت بهـا إلى غرفتنا الأولى التي بلا باب مندهشـا مـن ثقافتها التي ظهرت فجأة في اليوم الأخير لعلاقتنا. قلت:

- وماذا يحدث لو عاد سعيد ومعه امرأة؟

صفقت وقالت في فرح:

- جنـس جماعـي. جنس جماعي والباب مفتوح سيؤكد لي أننا في غابة بين الطبيعة.

سكت قليلا تزداد حيرتي ثم قلت:

- آسـف يا سـميرة. أنا لا أتصور أن يراني رجل عاريا تماما. اعتبريني متخلفا. كذلك سـأغلق باب الشـقة حتى إذا جاء سـعيد وفتحه بالمفتاح سمعنا حركته.

في الحقيقة سـاورني شـك عجيب أن شـيئا غير متوقع تدبره لي هذه السـيدة اليوم خاصة وقد أخبرتها بسفري. ومن يدري ربما تكون أوحت لزوجهـا بطريقـة مـا أن يراقبها أو يجعل مـن يراقبها ومن ثـم يفاجئنا. قد تكـون هذه طريقة يائسـة للطلاق لكنها يمكن أن تنتهـي بالقتل حقا. قتلنا معا كما قال سـعيد. عقيد في الجيش لا بد يحمل مسدسـا. وإذا أرسـل وراءها أحدا فسيحمل مسدسا أيضا!

- يكفـي هـذا. أخشـى أن أنـام فلا أسـتيقظ مـن التعـب. طائرتي في التاسعة صباحا.

قامـت تذهب إلى الحمام عارية تهتز أمامي في انسـجام وأنا مندهش أبتسم، ثم عادت وتمددت جواري وقالت شاردة تنظر إلى السقف.

- لا أعرف ماذا سأفعل بعد سفرك.

اندهشت للحظة. هل أحبتني ولا أعرف؟

مالت على جانبها ولفت ساقها فوقي. قالت وهي تداعب شعر صدري بأصابعها:

- لا تسئ الظن بي إلى هذا الحد. أنا أعرف أن ما أفعله خطأ وخطيئة. لكني حتى الآن أجد المبرر لنفسي. لا أشعر بالذنب.

- طبعا فزوجك يهجرك بالشهور.

- لا.

سكت فراحت تنظر شاردة إلى السقف. سألتني:

- هل تعرف المتولي زيدان؟

- أظن أنه مخرج في التلفزيون.

- كان.

- أجل. تذكرت. صدمته سيارة منذ عامين أو ثلاثة.

- صحيح.

- لماذا تسأليني عنه؟

- هو أبي.

- أنا آسف. البقية في حياتك؟

- لا تأسف على شيء.

نظرت إليها ودهشتي تزداد فقالت:

- هو أول رجل عرفته.

انتترت جالسـا مرتكنـا إلى الحائـط بظهري فاسـترخت على ظهرها وقالت وهي تنظر إلى السقف:

- أجل. اغتصبني وأدمن اغتصابي فأدمنت الجنس في وقت مبكر.

- عجيب. لكنكِ متزوجة.

- هـو مـن زوجني إلـى من معـي. تزوجت لأني وجدت فـي الزواج فرصة أن أنجو منه.

- حكايـة غريبـة يا سـميرة. لكنك مدرسـة وكان يمكـن أن تتزوجي شخصا آخر وتهربي من أبيك هذا.

سكتت قليلا ثم قالت شاردة:

- أحببته؟

- من؟

- أبي.

- سميرة. أرجوكِ كفي عن التأليف. أو أقول لك اتركيني حتى أتذكر اللقاء جميلا كما يحدث بيننا. لا داعي لهذه القصص.

- لقـد أدركت أمـي حكايتنا وطلبت منـي أن أذهب معهـا إلى النيابة نقدم شكوى لنسجنه.

- وماذا فعلت؟

- ذهبت معها. ماتت أمي بالسكتة القلبية أمام وكيل النيابة.

أردت أن أضحـك غير متصور أن ما تقولـه حقيقة، لكن دموعا نزلت مسـرعة من عينيها فأمسـكت ضحكتي. يا إلهي. إلى هذا الحد يمكن أن تحدث الحكايات في مصر!

- بعدهـا أقلـع أبي عمـا يفعله معي وصمم أن أتـزوج. أهدى لي هذا الزوج كما قال. بيني وبينه عشرون سنة.

- وهل اكتشف أنك لست عذراء؟

- أخذني أبي إلى طبيب وأعاد بكارتي. بكى كثيرا ذلك اليوم معتذرا عما فعل لكني كنت لا أشعر به ولا بما يقول. صرت بلا إحساس.

سكتنا لحظات ثم جذبتني إليها ضاحكة فجأة وقالت:

- أنـت أهبـل؟ أسـهل حاجـة إعـادة غشـاء البـكارة. مئة جنيـه تنهي المسألة. ربما فقط ينام الطبيب مع البنت قبل أن يعيد إليها غشاء البكارة. ألا تعيش معنا في مصر؟

وراحت تلقيني على ظهري بالقوة وتقول «مرة أخرى حتى لا أنساك». وأنـا في غاية الدهشـة. أريـد أن أصدقها ولا أسـتطيع. نمت على ظهري

وتركتها تفعل كل شيء. شردت عنها كثيرا أفكر فيما يقابلني من غرائب النساء. بعد أن انتهينا. أقصد انتهت هي. استلقت إلى جواري وقالت:

- هل تعرف ماذا فعلت حين خرجت إلى الحمام؟

- لا.

- فتحت باب الشقة.

- الحمد لله لم يأتِ أحد. هيا ارتدِ ملابسك وأعطني قبلة الوداع.

قالت:

- كنت أتمنى لو دخل سعيد علينا حتى أشعر أننا في خلاء مثل الناس كما خلقهم الله أول مرة. أجل. لا تقل إني مجنونة. أنا ساخطة على من اخترع الثياب ومن بنى كل هذه البيوت.

تجاوزتها ونزلت من فوق السرير. قلت:

- سأرتدي بيجامتي حتى أشجعك على أن ترتدي ثيابك وتودعيني. بعد مغادرتك سأخلعها وأدخل آخذ حمام الوداع أيضا.

بسرعة ارتديت البيجامة دون أن أرتدي ملابسي الداخلية. كنت أريدها أن تنصرف بأي طريقة فما قالته جعلني مرتبكا وأنساني كل ما فعلته هي أو فعلته أنا معها. فوجئت بصوت أمير يأتي من الصالة يقول:

- تفضلي. احتمال يكون موجود.

اتسعت عيناي دهشة. قبل أن أسأل نفسي من يحدّث الولد أمير رأيتها أمامي. صفاء. وهو جوارها يقف في ذهول. قال:

- آسف يا أستاذ صابر. لم أكن أعرف أن معك أحدا.

سمعته حقا لكني كنت أنظر إلى صفاء التي ارتعشت شفتاها واهتز جسمها وإنفجرت صارخة:

- حيوان. حيوان. كنت حاسة إنك حيوان وكذاب.

وفتحت حقيبتها ترتعش يداها فأخرجت منها نقودا قذفتها في وجهي قائلة:

- المئتا جنيه يا حيوان.

وخرجت جارية تبكي هاتفة:

- ليه يا ربي وقعتني في الحيوان ده. ليه. ليه؟

وضاع صوتها فقد غادرت الشقة. نظرت إلى سميرة فرأيتها قد تكورت ودارت نفسها بالغطاء لكني لم أتحمل فصرخت فيها:

- انبسطتي. فتحتي الباب وخربتي بيتي. ضيعتي أجمل ما منحني الله. برة. مش عايز أشوفك تاني.

وخرجت إلى الغرفة الثانية. جلست منهارا على أحد مقاعدها. سمعت صوت قدمي سميرة وهي تهرول خارجة بعد أن ارتدت ملابسها. بعد قليل دخل أمير عليّ في يده النقود الورقية قائلا:

- الفلوس يا أستاذ صابر.

هززت رأسي في أسف ومددت يدي آخذها منه. قمت إلى غرفتي وألقيت بها مرة أخرى على الأرض فتوزعت في كل مكان. رآني أمير أفعل ذلك فغادر الشقة وجلست أنا مطرقا رأسي على يدي.

كم مضى من الوقت وأنا أجلس هكذا. لا أعرف. دخل سعيد وشاهد النقود على الأرض فنظر إليّ مندهشا. قبل أن يتكلم قمت أذهب إلى الحمام. سآخذ حماما أغسل به كل حكايات هذا اليوم. سأمسح عن جسدي وروحي كل أدران هذه المدينة. عدت إلى غرفتي فوجدت سعيد قد جمع النقود بدوره ويقول لي حائرا:

- ماذا جرى. ما هذه النقود كلها؟

أخذتها منه صامتا. وضعتها أمامي على المنضدة. أغمضت عينيّ وتنهدت طويلا فقال متأثرا:

- ستعود يوما يا صابر ونلتقي. أرجوك لا تحزن. دعنا نلعب الطاولة في هذا الوقت القليل الباقي. دعنا نضحك. ليس في يدنا شيء نفعله. الطائرة ستقلع في التاسعة.

- لن أسافر يا سعيد.

- ما الذي حدث؟

- لن أترك هذا الوطن رغم كل ما فيه من آلام.

هكذا قلت في تصميم، ثم اندفعت في بكاء مرير.

24

قال ضاحكا:

- كنت تجهز للسفر وأنا أجهز لترك الشقة حتى دون أن يحدث ما حدث. بصراحة لم أكن أستطيع الاستمرار فيها بدونك.

قال ذلك وبدا تأثر كبير عليه.

كان سعيد قد قرر أن يبدأ في الإعداد لدراسة الماجيستير في دراسة مقارنة بين الدراما الأرسطية والدراما البريختية. وعده رئيس أكاديمية الفنون أنه إذا أنهى الماجيستير سيرسله في بعثة للحصول على الدكتوراه من فرنسا.

الشقة التي استأجرها صغيرة مساحتها كلها خمسون مترا. حجرتان وصالة خاليتان. إيجارها الشهري عشرة جنيهات دون «خلو رجل» يدفعه ولا مقدم إيجار. قال: «وجدتها فرصة. فرصة أعطيها أنا لأصحابها لأن أحدا لن يؤجرها». ضحك وضحكت، فالشقة في الجيزة قريبة من الترعة التي نصل إليها بالنزول في محطة الطالبية بشارع الهرم ثم نمشي يسارا حتى نصل إلى الترعة التي نعبرها فوق كوبري خشبي صغير لنمشي قليلا وسط الغيطان حتى نصل. الشقة في بيت صغير من دورين. في الدور

الأول شـقتان. إحداهما يسـكنها صاحـب البيت وزوجتـه وامرأة أخرى قـال سـعيد عنها ضاحكا إنهـا زوجته أيضا. امرأتان فـي حوالي الأربعين مـن العمر تجلسـان أمام البيـت حولهما عـدد من الأطفال لـم نفكر في إحصائه. الشـقة التي يسكنها صاحب البيت وزوجتاه والأطفال مساحتها مثل شـقتنا. أمامها شقة أخرى بنفس المسـاحة مخصصة لتدميس الفول في القدور فوق مواقد ضخمة. أمام شـقتنا شقة مغلقة صغيرة أيضا ينتظر صاحـب البيـت أن يسـتأجرها أحد. لمـاذا لا تقيـم فيها إحـدى زوجتيه وأطفالها؟ لن أسـتطيع طبعا أن أسـأله. قال سـعيد ضاحكا ربما لا يحب الـدور الثاني! الرجـل يقوم بتوزيـع الفول في الصباح علـى محلات في شـارع الهـرم بعـد أن يحملها على عربـة بحمار مربوط دائمـا أمام البيت جوار العربة أو في مدخله. كنت أرى كل ذلك ويشرحه لي سعيد وتظهر الدهشـة علـى وجهـي وأضحـك. لما سـألته ما الـذي أجبـرك على هذا المكان؟ قال: «عشـرة جنيهات في الشهر أمر سهل. سأحتاج نقودا كثيرة لشـراء المراجع العربية والأجنبية لرسالة الماجيسـتير. ثم إنها إيجار إلى الأبد».

رغـم أني ظللت مندهشـا من المـكان إلا أني قـررت الانضمام إليه. أنفقنا ثلاثة أيام نشتري فرش الشقة البسيط الرخيص من المناصرة. جلسنا نتنفس باسترخاء بعد أن أعددت كوبين من الشاي رحنا نشربهما.

صار في الشـقة الآن سـريران. واحد لـكل غرفة. ترابيـزة صغيرة في الصالـة حولهـا أربعة مقاعد خشـبية. دولاب خشـبي صغيـر معلق على

الحائـط فـي المطبخ ومطبقيـة للأطباق. في كل غرفة شـماعة للملابس، وليس دولابا.

كنت اشـتريت شـريط تسـجيل جديد يحوي رباعيات صلاح جاهين بصوت علي الحجار وألحان سيد مكاوي. وضعته في المسجل وأخذتنا الرباعيات إلى السماء.

- جميلة جدا.

- أكثر من رائعة.

قلت ذلك ورحت أردد:

ولدي نصحتك لما صوتي اتنبح

ما تخافش من جني ولا من شبح

وان هب فيك عفريت قتيل اسأله

ما دافعش ليه عن نفسه يوم ما اندبح؟

عجبي.

وراح سعيد يردد:

علم اللوع أكبر كتاب في الأرض

بس اللي يغلط فيه يجيبه الأرض

أما الصراحة فأمرها ساهل

لكن لا بتجيب مال ولا تصون عرض.

عجبي.

ثم ضحك ووقف يقول:

- هل سنجلس هنا؟ نريد أن نحتفل.

نظرت إليه لحظة. قلت:

- ما رأيك أن نتمشى في المنطقة؟ أريد أن أتعرف على المكان.

- لا يوجد فيها حتى محل واحد الآن. لكن مؤكد أنها ستمتلئ يوما بعد يوم - وضحك - وعندما تمتلئ أكون أنا سافرت إلى فرنسا وتكون أنت أيضا سافرت إلى فرنسا أو أي بلد في أوربا.

ابتسمت. قلت:

- لماذا السفر؟

- بصراحة لا مكان لنا في هذا البلد. إما أن تجهز لعمل ماجيستير في الجامعة مثلي وتجد فرصة للسفر للحصول على الدكتوراه فيما بعد أو تختصر..

- كيف؟

- تعرَّف على أي واحدة أجنبية وتزوجها. كثيرون يفعلون ذلك الآن.

نظرت إليه مبتسما وهززت رأسي. قلت:

- على رأيك. حل بسيط وسهل.

ضحكنا. شعرت بالحر الشديد حولي. نار متقدة في الشقة. قلت:

- ماذا سنفعل في هذا الحر. تحتنا مجمرة فول وفوقنا الشمس طول النهار.

- إذن ننزل نشتري مروحتين صغيرتين!

قال ذلك ووقف متحمسا. نزلنا والساعة تدخل في السادسة. كبير هو الفرق بين الشقة والشارع. يوليو والحر ممزوج بالرطوبة فالشقة فرن مشتعل بينما الفضاء يعطيك الأمل في هبة هواء لا تأتي أبدا!

عبرنا النساء الجالسات والأطفال الذين يلعبون حولهن. أكثر من كلب أيضا يتحرك. كلب منهما مشى معنا طويلا ونحن ننظر إليه نضحك: «ارجع يا عم إحنا مشوارنا طويل» يقول سعيد ونضحك والكلب ينبح مرة ويسكت: «يرد عليّ. أكيد. يقول لي إنت مالك».

الكلب أبيض فيه مناطق سوداء كثيرة. أذناه كبيرتان بشكل واضح. اقتربنا من الترعة فوقف الكلب ينظر إلينا وينبح: «زعلان مش عايزنا نمشي» قلت فضحكنا. قال سعيد: «يبدو أن الترعة آخر حدوده».

وجدت نفسي أقول:

- فرق كبير بين القاهرة والجيزة.

- هذه مناطق جديدة تضاف للجيزة. الجيزة محافظة جميلة جدا.

يكفـي أن فيهـا حـي كالدقـي. أو العجـوزة. كذلك شـارع الهرم. شـارع الأنس. لا بد أن نسهر في أحد ملاهيه مرة.

لاحظت أنه يمشي إلى اليسار. لم يتجه مباشرة بين العمارات الجديدة إلى شارع الهرم. سألته:

- إلى أين نذهب هنا؟

- أنت طلبت مني لو مشـينا قليلا ترى المكان. سـنراه بسرعة. الترعة على يميننـا الآن. على يمينها هذه العمارات الجديدة بينها أراضٍ زراعية سـتصبح قريبا عمارات - وضحك - وعلى يسـارنا أراضٍ زراعية كما ترى تظهر فيها بيوت قليلة جدا ستقترب المسافات بينها بالبيوت الجديدة وتصبح جحيما.

- خسارة هذه الأرض الزراعية كلها.

ابتسم وقال ساخرا:

- الأرض الزراعية فقط؟ كل شيء جميل يضيع في مصر الآن. لماذا تضحك هذه النساء؟

أشـار إلـى عمارة على يسـارنا بعد الترعة في بلكونـة دور مرتفع منها سـيدتان ترتديان ملابس منزلية صيفية تكشـف عـن أذرعهما وأكتافهما. إحداهما شـقراء والثانية شعرها أسـود وتضحكان وتشير إحداهما بيدها إلـى أسـفل كأنها تـدل الثانيـة التي راحت تضحـك أيضا على مـا تريان. كان كلـب وكلبة ملتصقان من الخلف أحدهمـا يحاول التملص، الذكر،

فلا يكـف عن الحركة بقدميه الأماميتين حتـى انفصلا فجرى بعيدا قليلا ثم توقف بينما تقدمت إليه الكلبة ووقفت جواره تحك جسـدها بجسده. رآنـا الكلب الذكر ننظـر إليهما من الناحية الأخرى من الترعة فنبح مرتين كأنـه يحتج أو يطردنا من المكان. نظرت إلـى المرأتين فرأيتهما تدخلان تضحكان مختفيتين من البلكونة. توقفت وقلت:

– فعلا لن نرى جديدا. هيا إلى شارع الهرم لنشتري المروحتين.

– سيحدث لكن دعنا نمشِ قليلا بين الغيطان. أمامنا وقت حتى يحل الظلام.

اندهشـت من رغبته رغم أننا لا نرى شـيئا مثيرا. مشـينا. بين الحقول طـرق ضيقـة. حقـول للخضـراوات. كوسـة وفلفـل وطماطـم وخيـار ولا أحد. أشجار نخيل على مسافات بعيدة على أطراف الحقول. أشجار وارفة يبدو أنها أشـجار توت وجميز قليلة أيضا ومتفرقة بين المسـاحات الكبيرة للحقول المزروعة بالخضراوات. على مسـافات بعيدة جدا ترى منازل صغيرة أمامها جاموسة أو بقرة أو اثنتين ورجل يقدم لها ما تأكله أو امـرأة تحلب إحداها. فجأة ترى عمارات تبنـى وقد غادر العمال عملهم بينمـا الزلـط والرمـل والطـوب الأحمـر علـى الأرض. لا تعـرف كيف وصلت السـيارات تحمل هذا كله في هذه الطـرق الضيقة. الوقت يتقدم والحرارة تخف ونحن نمشـي بلا هدف ونعرف أننا سـنعود بسهولة ولن نفقـد طريقنا. وحدها الكلاب كانت كثيـرة حين تظهر ثم تختفي. بعضها ينظر إلينا كأنه يرى شيئا لم يره من قبل ثم يجري فتجري الكلاب معه.

– الكلاب خائفة منا، تصور!

قال سعيد ذلك فضحكت. لكنا رأينا عمارة عالية من ستة أدوار خالية وأمامها رمال وأسـمنت، وحيدة وسـط الغيطان وأعلى مما رأيناه. أمامها يقف رجل يرتدي جلبابا بلديا ومعه أحد الشباب. رآه سعيد فهتف:

- جمال.

التفت جمال. هتف بدوره:

- سعيد.

تقدم مسـرعا إلينا. احتضن كل منهما الآخر بشـوق كبير بينما أفكر أنا أين رأيت هذا الشاب من قبل. مظاهرات يناير. كان محمولا على الأعناق وحوله الطلاب يهتفون. شعاراته لا أنساها. حماسه لا يزال أمامي. قدمه سعيد لي قائلا:

- جمال بهاء الدين.

وقدمني إليه. تصافحنا بحرارة وسأله سعيد:

- ماذا تفعل هنا؟

- كنت أبحث عن شقة صغيرة. أريد أن أعيش بين الريف قليلا.

ضحك سعيد وقال:

- أم تريد الاختفاء؟

- لا والله. أنا خلاص بطلت كل حاجة وسأتزوج قريبا.

كان الرجـل ذو الجلبـاب البلدي ينظر إلينا قلقا يريـد أن ينتهي. فجأة خاطب سعيد:

- يا أسـتاذ أنا سـبت دكاني في الجيزة وجئت معه هنا رغم أنه قال لي أريد شقة بعيدة وسط الغيطان. لا يصدقني وأنا أقول إن هنا سيكون شارع عشـرين مترا والشـقق سـتغلو. لا يريد أن يلحق له شـقة. الشقة هنا بألف وخمسـمئة جنيه. لو مشيت نصف سـاعة لترجع إلى الترعة ستجد الشقة بثلاثة آلاف جنيه. أنا سمسار صحيح لكن لا أعمل بعد الساعة الخامسة. لأجله فقط أتيت.

ابتسم سعيد وقال لي:

- إذن نحن مشينا نصف ساعة.

لم يفهم أحد ما يقول وأنا أبتسم فسأله جمال بهاء الدين:

- هل تبحث عن شقة أيضا؟

- أنا ساكن قريبا من هنا. أخذت شقة صغيرة بدون مقدم ولا خلو.

- وسط الغيطان؟

- وسط الغيطان لكن ليست بعيدة كثيرا عن الترعة.

قال جمال متحمسا:

- المهم أنها وسط الغيطان. بها شقة خالية.

- بها شقة واحدة.

قال السمسار لجمال:

- إيه يا أستاذ، تريدني أم أمشي؟

أعطاه جمال ثلاثة جنيهات وقال له «مع السلامة» ثم طلب من سعيد أن يأخذه ليرى الشقة. عدنا ولم نشترِ المراوح. اتفق جمال مع صاحب البيت على كل شيء. دفع له عشرين جنيها. شهران مقدما. جلس معنا في شقتنا وسط الحر المتقد يقول إنه يعيش علاقة حب جميلة مع فتاة ولا يحتاج هذه الشقة إلا ليأتي بها بعيدا عن الناس ولو مرة في الشهر. عرفت أن جمال كان رفيق سعيد في المرة الوحيدة التي سجن فيها. كانت كل نوافذ الشقة مفتوحة والحر شديد أيضا. لم يبد أن جمال اهتم بالحر ولا توقف عند أسبابه. فالناس كما قال يعيشون ويتحملون فكيف لا يتحمل الحر هو الذي سيأتي مع حبيبته مرة في الشهر.

انصرف جمال في حوالي العاشرة. راح سعيد ينظر إليّ لحظات ثم قال:

- ماذا فعلت. لقد ابتعدت من زمان عن السياسة. كيف أتيت بجمال بهاء الدين إلى هنا حقا؟

- يقول إنه لم يعد يعمل بالسياسة. إنه مهندس في شركة عثمان أحمد عثمان.

- لا أصدقه. هذه الشقة سيكون لها دور آخر. ليست للحب ولا للجنس.

ثم سكت لحظات وقال لا مباليا:

- مش مهم. اللي حصل حصل.

***

لشـهر كامل لم نـر جمال بهاء الديـن إلا يوما أتى فيه بأشـياء وضعها فـي الشـقة وانصـرف بسـرعة. لشـهر آخر لـم نره. لخمسـة شـهور الآن لا نراه إلا مرة واحدة كل شهر يأتي ليدفع الإيجار وأحيانا نعرف ذلك من إحدى زوجتي صاحب البيت. تقريبا نسـيناه. انشـغل سـعيد في الدراسة واشـترى كتبا ومراجع كثيرة وراح يمضي معظم الوقت بينها. انتظمت أنا في العمل رغم بعد المسافة الآن. كانت فتاة جديدة رقيقة قد أضيفت إلينا اسـمها نادية هي الأصغر سـنا فقد تخرجت في الجامعة هذا العام. رأيت زميلاتـي كمـا لو كنت أراهن لأول مرة. لقد عرفـن أن قصة حبي الأولى فشـلت والثانية أيضا. أشـفقن علي كثيرا. لم أحكِ لهن الأسـباب طبعا. لكنهن كن يرينني لا أسـتحق القسـوة. كل يوم يقدمن لي من إفطارهن إذ يأتين به معهن من المنزل. ويفرحن جدا إذا سافرت في مأمورية وإحداهن معي. كل من الفتاتين دعاء ونجوى تزوجتا الآن. نادية الجديدة فقط غير مخطوبة والسكرتيرة لبنى. قالت لي وديعة:

- أحسن شيء في هذا الزمن الزواج. بلا حب بلا نيلة.

ضحكنا. قالت سامية المتزوجة أيضا:

- المهم العريس يعرف يحصل على شقة. أنت يا صابر لو عندك شقة بنات مصر كلها ستحبك.

لاحظت أن نادية نظرت لها بسرعة نظرة استنكار. ولاحظت أن السكرتيرة لاحظت نظرتها فابتسمت ساخرة. ارتبكت للحظة لكن نادية تقدمت مني وقدمت لي قطعة شيكولاتة قائلة:

- الشيكولاتة تنسيك كل شيء.

ضحكنا جميعا. أحببت مكان عملي. صارت حياتي أكثر انتظاما. خصصت يوم الأحد للجلوس مع الأدباء في مقهى فينيكس بشارع عماد الدين. أغلق مقهى ريش ولا يبدو أنه سيفتح. البعض قال إنه الأمن والبعض قال إن صاحبه توفي وأبناءه لم يفتحوه بعد. مرت الشهور ولا يفتح المقهى. ليس لدينا في الشقة مياه. كانت امرأة تأتي إلينا كل يوم بصفيحتي مياه سعر الواحدة منهما ستة قروش. كنا نضحك كثيرا حين يدخل أحدنا إلى الحمام ليستحم. يأخذ سعيد معه دورقا به ماء ويقول: «يحمّوك في كنكة».

كل يوم يقول ذلك في الصباح وهو يدخل ليستحم ونضحك. ملابسي لم أعد أغسلها. أغيرها وأجمع المتسخ منها أحمله إلى أمي كل شهر في دمياط تغسله لي. تضعه أمامها وتبكي. كل مرة تبكي وأنا أضحك. «ما الذي يجبرك على هذه العيشة يا صابر؟ شوف لك طريقة يا بني وانتقل إلى هنا» ولا أستطيع أن أقول لها إنه لا يوجد أي سبب يجبرني على ذلك غير أني أحب الحياة مع سعيد الذي لا يوجد أي سبب يجبره على الحياة في هذه الشقة!

دخل الشتاء وأصبح الليل طويلا وسط هذا الفراغ الشاسع والصمت العميـق الذي يبدو أنه باقٍ على الأرض من قبل أن يظهر عليها الإنسـان. صار توقيع معاهدة السـلام فـي منتجع كامب ديفيـد بالولايات المتحدة الأمريكيـة بحضور الرئيـس كارتر وبين السـادات ومناحـم بيجن رئيس وزراء إسرائيل نصرا جديدا تردده الصحف والإذاعات والتلفزيون. وبين المثقفين اليسـاريين احتجاج وبيانات ضد الاتفاق تكتب على المقاهي. بدا بحق أن عصرا كاملا ينقضي. كثير من الكتاب المشـاهير المعارضين غادروا مصر في السنوات السابقة. وأنا أشعر بالفراغ يزداد ولا أحاول أن أملأه بالانخراط في السياسة من جديد. وبينما أسمع علي الحجار وأردد معه شاردا ممددا على السرير.

دخل الشـتا وقفل البيبـان ع البـيوت

وجعل شعاع الشـمس خيط عنكبوت

وحاجـات كتيـر بتموت في ليل الشـتا

لكـن حاجـات أكتـر بترفـض تمـوت

عجبي!!

انفتح باب الشـقة وسـمعت سـعيد يتألم وينادي: «الحقني يا صابر»، قفـزت تقريبا إلـى الصالة لأراه منهارا على أحـد المقاعد ويده على بطنه يتألم:

– كلب عضني.

وقفت مذهولا. كدت أضحك. لكنه يتألم.

- وصل إلى اللحم ابن الكلب.

- ماذا سنفعل؟

- نذهب بسرعة إلى مستشفى الكلب.

ووقف يستند على حافة المقعد، ثم انهار جالسا يتألم من جديد. بسرعة ارتديت ملابسي وأخذته ونزلنا.

- خائف من الكلاب.

- لا تخف أنا معك.

نحاول الإسراع فلا يستطيع. تطاردنا الكلاب وتنبح. أقول له على مهلك. لا تخف ولا تسرع. الكلاب تطارد من يجري أمامها. وأنحني كأني ألتقط حجرا من فوق الأرض فتتوقف الكلاب ونمشي عدة خطوات فتتبعنا فأنحني مرة أخرى فتتوقف فنمشي وهكذا حتى ضحك متألما.

- ماذا تفعل؟

- هكذا تتخيل الكلاب أني سأقذفها بالحجارة فتتوقف. حل سهل. لا بد أنك خفت وجريت فطاردتك.

- أول مرة أعرف هذا.

- تتوقف الكلاب خوفا إلا الكلب المسعور. إما أنك جريت أو كلب مسعور الذي عضك.

- هو فعلا مسعور ابن الكلب. لكن أنا أيضا جريت أمامها.

وانحنيت ألتقط عدة أحجار صغيرة هذه المرة قذفتها كلها ناحية الكلاب وسط الظلام فازدادت هرولتها إلى الخلف. في النهاية وصلنا إلى الترعة وعبرناها ولم نقابل إلا كلبين لم يهتما بنا بين البيوت الكثيرة حتى وصلنا إلى شارع الهرم. لم تطل وقفتنا وظهر تاكسي. الساعة تقترب من الواحدة والشارع شبه خال. الملاهي الليلية فقط ساهرة لكنها بعيدة وراءنا. عملها الليلي يجعل فرصة أن تجد تاكسي وسط البرد والليل كبيرة. ركبنا.

- إلى مستشفى الكلب يا أسطى.

قلت للسائق ونحن نجلس خلفه فنظر إلينا مندهشا ثم قاد التاكسي في صمت.

في غرفة استقبال المستشفى أعطاه «تمورجي» حقنة وجلسنا مع الجالسين الذين كانوا خمسة ينتظرون دخولهم بالدور على الطبيب. الجالسون لا يتألمون مثل سعيد لكن أكثرهم ينحني أحيانا يضغط على ساقه التي لا بد أن عضه الكلب فيها. سعيد هو الوحيد الذي يضع يده على بطنه. الجالسون فقراء مما يبدو من ملابسهم. اثنان منهم يرتديان الجلباب البلدي الذي يبدو قديما متسخا. أحدهم تبدو عليه قوة البدن لكن على وجهه الحيرة والخوف.

- عضك فين الكلب؟

سأله الجالس جواره.

- ماعضنيش. أنا اللي عضيته!

تبادلنا جميعا النظر مندهشين نكاد نضحك لكنه واصل الكلام.

- آه والله. هجم عليا وأنا نازل المعدية في المنيب بالليل رايح الجزيرة رحت ضاربه بكفي ضربة جامدة انقلب على الأرض لاقيت نفسي باترمي عليه. قفلت بقه وهو كله تحت صدري وعضيته في ضهره. خلاص. وروحت ومشي الكلب يهوهو. مراتي قالت لي لازم آجي هنا لأنه لوكان فيه دم دخل في بقي يبقى هي هي كأنه هو اللي عضني.

نظرنا إليه جميعا ثم انطلقنا نضحك بقوة فعاد التمورجي ووقف أمامنا ضاحكا يخاطبه:

- يا بلدينا اسمع كلامي. سنان الكلب فيها بعيد عنك مرض بيخلي الواحد سعران. بيدخل في الدم بسبب العضة. أنت دخل في بقك دم الكلب مش مرض الكلب. دا إذا كنت بلعته. يعني تمشي من هنا تروح مركز التسمم في القصر العيني أحسن لك. يحللوا دمك يشوفوا دخل فيه إيه. غير كده الدكتور حيقول عليك مجنون ويمكن يحولك مستشفى الخانكة!

اكتفيت بالابتسام رغم الدهشة الكبيرة، كذلك لم يستطع سعيد أن يضحك وازداد إحساسه بالألم. لكن الرجل صمم على الدخول. دخل إلى الطبيب قبلنا وخرج مبتسما يقول: «والله ما فيه فرق بين التومرجي

والدكتور الاتنين كلامهم واحد. أروح لمرتي بنت الكلب سبب دوختي. والله ما تنام سليمة الليلة».

عدنا إلى الشـقة مع أذان الفجر وقد صار على سـعيد أن يحقن بحقنة كل يوم لمدة واحد وعشرين يوما؛ حتى لا يظهر عليه مرض الكلب.

25

فوجئنا بعمر إبراهيم يجمعنا حوله في مكتبه ويقول في تأثر:

- يا جماعة سأخبركم بخبر أرجو ألا يضايقكم.

نظرنا إليه مندهشين. تبادلنا النظر في ارتباك. قال:

- سأترك مصر.

تبادلنا النظر من جديد في حيرة ثم قال:

- سأسافر للعمل في ليبيا. الأخ معمر القذافي أسس مركزا للكتاب الأخضر. مركز دراسات. سأعمل فيه.

تساءلت نادية مرتبكة:

- ما هو الكتاب الأخضر؟

ابتسم عمر ابتسامته العريضة الحلوة وقال:

- خلي صابر يشرح لك فيما بعد.

قامت الزميلات جميعا وخرجن بسرعة إلى الصالة يجلسن على مكاتبهن يبكين. خرجت خلفهن أنا ونادية وعمر لنراهن يمسكن بالمناديل يجففن دموعهن. لا أظن أن مديرا في الدنيا بكى من أجله الموظفون. وقف عمر حائرا، نادية أيضا اتجهت لمكتبها وجلست حزينة.

رغـم أنها جديدة لم تمضِ معنا وقتا طويلا من قبل. جلس عمرعلى أحد المقاعد الخالية وقال:

- أنا اخترت لكم المدير الجديد. تعرفونه أنتم. إبراهيم عمر.

نظرت إليه مندهشـا. لـم أسـمع هذا الاسـم مـن قبل. لكنـه يقول إننا نعرفه. قالت وديعة:

- لن يأتي مثلك أحد يا أستاذ عمر.

وضـح التأثـر على عمر فتركنا إلى مكتبه. سـألتهم عـن إبراهيم عمر فقلن:

- كيف لا تعرفه؟! مدير قصر ثقافة الغوري.

أدركت أني قابلته كثيرا في سهرات رمضان. لكن لم ألتقِ به بعد ذلك بقية العام. كيف حقا نسيت اسمه؟ قالت سامية:

- هـو مهـذب جدا لكن خواف. لـن يعطينا فرصة الغياب إلا بشـكل رسمي. يعني إجازات.

وقالت نجوى:

- أمرنا لله.

قلت ضاحكا:

- صابر سعيد وسعيد صابر. عمر إبراهيم وإبراهيم عمر. دنيا!!

ضحكن جميعا.

***

هجم على البلاد مطر غزير. صارت الأرض حيث نسكن طينا فوق طين. رحت بعد أن ينتهي الطريق من شارع الهرم حتى الترعة أخلع حذائي، وأثني نهاية بنطلوني وأمشي حافيا وسط الوحل حتى أصل إلى البيت. كذلك كان سعيد يفعل. من يدخل منا ويجد الآخرموجودا يلقي بالحذاء على الأرض ولا يكف عن الضحك.

جئت يوما فوجدت الغرفة الداخلية مغلقة الباب. سمعت همسا خلفها. أرهفت السمع فسمعت صوت فتاة. اندهشت وابتسمت. كنت اشتريت سمكا مشويا من ميدان الجيزة. وضعته في المطبخ ومشيت على أطراف أصابعي إلى غرفتي. دخلتها ثم أغلقت الباب. غيرت ثيابي وفتحت المسجل أسمع رباعيات صلاح جاهين التي أدمنتها. بعد قليل سمعت سعيد عند الباب يقول مع السلامة، ثم يغلق الباب. فتح عليّ باب الغرفة مبتسما:

- لم أستطع.

- المهم أنك وجدت من تأتي معك هنا وسط الطين.

ضحكنا. جلس على طرف السرير وقال متأثرا:

- يبدو أن هذه قصة حب حقيقية. ادعُ لي بالتوفيق.

بدا لي متبتلا زاهدا في كل شيء. قلت:

- إن شاء الله ستنجح القصة هذه المرة يا سعيد.

عرفت أنها طالبة في السنة الرابعة بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية وأن اسمها جهاد. قلت مبتسما:

- الحمد لله أنها ليست في السنة الثالثة.

نظر إلي مندهشا ثم ابتسم وقال:

- لا زلت تتذكر. انسَ يا صابر. الأيام تجري بنا. هل تعرف لماذا جعل الله مكانا في المخ للذكريات؟

نظرت إليه صامتا فقال:

- لتستقر فيه قصص الحب الضائع. إذن نحن لا نغضب ربنا!

كدت أضحك لكني تماسكت. ابتسمت بعد أن قاومت الضحك بقوة.

كثيرا ما كانت جهاد تأتي وأنا في الخارج. وإذا أتت وأنا موجود أغلق باب حجرتي حتى تنصرف. في مرة فتح سعيد باب غرفتي وهي خلفه وقال:

- لماذا في كل مرة لا ترى جهاد؟

ارتبكت. كنت فوق سريري. انتترت واقفا. قدمني إليها. ارتبكت هي للحظة وأنا بدوري نظرت إلى أسفل بينما أصافحها. قال سعيد:

- مرة نروح مسرحية كلنا سوا.

قالت مبتسمة:

- إن شاء الله.

وانصرفت. أغلق سعيد باب الشقة خلفها وسألني:

- ما رأيك؟

- جميلة جدا. كيف وجدتها؟

قلت ذلك في حماس رغم أني لم أرَ إلا عينيها السوداوين الواسعتين بسرعة، وإن لاحظت أنها أطول منه قليلا. ثم ضحكت وقلت:

- اسمها جهاد. ربنا يقويك.

ضحكنا.

بعد لحظات فوجئت به يقول:

- اليوم خفت عليها جدا. ولا زلت خائفا.

- لماذا؟

ابتسم وقال:

- هزرنا مع بعض. عضتني. لم أستطع أن أخلّص نفسي من أسنانها إلا بعد أن عضضتها أيضا.

نظرت إليه مندهشا فقال وهو يهز رأسه في استغراب:

- عضضتها عضة لكن خفيفة في ذراعها. تفتكر أكون عديتها.

- بماذا تعديها؟

- بمرض الكلب.

ضحكت بقوة غير مصدق ما يقول. قلت:

- يا رجل! أنت انتهيت من الحقن ولم يظهر عليك أي عرض للمرض.

- أنا الحقيقة كذبت عليك. أنا توقفت بعد الحقنة الخامسة ومن ساعتها كلما تثاءبت يهيأ لي أني سأعض أحدا. آه والله.

ضحكت من جديد وأنا أنظر إليه وتزداد دهشتي. ضحك وقال:

- أحيانا أشعر أني محتاج أهوهو. بجد والله.

- لا لا يا سعيد. غير معقول.

- لن تصدقني لكن هذه هي الحقيقة. على أي حال لن أشغل نفسي بشيء. هي ونصيبها معي.

- يا سعيد. من ناحية الهوهوة كلنا نريد أن نهوهو. أنت شفيت وزي الفل وربنا يخليهالك.

- ربنا يخليك.

قال ذلك متأثرا ونهض مبتسما وأنا أهز رأسي مبتسما أيضا ومسرورا.

***

عندما دخل المدير الجديد إبراهيم عمر إلى المكتب وألقى علينا تحية الصباح كدت أضحك. كان أقصر من عمر إبراهيم مديرنا السابق بشكل واضح ومن ثم أكثر سمنة. لم يكن أيضا معتنيا بملابسه عناية عمر إبراهيم. رآني مبتسما أجاهد ألا أضحك فقال وهو يصافحني:

- مقالك الأخير في مجلة الهلال جميل.

أردت أن أشكره فلم أستطع لأني لا أزال أريد أن أضحك. لم أضحك ولم أشكره. صافح الجميع ودخل إلى مكتبه. بعد قليل ناداني فدخلت إليه:

- اجلس.

جلست. سألني عامل إيه. مبسوط والا لا. لم أرد وظللت مبتسما فقال:

- عمر كلمني عنك كتير أنت وسعيد. ما رأيك؟

- فيم؟

- تسهران معي ليلة رأس السنة في غرزة. ليس في الغرزة الحقيرة التي تذهبون إليها. معي ستعرف معنى الغرز في مصر.

فاجأني بحديثه جدا وقال:

- لا تستغرب. هي الدنيا كده. سيجارة وكاس.

اتفقنا أن نلتقي ليلة رأس السنة. اندهشت لكنه قال:

- أجل ليلة رأس السنة. غرزة خاصة جدا.

خرجت من مكتبه إلى الصالة مبتسما وزميلاتي في دهشة ينظرن إليّ في استغراب وحيرة. اقتربت مني السكرتيرة لبنى وسألتني هامسة:

- ماذا قال لك؟

قلت:

- سنرى أياما أجمل من الجمال مع إبراهيم عمر.

ابتسمت ثم دخل علينا عامل البوفيه بأطباق في كل طبق قطعتي جاتوه فخرج إبراهيم عمر من مكتبه مبتسما وقال:

- أحضرت لكم جاتوها أحتفل بعملي معكم.

***

التقيت أنا وسعيد وإبراهيم عمر ليلة رأس السنة أمام المسرح القومي بالعتبة. كان أفيش مسرحية طائر البحر. كانت عروض كثيرة هذا العام بالمسرح القومي ومسرح الطليعة لكتاب أجانب. ستريندبرج وبيكيت ويونيسكو رأيناها كلها. وكلها كانت تساعدني على العزلة من فرط روعتها التي تظل معي وتكفيني كثيرا عن أي سهر آخر. وبدا لي في لحظة أن المسرح في مصر يقدم آخر عروضه!

كان مدهشا لنا طبعا أن نقضي رأس السنة في غرزة والعادة جرت أن هذه ليلة الخمر وليس الحشيش! كان مطر شديد يملأ الفضاء وميدان العتبة شبه خال من الناس والسيارات. أخذنا تاكسي كان ينتظرنا مع إبراهيم عمر إلى شارع محمد علي. أمام أحد الأزقة المتفرعة من الشارع أمر التاكسي أن يتوقف. مشينا لمسافة قصيرة تحت المطر فوق بلاط الشارع البازلتي الصغير إلى مساحة فارغة بين البيوت مسقوفة بالصاج. مساحة أوسع من الغرزة السابقة تحيطها جدران البيوت الخلفية. في ركن صغير منها ينتصف محيطها المكان الذي يتم فيه إعداد المشروبات

وتجهيـز أدوات التدخين. تحت سـقف المكان المقاعد الخشـبية فوقها «شـلت» قطنيـة ولهـا مسـاند أيضـا مـن الشـلت، والترابيـزات الصغيرة الخشبية وحولها الجالسون جميعا تبدو عليهم النعمة. يرتدون بدلا أنيقة و«بلاطي شـيك» ووجوههـم بيضاء تميل إلى الاحمـرار. والمدهش أنه كانت هناك سيدتان جميلتان تجلسان كل واحدة مع رجل. همست:

- أول غرزة أرى بها سيدات.

قال إبراهيم:

- لـم نتقدم في الليل بعد. سـتزداد النسـاء بعد قليـل. قلت لك غرزة اسـتثنائية. تجـد دائمـا النسـوان ليلـة العيـد وليلـة رأس السـنة. غير كده حرام!

ضحكنا ثم قال سعيد:

- هنا تشـعر أنـك قاعد في مصر أيـام الملك. الناس كلها باشـوات. حتى الأغنية من أيام الملكية.

- صح.

قـال إبراهيـم. لكني بدأت أشـرد مـع الأغنيـة التي تسـري فوقنا من المسـجل «على قد الليل ما يطول» لسـيد درويش. وجدت نفسي أستمع للأغنية وحدها. لا شيء ولا أحد آخر.

في حبك ياللي من أول

ما اشوفك تترد لي روحي

آه. يا ترى يا ربي هو والا لأ

حبوبي

يا عين الحبوب من جوة

يا سبب سعدي ومكتوبي

لا أعرف ماذا حدث. وجدت نفسي أكاد أنفجر في البكاء. بكاء كأنه كان مخزونا في روحي منذ عشرات السنين جاهدت لأتماسك لكن بدا على وجهي الألم. اكتفى سعيد وإبراهيم بالنظر إليّ في صمت لحظات ثم قال سعيد:

- اغتنم فرصة الفرح.

قلت:

- آسف؟ لا أعرف ماذا حدث لي فجأة.

قال إبراهيم الذي كان «يعمّر» «الأحجار» بالمعسل والحشيش:

- عادي جدا.. ولذلك نأتي هنا.

ابتسمت فقال:

- هل لاحظتم البازلت الصغير في شارع محمد علي وفي الزقاق الذي جئنا منه؟

- ما له؟

سأله سعيد ضاحكا أيضا فقال إبراهيم:

- قريبا سيخلعونه ويسفلتون الشارع بالأسفلت العادي. إنهم يفعلون ذلك في كل الشوارع القديمة الآن. هل تعرفون لماذا؟

- لا.

أجابه سعيد.

- سيبيعونه إلى أوربا. أي والله. هذا الحجر البازلتي الصغير كنز. لم يعد موجودا. وهو جميل جدا. أي والله سيبيعونه أولاد الكلب الذين يديرون البلاد بحجة أنه موضة قديمة.

انتهت الأغنية وملأت المكان أغنية «حاجن يا ريت يا اخوانا ما رحتش لندن ولا باريس» فقام رجل جميل وأنيق وراح يرقص وحده على إيقاع الأغنية. قال إبراهيم:

- شفت؟

ثم أشار الرجل إلى امرأة فقامت ضاحكة وراحت ترقص أمامه. فقال إبراهيم أيضا:

- ولسة!

ضحكنا وقدم لي الجوزة فرحت أسحب الأنفاس ثم أعطيتها لسعيد الذي بدوره أعطاها لإبراهيم الذي سألني:

- ما رأيك في الحشيش؟

- تمام.

- صاحب الغرزة يعرف السادات.

نظرنا إليه بدهشة فقال:

- لذلك يأتي بأحسن حشيش من لبنان.

ضحكنا بقوة فقال:

- لا تصدقاني طبعا. سيأتي يوما ويحكي لكما بنفسه.

قال سعيد وهو يتراجع بظهره مستمتعا:

- لذلك أحيانا أشعر أن السادات مظلوم.

- أليس كذلك؟

تساءل إبراهيم فضحكنا ثم قال:

- اسمعا اسمعا. أنا هويت وانتهيت وليه بأه لوم العذول.

وراح يردد الأغنية التي تأتي من المسجل ثم قال:

- البلد دي من غير سيد درويش لا تساوي شيئا.

ثم نادى الشاب الذي يجهز الطلبات:

- شغل لنا عبد المطلب شوية. ساكن في حي السيدة وحبيبي ساكن في الحسين.

ثم نظر إلينا وقال:

- المسافة فركة كعب وهو بيتعب أوي لأنه بيروح له مرتين. والناس كلها مصدقاه وتغنيها. علي النعمة الشعب المصري أخف دم بلد في العالم؟

ثم سكت لحظة وقال:

- وكمان. ما تزعلوش مني. شعب مستطول المسافة من السيدة للحسين ما فيش أمل فيه!

قلت:

- يمكن أن يكون المعنى أنه يذهب إليه مرتين لقصر المسافة. ولأنه لا شيء آخر يفعله.

ضحك سعيد بينما نظر إليّ إبراهيم عمر في استغراب ثم قال:

- تصدق ممكن جدا. أنت ناقد بجد.

وقال سعيد:

- وممكن بيروح وهو محشش فالمشوار ما بيخلصش!

ضحكنا بقوة لفتت أنظار كثير من الجالسين.

في حوالي الحادية عشرة دخل عدد من الرجال والنساء يرتدون أزياء شتوية راقية. خلعوا بلاطيهم ووضعوها على مقاعد جوارهم وراح الشاب الذي يجهز الطلبات يجري بين الجميع يرفع يده بالتحية

ويقدم لهم المقاعد وأنا أنظر إلى سعيد غير مصدق وهو يبتسم، ثم دخل رجل في حوالي الأربعين معه فتاة شابة وجلسا يضحكان بعد أن خلعت البالطو الجميل التي ترتديه ووضعته على المقعد الخالي جوارها. رحت أفكر أين رأيتها من قبل. لاحظت أنها نظرت إلى سعيد وانفتحت عيناها على آخرهما فقامت إلينا فوقف سعيد مندهشا يقول:

- أشجان!

صافحها فقبلته وقالت ضاحكة:

- وحشتني جدا يا أستاذ.

بدا سعيد خجلان فجأة. ونظرت هي إليّ وقالت:

- وأنت يا صابر.

وقفت أصافحها. مدّت يدها فقط. لم تقبلني. ثم قالت: «مساء الخير» لإبراهيم عمر الذي قال: «مساء الورد» ولم يتحرك من مكانه، ثم أشار للرجل الذي معها قائلا:

- حضرتك تفضل معنا هنا ما دام المدموازيل صديقة للأستاذ سعيد.

أشار الرجل إلينا بالتحية باسما وظل في مكانه. عادت إليه أشجان فقال إبراهيم لنا:

- أعرفه. مخرج إذاعي. كل من يعرفه يقول عنه مغرور. هو أيضا يعرفني ويتظاهر أنه لا يعرفني. طز.

دخلت فتاتان جميلتان لوحتا إلى المخرج الإذاعي وتقدمتا ناحيته في فرح. قبلتاه وجلستا مع أشجان. قال إبراهيم بصوت خفيض:

- ثلاث فتيات يا بن الكلب!

ضحكنا. قال سعيد:

- النسوان كتير يا أستاذ إبراهيم لكن فين النفس!

ضحكنا من جديد فسأل إبراهيم سعيد:

- أين عرفت هذه الفتاة؟

- مسكينة. تبحث عن دور من السكة الخطأ. قلت لها تدخل دراسات حرة في معهد التمثيل وتوفر على نفسها ابتزاز بعض الفنانين لم تستمع لي. لا تريد أن تصدق أنها غير موهوبة.

قال إبراهيم:

- إذن خلونا في الحشيش. هو الباقي لنا.

ضحكنا.

في الساعة الثانية عشرة أطفأ الرجل الذي خلف النصبة مصابيح الغرزة التي تتدلى من السقف الخشبي. وارتفعت الأصوات مهللة. لحظات وأضيئت المصابيح فصفق الجالسون، وظل الواقفون على حالهم كل رجل في حضنه امرأة يقبلها قبلة طويلة.

كانت أشجان أيضا في حضن المخرج الذي تركها وقبل الفتاتين الأخريين. «ها بي نيو يير». هتف الجميع ثم بدءوا يتركون المكان ضاحكين سعداء. لم يبق غيرنا والرجال الوحيدون. لم تطل جلستنا.

دخـل علينـا رجل يرتـدي بالطو صوف قديمـا وحذاءً أقـدم وحول عنقه كوفية كبيرة بشكل لافت يبيع صحف الغد. قال إبراهيم:

- شـفت غرزة فيهـا صحف؟ الثقافة للشـعب. المفروض نحن أيضا نقيم غرزا في قصور الثقافة. عليّ النعمة الشعب كله سيأتي يقرأ.

ضحكنا بقوة. اشترى جميع الجالسين الصحف فقال إبراهيم:

- سـيتركون الغـرزة ويتركـون كل الصحف علـى الأرض. المهم أن الرجل استنفع.

لكن سعيد كان يفتح جريدة الأهرام التي اشتراها إبراهيم فقال له:

- لا تقرأ العناوين. اقرأ الحوادث. الحوادث هي مصر.

ابتسـم سـعيد وراح يقلـب صفحـات الجريـدة حتى وقـف عند خبر وشرد عنا:

- اقرأ.

قال إبراهيم فقال سعيد بهدوء:

- القبض على جماعة تمارس شعائر دينية فرعونية.

قال إبراهيم:

- عادي عادي. مصر أصلا فرعونية. شوف لنا خبرا آخر.

ضحكت لكن سعيد قرأ مرتبكا:

- ألقت قوات الأمن القبض على مرشد سياحي يدعى يحيى علام الأقصري يمتلك فندقا في الأقصر كان يمارس فيه مع عدد من الأدباء شعائر ديانة سماها الآتونية. وكان يعلمها للأجانب نظير مبالغ كبيرة...»

هتف إبراهيم:

- يا خبر أسود. انتظر. هذا صديقنا. لا نذهب إلى الأقصر إلا ويعزمنا عنده. هل تعرفانه؟

قلت:

- طبعا.

قال سعيد في غيظ:

- عملوها فيه الكلاب.

ألقى بالجريدة على الأرض، ونظرنا إلى بعضنا صامتين.

قلت:

- ودعنا عام 1978 أحلى وداع واستقبلنا عام 1979 أسوأ استقبال.

ودخلنا في صمت لكن إبراهيم قال بعد لحظات:

- الله يرحمه كان بيفرفش كل قعدة. البقاء لله.

تبادلنا النظر أنا وسعيد ثم ضحكنا. قمنا جميعا نغادر المكان ضاحكين.

كان المطر قد انقطع. ما إن أشار إبراهيم إلى تاكسي في شارع محمد علي وركبه حتى قال سعيد:

- الأقصري لم يمت يا أستاذ إبراهيم.

قال إبراهيم:

- إذن من الذي قبض عليه؟

- هو.

- لا فرق. باي باي.

26

المطـر يزداد ونحن نتقدم فـي يناير. يباغت المدينـة فتتعطل فيها كل المواصلات. تتعطل التليفونات. تنقطع الكهرباء أحيانا وتمتلئ الشوارع بالماء والوحل. أحياء مثل شـبرا صارت شـوارعها بحورا. كتب أكثر من كاتب عن شبرا زمان وما جرى في شوارعها من تدهور.

- لماذا يتحدثون كثيرا عن شوارع شبرا بينما شوارع مصر كلها تغرق في الشتاء؟

سألته ضاحكا فقال باسما:

- لا أعرف. لكن الصحافة هكذا. إذا كتب شـخص عن شـيء يكتب الجميع عنه. لا بد أن أحدا كتب عن شبرا أولا.

ضحكنا.

كنـا نلعـب الطاولة تلك الليلـة كعادتنا. علي الحجّـار يصدح جوارنا برباعيات صلاح جاهين. أوقف المسجل وحوّله إلى الراديو وقال:

- أدمنا الرباعيات. دعنا نسمع الموسيقى كما كنا.

في الحقيقة كنا نسـمع الموسـيقى أيضا، لكن بعـد أن ينتصف الليل.

كنـت كثيـر الشـرود وأراه أحيانا يلاحـظ ذلك ثم يهز رأسـه ولا يكلمني فقلت له مرة مبتسما:

- تتعجب من شردوي كثيرا هذه الأيام. أليس كذلك؟

- وأخشى أن أسألك. لكنك لا تبدو حزينا وهذا هو المهم.

- بصراحة أفكر أن أكتب رواية عن أيامنا معا.

- معقول؟ لم أعرف عنك ذلك.

- قرأت مرة لأحد الكتاب أن من يكتب ما يؤلمه يتخلص منه.

سكت لحظات يفكر ثم ابتسم وقال:

- لكن ليس كل ما عشناه ألما.

- إذن أتخلص من الألم وأستعيد الفرح. ما رأيك؟

- أنت ناقد يا صابر وتسألني رأيي؟ إذا كنت تشعر أنك قادرعلى كتابة رواية فاكتبها.

ونظر حوله وقال ضاحكا:

- ستكون أول رواية كتبت فوق مجمرة فول.

ضحكنا. قلت: مجمرة. المجمرة. عنوان رائع.

قال في دهشة:

- أنت تتحدث جادا.

هززت رأسي وقلت:

- لا. العنوان صعب رغم أنه جديد. سيحدد مساري ولن أتحدث في الرواية إلا عن النار. عن الألم.

- اترك العنوان الآن. واترك الرواية بعض الوقت. إذا كانت تلح عليك ستأتي.

- سأفعل ذلك. ولا بد أنها ستستجيب لرغبتي. ستطاوعني وأكتب عنا معا. أعدك بذلك. ما رأيك أن تفعل ذلك أيضا. روايتان نقدمهما معا للحياة الأدبية باعتبارها تجربة جديدة. كاتبان يكتبان عن عالم واحد عاشاه معا. هناك كتاب يشتركون في نص واحد لكننا سنختلف لأننا سنكتب نصين عن عالم واحد.

- لورانس داريل كتب رباعية. أربع مرايا لأربع شخصيات في زمن واحد.

- لكنه كتبها وحده يا عزيزي. شخصيات داريل متخيلة. تبدو أنها كاتبة النص لكنه هو الكاتب. نحن سنكتب النصين. الأمر مختلف. ما رأيك؟

هز رأسه وقال:

- لا أظن أني قادر على ذلك. سأذهب إلى فرنسا وهناك سأنسى كل الآلام. البهجة وحدها لا تصنع فنا.

- علـى أي حـال نتـرك ذلـك للظروف. مـن يـدري قد تغيـر رأيك.

ضحكـت. أحيانا أتخيـل أن كل الذين قابلناهم صدفـة ربما يقرأون يوما ما نكتبه.

- تقصد مثلا فتاتي النيل؟

- وفتاة كلوت بيك وسـميرة تحت السـرير والفتاتان والولد السـمين والرجل النوبي الذي ينتظر نزول الله. هل أستمر.

- تصور مرة فكرت فيهم وقلت لنفسـي إن ربنا مخبيهم ولا يظهرهم إلا لفنان لأجل أن يكتب عنهم.

ثم هز رأسه وقال:

- يا إلهي. سـنقلب على نفسـنا المواجع. بكـرة الخميس موعدنا مع إبراهيم عمر.

صـار ذهابنـا مع إبراهيـم عمر كل أسـبوع إلى الغرزة الجميلة طقسـا منتظمـا. اختفـت منها النسـاء كمـا قال لنا من قبـل. علينـا أن ننتظر العيد الصغيـر. ولأننـا في شـهر صفـر العربي بـدا الموعـد بعيدا جـدا وصرنا نضحك. خمسـة أشهر وأيام تفصلنا عن العيد. كان تعليق إبراهيم «لكنها لا تفصلنـا عن النسـاء. النسـاء على قفا مين يشـيل المهم ابعـد عن بيتك وشـغلك علشـان الفضايـح» «يمكن أن لا تكـون هناك فضايح يا أسـتاذ إبراهيم. أن تنتهي العلاقة بالزواج مثلا» «برضه فضايح» ونضحك.

***

وجـدت سـعيد يحتشـد لشـراء الكتب في معـرض القاهـرة الدولي للكتـاب. كل يـوم يحدثنـي عـن المعـرض وكيف ينتظـره بفـارغ الصبر ليشـتري كتبـا عربية وكتبا أجنبية مـن الأجنحة الأوربية تفيده في رسـالته للماجيسـتير. صار سـعيد يذهب إلى قصر ثقافة الريحانـي ثلاثة أيام في الأسـبوع. يحضّـر علـى مهل لعمل مسـرحي جديد لكن همـه الأول هو رسـالته العلمية التي سـتفتح له الطريق إلى فرنسـا. بنى أحلاما كبيرة مع جهـاد كما صـار يخبرني. هي أيضا تحلـم باليوم الذي ستسـافر معه إلى فرنسـا. وسألني هل سـأذهب إلى معرض الكتاب. قلت باسما أنا أذهب كل عام. هل نسيت؟

لم يكن في نيتي شـراء كتب كثيرة. فالسـبل مقطوعة تقريبا بيننا وبين النشـر فـي العالم العربي، ومـن ثم لا عائد يكفي من المـال. أتعامل الآن فقـط مـع مكتب صحفي جديد يراسـل الصحف الكويتيـة، لكنه لا يأخذ مني غير مقال واحد يدفع فيه مئة دولار. أي سـبعون جنيها. مبلغ لا بأس بـه لكن لا يمكن الإبقـاء عليه في ظل هذه الحياة التي نعيشـها، وفي ظل الأسـعار التي ترتفع. ولم نعد نأكل شيئا واحدا طوال الأسبوع لأننا نادرا ما نشـتري شـيئا نحمله إلى البيت. نأكل في المطاعم أو نشـتري أكلنا من المطاعـم. الوقـوف فـي المطبخ الضيق الـذي لا تزيد مسـاحته على متر مربع وسـط حر الشـقة الرهيب، لا يشجع على طهو شيء فوق البوتاجاز المسـطح الصغير الذي اشـتريناه أو حتى تسـخينه. بالكاد نعد الشـاي أو

القهوة أو النسكافيه التي صار سعيد مغرما بها لأن جهاد أعدتها له مرة فعشقها. كل ما تفعله المرأة التي تحبها تحبه.

ونحن نتأهب في الصباح للخروج إلى المعرض وجدت سعيد يحمل حقيبة جلدية كبيرة بها أكثر من مكان وكل مكان تغلقه سوستة. سألته ضاحكا:

- هل ستحملها طول الوقت وأنت تدور تبحث عن الكتب؟

تردد لحظة وقال:

- بصراحة أنا منذ يومين كنت أجلس مع الشاعر عباس الروبي. تعرفه طبعا.

- طبعا. هو من المحلة الكبرى أصلا.

- بالضبط. حكى لي حكاية غريبة عن سرقة الكتب. قال إنه يحمل حقيبة ويدخل إلى الجناح يضعها على الأرض أمام قدميه وهو يتفحص الكتب المعروضة على الإستندات الخشبية. أنت ترى أمامك على الإستاند الكتب معروضة جوار بعضها فإذا اشتريت كتابا صار مكانه خاليا فيأتي البائع يضع كتابا آخر مكانه. من أين يأتي به؟

- أكيد هناك مخزن.

ضحك وقال:

- لا. المخزن تحت الرف الأسفل. كل كتاب يوجد تحت الرف الأسفل بالنسبة إليه عدد من الكتب يسحب منها البائع كتابا يضعه مكان الذي تم بيعه.

- طيب وما لنا وهذه الحكاية؟

- سأسرق الكتب مثل عباس.

نظرت إليه مندهشا فقال:

- هو يضع الحقيبة أمام قدميه ويمسك بالكتاب الذي يريد سرقته يفتحه كأنه يقرأ فيه أو يتعرف عليه، ثم يهبط به إلى أسفل يضعه في الحقيبة ويقف من جديد وقد حمل كتابا آخر من تحت الرف الأخير يضعه مكان الأول.

نظرت إليه لا أصدق وقد اتسعت عيناي إلى آخرهما. فقال:

- سرقة الكتب حلال.

ضحكت.

ذهبت معه غير مصدق أنه سيفعل ذلك. ما إن دخلنا المعرض حتى قال:

- سأبدأ بجناح هيئة الكتاب. إنها قطاع عام، وإذا أمسكوني ربما أصعب عليهم فيتركوني.

مشيت معه غير مصدق. وصلنا إلى باب جناح هيئة الكتاب فوجدته يضع الحقيبة في الأمانات وينظر لي ضاحكا.

- هل صدقتني؟

ابتسمت وقلت:

- الحمد لله.

افترقنا بين أقسـام هيئة الكتاب. كنا قد اتفقنا أن من يتعب منا يسـترح في الكافتيريا الوحيدة بالمعرض. المعرض يقام في منطقة الجزيرة وليس به إلا أجنحة الكتب التي تشغل مكانا كبيرا.

بعـد سـاعتين من التجوال بين الأجنحة اشـتريت خلالهـا ثلاثة كتب ذهبت إلى الكافتيريا أستريح ولعلي أقابل سعيد هناك أو يأتي إليّ. قابلت في طريقـي عددا من الكتـاب المعروفين باليسـار وبمعارضتهم لاتفاقية كامـب ديفيـد. بينهم المشـاهير ومن هم مثلـي غير مشـاهير. عرفت من أحدهم أنهم سيوزعون منشورات في كل المعرض ضد سياسة السادات وضـد اتفاقية كامب ديفيد. تفرقـوا بين الطرقات. في الكافتيريا جلسـت بيـن عـدد من الكتاب من عمري أعرفهم كلهم شـعراء وكتاب قصة. كان حديثهم كله عن سـرقة الكتب. أعرف ذلك من زمان لكني لم أتصور أنه ظاهرة إلى هذا الحد. كنت أرى ذلك كل عام ولا أهتم، ولولا أن سـعيد ذكره أمامي ما تذكرته.

كانت الكتـب كثيرة على الترابيزات بين الكتاب. كنت أنا أقلهم كتبا. علّق أحدهم ضاحكا: «طبعا علشان بتشتري». راحوا يقدمون لي النصائح التي أسمعها منهم كل عام وأضحك ولا أفعلها. إما أن أرتدي بالطو مثل بعضهم، وفي هذا الجو البارد لن يثير البالطو الشك، وأفتح بطانة البالطو مـن الداخل أضـع فيها كل حيـن كتابـا أو اثنين وأخـرج أضعهما في أي

مكان وأعود أسرق من جديد. وإذا كنت أكثر حرصا أو أشعر بالخجل أتفق مع اثنين آخرين، واحد يشتري الكتاب ويخرج والإيصال معه. يعطي الإيصال للثاني فيدخل ويخرج بالكتاب وإذا اعترضه أحد يطلعه على الإيصال، ثم يعطيه للثالث ويكون الأول قد اشترى كتابا جديدا وهكذا.

قلت ضاحكا:

- يا أولاد الكلب!

ضحك الجميع.

كانت هناك فتاتان تجلسان وحدهما قريبا منا ليس أمامهما كتبا. إحداهما تهز قدمها وتبدو متوترة. الثانية تقترب منها وتتحدث هامسة وهي تبدو غير مقتنعة. ثم قامت فجأة وقالت لها:

- طيب. خلاص.

قمت لجولة جديدة بعد أن شربت شايا ولم يأتِ سعيد. ذهبت إلى جناح مؤسسة الأهرام ووضعت الكتب أمانات كما نصحني لصوص الكتب حين عرفوا أني اشتريتها ولا أهتم أن أحصل على إيصال بها. كانوا يريدون الإيصالات يستفيدون بها. وقالوا لي أيضا يمكن أن تكون الكتب موجودة في جناح آخر ويتصور أصحابه أنني سرقتها من عندهم.

في طريقي وجدت علي الكبير يتجه خارجا من المعرض ومعه بعض الكتب في حقيبة بلاستيكية. كانت ألف ليلة وليلة في أربعة مجلدات.

قال إنه جاء ليشتريها فقط فهذه الطبعة الكاملة النادرة. قررت أن أشتريها أيضا. عرفت منه أين أجدها. قال لي فجأة:

- محمد القاسمي أرسل لي خطابا يقول إنه زعلان منك لأنك لم تسافر.

اندهشت للحظة وقلت:

- أنا أرسلت من وقتها له خطابا شكرته واعتذرت وقلت له أن يبلغ اعتذاري لرئيس تحرير المجلة. ألم يقل لك ذلك؟

- لا.

ثم ابتسم وقال:

- إذن نسي أو كتب الخطاب وهو سكران.

ضحكت. سألته:

- هل كنت مع الكتاب حاملي المنشورات؟

- لا. لقد وزعوا المنشورات واختفوا بسرعة. أنا خلاص. بعيد عن هذه الأجواء منذ تركنا الحزب. أفكر أيضا في السفر.

- إلى السعودية؟

- لا. سأحدثك حين نتقابل مرة أخرى.

وتركني وأسرع لا أدري لماذا.

وجـدت كتاب «مذكـرات بابلو نيـرودا» في مكتبـة لبنانية ومن يقف لبيـع الكتـب شـخصان أحدهمـا لبنانـي والآخر شـاعر مصـري أعرفه. سألته: «هل تعمل هنا؟» قال: «أثناء المعرض فقط. ما أنت عارف الشعر ما بيجيبش فلوس». كنت أعرف أنه لا وظيفة له. سـألته عن سعر الكتاب ابتسم وقال:

- خذه واخرج لا تدفع شيئا.

نظرت إليه مندهشا فقال:

- اسمع الكلام. اخرج واثقا في نفسك لا ترتبك. لن يسألك أحد عن الكتاب حتى لو رأوه في يدك.

ظللت واقفا مندهشا لكنه ابتسم وقال:

- كثير من دور النشـر هذه لا تدفع شـيئا للمؤلفين. يوما ما سيحدث ذلـك معـك. ما يسـرق منهم طول العام لا يسـاوي حق مؤلـف واحد لم يحصل عليه.

وجدت نفسـي أخرج والكتـاب في يدي لكن متجها إلى «الكاشـير» لأدفـع لـه. قبل أن أصل سـبقني للخروج شـاب كنـت رأيته بيـن الأدباء بالمقهى. كنت عرفت أنه شـاعر عامية وكان هذا أول لقاء لنا. كان يحمل فـي يده كتابين ومـا كاد يعبر البـاب الفاصل للجناح الصغيـر عن الطرقة التي أمامه حتى وجدت لبنانيا ضخما وجهه أحمر وشـاربه أصفر ويبدو أنه صاحب الدار يناديه:

- وين رايح بها الكتاب يا زلمة؟

تجمد الشاعر في مكانه لحظات ثم قال :

- سأدفع عند الباب العمومي.

قال اللبناني:

- الدفع هنا يا زلمة.

وخاطبني أنا:

- إيش حكايتكم يا مصريين. كله يحكي إنه حيدفع بره. إيش نسوي إحنا هنا؟

ابتسمت وقلت:

- أنا سأدفع هنا.

سألت عن سعر الكتاب فوجدته خمسة جنيهات. لم يكن مع شاعر العامية أي نقود فأخذ منه البائع الضخم كتابا وترك له كتابا بعد أن عرف أنه شاعر وقال له:

- الناشرون غير. لو قفشوك والله في سماه ما حدا حيعرف لك طريق.

وكان يضحك.

دفعت الخمسة جنيهات وأخذت إيصالا بها وخرجت لأدخل جناحا آخر لدار نشر لبنانية أيضا. وبينما أتطلع إلى الكتب وجدت جواري الفتاة

التي كانت تجلس متوتـرة مع زميلتها في الكافتيريا. كانت تبدو مضطربة تمسـك بكتاب تنظر إليه ثم تعيده مكانه متنهدة وتعود تمسك بغيره فأرى يديها ترتعشان وتفعل ما فعلته من قبل. وجدت نفسي أنا الذي لا أعرفها أسألها:

- ما لك؟

ابتسمت وقالت:

- أصل أنا جئت أسرق الكتب.

ارتبكت وظللت لحظات أنظر إليها مندهشا ثم ابتسمت وقلت:

- خذيه واخرجي. لن ينتبه أحد.

- هل يمكن؟

- أنت كنتِ جالسة على المقهى أليس كذلك؟

- أجل ورأيتك لذلك تكلمت معك الآن.

- إذن سـمعتِ كلام الأدباء. كلهم تقريبا بيسـرقوا كتب. ودي طريقة من الطرق.

- خائفة. ولو مسكوني ليس معي نقود أدفعها.

اندهشـت جدا. لماذا تفعل ذلك حقـا. لا يبدو أنها من الأدباء. كانت تجلس بعيدا مع الأخرى. لكنها جميلة ووجهها جذاب. وجدت نفسـي أقول. سأفعل ذلك أمامك.

أمسكت رواية وليم فوكنر «الصخب والعنف» وخرجت بهدوء واثقا في نفسي ووقفت بعيدا أنتظرها فرأيتها تتقدم بهدوء وكتاب في يدها وما إن صـارت عند الحد الفاصـل بين جناح دار النشـر والطرقة أمامها حتى أسرعت نحوي حتى كادت تنكفئ علي. تنهدت وقالت:

- مش مصدقة روحي.

- على مهلك. خلاص خرجتِ بالكتاب.

قلت ذلك مبتسـما ومشـيت فمشـت معي وفي يدها كتـاب «الإمتاع والمؤانسـة لأبي حيان التوحيدي» ذهبنا إلى الكافتيريا وجلسنا نضحك. سألتها:

- هل تعرفين التوحيدي؟

فـي الحقيقة كنت مندهشـا جدا. هـذا كتاب نادرا ما تقـرأه امرأة رغم عنوانه فما بالك بفتاة!

قالت:

- ستعرف فيما بعد. المهم خليك معي دائما.

- بصراحة أنا لا أحب ذلك لكنك شجعتيني.

ضحكت:

- أنا الذي شجعتك أم أنت الذي شجعتني. أنت خبير!

ضحكنا.

- والله عمري ما عملتها. أيضا أنا لا أريد كتبا أخرى. لكن سأعطيكِ عشرة جنيهات تفعلين ما فعلتِ وإذا اكتشفك أحد تقولين إنك ستدفعين عند الباب الخارجي وإنك لا تعرفين أن الدفع عند الجناح، وتدفعين ثمن الكتاب وتكفين عن ذلك.

نظرت إليّ مندهشة جدا وقالت:

- يا عم أنت خبير والله. قم بأه شجعني.

هززت رأسي مبتسما ورافضا. عرفت أن اسمها هويدا. أخرجت الورقة المالية فئة العشرة جنيهات وأعطيتها لها قائلا:

- سأنتظرك.

تناولت العشرة جنيهات بقبضة يدها وضحكت:

- ألا تخشى أن أهرب بها؟

نظرت إلى وجهها لحظة وقلت:

- هذا الجمال لن يطمع في عشرة جنيهات.

وقفت ضاحكة وقالت:

- طيب أليس هناك كتبا معينة تريدها.

- لا. أنتِ التي تريدين الكتب.

أسرعت وأنا أفكر ما هي حاجتها للكتب حقا. وما هو السبب الذي يدعوها لذلك.

قمت أجلس بين الأدباء لصوص الكتب نضحك ونتحدث في كل شيء. أخذت جولة بين الأجنحة وحدي اشتريت خلالها بعض الكتب ولم أصادف هويدا ولا سعيد. طال الوقت وتجاوزت الساعة الخامسة. دخل الظلام على الدنيا وأمطرت قليلا لكن كان للكافتيريا المقامة في الخلاء سقف من المشمع يحمينا. ووجدت هويدا قادمة تضحك.

- خلاص يكفي هذا.

قالت بعد أن جلست جواري أنا الذي حين رأيتها قادمة انتقلت من بين الكتاب لأجلس معها وحدنا.

- سامحني صرفت ربع جنيه اشتريت به شيكولاتة.

وأخرجت من حقيبتها التسعة جنيهات والخمسة وسبعين قرشا.

ترددت أن آخذها لكني أخذتها. قلت لنفسي لو تركتها لها ستنتهي القصة اليوم.

وقفت تطلب أن ننصرف. سألتها: أين الكتب؟

- في أمانات مؤسسة الأهرام.

- أنا أيضا وضعت ثلاثة كتب هناك في وقت مبكر.

مشينا ورواية وليم فوكنر «الصخب والعنف» في يدي حتى وصلنا إلى جناح الأهرام. أخذت كتبي الثلاثة فصار معي حقيبتين من البلاستيك ووجدت الرجل يقدم لهويدا كرتونتين من الكتب. نظرت إليها مندهشا فضحكت وصفقت بيديها وقالت:

- اشتريت كتب التراث كلها اليوم.

انتظر عامل الأمانات أن تقدم له شيئا جزاء ما فعل فقدمت أنا إليه ربع جنيه وحملت الكرتونة الأكبر على كتفي اليمنى والحقيبتين البلاستيك في يدي اليسرى وحملت هي الكرتونة الأصغر على ذراعيها أمام صدرها حتى الباب المطل على كوبري قصر النيل. سألتها:

- ماذا ستفعلين الآن بهذه الكتب؟

نظرت إليّ وهي تمط شفتيها وقالت:

- بصراحة لا أعرف.

- غريبة. كل هذه الكتب ولا تعرفين أين تذهبين. أنا الذي معي قليل من الكتب أعرف أني سأعود إلى البيت.

زمت شفتيها ووضعت كفها عليها للحظة وقالت:

- يا بختك.

كنا خرجنا من باب المعرض. كثيرون كانوا يخرجون يتفرقون في اتجاه كوبري قصر النيل أو كوبري الجلاء أو يقفون ينتظرون تاكسي. توقفت في ذهول ولم تشعر هويدا بوقوفي إلا بعد أن ابتعدت قليلا. كانت صفاء الأولى تقف في الناحية اليمنى على بعد خطوات فوق الرصيف تحمل حقيبتي كتب في يدها وأمامها ضابط جيش شاب أصلع يرتدي زيه العسكري يتحدثان بانفعال وصوتهما لا أسمعه. فجأة أمسكها الضابط من ذراعها ودفعها أمامه إلى سيارة ملاكي فيات فسقطت حقيبتا

الكتب من يدها على الأرض. حاولت أن تتملص منه لتلتقط الكتب لكنه دفعها أكثر إلى باب السيارة الأمامي وفتحه ثم دفعها داخلها إلى المقعد الأمامي وعاد بسرعة إلى حقيبتي الكتب وحملهما من فوق الأرض في قرف وأسرع يلقي بهما في حقيبة السيارة الخلفية ثم دخل إلى مقعده وقاد السيارة بعنف فانطلقت وأحدثت صوت احتكاك كبير بالأرض.

- لماذا تقف؟

سألتني هويدا.

نظرت إليها صامتا لحظات فظهر الارتباك على وجهها أيضا. رددت السؤال فسألتها:

- كنت تقولين إنك لا تعرفين أين تذهبين بالكتب؟

لم ترد وظلت تنظر إلي فقلت:

- إذن تعالي معي إلى البيت وهناك نفكر في الكتب.

- موافقة.

قالت ذلك بسرعة وهتفت:

- تاكسي.

كان تاكسي قادما من كوبري قصر النيل. توقف وركبناه وأصابني الصمت من الذهول من جديد. نسيت. لم أتكلم طوال الطريق. أفكر كيف دعوتها. وكيف فكرت في لحظة أن تكون هي غنيمتي أعيد معها ما

كان مع سميرة لكن بهدوء وبلا خوف أو قلق. لا ينسيك النساء إلا النساء حقا رغم أني لم أنسَ الأولى ولا الثانية!

راحت هي تنظر إلي في حيرة ثم ارتباك. همست بعد أن قطعنا مسافة طويلة:

- هل أتركك؟

ربّت يدها في رفق ونظرت إليها وابتسمت. ذلك الضابط لا بد أنه زوج صفاء. مهما كانت طريقته معها فقد صارت الحقيقة واضحة أمامي. النهاية الطبيعية التي أنكرت وجودها طويلا بالانتظار. وابتسمت ساخرا من نفسي.

عند الكوبري الخشبي فوق الترعة رفض التاكسي العبور. حملت الكرتونة الكبيرة والكتب كما فعلت من قبل وكذلك هي.

- سنمشي قليلا في الوحل. حاذري أن تقعي.

مشينا وسط الظلام. تمنيت ألا تنبح الكلاب فلم تظهر. قلت لنفسي الكلاب تحترم النساء وتقدرها ! وتذكرت سعيد حين رأيت نور الشقة مضاءً. كيف تركني حقا ولماذا؟ ما إن رآني أحمل كرتونة أدخل بها وخلفي هويدا تحمل الكرتونة الصغيرة ويبدو عليها التعب حتى انطلق يضحك ويقول:

- ما هذا؟ كتب وبنت حلوة كمان؟

قالت هويدا بعد أن وضعت الكرتونة على الترابيزة:

- ما هذا المكان؟ كل هذا الوحل في الطريق. جزمتي باظت.

ضحكنا. جلست وقالت:

- طيب وكيف سأعود إلى البيت الآن؟

نظرت إليها في دهشة لكن سعيد قال:

- لا داعي. يمكن أن تنامي هنا.

قالت:

- والله ممكن!

تبادلنا النظر أنا وسعيد. حتى الآن لا أعرف شيئا عن هويدا غير اسمها ولا تعرف شيئا عني غير اسمي. قالت:

- لكن هل لديكما طعام؟

قال سعيد ضاحكا:

- طبعا لا. لكني سأذهب إلى شارع الهرم أشتري بثلاثة جنيهات كبابا وكفتة مرة واحدة. حصلنا على كتب كثيرة اليوم بالمجان.

كنت رأيت كرتونة كتب أخرى سبقني بها ووضعها على الأرض جوار الحائط. رآني أنظر إليها فضحك وقال:

- عباس الروبي قابلني. عجبته الشنطة. طلب أن يستعيرها ويعيدها آخر النهار. ضبط بها. كانت كتبه السابقة التي سرقها في أمانات هيئة الكتاب مع كتبي التي اشتريتها من فضلك. آخر النهار فقط عرفت أنه

ضبـط بالكتب. أخذت الأمانات التـي تخصني وتخصه لأنها كانت برقم واحد وأتيت. ضاعت الشنطة لكن أخذت الكتب. هو السبب.

وضحك. ضحكت أنا أيضا وهي تنظر إلينا في دهشة ثم تركنا ونزل. جلست هويدا أمامي صامتة تنظر إلى الأرض. لحظات ووقفت وقالت:

- لا أريد الكتب ولن أعود إلى العمل.

نظرت إليها غير قادر على الفهم فقالت:

- أنـا أعمل في مكتبـة هنا بالجيزة. صاحبها قال لنـا أنا وزميلة لي أن نسـرق الكتب. كتب التـراث. جعلني أحفظ لمدة يومين أسـماء الكتاب العـرب القدامـى. قـال إنه سـيعطينا نصف ثمنهـا الذي سـيبيعها به. كان واضحا لي من حديثه أن هذا شـرط بقائي فـي العمل. زميلتي قديمة معه تفعل ذلك كل عام. هي التي رأيتها معي. أنا لن أستطيع أن أستمر.

- معقول. بائع كتب يفعل ذلك؟

هزت رأسها وقالت:

- أكثر من هذا.

سألتها:

- لكن أين ذهبت زميلتك؟

- كانـت تقابلنـي عنـد جناح مؤسسـة الأهرام. مشـيت أنـا معك في السادسة وهي طماعة ستستمر حتى السابعة حين يغلق المعرض.

سكت قليلا ثم قلت:

- هل لو سألتك ما الذي دفعك لهذا ستقولين؟

- لا داعي. لن تسمع شيئا سارا. معك سجائر؟

أعطيتها سيجارة فجلست وراحت تتنفسها في هدوء وراحة، ثم وقفت وخلعت عنها جاكت التايير الذي تحته بلوزة جميلة ذات كمين يخفيان ذراعيها وقالت:

- غريبة الشقة دي. دافئة جدا رغم البرد في الخارج.

ابتسمت وشرحت لها كيف أن تحتها مجمرة لطهو الفول المدمس فقالت:

- يا لهوي. لذلك أشم رائحة فول. ماذا تفعلون في الصيف؟

قلت ضاحكا:

- ربك موجود. ولدينا مروحتين إذا أردتِ.

- لا. أخاف يصيبني هواؤهما بالبرد.

ابتسمت. عرفت عملي وماذا يعمل سعيد فنظرت حولها وقالت:

- كاتب ومخرج ويعيشان هكذا! بلد وسخة صحيح.

عاد سعيد فأكلنا وجلسنا نضحك. في لحظات كنت أشرد عنهم وأتذكر ما رأيت. أبتسم ولا ينتبه أحد. لقد كاد قلبي ينخلع من مكانه حين رأيت صفاء الأولى وكدت أهتف باسمها لكني تماسكت. الآن

أشـعر بعبث الألـم الذي عانيته. ولا بـد أن صفاء الثانية انتهـت أيضًا، أو فـي الطريق إلـى أن تنتهي إلى رجل آخر. تركنا سـعيد ودخـل إلى غرفته بعـد أن نظر إليّ نظـرة أفهمها. فوجئ بي أدخل لأجلس معه. نظر إليّ في دهشة. قلت:

- لا أستطيع. رغم أني جئت بها لأفعل ذلك.

- ماذا يمنعك؟

ضحكت ساخرا وقلت:

- تبدو ليست من هذا النوع.

الحقيقة أني وجدت نفسي زاهدا فيما قررت.

ابتسم وقال ساخرا:

- حتى الثواب لا تريد أن تفعله!

ابتسمت ولـم أرد. قال:

- تركتكما لتأخذ حريتك معها. هل يغضبك أن أحاول أنا؟

اندهشت فقلت:

- وجهاد!

تردد قليلا ثم قال:

- مرة من نفسـي. أنا لـم أسـعَ إلى غيرها. هذه جاءت حتى هنا. فرصة ستضيعها أنت فلا يجب أن أضيعها أنا.

قبل أن أرد رأيته يترك السرير ويقف قائلا:

- تعالي.

رأينا هويدا قد عادت ووقفت بباب الغرفة المفتوح. سألتنا:

- ألا يوجد أي شيء عندكم أتسلى به وأضيع الوقت؟

قال سعيد:

- عندنا طاولة وكوتشينة.

- أوكيه. من يلعب معي كوتشينة؟

- نلعب جميعا معا.

قلت ذلك وخرجت إلى غرفتي أحضرت منها الكوتشينة وعدت إليهما وهما حول الترابيزة الصغيرة في الصالة ينقلان الكتب من عليها إلى الأرض.

جلسنا نلعب. رأيتها متحمسة جدا. بين حين وآخر يقترب سعيد بكتفه منها ينظر إلى ما معها من ورق فتبتعد ضاحكة. كنت أعرف أنه يحاول أن يلمسها. بعد أول دور قالت:

- الحر شديد جدا. سيقتلني.

وفكت أزرار بلوزتها ثم خلعتها ونحن ننظر إليها في دهشة ثم إلى بعضنا. قامت ووضعت البلوزة في حجرتي وخلعت فيها الكومبليزون أيضًا وعادت. الآن بالبنطلون ونصفها الأعلى عارٍ إلا من السوتيان الأزرق. قالت ضاحكة:

- ركزوا انتباهكم في الورق وليس فيّ أنا. كأننا في الصيف على الشاطئ.

عدنا إلى اللعب وحماسها يزداد. في لحظة وضع سعيد ذراعه على كتفيها فأبعدته بهدوء مبتسمة وقالت:

- لا أتحمل الحر هل سأتحمل ذراعك؟

ابتسمت أنا. الحقيقة كان الأمر صعبا تحمله لكني تماسكت. عاد سعيد يقترب منها كأنه ينظر إلى الورق، وفي اللحظة التي ابتعدت إلى الوراء كان قد قبلها على صدرها.

وضعت ما في يدها من ورق على الترابيزة وقالت له:

- أنا فعلا ألعب لأتسلى. وفعلا خلعت البلوزة من الحر. أرجوك لا تضايقني. لو أريد الجنس سأطلبه. ورغم أن صابر أجمل منك فأي واحدة يمكن أن تميل إليك أكثر. نحن النساء نحب الرجال قريبي الشبه بالحيوانات.

ضحكت بقوة رغم ما بدا على وجه سعيد من دهشة وخجل. ثم قالت:

- اعذرني هذه ليست شتيمة. أيضا أنت مخرج ويمكن أن تفكر أي بنت بلهاء أنها ستحصل على دور في تمثيلية أو فيلم عن طريقك ومن ثم لا تقاومك. أنا أختلف. خلعت البلوزة لكن هناك عهد بيني وبين الله ألا يمس جسمي إلا من أحبه.

شملنا الصمت لحظات قال بعدها سعيد بهدوء متأثرا:

- آسف جدا.

وأكملنا اللعب. طالت السهرة نلعب ونضحك. سمعنا علي الحجار أكثر من مرة. قال كل منا ما لديه من نكت. قالت هي نكتة واحدة وهي في خجل شديد:

- واحد بيسأل واحد شيخ هو اللي يتكلم إنجليزي حرام قال له yes.

رغم ذلك لا أعرف كيف تسببت هويدا في تداعي الذكريات عن صفاء الأولى والثانية، ولا أعرف كيف شعرت من جديد أن كل ما فعلته مع غيرهما لم يكن له معنى، بل لم أشعر بعده أبدا بالارتياح.

انتهينا من اللعب فدخلت هي غرفتي ودخل سامي غرفته وظللت في الصالة أقرأ حتى الصباح. كانت هويدا قد تركت حقيبتها على الترابيزة ففكرت قليلا ثم فتحتها. وجدت فيها كتيبا صغيرا جدا به آيات قرآنية وخاتم فضي وصورة لشاب وسيم وورقة مالية فئة العشر قروش فقط. لم أجد بطاقة شخصية لأعرف اسمها كاملا ولا عملها ولا عنوانها ولا أي شيء يدل على ذلك. تذكرت بنت الليل في شارع طيبة. تلك التي انصرفت وأنا نائم ولم تأخذ من نقودي أي شيء. دخلت الغرفة بهدوء على أطراف أصابعي. لم تشعر بي. كانت تغط في نوم عميق ببنطلونها والبلوزة التي ارتدتها من جديد. سحبت من بنطلوني المعلق بالشماعة خمسة جنيهات وعدت وضعتها في الحقيبة. قبل أن أغلقها تطلعت مرة أخرى للشاب الوسيم في الصورة. وجدت مكتوبا خلفها «الصورة دي مش لحد أعرفه. دي لقيتها على الأرض. مش عارفة ليه شايلاها معايا»

27

فـي الصباح لـم تأخـذ هويدا الكتب. قبل أن تتركني نظرت إليّ وآثار السهر في عيني فقلت:

- لعلكِ ارتحتِ.

قالت مبتسمة:

- بصراحة خفت بعض الوقت ثم نمت مطمئنة.

وقفت صامتا أبتسم أنظر إليها أتذكر صوت علي الحجار.

أعرف عيون هي الجمال والحسن

واعرف عيون تاخد القلوب بالحضن

وعيون مخيفة و قاسية وعيون كتير

وباحس فيهم كلهم بالحزن

عجبي!

قالت:

- أنـت جميل وأنا آسـفة تسـببت في سـهرك. تسـتطيع أن تنام الآن. وقبلتني على خدي وخرحت.

لــم أرَ هويدا بعــد ذلك في أي مكان. لم أرها حتــى في المعرض بعد ذلــك. مضــت الأيام ورأينا جمــال بهاء الدين أكثر من مــرة وهو يأتي إلى الشقة ومعه فتاة. قلنا إنها التي قال عنها إنه يحبها. لكنه كان قد تأخر كثيرا فــي الظهور بها. لم نحــاول أن نقترب منهما. تركنا المســألة للصدفة. إذا رأيناهمــا وقت حضورهما نصافحهما ثم يدخلان الشــقة ويغلقان الباب ولا نهتــم أن نصافحهما قبل المغادرة ولا أن ندعوهما لأي شــيء. طعام أو شراب.

بدأت أفكر في السفر إلى السعودية من جديد. لا يمكن أن أستمر في حياتي على هذا النحو. كنت عند علي الكبير فقال:

- يمكن أن ترســل إلى محمد القاســمي مرة أخرى أنك الآن تستطيع السفر. إنه شخص طيب جدا.

لم أســأله عن رغبته التــي حدثني عنها من قبل في الســفر. لم يعد هو إليها. على الأقل حتى الآن. تحدثت مع سعيد في الأمر. قال إن هذا فيما يبــدو الطريق الوحيد الآن. هو يصبر على الحياة في هذه الشــقة لأنه يوما ما ســيرحل لفرنســا. أنا لن أســتطيع الاستمرار فالشــقق يرتفع ثمنها يوما بعد يوم وطريق الشهرة مسدود إلا لمن يرضى بشروط أمن الدولة للعمل بالصحافة أو النشر الواسع.

فــي العمل بدوت مهموما دائما. ألاحظ نظرات نادية إليّ ودهشــتها. كيــف تغمض عينيها فــي اللحظة التي أكتشــف فيها نظراتهــا لي. أخذني الحنيــن مــرة فذهبــت إلــى المركب عــلاء الدين. جلســت نصف ســاعة

أضحك من نفسي أنا العائش في الوهم، والذي رأيت صفاء الأولى مع زوجها ولم يعد لي إلا أن أرى الثانية مع زوجها أيضا! عدت أتذكر حياتنا أنا وسعيد أنعش نفسي بها بحجة أني قد أكتبها رواية أنا الذي لم أكتب الروايات من قبل. هذه القاهرة لماذا لا أذكر منها غير الشجن. أين كان يمكن أن أقابل شخصا مثل سعيد إلا في القاهرة. أو شخصا مثل عمر إبراهيم أو إبراهيم عمر. أو الأدباء المجانين. أو غير المتوافقين مع النظام يختصرون الحياة في الخمر والحشيش. الأبواب مغلقة الآن لكن لا بد أن تتسع الدنيا للأمل، وقصص الحب كما يمكن أن تنجح يمكن أن تفشل في كل مكان!

أرسلت لمحمد القاسمي رسالة فأرسل لي مرحبا، لكنه طلب مني أن أتأكد من رغبتي هذه المرة لأنه سيكون في وضع محرج أمام صاحب المجلة. كان الربيع قد دخل على البلاد. نشفت الأرض الموحلة وعادت زوجتا صاحب البيت والأطفال يجلسون أمام باب البيت، وعاد الحمار إلى المدخل بعد أن اختفى ولا أعرف أين. بيوت جديدة بدأت تظهر بين الغيطان. تزداد يوما بعد يوم. ستنتهي كل المزارع هنا. لا علاقة لي بهذا الوطن. سأرسل إلى محمد القاسمي أطلب منه التعجل في سفري. قال لي سعيد:

- إذا لم تكتب أنت الخطاب إلى صديقك الشيوعي السعودي - وضحك - سأكتبه أنا. سأعرف عنوانه من علي الكبير. لن تستطيع الاستمرار هكذا يا صابر.

نظرت إليه صامتا فقال:

- هناك ستنسى كل شيء. عالم جديد من الغرائب سيشغلك.

- سأكتب الخطاب يا سعيد الآن. وإذا سافرت لن أبقى أكثر من عام واحد أجمع فيه ما يكفي خلوا أو مقدم إيجار شقة. الذين يذهبون لا يعودون وتأخذهم حمى المال. سأقاوم وسأنجح. سيكون السفر فقط من أجل بيت نظيف حسن الإضاءة.

قمت أحضرت كراسة من غرفتي وعدت إلى الصالة لأكتب الخطاب على ترابيزة السفرة وهو جالس أمامي. كانت الساعة الثالثة صباحا. دق جرس الباب. تبادلنا النظر في دهشة:

- من يمكن أن يأتي الآن؟

- أسمع حركة من بدري وكنت أتصور أنها تهيؤات. ربما جمال بهاء الدين جاء إلى شقته ورأى نور شقتنا موقدا فأراد أن يقابلنا.

لكنا سمعنا من خلف الباب صوتا غليظا يقول:

- افتح يا أستاذ أنت وهو.

هز سعيد كتفيه ونهض يفتح الباب وأنا في ذهول. اندفع على الفور إلى الصالة عدد من المخبرين وأمناء الشرطة وخلفهم وقف شخص قوي البنية أنيق الملبس يقول:

- الرائد عصام الشرنوبي من مباحث أمن الدولة.

***

أرى كل شيء هذه الليلة يحدث أمامي. سأغادر المملكة العربية السعودية بعد أيام وسأنتهي من الفصل الأخير. لقد كتبت أقصى ما أستطيع. أنظر الآن إلى الصفحات الكثيرة التي في غرفتي وأتمنى لو كنت استطعت إرسالها إليه قبل أن يغادر القاهرة إلى فرنسا. صعب جدا أن أرسلها إليه في البريد. حجمها سيلفت النظر مما يدعوهم لفتحها وقراءتها. لن يجدوا شيئا يدينني لكنهم قد لا يعيدونها إلى البريد مرة أخرى. كان علي أن أرسل ما كتبت فصلا فصلا. كان الخطاب أيضا سيكون كبيرا وملفتا للنظر. إذن كنت أرسلتها مقسمة على خطابات كثيرة. كنت سأحتاج إلى مئة خطاب على الأقل. لكن لماذا حقا أقول لنفسي ذلك وسعيد الآن في فرنسا يبدأ حياة جديدة ومعه جهاد.كم سأفتقده حين أعود.

«جاءت اللحظة الفارقة. كنت أتمنى لو رأيتك قبل السفر. مؤكد أننا سنلتقي مرة أخرى. متى؟ لنترك ذلك للأيام. كيف ستكون حياتي هناك؟ سأجد الفرصة لأحدثك عن كل شيء. لا بد. إذا نجحت في نشر الرواية سأقرأها في كتاب وإذا لم تنجح أو تراجعت عن ذلك فاحتفظ لي بما كتبت أقرأه. أرجوك اجعلني أضحك كثيرا حين أقرأ. كم كانت أيامنا حلوة رغم كل شيء».

كان خطابه الأخير من مصر قصيرا.

جاءت الرواية أكبر مما أتوقع. هل سيلفت كل هذا الورق نظر رجال الأمن الذين يفحصون الحقائب في المطار؟ لا أظن.

أرى قوات الأمن الآن تفتش كل شيء في غرفتينا. الضابط نشيط جدا يأمر بقطع المراتب والمخدات بالسكاكين ولا يجدون إلا قطنا وأنا وسعيد نقف ننظر لهم مبتسمين. «لن تجد شيئا يا سيادة الرائد». «نحن نعرف ماذا نفعل. جمال بهاء الدين يسكن أمامكم أو معكم ولا بد تعرفون أن في شقته ماكينة «رونيو» للطباعة يطبع عليها المنشورات المضادة للحكم».

ننظر إلى بعضنا في ذهول ونضحك «تريدون إقناعي أنكما لا تعرفان. لم تعرفا أن لديه سلاحا هنا أيضا» «وهل قبضتم على جمال» «ستجدونه معكم في سجن القناطر» «تنظيم مسلح فلماذا تأخذ الكتب سيادة الرائد» «تسخران منا. سأتحملكما. لكن النهاية بيدنا نحن. ثم إنها كتب كثيرة جدا وسنفحصها كلها لا بد بينها كتب ما ركسية. هذا مثلا كتاب عن تروتسكي وأيضا ثلاثة أجزاء كاملة».

سعيد ينظر إليّ حائرا لأنه يخصني أنا. هو كتاب اشتريته من المعرض! يقلّبون الحلل والأطباق. يرفعون كل شيء عن الأرض. كل شيء عن الحائط يفتشون تحته ويفتشون كل ثيابنا المعلقة. «اتفضلوا» يقصد أن ننزل وسط رجاله. نرى صاحب البيت في جلبابه الذي لا يغيره أبدا وزوجتيه «مالناش دعوة بيهم يا بيه» «اسكت أنت يا روح أمك. إحنا عارفين» وهوب، صفعة مدوية من الرائد على خد الرجل «ابقى اعرف مين اللي بيسكن عندك» وإلى عربة ملاكي فولكس فاجن يدخلوننا إلى مقعدها الخلفي. الرائد يجلس على المقعد الأمامي جوار السائق. للعربة

بـاب واحد مـن الأمام ومن ثم لن نسـتطيع النزول. ثـلاث عربات جيب ممتلئـة بالجنـود خلفنا. خيوط ضعيفة للنهار تهبط وأسـمع لا أعرف من أين صوت أذان الفجر. شـارع الهرم خالٍ واسـع. لم أعهده واسـعا هكذا من قبل. يتجهون بنا إلى مديرية أمن الجيزة. يدخلوننا إلى صالة طويلة ثم إلى غرفة خالية أقف فيها أنا وسـعيد. يغلقون الباب علينا بالمفتاح. ننظر إلى بعضنا ونضحك. ضاعت بعثة فرنسـا. يقول سعيد وهو يهز رأسه في سـخرية. ضاعت سـفرة السـعودية. أقول أنا وأضحك. الوقت لا يطول. نصف سـاعة جلسنا فيها على الأرض القذرة ويفتح الباب. تقيد يدي في يده بكلابش واحد. يدفعنا أمين شرطة أمامه: «ياللا يا أفندية يا بتوع كارل ماركس» نبتسـم سـاخرين. أمـام المديريـة عربة ترحيلات نصعـد إليها. الشـمس الآن فوق الدنيا. يغلق باب العربة علينا. فتحات صغيرة مسيجة بالشـبك والأسـياخ المعدنية لا تزيد مسـاحة الواحدة منها على عشـرين سـنتيمترا. سـاعة ونصل إلى سـجن القناطر. لم نر شـيئا في الطريق. نمنا ونحن نجلس متجاورين. لم توقظنا اهتزازات الطريق. فتح الباب جندي ضخم يزعق «اصحى يا شـيوعي انت وهو» يسـوقوننا إلى عنبر في الدور الثاني من السـجن. السـجن كبير على كل جوانبه عنابر مغلقة في دورين. سـقفه بين أسـطح العنابر خـال إلا من أعمدة بالطـول وبالعرض لا تمنع الشـمس لكن لا يمكن الوصول إليها والنفاذ منها إلى شـيء. لقد أخذوا بطاقة كل منا الشخصية. تركوا مع كل منا ما معه من نقود. كانت عشرون جنيها معي وعشرة جنيهات مع سعيد. قالوا سـاخرين ستنفعنا في السجن ويمكـن أن نضعهـا فـي الكانتيـن. بالفعل أخذوهـا منا بمجـرد الوصول

إلى السجن لوضعها في حسابنا في الكانتين. يفتح الشرطي باب العنبر الحديدي ويدفعنا بعد أن حل القيد عن يدينا. جمال بهاء الدين وعلي الكبير ويحيى الأقصري وحسين السباعي المترجم الذ ي نعرفه، وعلي عبد الخالق الكاتب الاقتصادي الذي نعرف اسمه وحسن عبد الرحيم من الإسكندرية الذي لم نلتقِ به من قبل والشاعران أحمد سليمان وعلي طه اللذين نعرفهما لكن لا نلتقي بهما إلا مصادفة في ندوة، وخمسة آخرون لم أقابلهم من قبل وبالطبع لم يقابلهم سعيد. هم من بلاد مختلفة. نتعارف بسرعة جميعا. لقد وصلوا قبلنا بدقائق، نهتف أنا وسعيد معا: «أنت هنا» يبتسم الأقصري ساخرا ويقول: «أفرجت عني النيابة فلم يقتنعوا. لفقوا لي قضية أخرى. تنظيم شيوعي مسلح. لم يفلح أنهم قبضوا علي وأنا سكران» «أتوا بك من الأقصر» «من القاهرة، يعرفون أين أقيم» «تنامون على الأرض» «ننتظر المراتب منذ أمس» وتأتي المراتب محمولة على أكتاف جنديين. هههههه نضحك جميعا. مراتب لا يزيد ارتفاعها على خمسة سنتيمترات «أحسن من مافيش» يقول أحمد سليمان ضاحكا. يرتدون بيجامات. معنا أيضا بيجاماتنا وملابسنا الداخلية. نجلس في صمت. يضحك بعضنا بلا سبب. يمر يوم. نذهب جميعا في عربة الترحيلات إلى النيابة في المقطم. العربة مغلقة علينا. كل اثنين مقيدة يداهما في كلبش. جمال بهاء الدين من النوافذ الصغيرة لا يكف عن الهتاف.

«يا رابطنا بالسلاسل

عمر الشعب ما حيقعد ساكت»

«ما خلاص ما خلاص

إحنا وهبنا الدم خلاص».

نصـل إلـى النيابـة. نحـن الآن فـي المقطـم. ليـل المقطم وأنـا أقف وصفـاء إلى جواري على الأطراف ننظر إلـى القاهرة تحتنا فوقها ضباب يكاد يخفيها رغم أننا في التاسـعة مسـاء. أحيطها بذراعي. صفاء الأولى. «خائفـة» «ربـك حليم سـتار» تضحك وتلكزنـي في صـدري. أقبلها في فمها. تضيع أنفاسـها «يا اللا نمشـي، مش قـادرة» أقبلها مـرة ثانية. تكاد تذوب في حضني. تتماسـك وتتراجع بسـرعة. نمشـي حتى نجد تاكسي وحيـدا. نركـب ونعـود. لا بد أن تكون فـي بيت الطالبات قبل العاشـرة. صفاء الثانية فوق المقطم كانت تقف بعيد بخطوات وكلما اقتربت منها تراجعـت ضاحكـة وتضع يدها على فمها لكني كنت في النهاية أسـتطيع أن أفوز بقبلة. تهز رأسـها مبتسـمة وتبعدني عنها. تضحك منتعشة وتضع يدها على فمها. نوعان جميلان من البراءة أضاعتهما حماقتي. في النيابة يوجـه لي المحقق الشـاب اتهامه «أنت متهم بالإعـداد لمحاصرة المدن وقلب نظام الحكم» أضحك. «يا ريت حضرتك تقوم تقف شـوية» ينظر لـي باسـتنكار «أرجوك لا تسـتنكر كلام موكلي» يقول المحامي الشـاب الذي أرسله لنا حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي «يا أستاذ بتقول إيه دا بيطلب مني أقف» «معلهش اسـأله ليه يمكن عنده مبرر» «أسـتغفر اللـه العظيـم» يقـول المحقـق في ضيق «لو سـمحت يـا ميتر مـا تو ترش

سـيادة النائب» أقول أنا. ينظر إليّ المحقق في غيظ. «يا سـيادة النائب لو حضرتـك وقفـت حتنتهي القضية. قل لي ليه. لأني لن أسـتطيع أن أقلب المكتـب الفخـم الذي تجلس عليـه فكيف أقلب نظـام الحكم» يضحك المحامي الشاب. يخفي وكيل النيابة رغبته في الضحك إذ يبتسم ابتسامة صغيرة.«أنت متهم بالانتماء إلى تنظيم تروتسـكي» «طبعا لأنكم وجدتم كتاب إسحق دويتشـر عنه عندي. تصدق يا أفندم دا الكتاب الوحيد اللي اشـتريته. كل الكتب اللي عندي أنا وسعيد سارقينها من المعرض» «أنت بتقول إيه؟» يزجرني المحامي «سـيبه يعترف» يقول المحقق. «يا سـيادة النائب لو دا حيخلصني من تهمة التنظيم الشـيوعي موافق. نحن الكتاب نعـرف بعضنـا وليس ذنبنـا أن بيننا أعضـاء في أحزاب شـيوعية. وبعدين مـش خـلاص كل الأحـزا ب علنية دلوقـت» نخرج من النيابـة نصل إلى العنبـر نضحـك. لـم يتم الإفراج عن أحد. اسـتمرار حبس لمدة شـهر ثم نعـرض مـرة أخرى. يصير عندنا شـطرنج وطاولة. الطعـام يأتينا كل يوم من الأهالي. أهلي يأتون من دمياط. أبي في الحقيقة. لم يكن يحمل معه شيئا. أهل سعيد يأتون إلينا بأكل كثير من الأسماك المقلية والمشوية. أهل كل متهـم من القاهـرة أغرقونا دجاجا ولحما وطواجن. كيف يسـمحون بذلك كله حقا. لن ننسـى ذلك للرئيس السـادات رغم أنه الذي يحبسـنا. الحـر قاتل في العنبـر الذي له نافذة عالية هي فتحة طويلة تحت السـقف يدخل منها النور والحرارة أيضا وأحيانا الغبار. لا نسـتطيع الصعود إليها وإذا صعدنا فلا شيء يغلقها. نقيم الندوات الليلية. المتحدث الأهم فيها حسـين السـباعي المترجم العظيـم الذي قرأت له كثيـرا وأول مرة أزامله

فـي السـجن. وأندهش من هـؤلاء القتلـة الذيـن يعتقلون هـذه العقول. حسـين السـباعي يقدم لنا صفحات رائعة من التاريـخ الأوربي. يتحدث باسـتفاضة عـن كوميونة باريـس. عن الأناركيـة وعن التروتسـكية وعن الحركات الثورية. من الديسـمبريين عام 1825 حتى الثورة البلشـفية عام 1917. وعـن المذاهـب الأدبية حتى الواقعية الاشـتراكية التي لا يحبها، يحب ماياكوفسـكي ويسينين وألكسـاندر بلوك. علي عبد الخالق يناقشه كثيرا لكن لايمتلك غزارة ودقة معلوماته. بالنهار نتعرف على المساجين الجنائيين الذين صار بعضهم صديقا لنا.

الليـل يتقـدم حولي الآن وأنـا في منطقـة الصالحية الوا سـعة بمدينة الرياض حيث المجلة التي أعمل فيها.. سـامحني سـعيد. سـأتكلم قليلا عمـا حولي هنا. سـأهرب من الذكريـات التي تتداعى عليّ بالقسـوة. لن أتحدث عن الحبس الانفرادي لك حين شـتمت مأمور السـجن. ولا عن الحبس الانفرادي لي حين شـتمته أنا أيضا والجندي يسـحبك من العنبر إلـى الحبس الانفـرادي فلحقت بك فـي زنزانة أخرى لا تزيد مسـاحتها على أربعة أمتار وبلا نوافذ. لم يعرفوا أننا تعودنا على الجحيم في شـقتنا العجيبة. حتى حين ارتفعت روائح إفرازاتنا التي ندلقها في الصفيحة التي لا يغيرونها إلا كل يومين لم نتألم. لا أنسـى أني سـألتك هل كنت تشـعر بالقـرف وكيف قلت لي لقد رأينا من القرف في حياتنا ما أعطانا المناعة. وضحكنـا. أراك تضحـك الآن. لعلك تشـعر بي في فرنسـا بين الخضرة والماء والوجه الحسن. أرى كيف زاد وزنك فخفت أن تعود إلى ما كنت

عليه قبل المرض الغريب. لقد أصابتك الحمى ونقلوك إلى مستشفى السجن. سمحوا لنا بزيارتك بعد أن أضربنا عن الطعام خمسة أيام فكانت المسافة التي لا تزيد على خمسين مترا بعيدا عن العنابر تحت شمس الله أعظم متعة. سامحني سأذكرك بعنبر المرضى القذر. عنبر واسع بلا مرضى. يقول حسن عبد الرحيم ساخرا: من يدخله مريضا يمت. هذا سر خلائه. الأسرّة فراشها أسود من القذارة والأرض بقع من الدم والهباب والجدران ملطخة بالدم وبالشعارات «هانت يا أم الدنيا. أقصد الآخرة. هههههه» هكذا كان الشعار الأكثر وضوحا! ترى من صاحبه وأين هو الآن؟ سؤال سألناه لبعضنا. نقول لك إياك تشفى يا سعيد، نحن بحجتك نرى الشمس. وأنت تضحك ويزداد وزنك من جديد والطبيب الشاب حائر كما تقول. حضر معه طبيب أكبر سنا ويبدو أكثر خبرة ولم يصل معه إلى سبب. على أي حال السمنة ليست عيبا خاصة أنك نحيل وهزيل. قال لك ذلك وهز كتفه نافضا يده من الأمر. وأنت تقول المهم يحضر أبي بيجامات مرة أخرى. كان قد أحضر إليك بيجامة أكبر وملابس داخلية أوسع. تقفز سريعا على بكاء أمك لأنك لا تريد أن تبكي. أعرف.

ها أنت عدت إلى العنبر شخصا آخر. كان ضحكنا كبيرا وقد زاد وزنك إلى حد كبير. والآن ترفع النظارة وتمسح دمعك الذي تعودنا عليه. الذي تقول إنه مرض مزمن في العين. لكن من يعرف. من يستطيع أن يفرق بين المرض المزمن والبكاء الحقيقي. لا يعرف ذلك إلا أنت

وأنـا أحس بك. لن أنسـى يـوم وجدتك بعد أن نام الجميـع وأنت ممدد جواري على المرتبة الأكذوبة تردد:

الدنيا أوده كـبيره للانتظار

فيها ابن آدم زيه زي الحـــــمار

الهم واحد.. والملل مشـــــترك

ومفيش حمار بيحاول الانتحار

عجبي!

كدت أضحك لكني رأيت الدموع تنسـال وأنت تعتدل وتسند ظهرك للحائـط. لـم أشـأ أن أعلـي صوتـي حتـى لا يسـمعنا نائم نوم السـجون فيصحو. سألتك:

- هل هناك جديد؟

قلت لي:

- كنت أفكر في الانتحار.

سألتك:

- بسبب السمنة؟ ربما تتوقف في الخارج.

- لا يضايقني هذا. ولا يدعوني للانتحار. أنا عائد إلى ما خلقني الله عليه لكن جهاد.

سكت. خفت أسألك هل تركتك لكنك مسحت دموعك الهادئة وابتسمت.

- جهاد جهاد جهاد. لم أكن أعرف أن في الدنيا نساء بهذه القوة وهذا الجمال. لقد دخلت السجن بعد يومين مما فعلناه معا في غيابك عن الشقة. فضضت بكارتها وعشنا يوما كالعرسان. لم أخبرك طبعا واليوم أخبرك ليس بذلك لكن لأنه ظهرت عليها أعراض الحمل وأنا هنا. ذهبت إلى أمي بشجاعة وأخبرتها بكل شيء. أمي كانت تعرف مني أني أحبها ولم تكن رأتها. فكرت أمي أن أتزوجها بتوكيل أكتبه لأبي وقالت يمكن أن يحدث ذلك وأنا في السجن.

ضحكت وأنت تتكلم عن أمك التي لم تدرك أنك يمكن أن تتأخر هنا ويعلو بطن جهاد ولن ينفع أن تقول للناس إنك زوجها لأنك زوج مع إيقاف التنفيذ. ما أجمل ضحكتك، أراها هنا في الصمت الراسخ حولي. انتهت جهاد إلى الإجهاض بعد شهرين. تقول إنك حزين على ما أجهضته لكن كان هذا حلا واحدا ووحيدا.

- الآن تنتظر جهاد أن أخرج وأتزوجها وأمي غيرت رأيها وتريدني بعد الخروج أن أتخلى عنها. تقول فتاة تفرط في شرفها يمكن أن تفعل ذلك مع آخر وأعلمت أبي بكل شيء فصار مثلها. زياراتهما لي كلها حوار في المسألة.

- وماذا ستفعل؟

- لـن أسـمح لهما أن يفسـدا حياتي مـرة أخرى. لن أتخلـى أبدا عن جهاد.

- أنت جميل يا سعيد وعظيم.

دموعي أنا أيضا سالت مني حبا له. ثم ضحكنا.

استيقظ الرفاق على ضحكنا وضحكوا ولم نقل لهم السبب ولعنونا لأننـا تسـببنا في عدم نومهـم مرة أخـرى. قلنا لهـم ناموا بالنهـار فالنهار هنـا كالليل. ولـم ينقطع ضحكنا ولم نشـبع رغبتهم في اسـتطلاع الأمر. سـأحكي شيئا مما فعلناه ومما رأيناه ولن أطيل لأني مثلك أريد أن أنسى هذه الأيام.

لقـد صرنا قلبـا واحدا نحـن الذين لم نلتـقِ معا من قبـل. كنت أقول لوكيـل النيابـة في التحقيـق «أجل يا سـعادة وكيل النيابة. لقـد تعرفنا إلى بعضنا في السجن وقامت بيننا أعظم صداقة ويمكن بعد أن نخرج أن نقيم حزبـا سـريا». إنه ينظر لي بدهشـة «أجل. ما تفعلونه يجعل المحبوسـين رفقـاء نضـال لم يكونوا فيه» يبـدو أنه لا يفهم أو لا يقتنـع. نعود كلنا إلى العنبـر وقـد انضم إلينـا خالد حسـن، المحامـي الـذي كان يترافع عني، متهمـا بنفـس الاتهام. ليس مهمـا أنهم تأخـروا. «هي بلدهـم يفعلون ما يشـاءون». نضحك. لكنهم يفتحون باب الأمل في وسـط الليل. يدفعون بخورخي إجليسـيوس الإسـباني بعد منتصف الليل إلى العنبر وسـحب دخان السـجائر ترتفع فيه فـلا هواء يأتي ولا هواء يخـرج من العنبر رغم

البرد. لولا اتساعه لمتنا. خورخي لا يعرف منا غير علي طه الذي يهتف «خورخي مش معقول» خورخي الشاب النحيل الرشيق يقف ينظر إلينا في ذهول. يرتدي قميصا فوق بنطلونه ولا شيء معه أو في يده. يتقدم أحمد إليه يمسك بيده:

- اجلس اجلس. كيف وصلوا إليك ولماذا؟

عرفنا منه الاتهام إذ أخبروه به في الطريق. لقد ضموه إلينا بعد خمسة أشهر متهما بأنه مندوبنا في «الأممية الرابعة». خورخي مصور فوتوغرافي يعيش في مصر منذ عام ويعمل في الإذاعة الموجهة بالإسبانية في الإذاعة المصرية. نحن نضحك من الاتهام الذي أخبره به الضابط. خورخي لا يزال مذهولا لا يصدق أنه صار في عنبر في سجن في مصر! خورخي أبيض وعيناه زرقاوان ورشيق لكن نظرته ورعبه تجعلانه مثل الطفل الوحيد.

- ماذا سأفعل أو ماذا سيفعلون بي؟

يتكلم العربية الفصحى. حكى لنا بها كيف قبضوا عليه في واحة سيوة وكان في مهمة لتصوير معالمها. وكيف جاء طوال الطريق داخل سيارة الترحيلات. أربع وعشرون ساعة. شيء يفوق الخيال. نازيون. قال ذلك ونحن نشفق عليه. رحنا نناقش ما يقول في التحقيق. كل منا يقول له أن ينكر معرفته بأي شخص، وهو مندهش لأنه لا يعرف فعلا أي شخص غير علي طه. أرى حيرته تزيد فأقول له ضاحكا:

- أنت تعرف الإسبانية يا خورخي طبعا، نضحك، وتعرف الإنجليزية والفرنسية كما يقول علي طه. وتعرف العربية كما تتكلم. في النيابة قل لهم إنك لا تعرف أي لغة ولن تتكلم إلا بالإسبانية.

لم يكن ممكنا لليل أن ينتهي في النقاش. الليل هنا أطول من ليل ألاسكا. نمنا. ترك أحمد سليمان الراديو مفتوحا على محطة البرنامج الموسيقي. لدينا كاسيت وراديو معا أحضره لنا مسجون جنائي. أعاره لنا ضاحكا وقال: «عندنا كتير، المهم آخر واحد يخرج يرجعهولي. آه ماتهربوش بيه» أخذ منا علبة سجائر كليوباترا فقبلها ووضعها على جبينه كما يفعل البسطاء بنعمة ربنا!

حققوا معنا من جديد. كنا اتفقنا ضاحكين أن نسأل وكيل النيابة هل الأممية الثالثة انتهت؟ كيف ولم يخبرنا أحد؟ تخيلتك تضحك وأنا أقول لوكيل النيابة ذلك. تخيلت كل زملائنا يضحكون. وضحكنا جميعا من حيرة وكيل النيابة من إجاباتنا الساخرة. وقلنا جميعا إننا لا نعرف خورخي ولم نره من قبل.

في التحقيق نفاجأ في النيابة بحضور مندوب من السفارة الإسبانية ليحضر التحقيق مع خورخي. نعود جميعا إلى العنبرلدينا يقين بالإفراج القريب. لقد عرفنا من خورخي أنه في صباح اليوم نفسه قطع التلفزيون الإسباني برامجه. ظهرت أخته على الشاشة تحكي قصة أخيها وتدين النظام الفاشي المصري. تلت أسماءنا في التلفزيون وقالت إننا من كبار الكتاب والسياسيين. في الحقيقة كانت أسماؤنا قد ظهرت كثيرا في

البداية في الصحف المعارضة المصرية وفي كل الصحف العربية تقريبا. لكن الشهرة في أوربا كانت مفاجأة جميلة.

خورخي يعود إلى الزنزانة يحمل كمية من الجبن الحلوم والسوسيس وأنواعا مختلفة من الجبن الرومي والفلمنك والشيدر. يقول آسفا إن أباه وصل من إسبانيا يحمل لنا كل هذا ومعه أيضا زجاجتي نبيذ لكن مأمور السجن لم يسمح لنا بالنبيذ. نضحك. نعرف طبعا أنه غير مسموح بأي زجاج مع المساجين خوفا من الاعتداءات على بعضهم، أو انتحار أحدهم به، بينما كل من المساجين الجنائيين يحمل تحت لسانه شفرة موسى وفي جيبه مطواة صغيرة!

نعود من النيابة لا نكف عن الضحك. إننا لم نعلم بانتهاء الأممية الثالثة إلا منهم. خورخي يجلس بيننا في العنبر بملابسه لم يغيرها لأنه لم يأتِ معه بغيرها. الندوة التي نقيمها تبدأ وخورخي ينظر لنا بدهشته التي لا تنقطع. نأكل من الجبن اللذيذ الذي أحضره ونبدي أسفا على ضياع النبيذ. الواحدة مساء يفتح باب العنبر وينادي الشرطي «خورخي إجليسيوس. إفراج» يريد خورخي أن يبتسم ويمنع ابتسامته. ينظر إلينا في عينيه حرج كبير «مبروك يا خورخي. لا تهتم بنا إحنا رد سجون» «يالا يا خويا» يزعق الجندي فيقف خورخي ونقف حوله ويقول الشاعر علي طه ضاحكا: «خسارة يا خوليو ماغنتش ولا سمعناش صوتك الحلو»، يبتسم خورخي مدركا تشابه اسمه مع المغني خوليو إجليسيوس. لكن جمال بهاء الدين لا يتركه إلا بعد أن يهتف. واحد يا ورد. اتنين يا فل.

تلاتة يا ياسمين. أربعة يا أجدع ناس معلمين. خمسة يا سادات وحرامية. ستة يا مسئولية. سبعة يا خورخي يا بن الحضارة العربية. ثمانية الدنيا جاية جاية. تسعة يا شاكوش. عشرة القضية طلعت فاشوش. يخرج خورخي الذي ازداد وجهه احمرارا وهو ينظر إلينا في منتصف الليل والبرد. البرد الذي اختص السجن فقط عن الدنيا. وننام. الكل نام إلا أنا وجدت نفسي يقظا ممددا على المرتبة الحقيرة أنظر إلى السقف. الليل نفسه نام!

لا أريد أن أتذكر أكثر من ذلك يا سعيد ليس لأنك كنت معي، لكن لأنك قلت لي إنك تريد أن تضحك. ولا بد أنك ضحكت فيما مضى من صفحات، ولن أضيعه من روحك. لكنك تصحو وأراك تنظر إليّ من الناحية الأخرى من العنبر ثم تجلس باكيا. أجل باكيا. كان الراديو يبث أغنية لم أسمعها أبدا من قبل بصوت مغنية لم أعرفها «جمعني الليل وقابلني بمحبوبي اللي شاغلني».

يكفي هذا يا سعيد أريد أن أنهي الرواية. لا بد أنك نسيت كل شيء الآن في فرنسا. لن أذكرك بما رأيناه من المساجين الجنائيين البؤساء الذين كانوا ينظرون إلينا كأننا كائنات فضائية. تذكر أنهم أحبونا جدا بينما لم تغب دهشتهم منا. لماذا نفعل بأنفسنا ذلك حقا. لم يعرفوا أبدا أننا لا نرتكب جرائم إلا أننا مثقفون. خلقنا الله كذلك. سأصل بك إلى النهاية. لا لا انتظر. سأذكرك بالنوبي الجميل الذي قابلناه بالليل في ميدان عبده باشا. الذي وجدناه معتقلا بين الجنائيين. نحن الذين تعرفنا عليه. ذكرناه بتلك الليلة حين التقيناه أكثر من مرة يمشي شاردا في الطرقة بين العنابر.

لقد أنكر أنه يعرفنا أو قابلنا. قال لو أنتم مثقفون حقا قولوا لي ماذا جنيت. لقد أرسلت خطابا إلى السادات قلت له فيه إذا كنت كما تقول الرئيس المؤمن فقل لربنا ينزل شوية يساعدنا إحنا تعبانين يا ريس. وسألنا وهو في غاية الدهشة هل أخطأت يا مثقفين، لقد قالوا إني مجنون، طيب ليه جايبيني هنا. يودوني مصحة عقلية. ليه جايبيني بين المجانين دول؟

كل يوم يقول لنا ذلك ثم لم يعد يكلمنا. ضحكنا كثيرا ودائما ينتهي الضحك بك ترفع نظارتك وتمسح دمعة. السجن يحتاج إلى كتاب حقا يا صديق. سأرجئه وقد أكتبه يوما.

لكن سأجعلك تضحك.. وهم يفتحون العنبر بعد منتصف الليل ويدفعون بالفاروق أبو أحمد وقد أتوا به أيضا من الواحات، رجل من السكان الأغراب يعرفه رأى عنده القنبلة فحكى له حكايتها وهما يحششان معا. وفي اليوم التالي قُبض عليه. ظللنا نضحك طول الليل وهو يقول لي: يخرب بيتك وبيت القنبلة ويضحك.

جاء الوقت وأفرج عنا بعد ستة أشهر كاملة. في الصيف رغم أن العنبر بالصيف جميل! لكن لا بد أن أذكر كيف كان أبوك يأتي إليك بالكتب التي تريدها، وكيف كنت مستمرا في بحثك وتحضير رسالتك للماجيستير رغم رعبك شهرين من الخطر المحدق بجهاد وأخفيته عني. رعبك أن تتخلى الأكاديمية عنك بعد هذا السجن. رعبك من أمن الدولة الذي لن يوافق لك على أي عمل في الأكاديمية. أسهل شيء أن يقولوا لك إنك كذاب وإنك لست سعيد صابر أنت شخص آخر لا نعرفه.

تجعلنـي أضحـك وأنـت تقول لي ذلك وسـط الألـم ووزنـك يتقدم في الزيـادة. خرجنـا وها أنذا الآن أركب معك عربة الترحيلات وسـط الليل إلى مديرية أمن الجيزة. الإفراج لنا جميعا إذا لم نكن محبوسين على ذمة قضايا أخرى بعد أن حضرنا جلستي محكمة. يحملون كلا منا إلى أقرب قسـم بوليس لمسكنه. مسكين يحيى علام الأقصري سيحملونه في عربة الترحيـلات إلى الأقصر، يقول هازئا: «رغم أنهم أخذوني من القاهرة!». الأقصري يقول لن نتوقف عن اللقاء في بار متاتيا بالعتبة «أجل. سندخل التاريخ مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الله النديم وأحمد عرابي ومحمود سامي البارودي. الله عادل ولن يخذل عباده المخلصين. الإخـلاص للوطـن قبـل عبادة إخناتـون. قبل نـزول الآلهـة اليونانية إلى الأرض. قبـل صعود الآلهة المصرية إلى السـماء!» يأخذوننا إلى مديرية أمـن الجيزة. ليس هذا من عملنا. نحن لا نتلقى المسـاجين السياسـيين» رغـم أنـه تم ترحيلنا إلى السـجن من هناك. تذهب بنا سـيارة الترحيلات إلى قسم العمرانية. «ليس هذا عملنا. نحن نفرج عن الجنائيين ولا علاقة لنا بالسياسـيين. لا ملفات عنهم عندنا لنعرف عنهم شـيئا» الضابط الذي يصحبنا في السـيارة يجلس جوار السـائق. نحن في السـيارة «مكلبشين» ومعنا الصول العجوز ينظر إلينا بشفقة. كلما فك الكلابش عنا ونحن ننزل يقول مع السـلامة. كلما عدنا يبدو مشفقا ولا يسـتطيع الكلام. «الضابط مناخيره حمـرا جدا من البرد. خائف تقع» هكـذا أضحكتني وتضحكني الآن وأنـا أكتـب. هـا نحن نقتـرح على الضابـط الصغير الذي بدأ يشـعر

بالتوتر أن يصحبنا إلى أمن الدولة. هم قبضوا علينا وهم يعرفون قضيتنا. هـا هو يأخذنا إلى شـارع جابر بن حيـان في الدقـي. هههههههههههه. أضحـك الآن لأن الموظـف رفض أيضا اسـتلامنا. قال إنهـم لم يقبضوا علينـا. الضابـط يقول لنا في يـأس ليس أمامي إلا أن آخذكما إلى سـجن القلعة حيث أخدم هناك وفي الصباح أرى ماذا أفعل. أنت تنظر له ضاحكا ثم تقول لي لو ذهبنا إلى سـجن القلعة لن نخرج. أجل يمكن أن ينسـونا هناك. إنه أسـوأ سـجون مصر. تتقـدم للموظف الذي كان أسـمر فيه من طيبة أهل أسـوان ويرتدي بدلة قديمة وتقول له أرجوك تسلمنا، لو أخذنا الضابط إلى القلعة لن نرى الشـمس. ويتسـلمنا الرجل. هههههههههههه هـا أنـا أضحك معوضا خوفنا مـن الضحك في الغرفـة الطويلة جدا التي أدخلونـا إليها فوجدنـا خلف المكتب الكبير ضابطا متوسـط العمر قوي البنيـة يسـألنا ما هـي تهمتكـم. وها أنا أقول لـه لا نعرف. وجـدوا عندنا كتابا عن تروتسكي فوضعونا في تنظيم تروتسكي. قالوا إننا تنظيم مسلح ولم يجدوا في الشـقة سـكينة نظيفة. ها أنا أراه ينظر إلينا بقرف. هل تذكر كيـف كانت كفـا يديه في حجم مهـول؟ لن أصفه قطعة قطعـة. يكفي أن أقـول إنه قـام يقف فإذا به أطول منـي أنا كثيرا. الآن تتضـح أوصاف بقية جسـمه. خرج وتركنا ولـم يعد. لم نره بعد ذلك حتى اليوم! سـاعة وظهر الموظـف المدني القصير يرتدي بنطلـون وقميصا فوقه بلوفر يأخذنا إلى مكتبه ويكتب كل ما يريد من معلومات عنا. عملنا الذي يعرفونه وسكننا الـذي يعرفونه وأهلنا الذيـن يعرفونهم ثم يقول مع السـلامة. لقد أخذوا

هـذه المعلومات منـا من قبل في مظاهـرات 1975 ولا بـد أنهم أخذوها منك يوم خروجك من السجن وقتها، لكن لا بأس، زيادة الخير خيران!

سامحني سعيد سأثقل عليك يا حبيبي. لا أنسى وقفتنا بالليل بالبنطلون والقميـص والمطـر قد انقطع منذ لحظات ليوسـع للبرد أن يعصف بأهل القاهـرة. هـل تذكـر كيف هبط المطـر بمجـرد ركوبنا التاكسـي؟ ها أنذا أدخـل معك إلـى بيتكم في شـبرا لأول مرة. لن أذكرك بفـرح العائلة بك حتى لا تشـعر بالحنيـن في غربتك. مـا أحلى العودة إلـى البيت رغم أنه لـم يكن بيتـي. دفء العائلـة الطيبة يصنـع أجمل البيوت. بيت يا سـعيد تعنـي بالإنجليزيـة «home » و«home» تعني: وطن. وHomeless تعني: بائـس. أجمل البيـوت هو الذي يكـون فيه حديقة وشـمس. وأجمل منه أن تكـون فيه زوجة تحبـك. وأجمل منهما أن يكون فيه حديقة وشـمس وزوجـة تحبك وأطفال. لكن نحن المثقفين بـلا بيت حتى لو تحقق هذا كلـه. مجالنا الحيوي يتسـع للنـاس جميعا. للوطن. أرضه وناسـه لذلك فنحن Homeless. وها نحن الآن رغم أي شـيء، مال هنا في السـعودية أو علم لديك في فرنسـا، شـريدان بلا وطن. أي عذاب. لا لا. معا صنعنا أجمـل الأوطان حتى لـو كان وهما. حتى لوكان فوق مجمرة فول وفوقنا الشمس. كنا نعيش سعداء. سأضحكك الآن كما أضحكتني كثيرا. أعيد عليك ما جرى في اليوم التالي ونحن نذهب إلى شقتنا. في الطريق تقول لي اشتقت لحر الشقة. إنها أجمل شقة في الشتاء، تحيا مجامر الفول. ما نكاد نصل حتى نرى امرأة تنشر الغسيل من النافذة. لـم تعد هناك شقة.

- أجرتها.

يقول صاحب البيت الذي لم يغير جلبابه.

- لكني مستأجرها منك.

- دفعت لي شهرين مقدما وغبت ستة أشهر هل سأنتظرك؟

تنظر لي وأنظر إليك. نكاد نضحك.

- طيب لنا ملابس وأثاث الشقة!

- بعته لأدفع لكما الإيجار. كله اتباع بتلاتين جنيه. يعني ثلاثة أشهر. أجرتها في الشهر السادس. ثم إن الذي استأجرها مني شخص غيرك. أجل. تلاتة بالله العظيم الأستاذ سعيد صابر كان شخصا آخر. يعني بحالتك دي مش انت. أنت تعمل اتنين من اللي أجّرت له الشقة. أي خدمة؟

- لا شكرا.

نمشي في صمت حتى ابتعدنا ثم ننطلق ضاحكين.

- ماذا سنفعل الآن؟

- ليس أمامنا غير شقة حدائق القبة. المهم أن نجد فيها غرفة خالية. ليس معقولا أن نعود إلى شقة روكسي.

ونضحك.

أعتذر لك وأنا هنا يا أجمل الناس. لم أستطع البقاء. لم يتخلَّ عني

محمـد القاسـمي رغـم أنه كان قد جاء إلـى القاهرة وعرف مـا جرى. لم يخـف. بل أرسـل لي ألفي ريال قال لأنجز بها كل شـيء بسـرعة قبل أن تصـل الأوراق إلى السـفارات بأسـمائنا. لـم أتصور أن الدولـة المصرية يمكـن أن تفعـل ذلك. فمـا أكثر مـن تركوا البـلاد من المثقفيـن في هذه السنوات العشر للسادات. أجل أنتهي من الرواية الآن عام 1980. بعد أن تركت البلاد العام الماضي. لكن من يدري ربما تفعلها الدولة الآن فيكون الحـظ قد وصل بنا إلى نهايته! لقد صرت مطمئنا عليك رغم أني تركتك فـي الشـقة العجيبة. أتذكـر نظرتك وأم أمير تقول لنا إن الشـقة مسـكونة كل غرفهـا. وتعرض علينا الشـقة فـي المنزل الخلفي فـي دوره الأرضي والتي تطل على المنور. نظرتك ونظرتي أيضًا لك في الحقيقة. قلت لها: هل تركها سـكانها؟ فقالت لنا إنها لـم تسـكن منذ عشـر سنوات. نظرتك ونظرتي سـؤال: من كان يسـكنها إذن؟ ومن الذين رأيناهم فيها؟ الفتاتان والولد والرجل قارئ القرآن. نسـألها هل مات سـكانها فتضحك وتؤكد أنها خالية دائما. ثم تقول لنا الحقيقة، إنها شهدت حادث قتل، رجل قتل زوجته فيها ومن يومها لا يسـكنها أحد. صاحبها مسـتعد لتأجيرها بأثاثها بعشـرة جنيهـات. المهم أن يجد مـن يوافق.. ضحكنـا. وافقنا. إذا كانت العفاريت نسـاء جميلات فليكن.. وجدت جهاد لا تزال في انتظارك. بل قلـت لي إن جهاد صـارت تحبك أكثر وهي تراك أكثر سـمنة وتزداد كل يوم. قالت لك لا تقلق لا بد من نهاية. ثم إنهم في فرنسا لا بد لديهم تقدم فـي علاجها. وتضحـك أنت وتقول إنهم في فرنسـا لا يعرفون السـمنة. ليـس لديهـم هامبورجر ودجـاج كنتاكي! ظهـرت في القاهـرة محلات ويمبي وكنتاكي وماكدونالد إلا أنك لا تحبها، رغم أنها لن تضيف إليك.

ولا أنـا فكـرت فـي الوقـت القليـل الـذي بقيتـه معـك أن أذهـب إليها. الهامبورجر الذي يقدمونه مثل «الحواوشي» الفارق أنه بعناية فلا يقتل!! سـمعت قبل سـفري أن إيزافيتش سيباع وأسـترا وروي لهذه المحلات الأمريكيـة. السـمنة قادمـة للشـعب. ليـس مهمـا. أنـا الآن بعيـد. وأنت بعيد. سـعدت جدا أنهم لم يقفوا في طريقك لاسـتكمال مناقشـة رسـالة الماجيسـتير. اسـتدعوك في أمـن الدولة وضحك الضباط على شـكلك الجديد. قالوا لك مسـتعدون لمساعدتك لكن تكون عينا لنا بين الطلاب المبعوثيـن فـي فرنسـا. أضحكتنـي وأنت تحكـي كيف قلـت لهم طيب شـوفوا واحد رفيع مش باين. أنا هنا باسـمن كل يوم وهناك حافرقع وهنا حافرقع عايزين مني إيه؟ وأنت خارج الباب تنصرف سمعتهم يضحكون ويقولون: مسـكين لم يعد ينفع في أي شـيء. ابتعدوا بحق عنك أضحك الآن رغـم أنك مسـحت دمعـة وأنت تحكـي لي كيف خرجـت من أمن الدولـة وذهبت إلى الترزي القديم ليعد لك بدلـة جديدة والذي أيضًا لم يتعـرف عليك. بكى مـرة ثانية حين أدرك أنك سـعيد الأول فكان يبكيك وأنت تقف لا تجد إلا الابتسام في حيرة وهو يقول: «ما الذي يحدث لك يا أسـتاذ سعيد. هي الدنيا بتوديك وتجيبك كده ليه؟». ظللت ثلاثة أشهر أنهـي إجراءات سـفري. فيها أخذت بنصيحتك وسـجلت ذكرياتنا على شـرائط كاست أخذتها معي لأصيغها في شـكل رواية. بما فيها الأسبوع الأخير حين جلسـت مرة في جروبي فوجدت سـميرة تجلس مع شـاب يبـدو متوترا جدا. يا إلهي. ماذا سـيحدث الآن؟ رأتني فتركته وأسـرعت ناحيتـي. خفـت أن تعود إلى مـا كانت عليه. إنها لـم تظهـر ولـم تأتِ إلينا منـذ خروجنـا. أم أمير قالت إنهـا لـم تعد تعرف عنها شـيئا، وإنها اختفت

مـن المنطقـة. صافحتني سـميرة فرحة. كانت شـاحبة وفقـدت كثيرا من وزنهـا. لم أدعهـا للجلوس ولـم تجلـس، قالت وهي واقفـة إنها تطلقت من زوجها. وإنها عادت إلى شـقة أبيها المغلقة في الزيتون. ولما سـألتها مـا إذا كان الشـاب الجالـس معها زوجها أم لا قالت إنه سمسـار نسـوان ويريد أن يزوجها لرجل خليجي. لم أرد وظللت واقفا صامتا فقالت إنها سـتوافق ليس لأنه لم يعد أمامها غيـر ذلك لكن لتعود بالمال الذي يكفي لعمـل حضانة للأطفـال تربيهم على نظافة! ربنا يوفقك يا سـميرة. قالت ضاحكـة: «أتفاوض مع ابن الهبلة لأني عارفة إن الراجل اللي حيجوزني واخدنـي لأصحابـه» قبل أن أتكلم قالت: «أوعـى تتكلم. مصر كلها كده دلوقـت، ولو عايز تعرف روح الزمالك فـي أي قهوة تلاقيهم الخليجيين مع المصريين بيتفاوضوا في الفلوس، والبنات يا عيني قاعدة سـاكتة. أنا لا. أنـا لي شـروط» وتركتني وعادت للشـاب الذي كان قـد وقف متبرما وخرجا بسرعة معا.

حكيت لك يومها فأبديت دهشـتك وكنا قد أخرجنا من تحت السرير القطـة رقم خمسـين منذ سـكنا تقريبا.. كنـا نغلق باب الشـقة ونحن فيها ونحـن خارجهـا لكن دائمـا نجد القطط. لـن يصدقني أحد لكـن هذا ما جـرى. وكل قطـة نخرجها تنظر إلينـا في عتاب. عيون حمـراء وخضراء وزرقاء وصفراء.. كنا نضع لها طعاما فلا تأكله ونضحك. كل هذه أرواح تسـكن الشـقة؟ تقـول ونضحك. سـامحني يا سـعيد تركتـك وحدك مع القطـط. كم واحد قتل في هذه الشـقة إذن؟ ونضحـك. كان لدينا أمل أن تتحول فجأة إلى نساء كالبنتين اللتين رأيناهما من قبل ولا زال عندي أمل

أن يتحقـق لك ذلك فتفوز وحدك لكنك سـافرت قبـل أن يتحقق الأمل. قلت لي قبل سـفري ما رأيك أن نذهـب إلى كلوت بك نرى بالمرة الفتاة وجدّتها. قلت لك أحتاج أن أرى الكثيرين والكثيرات وضحكنا، فقط هو المقطم الذي صعدناه في منتصف الليل ووقفنا فوقه ورأينا القاهرة يشف عنها الضباب مع الفجر وكل شـيء فوقها أبيض. يشـف الضباب وتظهر البيـوت السـوداء بعرض الدنيا. هل يمكن حقا أن نتـرك مدينة تصعد كل يوم من تحت الضباب وسـحب الغبار السـوداء؟ لقد فعلناها وسـيحكم الزمن من فينا المخطئ نحن أم هي. لـم أخبرك بما جرى في اليوم الأخير لـي فـي العمل وأنـا أودع زميلاتـي وإبراهيم عمر الجميـل الذي قال لي وهـو يصافحني ويأخذني إلى حضنه: «مش مهـم الفلوس. المهم تحج. مش علشـان ربنا يغفر لك. أنت ما عملتش حاجة وحشـة، لكن علشـان إحنا داخلين على أيام سـودا فربنا يسـاعدك» لكن دون أن يفطن أحد وأنا أتجه إلى الباب للمرة الأخيرة التي لن أقابلهم بعدها إلا بعد عام وضعت نادية في يدي ورقة مطوية. ظلت بين يدي مع دهشتي حتى تركت المبنى ووقفت في شارع الجلاء. فتحتها فوجدتها قد كتبت:

«ارحل. ارحل. إنك لـم تشعر بي أبدا».

وقفت مذهولا. فكرت في أن أصعد إليها لكن ماذا سـأفعل. سـأبتعد لأرى الدنيـا وحـدي وقتا طويلا أفكر فيه في الخطـأ والصواب. وضعت الورقة في جيبي وأعدت قراءتها في الطائرة، وأتذكر نظراتها المشفقة لي حيـن أذهب إلى العمل. لا أكتمك أحسسـت بصدقها. كل ما ادخرته في

الستة أشهر الأولى أرسلته لأهلي. كنت أرسل إليهم أكثر مما يريدون. بعد ذلك قررت أن أنتبه. البيت هو الوطن. أرسلت خطابا لنادية أقول لها فيه أن تعذرني. لقد ترك فيّ خطابها أثرا طيبا، وإنني فكرت واقتنعت أن أتقدم إليها حين عودتي. بعد ستة أشهر كتبت لها الخطاب. ترددت كثيرا في البداية. لم أرسل إليها غير خطاب واحد. ماذا جرى بعد ذلك؟ سأكتبه في القاهرة بعد أن أعود في إجازتي بعد عام قضيته هنا. بعد أن أعرفه أو أعيشه! اشتريت لها زجاجة عطر شانيل وحقيبة يد صناعة ألمانية. وها أنذا أجلس في بيتي في ليلتي الأخيرة من العام. بيتي هو المجلة نفسها. في حي الصالحية الهادئ. كل شيء هنا هادئ كما قلت لك. تلك قصة أخرى. إذا نشرت هذه الرواية قد أتشجع وأكتب عن تجربتي هناك. عام بلا نساء في البيت أو العمل أو الطرقات. هل تعرف المرأة الوحيدة التي رأيت وجهها هنا؟ كانت في صورة زفاف. وكان ذلك منذ يومين. مهندس شاب مصري تعرفت عليه في مقهى منذ شهور. سافر إلى مصر في إجازة. عاد يقول إنه خطب في مصر وتزوج وستلحق به زوجته بعد أسابيع. استأجر شقة صغيرة وأثثها بأثاث بسيط انتظارا لزوجته ودعانا على العشاء أنا وصديقين له. رأيت على الحائط صورة الزفاف. كان يحكي بفرح وبهجة كيف تم كل شيء بسرعة وسعادة. وكنت أنا متخشبا من الدهشة أفكر في عذر للانسحاب. لقد كانت صفاء الثانية تطل عليَّ من الصورة معه.

أمس أخطرت رئيس التحرير أنني لن أعود للعمل في المملكة. شكرته

وشـكرت محمد القاسمي وقلت لهما معي ما يكفي الآن لاستئجار شقة في القاهرة. كنت صادقا. صرت على يقين أن نادية في انتظاري رغم أنها لـم تـرد علي. علـى يقين أنا أن البريـد لا يزال يقف فـي طريقي حتى بعد أن صـرت خارج البلاد! وعلى يقيـن أن الله لن يخذلني للمرة الثالثة! إذا فزت بنادية سأنشـر هذه الرواية ليعـرف الناس جميعا الخبر. وأرجو وقد وصلـت إلـى الختام ألا يقول ناقد إن ظهور صفاء في السـعودية تعسـف مـن الكاتـب ومصادفة غير مبـررة لأن هجرة المصرييـن الآن للعمل في الجزيرة العربية وبلاد الخليج هي طريقهم الوحيد للحياة، ولأنه في مصر لم يعد للمصريين وطن!

انتهت

في أول يناير 2014

للمؤلف

الروايات:

1- في الصيف السابع والستين -الطبعة الثالثة - عام 2008م.

2- ليلة العشق والدم - الطبعة الخامسة - عام 2005م.

3- المسافات- الطبعة السادسة - عام 2005م.

4- الصياد واليمام - الطبعة السابعة - عام 2005م.

5- بيت الياسمين -الطبعة الخامسة - عام 2005م.

6- البلدة الأخرى - الطبعة الخامسة - عام 2006م.

7- قناديل البحر - الطبعة الرابعة- عام 2006م.

(حولت إلى مسلسل تلفزيوني بطولة آثار الحكيم ومحمود قابيل).

8- لا أحد ينام في الإسكندرية -الطبعة العاشرة - عام 2009م.

(حولت إلى مسلسل تلفزيوني بطولة ماجد المصري ومادلين طبر وسهير المرشدي).

9- طيور العنبر - الطبعة الثالثة .

10- برج العذراء- الطبعة الأولى - نفدت.

11- عتبات البهجة - الطبعة الثانية - عام 2007م.

12- شهد القلعة -الطبعة الأولى - عام 2007م.

13- في كل أسبوع يوم جمعة - الطبعة الرابعة - عام 2012م.

14- الإسكندرية في غيمة - الطبعة الثانية - عام 2013م.

المجموعات القصصية:

1- مشاهد صغيرة حول سور كبير، 1982م. 2- الشجرة والعصافير، 1985م.
3- إغلاق النوافذ، 1992م. 4- فضاءات، 1992م.
5- سفن قديمة، 2001م. 6- ليلة أنجيلا، 2003م.
كلها نفدت وهي الآن في مجلد واحد بعنوان «أشجار السراب».

كتب متنوعة:

1- مذكرات عبد أميركي - ترجمة عن الإنجليزية - تأليف فريدريك دوجلاس، 1988م.
2- 24 ساعة قبل الحرب - مسرحية، 2001م.
3- أين تذهب طيور المحيط - أدب رحلات، 2003م.
4- ما وراء الكتابة: تجربتي مع الإبداع الطبعة الثانية مزيدة و منقحة 2014م.
5- ما وراء الخراب - مقالات - 2008م.
6- السبت فات والحد فات - مقالات - 2010م.
7- لكل أرض ميعاد: أيام التحرير - 2011م.
8- من الذي يصنع الأزمات في مصر - مقالات - 2012م.
9- حكايات ساعة الإفطار - حكايات قصيرة - 2012م.

الجوائز:

1- الجائزة الأولى في القصة القصيرة -نادي القصة بالإسكندرية، 1969م.
2-جائـزة نجيب محفوظ في الرواية عن البلدة الأخـرى -الجامعة الأمريكية، 1996م.
3- جائزة الدولة للتفوق في الآداب عام 2004م.

4- جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 2007م.

5- جائزة ساويرس في الرواية لكبار الكتاب عن روايته «في كل أسبوع يوم جمعة».

الترجمات للغات أجنبية:

1- البلدة الأخرى - للإنجليزية والفرنسية والألمانية.

2- لا أحد ينام في الإسكندرية- للإنجليزية والفرنسية.

3- بيت الياسمين - للفرنسية والإيطالية والإنجليزية.

4- عتبات البهجة - للفرنسية واليونانية.

5- المسافات - للإنجليزية.

6- طيور العنبر - للإنجليزية.

* صفحة الكاتب على الفيس بوك:
ibrahimabdelmeguid
twitter:
@ibmeguid
E. mail: ibrahimabdelmeguid@hotmail. com

مررت على سينما مترو التي كانت تعرض فيلم "جاتسبي العظيم" لروبرت ريد فورد وميا فارو المأخوذ عن الرواية الشهيرة لسكوت فيتزجيرالد . وسينما ميامي تعرض فيلم "أين عقلي" لسعاد حسني وسينما راديو تعرض فيلم "بذور التمر هندي **tamarind seed**" وهو فيلم لعمر الشريف الذي وحشني جدا بحق. مشيت أنظر إلى الكافتيريات والمحلات. كافتيريا "روي" التي تبدو متسعة من الداخل على يميني وكافتيريا "إكسلسيور" بعد سينما مترو على يساري نوافذها تطل على شارعي طلعت حرب وعدلي يكن أحد زملاء سعد زغلول في ثورة **1919** الذي انشق عنه وأسس حزب الدستوريين الأحرار الأكثر تفاهما مع الإنجليز. محلات الملابس حولي رائعة ورائحة البارفان لا تنقطع. الفتيات مرتديات الميكروجيب أو الجونلات والفساتين القصيرة أو الفساتين الشانيل ويعلقن على أكتافهن حقائب جميلة ويسرعن. شعر النساء هنا يحتاج بحرا يهب منه الهواء ليطيره لأراه يرفرف!

الكاتب الكبير إبراهيم عبد المجيد الذي اشتهر بكتاباته عن الإسكندرية يقف هنا تحت سماء القاهرة. يمسك بالمكان والزمان. تنفتح له المدينة عالما من السحر والخيال. يستعيد زمن التحولات الكبرى في الحياة المصرية. شخصيات الرواية وأحداثها مثل الأحلام حتى إن لم تكن كذلك بالفعل . ستبقى معك في الصحو والمنام. لإبراهيم عبد المجيد من قبل روايتا: "عتبات البهجة" و"في كل أسبوع يوم جمعة" إلى جانب ثلاثية الإسكندرية وبيت الياسمين والمسافات والصياد واليمام وغيرها. حصل على جوائز مهمة وترجمت أعماله إلى لغات عدة .



9 789774 278907

الدار المصرية اللبنانية